

أعلام الفقهاء

إعداد

دكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت



مكتبة

كنوز المعرفة

شارع جيهان - أمام بوابة الجامعة ت: ٠١٠٠٠٤٠٤٦

Tokoroko@yahoo.com

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة كنوز المعرفة

اسم الكتاب: أعلام الفقهاء

إعداد: د. رجب محمود إبراهيم بخيت

رقم الإيداع:

الطبعة الأولى 2011



كنوز المعرفة

شارع جيهان - أمام بوابة الجامعة ت: ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦

tokoroko_2@asmo.com

المقدمة

الحمد لله القديم بلا غاية والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق بل أنشأه ابتداءً وعدله اصطناعاً فأحسن كل شيء خلقه وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لسلطانه ووسع كل شيء فضله لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهاً تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وعلا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبيهه كل مصنوع فلا تبلغه الأوهام ولا تحيط به العقول ولا الأفهام يعصى فيحلم ويدعى فيسمع ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون وأشهد شهادة حق وقول صدق بإخلاص نية وصحة طوية أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه وخالصته وصفيه ابتعثه إلى خلقه بالبينه والهدى ودين الحق فبلغ مآلكنه ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يصده عنه زعم زاعم ماضياً على سنته موفياً على قصده حتى أتاه اليقين صلى الله على محمد وعلى آل محمد.

أما بعد...

فالقُدوة الحسنة عنصر هام في كل مجتمع، فمهما كان أفراد صالحين فهم في أمس الحاجة لرؤية القدوات، وكما قيل: جالسوا من تذكركم بالله رؤيتهم، كيف لا وقد أمر الله نبيه بالافتداء فقال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ} [الأنعام: ٩٠].

وتشتد الحاجة إلى القدوة كلما بُعد الناس عن الالتزام بقيم الإسلام

وأحكامه، وتتأكد الحاجة بل تصل إلى درجة الوجوب إذا وُجدت قدوات سيئة فاسدة تُحسِن عرضَ باطلها.

إن القدوة - سواءً أكانت حسنة أو سيئة - أكثرُ أثرًا وإقناعًا من الكلام النظري مهما كان بليغًا ومؤثرًا، ولعل هذا هو السرُّ في إرسال الله رسلاً من البشر عبر التاريخ مع أنه تعالى قادر - وهو الذي لا يعجزه شيء - على أن يلهم الناس شرعه، خاصة أن بشرية الرسل تعلَّل بها الجاحدون لرفض الإيمان كما قال تعالى: { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ } [الإسراء: ٩٤]، لكن الذي قال عن نفسه: { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۖ } [الملك: ١٤] اقتضت حكمته إرسال الرسل من البشر؛ ليكونوا منارات هدى وقدوات حسنة عبر التاريخ، فهم التطبيق النموذجي لشرع الله في كل عصر، وتطبيقهم حجة على العباد ودليل على واقعية الشرع.

وأوضح دليل على هذا الأثر ما وقع في يوم الحديبية، ففي صحيح البخاري قال عمر: فلما فرغ من قضية الكتاب - أي: بنود الصلح - قال رسول الله لأصحابه: ١ قوموا، فأنحروا ثم احلقوا—، قال: فوالله، ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبيَّ الله، أتحبّ ذلك؟ أخرج لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَكَ وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنَهُ ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا.

إنّ هذا التأثيرَ القويَ والمباشرَ للقدوة يرجع إلى عدة أسباب منها:

أن الإنسان مفطور على حب التقليد، وكثيرًا ما يكتسب معارفه وخبراته ومهاراته بالتقليد والمحاكاة، انظر إلى الطفل كيف يحاكي أباه ويتقمص شخصيته؛ لأن التعلم بالرؤية والمشاهدة أسهل وأيسر بل

وأسرع، والنفس بطبعها تحبّ الحصولَ على الشيء بأسهل الطرق وأسرعها ولو كان محرّمًا، لكن الشرع والعقل يضبطها.

وقوعُ الإنسان - مهما كان كسولاً أو مقصرًا - أسيرًا للقُدوة، فيحمله ذلك الإعجابُ على التقليد والمحاكاة، وهنا تكمن خطورة الموضوع؛ لأنّ القدوة إما أن تكون حسنة لها بريقها الذاتي فتتجذبُ إليها النفوسُ تلقائيًا وتتأثر بها إيجابيًا، وإما أن تكون قدوةً سيئةً زخرفت وزينت بالأصباغ والألوان الخادعة، وسلّط عليها الأضواء الإعلامية الباهرة، وأضفيَ عليها عباراتُ الثناء والتمجيد الكاذبة لإثارة إعجاب المخدوعين، وحقًا منهم من يقع في حبائلهم وشراكهم، حتى إذا فحصه عن قرب أدرك أنه كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، بل تبين له الوجه الحقيقيُّ، فما كان إلا إثارة للغرائز والشهوات وتمجيّدًا للكفرة والفساق والفجار باسم الفن والأناقة والرقص والغناء، وترويجًا للمنكرات والفواحش والرذائل باسم الترويح والسياحة، ومحاربة للفضائل والحياء باسم الحرية والحضارة، وتنفيرًا من دين الله باسم التأخر والجمود، وتهجينًا لأحكامه باسم الكبت والقسوة، {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ} [النور: ٤٠]، وتحقيرًا لدعائه باسم التطرف والإرهاب. نعم، هذا هو البديل عند غياب أو تغيب القدوات الصالحة الحسنة.

وللأسف فإنّ دعاة الشر وشياطين الفساد استطاعوا أن يغزونا في عُقر دارنا بهذه القدوات السيئة الفاسدة المفسدة عبر فضائياتهم، وبدأ المخطط - ولما يمضي عليه سنوات - يؤتي أكله الفاسد بمباركة الشيطان، فوجد في فتياننا وفتياتنا من يقلّد أعداء الإسلام والساقطين في كل شيء، في مظهرهم وملبسهم، بل حتى في القضايا الجبيلية من أكل وشرب ومشى.

إنّ هذه المظاهر الشاذة لها دليلٌ قويٌّ على الشعور بالنقص والانهمام النفسي، وصدق ابنُ خلدون في قوله: “المغلوب مولعٌ بتقليد الغالب أبدًا في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده.”

أيها الأحبة، في هذه الأيام وفي هذه الظروف المحيطة بنا ما أحوطنا إلى الأسوة الحسنة والقُدوة الصالحة، فهي محطُّ آمال العقلاء وغاية أمانيتهم؛ لأنها نهج راشد وطريق مستقيم لا اعوجاج فيه ولا التواء.

وإن في طليعة من يجب أخذ الأسوة الحسنة منهم والافتداء بأفعالهم وأقوالهم وكريم شمائلهم رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهم الصفوة من خلق الله، المهتدون بهداية الله، المسارعون إلى فعل الخير والحرص عليه، قال الله تعالى: {لَنَهْتُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ} [الأنبياء: ٩٠]. وقد أمر الله تعالى رسوله الكريم بالافتداء بهم والسير على نهجهم حيث قال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ} [الأنعام: ٩٠].

أيها المسلمون، إذا كان الحبيب محمد مأمورًا بأخذ الأسوة والقُدوة من سلفه رسل الله فنحن أحرى أن نأخذها منه، كما وجهنا إلى ذلك رب العزة. وفي هذا التوجيه الرباني دعوة إلى كل ذي عقل رشيد أن يضع نصب عينه أخذ الأسوة والقُدوة من سيد الخلق أجمعين، في أقواله وأفعاله، وفي مناهجه وشمائله وأخلاقه وسلوكياته، فهو المثل الكامل للإنسانية.

وقد سار أصحابه رضوان الله عليهم على نهجه، فلم يحجموا عن مكرمة أو يقصروا عن شيء من فعل الخير، ويأتي بعد ذلك أخذ الأسوة والقُدوة الحسنة من خيار الأمة، وفي طليعتهم أهل القرون المفضلة المشهود لهم بالهداية من التابعين وتابعي التابعين، قال: ٥ خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم —.

وهكذا في كل زمان يجب أخذ الأسوة الحسنة من أهل الفضل، ومن العلماء العاملين بعلمهم، المخلصين لدينهم، الذين يتقون الله في سرهم وعلاانيتهم، الذين يقولون كلمة الحق بدون خوف أو وجل، لا تأخذهم في الله لومة لائم، الذين لا يلحدون في آيات الله، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، الذين لا ينافقون ولا يجاملون. فهؤلاء العلماء ممن هدى الله

وشرح صدورهم للإيمان، ففي السير على هدايتهم والافتداء بأفعالهم فلاح وفوز في الدنيا والآخرة.

ولكي ندرك خطورة وأهمية القدوة الحسنة في تاريخ الأمة؛ فلنتأمل هذه القصة:

يروى أن أبا جعفر الأنباري صاحب الإمام أحمد عندما أخبر بحمل الإمام أحمد للمؤمن في الأيام الأولى للفتنة؛ عبر الفرات إليه فإذا هو جالس في الخان، فسلم عليه، قال: يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبته إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل - يعني المؤمن - إن لم يقتلك فأنت تموت، ولا بد من الموت فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما قلت؟ فأعاد عليه فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله.

وتمر الأيام عصيبة على الإمام أحمد، ويمتحن فيها أشد الامتحان ولم ينس نصيحة الأنباري، فها هو المروزي أحد أصحابه يدخل عليه أيام المحنة ويقول له: "يا أستاذ قال الله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} [النساء: ٢٩]. فقال أحمد: يا مروزي اخرج، انظر أي شيء ترى!! قال: فخرجت على رحبة دار الخليفة فرأيت خلقاً من الناس لا يحصى عددهم إلا الله والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعتهم، فقال لهم المروزي: أي شيء تعملون؟ فقالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه، قال المروزي: مكانكم. فدخل إلى أحمد بن حنبل فقال له: رأيت قومًا بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه فقال: يا مروزي أضل هؤلاء كلهم!! أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء".

فمن أبرز أسباب أهمية القدوة أنها تساعد على تقويم الفرد المسلم دونما توجيه خارجي وهذا بالتالي يساعد على خلق أجيال صالحة لقيادة العالم.

أيها المسلمون، أما الأسوة السيئة التي تَبَنَّتْها المجتمعات الإسلامية في العصر الحاضر وفي كل مجالات الحياة فهي في الواقع وفي الحقيقة نكسة في الظاهرة الدينية والأخلاقية، يجب أن يترفع عنها المسلم حفاظاً على دينه وإيمانه، وصوناً لأخلاقه، حتى ولو انتشرت هذه الأسوة السيئة بين الناس، وشملت جميع الطبقات والفئات، حيث أصبح العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، ولكن يقصدون به المنصب والجاه والسلطان، وأصبح يمثلها أيضاً الوعاظ والمرشدون الذين لا يأترون بما يأمرهم به، والذين يصفون الدواء للأمراض التي هم بها مصابون، فمخبرهم لا يطابق مظهرهم، فبنست الأسوة والقذوة بهم، قال الله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٤٤].

ورد في الأثر الذي رواه أحمد بسند حسن من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً عليه قال: (من كان مستنّاً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، كانوا أفضل هذه الأمة، وأبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم).

والحقيقة أن كل مجتمع مهما بلغ من الفضل والاستقامة لا بد له من طائفة تتمثل فيها المثل العليا، تحفظ للمجتمع وجوده المعنوي المتمثل في صلاح عقيدته وحسن أخلاقه وأدب تعامله، على حد قول الله عز وجل: {وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٠٤].

إنهم طائفة تمثل الخيرية في المجتمع، وتحافظ عليها وتحميها.

إن في أرواحها من التوهج، وفي نفوسها من الحيوية ما يجعلهم مجتمعاً هو همها الأكبر، فيسعد بها المجتمع، إذ تحفظ عليه توازنه

واستقامته، وعناصر استمراره وبقائه.

إنهم فئة من المجتمع مسموعة الصوت، واضحة التأثير، تملأ الفراغ، وتملك من التأثير ما يجعل جادة الحق واضحة، وطريق الصواب بارزة، ومسالك الخير بيّنة، فتستمر سُنّة المدافعة بين الحق والباطل.

إنهم ﴿أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦] مشاعل وسرج يصلحون ما أفسد الناس، بدين الله قائمون، وعلى الحق حراس، يدعون من ضل إلى الهدى، ويبصرون من العمى، ويصبرون على الأذى، همهم - أثابهم الله وأعظم أجورهم - إقامة دين الله، وإعلاء كلمته، وإعزاز أوليائه.

إنهم صمام الأمان بإذن الله، وسبب نجاة الأمة من الهلاك.

وهكذا جيل الفقهاء - رضي الله عنهم - كانوا روحاً نابضة، وقوة متجددة، وصفحة مشرقة لم تزلدها الأيام إلا قوة ومضاء ولا الأحداث إلا نصوعاً وإشراقاً، فكانوا يبادرون إلى كل خير ويتنافسون في الاستباق إليه، ويكفيهم فخراً وعزاً أنهم - على رغم ما مروا به من ظروف قاسية - سطوراً أروع الأمثلة وأنصعها في بلوغ الكمال الإنساني، إذ من السابقين المضحين منهم تكون نواة لمجتمع رباني نما واتسع فيما بعد بسرعة فائقة حتى عم خيره بقاع الدنيا بأسرها، ولا تزال آثاره باقية بفضل الله تعالى.

فهذا الذي فعلوه وحققوه ليس ضرباً من ضروب الأحلام، أو الخيال، أو المحال، لا بل هو مثال واقع محسوس في دنيا الناس وعلى أرضهم، وسنة سنوها وحازوا سبقها فقالوا أجرها وأجر من تبعهم فيها.

وأخيراً فلئن كانت حياة الفقهاء - رحمهم الله جميعاً - كلها مليئة بالصور المضيئة المشرقة فإنني لأرجو أن أكون قد وفقت في عرضي لجانب من هذه الجوانب المشرقة من حياتهم، وذلك تذكيراً بجهادهم وسبقهم وتنوياً بمنزلاتهم وفضلهم.

سائلاً الله أن يجزيهم عنا خير الجزاء، وأن يمتن علينا بحسن الاتباع والاعتداء.

تشبهوا إن لم تكونوا مثلهم :: إن التشبه بالكرام فلاح
وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه.
رب تقبل عملي ولا تخيب أملي.

أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل.
سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.
وصلّى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه،

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

أهمية الفقه والفقهاء:

مما لا يخفى على عاقل أن الفقه هو من أهم العلوم الإسلامية وأشرفها،
ويكفي في الدلالة على ذلك قول المولى سبحانه وتعالى: {وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ
لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا
قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: ١٢٢].

وقال جل جلاله: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا
بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨].

وقال الإمام الغزالي رحمه الله في الإحياء (1): فانظر كيف بدأ سبحانه
وتعالى بنفسه، وثنى بالملائكة وثالث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرقاً وفضلاً
وجلاء ونبلاً. اهـ

وقال الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ
فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: ١١].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان عن سيدنا معاوية
رضي الله عنه: ^١من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين —.

وفي الترمذي وأبي داود بإسناد صحيح عن أبي أمامة الباهلي قال:
ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان أحدهما عابد والآخر عالم
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ^٢فضل العالم على العابد كفضلي على
أدناكم — ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ^٣إن الله وملائكته وأهل
السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم
الناس الخير —.

وقد ذكر الخطيب البغدادي عن عمر بن عبد العزيز قال: من عمل
على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

(1) الإحياء 4/1.

ولا يحتاج الناس إلى شيء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل كحاجتهم إلى الفقه، فهو يَمَسُّ أكثرَ مجالات الحياة، ولهذا كان للفقهاء المنزلة السامية، والمكانة الرفيعة، وكان الأئمة يقدمون الاعتناء بالفقه على الاعتناء بالحديث، بل ويقدمون في الحديث نفسه رواية الفقيه عن الفقيه على رواية المحدث عن المحدث.

والفقه هو العلم بالشيء، والفهم له، والفتنة فيه.

يقال: فقه الرجل فقاهاة إذا صار فقيهاً، وفقهه: أي فهم فقهاً.

وبعض العلماء يرى أن الفقه أخص من العلم، قال الراغب الأصفهاني: الفقه هو التوصل إلى علم غائبٍ بعلم شاهد؛ فهو أخص من العلم⁽¹⁾.

وقال النسفي: الفقه هو الوقوف على المعنى الخفي الذي يحتاج في حكمه إلى النظر والاستدلال. يقول ابن خلدون رحمه الله. الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكره والإباحة وهي متلقة من الكتاب والسنة وما نصه الشارع لمعرفته من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه.

وقد وردت مادة (فقه) في القرآن الكريم عشرين مرة تحمل المعاني السابقة، فمن ذلك قوله - تعالى - : {فَالْهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء: ٧٨].

وقوله - عز وجل: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَفْقَهُوا فِي الدِّينِ} [التوبة: ١٢٢].

وقوله - تعالى: {وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء: ٤٤].

وقد غلب استعمال (الفقه) على علوم الدين؛ لشرفها، وذلك من باب تخصيص الدلالة، ولكنه يستعمل في غير علوم الدين بقرينة.

(1) انظر المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص 40.

والفقه هو مرجع القاضي في قضائه والمفتي في فتواه ومرجع لكل مكلف لمعرفة الحكم الشرعي فيما يصدر عنه من أقوال وأفعال وهذه الغاية منه.

وعرفه الآمدي بأنه: " العلم الحاصل بجملة من الأحكام الشرعية الفروعية بالنظر والاستدلال " (1).

والأمة الآن في أمس الحاجة إلى ثلة من الفقهاء، يزودون عن حياض السنة، لأن الفقهاء هم بمثابة الجهاز المناعي لهذه الأمة، فأخطر مرض أعلن حتى الآن هو مرض (الإيدز)، ومرض (الإيدز) يصيب الجهاز المناعي، الذي معناه: أن أي مرض مهما كان دقيقاً وتافهاً يمكن أن يقتل الإنسان إذا أصيب الجهاز المناعي لديه.

فالفقهاء هم الجهاز المناعي لهذه الأمة، وبقاء هذه الأمة حية حتى الآن مع ضعفها وكثرة أعدائها معجزة، وهذا دليل على أن الله عز وجل هو الذي يكلؤها بحفظه ورعايته، لكن لابد أن نقوم بما أوجب الله علينا من حفظ الدين، ولا يكون ذلك إلا بتعلم العلم.

فاليوم غزت الفضائيات العقول، وأتت بالسموم، ولبس الحق في الباطل، فلا بد من وعي، وهناك شباب بريء وأطفال صغار يسمعون، وتحاك لهم المؤامرات من التشويش عليهم لنزع ثقتهم من أمتهم ودينهم وشريعتهم، هناك تشكيك في هذه الأمور، وطعن للأمة من داخلها حتى تنشأ أفراد تتأثر بهذه الأفكار لأن أعداء الإسلام دائماً يرمون ويخططون إلى الغد لا إلى اليوم.

ولذلك لا بد أن نواجه هذا السيل الجارف، والحقد الدفين، والإفك المبين بقوة تردعه، ولا يردعه مثل سلطان الحق، ولا تردعه مثل الكلمة

(1) سيف الدين الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق د. سيد الجميلي، ط2 (بيروت: دار الكتاب العربي، 1986م) 8/1.

الصادقة المبنية على كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم يقولها الموفق المسدد.

فلا بد للفقهاء أن يعتتوا بهذا، وأن يتواصى طلاب العلم فيما بينهم ببيان حكم الشريعة، والتحدث عن مثل هذه الحدود وآثارها الإيجابية وعواقبها الحميدة، وأن نتواصى بالحق؛ لأنه لا يسعنا السكوت.

إن العلماء والفقهاء قوم أفرغوا جهدهم في تحصيل العلم من مظانه فنالوا منه حظاً وافراً. هم أهل العقل والنهى، وأهل الذكر ورياض الجنة. هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ويكفي أنهم ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ولكن ورثوا العلم. فأى مكانة رفيعة نالوها، وأي قدر عظيم استحقوه، وأي دور في نهضة الأمة جدير بهم أن يؤدوه.

إن دور العلماء والفقهاء في نهضة الأمة دور رئيس في التهيئة والتوجيه والقودة والتقويم. وهل تنهض الأمة بغير علمائها وفقهائها؟ بغير كتاب هادٍ جمعته في الصدور، ووعته العقول، واطمأنت به القلوب، واستنارت به البصائر؟ بغير اتباع لسنن رضيه الرب الحكيم، فبعث به رسله مبشرين ومنذرين، وختمهم بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم الهادي إلى صراط المستقيم؟.

إن نهضة الأمة تحتاج إلى كلمة مجتمعة، ومن غير الفقهاء والعلماء الربانيين يجمع الكلمة؟ فإن أمة الإسلام ليس لها ما يوحدتها من مصلحة دنيوية، أو توجهات فكرية، إلا الدين، فإنه وعاءها ووطاؤها، وجلدتها ورباطها، وإن العلماء هم من يبينون أحكامه، ويحكمون بمقتضاه، ويبسطون هديه وسلطانها، فإذا اجتهدوا في تبسيط الشرع بين أفراد الأمة، حتى تعلقت به قلوبهم ورضيت به عقولهم، فأبشروا بوحدة الكلمة التي هي أرضية النهضة وقاعدتها.

إن النهضة تحتاج إلى الإعداد النفسي كي تشتد على سوقها، وإلى

النشاط العملي المبدع كي توطد أركانها. ومن غير العلماء يبعث الهمم، ويلهب المشاعر، ويثير الحماس، ويلهب النشاط نحو تحقيق المقاصد: عملاً بغير كلل، وسعيًا بغير ملل. فقد أوتوا من نور الكتاب والحكمة قسماً، واتخذوا من جوامع كلم المصطفى صلى الله عليه وسلم نَفْساً، واستعملوا أبدانهم في تحقيق الغايات... إن النهضة إن قامت تحتاج إلى الحفظ والتقويم، حتى تستمر وتتجدد، وتزدان وتتألق. ومن غير العلماء يحفظ توجهها، ويحرس استقامتها، ويبسط ظلها، ويحمي بيضتها، فشأن العلماء أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر عامة الناس وخاصتهم، يردون المظالم ويحقرون الظالم، يبينون مواقع الخلل، ويمسكون بحجز الناس عن الزلل، فهم الذين يقومون على النهضة حرساً، ويسهرون على بقائها عساً.

والحقيقة أن الفقيه في كل مكان وزمان هو الذي يحمل هموم أُمته، وهو لسان حال المجتمع، يتبنى قضاياها ويدافع عنها.

ولأهمية دور الفقهاء في حياة الأمة وفي إنارة طريق النهضة لها وتصحيح مسارها المعوج، فقد اجتهدت أن يكون الكتاب الثاني من “سلسلة الأعلام” عن الفقهاء ودورهم في حياة العامة والخاصة، ومن خلال التعريف بهم وأهم المواقف التي مرت بهم وأهم أقوالهم الحكيمة.

* * *

الإمام الأوزاعي

الإمام الأوزاعي

أعلام الفقهاء

الإمام الأوزاعي

قال محمد بن عجلان: “ لم أرَ أحداً أنصح للمسلمين من الأوزاعي.. “
كان إذا وعظ الناس لم يبق أحد في مجلسه إلا بكى بعينه أو قلبه، ما رُوي
ضاحكاً مقهقهاً ولا باكياً في مجلسه قط، وكان إذا خلا بكى حتى يُرحم..
أفتى وله من العمر خمس وعشرون سنة.. ولم يزل يفتي حتى مات
رحمه الله، وقد أفتى في سبعين مسألة بحدثنا وأخبرنا..

هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد، أبو عمرو الأوزاعي، نسبة إلى
محلة “ الأوزاع ” (1) ولد بمدينة بعلبك سنة ثمان وثمانين للهجرة، ونشأ
بالبقاع يتيماً في حجر أمه التي كانت تنتقل به من بلد إلى بلد. تأدّب بنفسه،
فلم يكن من أبناء الملوك والخلفاء والوزراء والتجار وغيرهم أعقل منه،
ولا أورع، ولا أعلم، ولا أفصح، ولا أحلم، ولا أكثر صمتاً منه. ما تكلم
بكلمة إلا كان المتعین على من سمعها من جلسائه أن يكتبها عنه من
حسنها، كما قال ابن كثير رحمه الله.

سكن بيروت مرابطاً إلى أن مات فيها سنة سبع وخمسين ومائة
لهجرة، وعمره يومذاك سبع وستون سنة..

سمع جماعات من التابعين، كعطاء بن أبي رباح، وقتادة، ونافع مولى
ابن عمر، ومحمد بن المنكدر، والزهرى..

وحدث عنه جماعات من سادات المسلمين، كمالك بن أنس، الثوري،
والزهرى، وهو من شيوخه، وأثنى عليه غير واحد من الأئمة. قال النووي
رحمه الله: “ وقد أجمع العلماء على إمامة الأوزاعي وجلالته وعلو قدره
وكمال فضله.. “.

(1) قرية خارج باب الفراديس من قرى دمشق.

وقال أبو عمرو الشامي الدمشقي: “الأوزاعي إمام أهل الشام في عصره بلا مدافعة ولا مخالفة”.

وقال الإمام مالك بن أنس رحمه الله: “كان الأوزاعي إماماً يقتدى به”.

أما سفيان بن عيينة فقال: “كان الأوزاعي إمام أهل زمانه”.

كان رحمه الله كثير العبادة، حسن الصلاة، حتى قال في حقه الوليد بن مسلم: “ما رأيت أحداً أشد اجتهاداً من الأوزاعي في العبادة”. وكان رحمه الله يقول: “من أطال القيام في صلاة الليل هَوَّنَ الله عليه طول القيام يوم القيامة” أخذ ذلك من قوله تعالى: {وَمَنْ أَتْلُ فَاَسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا} (٢٦) إِنَّكَ هَؤُلَاءِ تُجَبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) [الإنسان: ٢٦ - ٢٧].

كما كان، رحمه الله، إلى جانب زهده وورعه كريماً سخياً، لم يمسك شيئاً، ولم يترك يوم مات سوى سبعة دنانير كانت جهازه، وكان ينفق كل ما يأتيه في سبيل الله، وفي الفقراء والمساكين عدا عن كونه شديد التمسك بالسنة، فهو القائل: “العلم ما جاء عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وما لم يجئ عنهم فليس بعلم.. عليك بآثار السلف وإن رفضك الناس، وإياك وأقوال الرجال وإن زخرفوه وحسنوه، فإن الأمر ينجلي وأنت منه على طريق مستقيم.. اصبر على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل ما قالوا، وكف عما كفوا، وليسعك ما وسعهم..”.

إلى جانب كونه قائماً بالحق لا يخشى في الله لومة لائم، وقد روي عن والي بيروت عند وفاة الأوزاعي رحمه الله قوله: “رحمك الله يا أبا عمرو، فقد كنت أخافك أكثر ممن ولاني” أي: الخليفة.

وهو القائل: “لا يجتمع حب عثمان وعلي رضي الله عنهما إلا في قلب مؤمن.. وإذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم باب الجدل وسد عنهم باب

العلم والعمل..“

ذكر صاحب كتاب “الأموال” أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله، وكذلك صاحب “فتوح البلدان” البلاذري وغيرهما من المؤرخين، ما أقدم عليه نفر من أهل الذمة - النصارى - في جبل لبنان أيام العباسيين من نكث للعهود وحمل للسلاح وإعلان للفتنة والتمرد، وكيف قضى على فتنتهم الوالي العباسي صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، وكيف أقر من بقي منهم على دينهم وردّهم إلى قراهم، ثم كيف شرّد أهل القرى وأجلاهم عن قراهم رغم عدم اشتراكهم جميعاً في هذه الفتنة..

ويذكرون كيف أن إمام أهل الشام، الأوزاعي رحمه الله، لم يرضَ بما حلَّ بهم، ولم يسكت عن هذا الظلم، فما كان منه إلا أن أرسل رسالة إلى الوالي يقول فيها: “... وقد كان من إجلاء أهل الذمة من أهل جبل لبنان، ممن لم يكن مماثلًا لمن خرج على خروجه، ممن قتلت بعضهم، ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يُخرجوا من ديارهم وأموالهم؟ وحكم الله تعالى: {وَلَا تُزْوَِرُهُ وَزَرَ أُخْرَى} [الأنعام: ١٦٤]، وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به.. وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قال: ٥ من ظلم معاهداً أو كلّفه فوق طاقته فأنا حجيجه — (أي: خصمه). وأصرّ على الوالي أن يبادر برفع هذا الظلم، وإزالة الحيف عن كاهل هؤلاء المظلومين مبيناً له ضرورة التزام مبادئ الإسلام مهما كانت الظروف.. ولقد استجاب الوالي وفعل ما طلبه الأوزاعي..

هذا على الرغم من أن الذين قاموا بالفتنة من هؤلاء النصارى نكثوا العهد، وكانوا على صلة بالبيزنطيين، يعملون لحسابهم، إضافة إلى ارتكابهم عمليات النهب والقتل وقطع الطريق وترويع الآمنين. يقول فيليب

حتي اللبناني (1): “.. لجأت جماعة من نصارى الجبل إلى السلاح تفادياً لمصادرات جديدة تنزل بهم، منتهزين فرصة وجود الأسطول البيزنطي في مياه طرابلس، وانقضوا من قاعدتهم وانتهبوا عدداً من قرى البقاع، وكان يتزعمهم فتى قروي عظيم البنية، بلغ من جرأته وتهوره أن أقام نفسه ملكاً، لكن العصابة اللبنانية قيدت بعد حين إلى كمين قرب بعلبك، نصبته لهم فرقة فرسان عباسية وفكت بهم..”

ولقد أوردت في هذا الجانب رواية فيليب حتي لأنه غير متهم بمعاداة هؤلاء بل بموالاتهم وحبهم والحدب عليهم.. ومع ذلك لم يقبل الأوزاعي، رحمه الله، ما لجأ إليه الوالي لكسر شوكتهم، احتياطاً وتحسباً لأمر قد يحدث مستقبلاً، فشردهم من القرى في الجبل وأسكنهم غيرها... وأصر عليه بضرورة التزام حكم الله عز وجل وإنفاذ سنة رسوله صلى الله عليه وسلم. “وقد بلغنا أن حكم الله عز وجل أن يؤخذ العامة بعمل الخاصة، ولكن يؤخذ الخاصة بعمل العامة، ثم يبعثهم الله على أعمالهم، فأحق الوصايا أن تحفظ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم “ (2).

مواقف من حياة الأوزاعي:

فاطاب فضيلة الآخرة فقد فرغك لها:

دخل الأوزاعي على المهدي فوعظه وذكره، فقال له: يا أمير

(1) تاريخ سورية، 165/2.

(2) طبقات ابن سعد: 7 / 488، طبقات خليفة: 315 - 316، تاريخ خليفة: 428، التاريخ الكبير: 5 / 326، التاريخ الصغير: 2 / 124، المعرفة والتاريخ: 2 / 390 - 397، 408 - 410، الجرح والتعديل: 1 / 184 - 219، 5 / 266 - 267، مشاهير علماء الأمصار: 180 حلية الأولياء: 6 / 135 - 149، تاريخ ابن عساكر: 10 / 34 / آ، وفيات الاعيان: 3 / 127 - 128، تهذيب الكمال: خ: 808 - 809، تهذيب التهذيب: خ: 2 / 220 - 223، تاريخ الإسلام: 6 / 225 - 238، تذكرة الحفاظ: 1 / 178 - 185، ميزان الاعتدال: 2 / 580، عبر الذهبي: 1 / 226 - 227، البدايعة والنهاية: 10 / 115 - 120، تهذيب التهذيب: 6 / 238 - 242، طبقات الحفاظ: 79، خلاصة تهذيب الكمال: 232، شذرات الذهب: 1 / 241 - 242.

المؤمنين، إن الله تعالى أعطاك فضل الدنيا وكفاك طلبها، فاطلب فضيلة الآخرة فقد فرغك لها؛ فاستحسن قوله.

وأبيه لقد حدثكم فأحسن:

وقال عمرو بن هشام: تحدثنا عند الأوزاعي ومعنا أعرابيٌّ من بني عليم لا يتكلم فقلنا: بحق ما سميتم خرس العرب ألا تتحدث مع القوم؟ فقال: إنَّ الحظَّ للمرء في إذنه، وإنَّ الحظَّ في لسانه لغير، وقد ذكرنا ذلك للأوزاعي فقال: وأبيه لقد حدثكم فأحسن.

دع لأهل البصرة خصلتين:

قال الأوزاعي: دع لأهل البصرة خصلتين وهما: القول بالقدر، والرخصة بالخضضة، واللذان لأهل الكوفة: تأخير السحور، وشرب النبيذ، ولأهل مكة خصلتين وهما: الظرف والمتعة، لأهل المدينة: السماع وإتيان النساء في أدبارهن، واللذان لأهل الشام: إثارة السلطان وبغض بني هاشم (1).

كسالى ينامون تحت شجرة كمثرى:

عن الأوزاعي أنه قال: كان قوم كسالى ينامون تحت شجرة كمثرى يقولون: إن سقط في أفوانا شيء أكلنا وإلا فلا، فسقطت كمثراة إلى جانب أحدهم، فقال له الذي يليه: ضعها في فمي. قال: لو استطعت أن أضعها في فمك وضعتها في فمي (2).

كيف رأيت صنع الله!:

الأوزاعي: جاءه جار له، فقال: هذا عيد وما عندنا شيء، فقال لامراته: أعطيه ما معك؛ فقالت: معي نيف وعشرون درهماً فأشاطره؛

(1) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، 2 / 126، 7 / 154، 8 / 12، 162، 209.

(2) الحموي، معجم الأدباء، 1 / 422.

فقال أعطيه كلها عسى الله أن يبعث بخير منها. فإذا رجل يدق الباب، فأذن له، فقال: أني كنت عبداً لأبيك ابتعت فاكترسبت هذه الدنانير وهي نيف وعشرون ديناراً؛ فقال: أنت حر. ثم قال لامرأته: كيف رأيت صنع الله، أعطى بكل درهم ديناراً وأعتق نسمة.

نعم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلحن:

سئل الأوزاعي عن رجل يسمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه لحن أيقيمه؟ قال: نعم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلحن.

يا بن أخي لك ولأصحابك، لا للحمالين:

رأى الأوزاعي شاباً بين القبر والمنبر يتهجّد، فلما طلع الفجر استلقى ثم قال: عند الصباح يحمد القوم السرى؛ فقال له: يا بن أخي لك ولأصحابك، لا للحمالين.

اللحوق بمن يرجى خيره خير من البقاء مع من لا يؤمن شره:

الأوزاعي: عدنا مكحولاً فقال: اللحوق بمن يرجى خيره خير من البقاء مع من لا يؤمن شره.

الأوزاعي: ما يسرني أن هذه الألوان تجري علي وعليكم غدوة وعشيّاً من حلال ولا نسأل عنها يوم القيامة. قالوا: ولم يا أبا عمرو؟ قال: لأنها تقسي القلب.

بطون علماء السوء أنتم مما أنتم فيه:

الأوزاعي: قلت لمكحول: أين ترى لي أن أنزل؟ قال: انزل حيث يصفو لك الخبز فإن الدين مع الخبز.

الأوزاعي: شكت النواويس ما تجد من نتن ريح الكفار، فأوحى الله إليها: بطون علماء السوء أنتم مما أنتم فيه.

فمع من تريد أن تكون!:

الأوزاعي: لو لم تكن جنة ولا نار إلا أنهما داران، دار فيها الملائكة،

والمرسلون، والصديقون، والشهداء، والصالحون، ودار فيها إبليس،
والشياطين، وفرعون، وهامان، وقارون، فمع من تريد أن تكون؟ (1).

فكيف بمن يسفك دماء المسلمين؟

وحكي عن الأوزاعي قال: بعث إلي المنصور فقال: لم تبطيء عنا؟
قلت: وما تريد منا؟ قال: لآخذ عنكم وأقتبس منكم. فقلت له: مهلاً فإن
عروة بن رويم أخبرني أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: ٥ من جاءته
موعظة من ربه قبلها شكر الله له ذلك، ومن جاءته فلم يقبلها كانت حجة عليه
يوم القيامة—، مهلاً فإن مثلك لا ينبغي له أن ينام. إنما جعلت الأنبياء رعاة
لعلمهم بالرعية يجبرون الكسير ويسمنون الهزيلة ويردون الضالة فكيف
من يسفك دماء المسلمين ويأخذ أموالهم؟! أعيذك بالله أن تقول إن قرابتك
من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تدعوك إلى الجنة، إن رسول الله،
صلى الله عليه وسلم، كانت في يده جريدة يستاك بها فضرب بها قرن
أعرابي فنزل عليه جبريل، عليه السلام، فقال: يا محمد إن الله تبارك
وتعالى لم يبعثك جباراً مؤيساً مقتطاً تكسر قرون أمتك، ألق الجريدة عن
يدك، فدعا الأعرابي إلى القصاص من نفسه فكيف بمن يسفك دماء
المسلمين؟ إن الله عز وجل أوحى إلى من هو خير منك إلى داود، عليه
السلام: يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق.
وأوحى إليه: يا داود إذا أتاك الخصمان فلا يكونن لأحدهما على صاحبه
الفضل فأمحوك من ديوان نبوتي.

اعلم أن ثوباً من ثياب أهل النار لو علق بين السماء والأرض لمات
أهل الأرض من نتن ريحه، فكيف بمن تقمصه؟ ولو أن حلقة من سلاسل
جهنم وضعت على جبال الدنيا لذابت كما يذوب الرصاص حتى تنتهي إلى
الأرض السابعة، فكيف بمن تقلدها؟ قال: ودخل عمرو بن عبيد على
المنصور فقال: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل يفتك ويسائلك عن مثقال

(1) الزمخشري، ربيع الأبرار، 1 / 63، 94، 96، 257، 259، 324.

ذرة من الخير والشر، وإن الأمة خصماؤك يوم القيامة، وإن الله جل وعز لا يرضى منك إلا ما ترضاه لنفسك، ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليك وإن الله جل وعز لا يرضى منك إلا بأن تعدل على الرعية، يا أمير المؤمنين، إن وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور، والله ما يحكم وراء بابك بكتاب ولا بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، قال: فبكى المنصور. فقال سليمان بن مجالد وهو واقف على رأس المنصور: يا عمرو قد شققت على أمير المؤمنين! فقال عمرو: يا أمير المؤمنين من هذا؟ قال: أخوك سليمان بن مجالد. قال عمرو: ويلك يا سليمان! إن أمير المؤمنين يموت وإن كل ما تراه ينفد وإنك جيفة غداً بالفناء لا ينفعك إلا عمل صالح قدّمته، ولقرب هذا الجدار أنفع لأمر المؤمنين من قربك إذ كنت تطوي عنه النصيحة وتتهى من ينصحه، يا أمير المؤمنين إن هؤلاء اتخذوك سلماً إلى شهواتهم. قال المنصور: فأصنع ماذا؟ ادع لي أصحابك أولهم! قال: ادعهم أنت بعمل صالح تحدثه ومر بهذا الخناق فليرفع عن أعناق الناس واستعمل في اليوم الواحد عمالاً كلما رابك منهم ريب أو أنكرت على رجل عزلته ووليت غيره، فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقربن به إليك من لا نية له فيه (1).

سيئة غطت على حسنتين!

وقال الأوزاعي: يهلك السلطان بالإعجاب والاحتجاب. فأما الإعجاب فقد ذكرناه، وأما الاحتجاب فهو أدخل الخلال في هدم السلطان وأسرعها خراباً للدول، فإنه إذا احتجب السلطان فكأنه قد مات، لأن الحجب موت حكمي فتعبت بطانته بأرواح الخلائق وحریمهم وأموالهم، لأن الظالم قد أمن أن لا يصل المظلوم إلى السلطان. ومعظم ما رأينا في أعمارنا وسمعنا من دخول المفاسد على الملوك في حجبهم عن مباشرة الأمور، ولا تزال الرعية ذا سلطان واحد ما وصلوا إلى سلطانهم، فإذا احتجب فهناك

(1) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، 1 / 152.

سلاطين كثيرة.

يا أيها المغرور المحتجب، احتجبت عن الرعية بالحجاب والأبواب، وجعلت دونهم جبلاً مشيدة وحظائر بالحجارة والماء والطين مانعة، وباب الله مفتوح للسائلين ليس هناك حاجب ولا بواب. قال الله تعالى: {لَا مَنَ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا} [الفرقان: ٥٧].

وقال معاوية: ليس بين أن يملك السلطان رعيته أو تملكه إلا الحزم أو التواني، وكماله أمران: شدة في غير إفراط ولين في غير امتهان. وسئل بزرجمهر: أي الملوك أحزم؟ فقال: من ملك جده هزله وقهر لبه هواه، وأعرب عن ضمير فعله، ولم يخدعه رضاه عن سخطه ولا غضبه عن كيده. وقال بعض الحكماء: زوال الدول في اصطناع بعض السفلى، ومن طال عدوانه زال سلطانه. وقالوا: من لم يستظهر باليقظة لم تنفعه الحفظة. وقال يحيى بن خالد: أحسن ما وجدت في طراز الحكم من البلاغة: البخل والجهل مع التواضع خير من السخاء والعلم مع الكبر. فيا لها حسنة غطت على سيئتين، ويا لها سيئة غطت على حسنتين! (1).

فقطعه ومات:

قال: حدثنا الأوزاعي قال: كنا بالساحل فجاء بفحل لينزى على أمه، فأبى. فأدخلوها بيتاً، وألقوا على الباب سترأ، وجللوا بكساء. قال: فلما نزا عليها وفرغ شم ريح أمه. قال: فوضع أسنانه في أصل ذكره فقطعه ومات (2).

وقال الأوزاعي للمنصور في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين، أما علمت أنه كان بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة بيدك

(1) الطرطوشي، سراج الملوك، 1 / 46.

(2) ابن الكلبي، أنساب الخيل، 1 / 1.

أقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً؟ فكيف من سفك دماء المسلمين وشق أبشارهم ونهب أموالهم؟ إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابياً عن غير عمد، فقال له جبريل عليه السلام: إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قلوب رعيته! يا أمير المؤمنين لو أن ثوباً من النار صب على ما في الأرض لأحرقه، فكيف بمن يتقمصه؟ ولو أن ذنوباً من النار صب على ما في الأرض لأحرقه، فكيف بمن يتجرعه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف بمن يسلك فيها ويرد فضلها على عاتقه؟ ودخل بعض العقلاء على سلطان فقال له: إن أحق الناس بالإحسان من أحسن الله إليه، وأولاهم بالإنصاف من بسطت يداه بالقدرة، فاستدم ما أوتيت من النعم بتأدية ما عليك من الحق (1).

اسم امرأة إبليس:

وسأل الرشيد الأوزاعي عن اسم امرأة إبليس فقال: تلك وليمة لم أحضرها (2).

لأبشرك يا علي، بها تبشر أمتي من بعدي:

عن الأوزاعي قال: دخلت المدينة مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: فقلت من هاهنا من الفقهاء؟ فقالوا: محمد بن المنكدر، ومحمد ابن المبشر، ومحمد بن علي - يعني ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فقلت في نفسي: ليس من هؤلاء أحق أن يبدأ به من ابن رسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأتيته وقلت يا بن رسول الله: أخبرني عن قول الله عز وجل: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: ٣٩] فقال: أخبرني أبي عن جدي عن علي عليه السلام، أنه سأل النبي

(1) الطرطوشي، سراج الملوك، 1 / 24.

(2) الثعالبي، اللطف واللطائف، 1 / 10.

صلى الله عليه وآله وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ٭ لا بئس لك يا علي، بها تبشر أمتي من بعدي، وهي: الصدقة على وجهها، وبر الوالدين، واصطناع المعروف، وصلة الرحم تحول الشقاء سعادة، وتزيد في العمر، وتقي مصارع السوء — (1).

وبمثلله يعاقب المجرم:

كان الأوزاعي يكره لبس السواد ويقول: يلبس في المأتم، وبمثلله يعاقب المجرم، ولم أره على محرم، ولا جليت به عروس، ولا كفن فيه ميت (2).

إن كانت لهم حالا فهي عليكم حرام:

قال حدثنا عبد الرحمن الأوزاعي، قال: بعث إلى عبد الله بن علي وأعظمني ذلك واشتد على فأقدمت وأدخلت عليه والناس قيام سماطين بين يديه في أيديهم المكافر كوبات فأدناني ثم قال لي: يا عبد الرحمن ما تقول في مخرجنا هذا؟ فقلت: أصلح الله الأمير قد كانت بيني وبين أخيك داود مودة فأعفني، قال: لتخبرني، فقلت: لأصدقنه واستبسلت للموت، فقلت: حدثني يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم عن علقمة بن وقاص سمع عمر بن الخطاب يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ٭ إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ — قال: وفي يده قضيب ينكت به الأرض، فقال: يا عبد الرحمن ما تقول في قتلنا أهل هذا البيت من بني أمية؟ فقلت: كما قلت قال: لتخبرني فقلت: حدثني محمد بن مروان عن مطرف بن الشَّخِير عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ٭ لَا يَحِلُّ قَتْلُ الْمُسْلِمِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثِ الْبَرَائِ لِدِينِهِ أَوْ رَجُلٌ قَتَلَ نَفْسًا فَيُقْتَلُ بِهَا أَوْ رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ — قال: ثم أطرق هويًا، ثم قال: أخبرني عن الخلافة أهي

(1) ابن الشجري، الأمالي الشجرية، 1 / 350.

(2) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 1 / 478.

وصية من رسول الله صلى الله عليه؟ فورد على مثل ما ورد ثم قلت: لأصدقته. فقلت: لو كانت وصية من النبي صلى الله عليه لكم ما ترك علي عليه السلام أحداً يتقدمه، ثم سكت سكتة وقال: ما تقول في أموال بني أمية؟ فاستعفيت فقال: لتخبرني فقلت: إن كانت لهم حلالاً فهي عليكم حرام، وإن كانت لهم حراماً فهي عليكم حرام، قال: ثم أمرني فأخرجت (1).

لا تقل ذلك:

وقال الأوزاعي، عن عبدة بن أبي لبابة قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا وتبسم كل واحد منهما لصاحبه تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر فقلت: إن هذا ليسير، فقال: لا تقل ذلك فإن الله يقول: {لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ} [الأنفال: ٦٣]، فعلمت أنه أفقه مني (2).

أنت مستقتل لا يحل لأحد أن يصحبك:

وكان سفيان بمكة فمرض ومعه الأوزاعي، فدخل عليه عبد الصمد بن علي فحول وجهه إلى الحائط، فقال الأوزاعي لعبد الصمد: إن أبا عبد الله سهر البارحة فلعله أن يكون نائماً، فقال سفيان: لست بنائم، لست بنائم، فقام عبد الصمد، فقال الأوزاعي لسفيان: أنت مستقتل لا يحل لأحد أن يصحبك.

إن شئت رددت الجرة وكتبت لك:

أهدى رجل نصراني إلى الأوزاعي جرة غسل وقال له: يا أبا عمرو، تكتب لي إلى والي بعلبك فقال: إن شئت رددت الجرة وكتبت لك، وإلا قبلت الجرة ولم أكتب لك. قال: رد الجرة فردها وكتب له فوضع عنه ثلاثين ديناراً (3).

(1) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، 1/ 103.

(2) أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق، 45/1.

(3) ابن حمدون، التذكرة الحمونية، 41/1 - 42.

واحدة بأخرى والبادي أظلم:

الأوزاعي قال: دخل خريم الناعم على معاوية فنظر إلى ساقيه فقال: أي ساقين لو إنهما على جارية! قال: في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين: قال معاوية: واحدة بأخرى والبادي أظلم (1).

من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض:

قال الأوزاعي: شكت النواويس إلى الله تعالى ما تجد من نتن ريح الكفار فأوحى الله إليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتن فيه وقال علي رضي الله عنه من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض ولصالح اللخمي شعر:

تعلم إذا ما كنت لست بعالم :::: فما العلم إلا عند أهل التعلم
تعلم فإن العلم أزين للفق :::: من الحلة الحسناء عند التكلم (2)

بين الأوزاعي والخليفة المنصور:

قال الأوزاعي: دخلت على المنصور فقال لي: ما الذى بطأ بك عنى قلت: يا أمير المؤمنين وما الذى تريد منى؟ فقال: الاقتباس منك قلت: انظر ما تقول فإن مكحولاً حدثنى عن عطية بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **من بلغه عن الله نصيحة في دينه فهي رحمة من الله سيقت إليه فإن قبلها من الله بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد إثماً ويزداد عليه غضباً وإن بلغه شيء من الحق فرضى فله الرضا وإن سخط فله السخط ومن كرهه فقد كرهه الله لأن الله هو الحق المبين فلا تجهلن** — قال: وكيف أجهل قال: تسمع ولا تعمل بما تسمع قال الأوزاعي: فسل على الربيع السيف وقال: تقول لأمر المؤمنين هذا فانتهره المنصور وقال: أمسك ثم كلمه الأوزاعي وكان في كلامه أن قال: إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به والله

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، 3 / 175.

(2) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، 1 / 52.

سائلك عن صغيرها وكبيرها وفتيلها ونقيرها ولقد حدثني عروة بن رويم أن رسول الله قال: **ما من راع يبيت غاشاً لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة** — فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظراً ولما استطاع من عوراتهم ساتراً وبالقسط فيما بينهم قائماً لا يتخوف محسنهم منه رهقاً ولا مسيئهم عدواناً فقد كانت بيد رسول الله جريدة يستاك بها ويردع عنه المنـافقين فأتاه جبريـل فقل لفقهاء

يا محمد ما هذه الجريدة بيدك اقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً فكيف من سفك دماءهم وشقق أبشارهم وأنهب أموالهم يا أمير المؤمنين إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابياً لم يتعمده فهبط جبريل فقال: يا محمد إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك واعلم أن كل ما في يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ولا ثمرة من ثمارها قال رسول الله: **لقاب قوس أحدكم من الجنة أو قذة خير له من الدنيا بأسرها** — إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل إليك يا أمير المؤمنين ولو أن ثوباً من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لآذاهم فكيف من يتقمصه ولو أن ذنوباً من صديد أهل النار صب على ماء الأرض لآجنه فكيف بمن يتجرعه ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف من سلك فيها ويرد فضلها على عاتقه وقد قال عمر بن الخطاب: لا يقوم أمر الناس إلا حصيف العقدة بعيد الغرة لا يطلع الناس منه على عورة ولا يحنق في الحق على جرة ولا تأخذه في الله لومة لائم.

واعلم أن السلطان أربعة أمير يظلم نفسه وعماله فذلك له أجر المجاهد في سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف وأمير رتع ورتع عماله فذاك يحمل أثقاله وأثقالاً مع أثقاله وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذاك الذى باع آخرته بدنياه غيره وأمير يرتع ويظلف عماله فذاك شر الأكياس واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت

بأمر عظيم عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه وقد جاء عن جدك في تفسير قول الله عز وجل: {لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [الكهف: ٤٩] أن الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك وقال فما ظنكم بالكلام وما عملته الأيدي فأعيزك بالله أن يخيل إليك أن قرابتك برسول الله تنفع مع المخالفة لأمره فقد قال رسول الله: **يا صفية عمة محمد ويا فاطمة بنت محمد استوهبا أنفسكما من الله إنني لا أغني عنكما من الله شيئاً** — وكان جدك الأكبر سأل رسول الله إمارة فقال: أي عم نفس تحببها خير لك من إمارة لا تحصيها نظراً لعمه وشفقة عليه أن يلي فيجور عن سنته جناح بعوضة فلا يستطيع له نفعاً ولا عنه دفعاً هذه نصيحتي إن قبلتها فلنفسك عملت وإن رددتها فنفسك نحست والله الموفق للخير والمعين عليه قال: بلى، نقبلها ونشكر عليها وبالله نستعين⁽¹⁾.

الطريق للشيخ:

وفي تاريخ ابن خلكان أن سفيان الثوري بلغه مقدم الأوزاعي، فخرج إلى ملنقاه فلقبه بذي طوى، فحل سفيان خطام بغيره من القطار ووضع على رقبته، فكان إذا مر بجماعة قال: الطريق للشيخ.

مثل الشياطين في كثرتهم:

قال الأوزاعي حدثني حسان قال: “إنما مثل الشياطين في كثرتهم كمثل رجل دخل زرعاً فيه جراد كثير، فكلما وضع رجله تطاير الجراد يميناً وشمالاً ولولا أن الله عز وجل غض البصر عنهم، ما رأي شيء إلا وعليه شيطان.”

رأيت رب العزة في المنام:

قال الأوزاعي رحمه الله تعالى: رأيت رب العزة في المنام، فقال لي:

(1) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت، 3/ 51.

يا عبد الرحمن أنت الذي تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر. قلت: بفضلِكَ يا رب. ثم قلت: يا رب أمتني على الإسلام. فقال عز وجل: وعلى السنة أيضاً. وتوفي رحمه الله، في شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين ومائة، وكان سبب موته أنه دخل حمام بيروت، وكان لصاحب الحمام شغل، فأغلق الباب عليه، وذهب ثم جاء وفتح الباب، فوجده ميتاً قد وضع يده اليمنى تحت خده، وهو مستقبل القبلة. وقيل: إن امرأته فعلت ذلك به ولم تكن عامدة لذلك⁽¹⁾.

فأي نعمة من نعم الله عليك تحمده عليها؟!:

حدث الأوزاعي عن عبد الله بن محمد قال: خرجت إلى ساحل البحر مرابطاً وكان رباطنا يومئذ عريش مصر، قال: فلما انتهيت إلى الساحل فإذا أنا ببطيحة وفي البطيحة خيمة فيها رجل قد ذهب يده ورجلاه وثقل سمعه وبصره وما له من جراحة تنفعه إلا لسانه وهو يقول: اللهم أوزعني أن أحمذك حمداً أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها علي وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلاً؛ قال الأوزاعي: قال عبد الله: قلت: والله لآتين هذا الرجل ولأسأله أنى له هذا الكلام؟! فهمم أم علم أم إلهام ألهم، فأتيت الرجل فسلمت عليه فقلت: سمعتك وأنت تقول: اللهم أوزعني أن أحمذك حمداً أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها علي وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلاً فأي نعمة من نعم الله عليك تحمده عليها؟! وأي فضيله تفضل بها عليك تشكره عليها؟! قال: وما ترى ما صنع ربي؟! والله لو أرسل السماء علي ناراً فأحرقتني وأمر الجبال فدمرتني وأمر البحار فغرقتني وأمر الأرض فبلعتني ما ازددت لربي إلا شكراً لما أنعم علي من لساني هذا؛ ولكن يا عبد الله إذ أتيتني لي إليك حاجة قد تراني على أي حالة أنا أنا

(1) كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الثانية 1424 هـ - 2003 م، 1 / 198،

لست أقدر لنفسي على ضر ولا نفع، ولقد كان معي بني لي يتعاهدني في وقت صلاتي فيوضيني وإذا جعت أطعمني وإذا عطشت سقاني ولقد فقدته منذ ثلاثة أيام فتحسسه لي رحمك الله فقلت: والله ما مشى خلق في حاجة خلق كان أعظم عند الله أجراً ممن يمشي في حاجة مثلك فمضيت في طلب الغلام فما مضيت غير بعيد حتى صرت بين كئبان من الرمل فإذا أنا بالغلام قد افترسه سبع وأكل لحمه فاسترجعت وقلت: أنى لي وجه رقيق أتى به الرجل؟! فبينما أنا مقبل نحوه إذ خطر على قلبي ذكر أيوب النبي صلى الله عليه وسلم فلما أتيته سلمت عليه فرد علي السلام، فقال: أأنت بصاحبي؟ قلت: بلى؛ قال: ما فعلت في حاجتي؟ فقلت: أنت أكرم على الله أم أيوب النبي؟ قال: بل أيوب النبي؛ قلت: هل علمت ما صنع به ربه؟ أليس قد ابتلاه بماله وآله وولده؟ قال: بلى، قلت: فكيف وجده؟ قال: وجده صابراً شاكراً حامداً؛ قلت: لم يرض منه ذلك حتى أوحش من أقربائه وأحبائه؟ قال: نعم؛ قلت: فكيف وجده ربه؟ قال: وجده صابراً شاكراً حامداً؛ قلت: فلم يرض منه بذلك حتى صيره غرضاً لمار الطريق هل علمت؟ قال: نعم؛ قلت: فكيف وجده ربه؟ قال: صابراً شاكراً حامداً، أوجز رحمك الله؛ قلت له: إن الغلام الذي أرسلتني في طلبه وجدته بين كئبان الرمل وقد افترسه سبع فأكل لحمه فأعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر، فقال المبتلى: الحمد لله الذي لم يخلق من ذريتي خلقاً يعصيه فيعذبه بالنار ثم استرجع وشهق شهقة، فمات؛ فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ عظمت مصيبتني؛ رجل مثل هذا إن تركته أكلته السباع وإن قعدت لم أقدر على ضر ولا نفع؛ فسجيت به بشملة كانت عليه وقعدت عند رأسه باكياً فبينما أنا قاعد إذ تهجم علي أربعة رجال فقالوا: يا عبد الله ما حالك وما قصتك؟ فقصت عليهم قصتي وقصته، فقالوا لي: اكشف لنا عن وجهه فعسى أن نعرفه فكشفت عن وجهه فانكب القوم عليه يقبلون عينيه مره ويديه أخرى ويقولون: بأبي عين طال ما غضت عن محارم الله وبأبي جسم طال ما

كان ساجداً والناس نيام؛ فقلت: من هذا يرحمكم الله؟! فقالوا: هذا أبو قلابة الجرمي صاحب ابن عباس، لقد كان شديد الحب لله وللنبي صلى الله عليه وسلم؛ فغسلناه وكفناه بأثواب كانت معنا وصلينا عليه ودفناه فانصرف القوم وانصرفت الى رباطي فلما أن جن على الليل وضعت رأسي فرأيتُه فيما يرى النائم في روضة من رياض الجنة وعليه حلتان من حلل الجنة وهو يتلو الوحي: {سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٤]، فقلت: ألسنت بصاحبِي؟ قال: بلى، قلت: أنى لك هذا؟ قال: إن لله درجات لا تتال إلا بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء مع خشية الله عز وجل في السر والعلانية.

كلنا قد هداه الله:

بينما الأوزاعي عند الخليفة المنصور ذات يوم إذ خرجت عليهم جارية فقالت: يا سيدي من هذا الشيخ؟ قال: هذا الأوزاعي: قالت فإن سيدتي تريد أن تسأله عن مسألة قال: فقال لها: فلتسأل عما بدا قال: فقالت: إنها كانت في أرضها إذ هجمت عليهم خيل العرب فالتجأوا إلى غار ومعها بنى لها وضعت يدها على فمه مخافة أن يصيح فيدل عليهم فما رفعت يدها عن فيه إلا وهو ميت فهل عليها فيه شيء؟ وهل لها كفارة لما صنعت؟ فقال الأوزاعي: أكان هذا منها قبل الإسلام أو بعده؟ قالت: قبل الإسلام قال: فإن الإسلام قد هدم ما كان قبله وأحب أن تعتق رقبة قال: فسألت عن ولده فأخبرت بأن الأوزاعي: له ثلاث بنات قال فأخرجت إليه ثلاث درات هدية لهن فلما قدم عليهن قال: لهن إن هؤلاء الدرات أهدين لكن ولا يصلحن إلا مع شبههن من الحلى ولكني رأيت رأيا إن أحببتن فعلته قال: قلن وما هو؟ قال: نبيعهن ونتاجر بأثمانهن حتى لعل الله أن ينفعكن وإيانا به قلن: نعم فبعث بهن إلى دمشق فبعن بثمانين ومائتي دينار وكان مدخل الشتاء قال: فأمر الذي باعهن أن يشتري له قطيعةً وانجانيات وبعث بهن إليه قال أبو الفضل: فأخبرني هذا الرجل أنه حدثه بعض أشياخ المدينة يعنى بيروت

أنه صار إليه انبجانيتان منها وفقده أبو جعفر فقال لعبد الوهاب بن إبراهيم الهاشمي عامله على دمشق والمهدى عنده: ألم أوجه إليك كتابي إلى عبد الرحمن قال: بلى يا أمير المؤمنين وأنفذته قال: يقول المهدى قد والله يا أمير المؤمنين جاءني فسلم على وهنأني بما أسند إلى أمير المؤمنين من الخلافة ودعا لي دعاء وقع برده على قلبي وأخبره بما حدث به أنه استأذنى في الرجوع إلى مكتبة وأعلمنى أن في إذنى له خلقاً من إذكك فقال أبو جعفر للمهدى: فعلتها يا أبا عبد الله قال: قد كان ذا قال: ارحلوا حدثنا عبد الرحمن نا على بن الحسن الهسنجاني نا أحمد يعنى بن صالح قال: سمعت بن أبى ذئب يحدث سفيان الثوري بدخوله على أبى جعفر وكلامه له فذكر قصة لا أحفظها كما أحب قال بن أبى ذئب: فقلت له: أخبرني أنصح لك من المهدى فقال: بأى شيء حل لك أن تقول المهدى قال بن أبى ذئب: كلنا قد هداه الله (1).

من كلام الأوزاعي:

العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر فإن صرع وجد متكأً لينا (2).

المؤمن يقل الكلام ويكثر العمل (3).

قال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بخبيثتها وجئنا بالحجاج لغلبناهم (4).

قال الأوزاعي عن مكحول: إن كان في الجماعة الفضيلة فإن في

(1) عبد الرحمن بن أبى حاتم محمد بن إدريس أبو محمد الرازي التميمي، الجرح والتعديل، 1 / 210.

(2) أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: د. إحسان عباس و د. عبدالمجيد عابدين، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثالثة، 1983، 1 / 247.

(3) أبو حيان التوحيدى، الإمتاع والمؤانسة، 1 / 291.

(4) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية و جماعة، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الأولى 1424 هـ - 2004 م، 21 / 202.

العزلة السلامة (1).

قال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير أنه قال: ما صلح منطق رجل إلا عرف ذلك في سائر عمله.

حدث عقبة بن علقمة ومبشر بن إسماعيل أنهما سألا الأوزاعي ما إكرام الضيف قال: طلاقة الوجه وطيب الكلام.

عن الأوزاعي قال: أنبئت أنه كان يقال: ويل للمتفقهين لغير العبادة والمستحلين الحرمات بالشبهات.

الأوزاعي يقول: ما بلى أحد في دينه ببلاء أضر عليه من طلاقة لسانه (2).

عن الأوزاعي قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله برسالة لم يحفظها غيري وغير مكحول: أما بعد فإنه من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ومن عد كلامه من عمله قل كلامه فيما لا ينفعه.

قال الأوزاعي: نعم وزير العلم الرأي الحسن (3).

عن الأوزاعي قال: “ لا يكون في آخر الزمان شيء أعز من أخ مؤنس، أو كسب درهم من حله، أو سنة معمول بها ” (4).

الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً.

الأوزاعي: من عمل بما يعلم كان حقاً على الله أن يعلمه ما لا يعلم ويوفقه فيما يعلم، حتى يستوجب بذلك الجنة.

الأوزاعي: الفار من عياله كالآبق، لا يقبل منه صوم ولا صلاة لا

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، 1 / 475.

(2) محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، 1397 - 1977، 1 / 46، 47، 261.

(3) ابن الحداد، الجواهر النفيس في سياسة الرئيس، 29/1.

(4) ابن الشجري، الأمالي الشجرية، 1 / 482.

يرجع إليهم.

الأوزاعي: إذا أراد الله بقوم شراً أعطاهم الجدل ومنعهم العمل (1).
 عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير قال: لا يتعلم من استحيا وتكبر.
 قال الأوزاعي: إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل، ومنعهم العمل.
 حدث محمد بن شعيب بن سابور، قال: سمعت الأوزاعي ينشد هذه
 الأبيات:

إذا كان الخطاء أقل ضرراً :: وأنجح بالأمور من الصواب
 وكان النّوك محمّوداً مذالاً :: وكان الدهر يرجع بانقلاب
 وعظمت المكارم والمعالي :: وأغلق دون ذلك كل باب
 ويوعد كل ذي حسَب ودين :: وقرب كل مهتوك الحجاب
 فما أحد أضنّ بما لديه :: من المتحرج الخض اللباب (2)

قال الأوزاعي: الصاحب للصاحب كالرقعة للثوب، إن لم تكن مثله
 شأنته.

قال الأوزاعي: خمسة كان عليها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم
 والتابعون بإحسان: لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المسجد، وتلاوة
 القرآن، والجهاد في سبيل الله.

روى الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير، قال: إن الملك ليصعد بعمل
 العبد مستفتحاً به، حتى إذا انتهى إلى ربه قال: اجعلوه في سجين، إني لم
 أرد بهذا. قال الأوزاعي: فما ظنك بما قد خفي عن الملك (3).

من مواعظ الأوزاعي:

عن الأوزاعي أنه وعظ فقال في موعظته: أيها الناس تقووا بهذه النعم

(1) الزمخشري، ربيع الأبرار، 1 / 305، 324، 326، 365.

(2) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 3/1 - 4، 93، 157.

(3) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، 1 / 119، 150، 201، 218.

التي أصبحت فيها، على الهرب من نار الله عز وجل الموقدة التي تطلع على الأفئدة، فإنكم في دار الثواء فيها قليل، وأنتم فيها توجلون، خلافاً بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا أنفها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمدّ أجساماً وأعظم آثاراً؛ فخذوا الجبال وجابوا الصخور ونقبوا البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مدتهم وعفت آثارهم وأخوت منازلهم وأنست ذكرهم، فما تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزاً؛ كانوا بلهو الأمل آمنين لبيات قوم غافلين أو لصباح قوم نادمين؛ ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتهم بيّاتاً من عقوبة الله عز وجل فأصبح كثير منهم في ديارهم جاثمين وأصبح الباقيون ينظرون في آثار نعمة الله وزوال نعمه ومساكن خاوية فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم وعبرة لمن يخشى؛ وأصبحت من بعدهم في أجل منقوص ودنيا مقبوضة، في زمان قد ولى عفوه وذهب رخاؤه فلم يبق منه إلا حمأة شر وصُبابة كدر وأهاويل عبر وعقوبات غبر وأرسال فتن وتتابع زلازل ورذالة خلف بهم ظهر الفساد في البر والبحر، فلا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل وغره طول الأجل فتبلغ بالأمانى؛ نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى نذره فانتهى وعقل سراه فمهد لنفسه.

رسالته إلى المهدي في شناعة لقوم:

عن الأوزاعي أنه كتب إلى المهدي أما بعد هدى الله الأمير فيما ابتلاه للتي هي أقوم ووقاه تبعته ولقاه حجتة فإن من نعمة الله عليه وحسن بلائه عنده أن جعله يعرف بالعفو وخفض الجناح وطلب التجاوز عن أصحاب الجرائم عند خليفتهم وحضور أمور رعيته بما تطلع عليه أنفسها وتنسبط في رجائها فيه قلوبها فبلغ الله الأمير فوائد الزيادة في الخير وحسن المعونة على الشكر ثم إنه كان من رأى أمير المؤمنين في تلك العصابة الذين تسللوا من بعثهم ما قد بلغه من البعثة بهم إليه مشاة على أقدامهم من الشام مقرنين في السلاسل حتى قدموا منذ أعوام ثم وضعوا في ضيق من

الحبس وجهد من الضرر وقد كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر الثلاثة الذين تخلفوا عنه في غزوة تبوك أن أوقف أمرهم ونهى الناس عن كلامهم حتى نزل فيهم حكم الله بالتوبة عليهم والمعاتبة لهم وأن عمر بن الخطاب أغفل أعقاب بعثه عن الإبان الذي كان يعقبهم فيه ففقلوا بغير إذن فأرسل إليهم أن يجتمعوا له في دار فعرفهم ماصنعوا فأشرف عليهم وتواعدهم وعيّدًا شديدًا ثم عفا عنهم والمؤمنين أصلح الله الأمير بعضهم من بعض وولاتهم يقتدي موفق آخرهم بصالح ما مضى عليه أولهم فإن رأى الأمير أذاقه الله عفوه في الآخرة بحبه التبريد عن رعيته وقصد العقوبة فيهم رجاء أن يطلب لهم من أمير المؤمنين أصلحه الله عفوه والتجاوز عنهم فعل فإنه منه بحيث يعرف قوله وعند تدبر الأمور فضله جمع الله للأمير ألف رعيته ورزقهم رحمته والرافة بهم وجعل ثوابه منهم مغفرته والخلود في رحمته والسلام عليك ورحمة الله.

رسالة الأوزاعي إلى وزير الخليفة أبي عبيد الله في كتاب من الخليفة بتخليه محبوس:

عن الأوزاعي أنه كتب إلى أبي عبيد الله أما بعد: قسم الله لك ولما أنت فيه عاصمًا من سخطه ونية تعمل عليها وتؤدى بها حق من يلزمك فيما وجدت السبيل إليه طلب الفرج عنه إذا استغاث بك وكنت رجاءه في نفسه بإذن الله وأنه لا يزال من أولئك متوسل بي إليك فلا ألوك فيه نصحًا وعند العقاب ومعاينة الحساب لا تستكثر عملاً ولا تستقل ذنبًا فألهمك الله ذكره وطلب الوسيلة عنده ثم إن يزيد بن يحيى الخشني في حبس أمير المؤمنين أصلحه الله وكان من أعوان بن الأزرق ولم يبلغني عنه سوء قرف به وقد طالت إقامته فيه فإن رأيت رحمك الله أن يكون من المهدى كتاب إلى أمير المؤمنين أصلحه الله فيه يذكر من أمره ما نرجو تخلصه به مما هو فيه من ضرر الحبس فعلت أعانك الله على الخير وجعله أغلب الأمور عليك وآثرها عندك والسلام عليك ورحمة الله حدثنا عبد الرحمن ثنا العباس بن

الوليد بن مزيد أخبرني أبي عن الأوزاعي أنه كتب أما بعد جعل الله الأمير ممن ألهمه الخير واستأنف به عمره وجعل فيه قوته وإلى ثوابه منقلبه فإن الأمير أصلحه الله من المسلمين ومن خليفتهم بالمكان الذي ليس به أحد غيره وأنه غاية عامة من ابتلى فوجد على الشخصوص إليه قوة للنظر في أموره والبلاغ منه حتى يفرج الله عنه بليته أو يتخذ منه عند السؤال عذراً جعل الله الأمير ممن يعضد ضعيف أمته ويهتم بأمر عوامهم ويرق على صاحب البلية منهم بما عسى الله أن يخلصه به منها ويوفيه عند الحاجة إليه أجره وقد كان أصلح الله الأمير إسماعيل بن الأزرق في ولايته على بعلبك فلم يبلغنا عنه إلا عفاً وقصداً وقد كان من عقوبة أمير المؤمنين أصلحه الله إياه في بشره وشعره ووضع في الحبس قبله ما قد علم الأمير فلم يبلغنا أن ذلك كان عن خيانة ظهرت منه ولا وصف بها إلا أن يكون تعلق عليه لضعف وقد كان الرجل إذا ولى ثم عزل فبلى منه أمانة حمد وخلق سبيله أو حبس فاستعين به فإن رأى الأمير أن يهتم بأمره ويعرف حاله في العذر ومبلغه من السن فيكلم أمير المؤمنين في سراحه وتخليه سبيله فعل فإن الأمير من يعرف أمير المؤمنين نصحه وفضله إذا تدبر رأيه وهو من لا يخاف جبيته ولا غلظته وما أدى الأمير إليه من حق رعيته فسيجده عند الثواب موفراً وجزاءه به مضعفاً إن شاء الله أسأل الله أن يجزى الأمير بأحسن سعيه ويبلغه في قوله وفعله رضوانه والخلود في رحمته والسلام عليك ورحمة الله.

رسالة الأوزاعي إلى المهدي بن أمير المؤمنين في شفاعة لأهل مكة في تقويتهم:

عن الأوزاعي أنه كتب إلى المهدي أما بعد فإن الله عز وجل جعل رسوله صلى الله عليه وسلم لمن بعده من ولادة المؤمنين إماماً وقادة وأسوة حسنة في رحمته بأمته والرافة عليهم وخفض جناحه لهم في عفوه عنهم قال الله عز وجل في صفة رسوله بالمؤمنين رؤف رحيم فأسأل الله

أن يعزم لأمير المؤمنين والأمير على الصبر بالتشبه بنبيه صلى الله عليه وسلم والاعتصام بسنته ومنافسة الأخيار أعمال البر ويجعل ثوابهما في يوم البعث الأمن والإفضاء إلى رضوان الله عز وجل وقد أصبح الأمير حفظه الله من خليفة المسلمين بحال الأمين المصدق إن شكا لمن مسه الضر من أمته لم يتهم نصحه ولم يجبه قوله وإن دافع عنهم رهقا أو طلب لهم عفواً أخذ بقلب الخليفة توفيقه وأحدث له بما ألقى إليه من الفضل سروراً إن شاء الله فجعل الله الأمير لأمته أمناً ومألفاً ورضاهم به وأخذ بأفئدتهم إليه ثم إنه أتاني من رجل من مقانع أهل مكة كتاب يذكر الذي هم فيه من غلاء أسعارهم وقلة ما بأيديهم منذ حبس عنهم بحرهم وأجذب برهم وهلكت مواشيهم هزلاً فالحنطة فيهم مدان بدرهم والذرة مدان ونصف بدرهم والزيت مد بدرهم ثم هو يزداد كل يوم غلاء وإن لم يأتهم الله بفرج عاجلاً لم يصل كتابي حتى يهلك عامتهم أو بعضهم جوعاً وهم رعية أمير المؤمنين أصلحه الله والمسئول عنهم وقد حدثني من سمع الزهري يقول أن عمر بن الخطاب في عام الرمادة وكانت سنة شديدة ملحة من بعد ما اجتهد في إمداد الأعراب بالإبل والقمح والزيت من الأرياف كلها حتى بلحت مما أجهدوا قام يدعو الله عز وجل فقال: اللهم اجعل أرزاقهم على رءوس الظراب فاستجاب الله عز وجل له وللمسلمين فأغاث عباده فقال عمر: والله لو أن الله عز وجل لم يفرجها ما تركت أهل بيت لهم سعة إلا أدخلت عليهم أعدادهم من الفقراء فإنه لم يكن اثنان يهلكان من الطعام على ما يقيم الواحد فبلغنا أنه حمل إلى عمر من مصر وحدها ألف ألف أردب وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ^١هل عسى أحدكم أن تبيت فصاله رواء وجاره طاو إلى جنبه — فإن رأى الأمير أصلحه الله أن يلح على أمير المؤمنين في إغاثة أهل مكة ومن حولهم من المسلمين في بره وبحره بحمل الطعام والزيت إليهم قبل أن يبتلى بهلاك أحد منهم جوعاً فعل وقد حدثني داود بن علي أن عمر بن

الخطاب قال لو هلكت شاة على شاطئ الفرات ضياعًا ظننت أن الله عز وجل سيسألني عنها وإنما الأمر واحد وكل من العدل في الحكم عليه يوم القيامة مشفق إلا أن يعفو الله عز وجل ويرحم وهى أمتكم وأحق من خلفتم فيها بالعفو والرافة رسول الله صلى الله عليه وسلم ألحكم الله به مصلحين وأوردكم عليه بإحسان والسلام كتب في خمس من شهر ربيع الآخر سنة ثنتين وخمسين ومائة.

رسالة الأوزاعي إلى أمير المؤمنين شفاعة في زياده أرزاق أهل الساحل:

عن الأوزاعي أنه كتب أما بعد: ولى الله لأمير المؤمنين أموره بما ولى به أمور من هدى واجتنبى وجعله بهم مقتدياً فإن أمير المؤمنين أصلحه الله كتب إلى أن ألا أدع أعلامه كلما فيه صلاح عامة وخاصة فإن الله عز وجل يأجر على من عمل به ويحسن عليه الثواب وأنا أسأل الله عز وجل أن يلهم أمير المؤمنين من أعمال البر ما يبلغه به عفو ورضوانه في دار الخلود وقد كان أمير المؤمنين حفظه الله قصر بأهل الساحل على عشرة دنائير في كل عام سلفاً من عطياتهم وأمير المؤمنين أصلحه الله إن نظر في ذلك عرف أنه ليس في عشرة دنائير لامرئ ذي عيال عشرة أو أدنى من ذلك أو أكثر كفاف وأن قوت عشرة وقتر على عياله فربما جمع الرجل عشرته في غلاء السعر في شراء طعام لعياله ما يجد منه بدءاً ثم يدان بعد ذلك في إدامهم وكسوتهم وما سوى ذلك من النفقه عليهم في عشرة لقابل ولو أجرى عليهم أمير المؤمنين أصلحه الله في أعطياتهم سلفاً في كل عام خمسة عشر ديناراً ما كان فيها عن مصلح ذي عيال فضل ولا قدر كفاف وأهل الساحل بمنزل عظيم غناؤه عن المسلمين فإنه لا يستمر لبعوث أمير المؤمنين فصول إلى ثغوره ولا سياحة في بلاد عدوهم حتى يكون من وراء بيضتهم وأهل ذمتهم بسواحل الشام من يدفع عنهم عدواً إن هجم عليهم وأنهم إذا كان القبيظ تناوبوا الحرس على ساحل البحر

رجالاً وركباً وإذا كان الشتاء قاسوا طول الليل وقرة ووحشته حرساً في البروج والناس خلفهم في أجنادهم في البيوت والأدفاء فإن رأى أمير المؤمنين حفظه الله أن يأمر لهم في أعطياتهم قدر الكفاف ويجريه عليهم في كل عام فعل وقد تصرمت السنة التي كانت تأتيتهم فيها عشراتهم ودخلوا في غيرها حتى اشتدت حاجتهم وظهر عليهم ضررها وهم رعية أمير المؤمنين والمسئول عنهم فإنه راع وكل راع مسئول عن رعيته وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **إِنَّهُ لَحَيْبٌ إِلَى أَنْ أَفَارِقَ الدُّنْيَا** — وليس منكم أحد يطلبني بمظلمة في نفسه ولا ماله أتم الله على الأمير نعمته وأحسن بلاءه في رعيته وقد قدم علينا رسول أمير المؤمنين أصلحه الله بالعطية من النفقة والكسوة التي أمر أمير المؤمنين عافاه الله بقسمها في أهل الساحل فقسمنها فيهم من دينار لكل رجل ودينارين وقل المال عن اليتامى والأرامل فلم يقسم فيهم منه شيء ولليتامى والأرامل وهم من المساكين في الوجوه الثلاثة في كتاب الله عز وجل من الصدقات ومن خمس المغانم وما أفاء الله على رسوله والمؤمنين من أهل القرى فإن رأى أمير المؤمنين أصلحه الله أن يبعث بما يقسم فيهم فعل جعل الله أمير المؤمنين برسوله صلى الله عليه وسلم متشبهاً في رأفته ورحمته بالمؤمنين وأتم عليه نعمته ومعافاته والسلام عليك ورحمة الله.

رسالة الأوزاعي إلى عبد الله بن محمد أمير المؤمنين يعظه:

عن الأوزاعي أنه كتب إلى عبد الله بن محمد أمير المؤمنين أما بعد فإن الله عز وجل إنما استرعاه أمر هذه الأمة ليكون فيها بالقسط قائماً وبنبيه صلى الله عليه وسلم في خفض الجناح لهم متشبهاً وبأعماله التي مع قرابته فإنه من القدوة في أعمال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في اليوم الذي قبضه الله عز وجل فيه: **يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ وَيَا صَفِيَّةُ عَمَةُ رَسُولِ اللَّهِ اعْمَلَا مَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً** — وبلغنا أنه أمر قريشاً أن

تجتمع فلما اجتمعت قال لهم: ألا إن أوليائي المتقون فمن اتقى فهو أولى بي منكم وإن كنتم أقرب منه رحمًا نسأل الله أن يسكن دهماء هذه الأمة على أمير المؤمنين ويصلح به أمورها ويرزقه رحمها والرافة بها فإن سياحة المشركين كانت عام أول في دار الإسلام وموطأ حريمهم واستنزلهم نساء المسلمين وذراريهم من معاقلهم بقاليقلا لا يلقاهم من المسلمين لهم ناصر ولا عنهم مدافع كان بما قدمت أيدي الناس وما يعفو الله عنه أكثر فإن بخطاياهم سببين وبذنوبهم استخرجت العواتق من خدورهن يكشف المشركون عوراتهن ولأند تحت أيدي الكوافر يمتهنونهن حواسر عن سوقهن وأقدامهن ويردون ولدانهن إلى صبغة الكفر بعد الإيمان مقيمات في خشوع الحزن وضرر البكاء فهن بمرأى من الله عز وجل ومسمع وبحيث ينظر الله من الناس إلى أعراضهم عنهن ورفضهم إياهن في أيدي عدوهم والله عز وجل يقول من بعد أخذه الميثاق من بنى إسرائيل أن إخراجهم فريقًا منهم من ديارهم كفر ومفاداتهم أسراهم إيمان ثم أتبع اختلافهم وعيد منه شديد لا يهتم بأمرهن جماعة ولا يقوم فيهن خاصة فيذكروا بهن جماعتهم فليستعن بالله أمير المؤمنين وليتحنن على ضعفاء أمتة وليتخذ إلى الله فيهن سبيلًا وليخرج من حجة الله عليه فيهن بأن أن يكون أعظم همه وآثر أمور أمتة عنده مفاداتهن فإن الله عز وجل حض رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على من أسلم من الضعفاء في دار الشرك فقال: {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ} [النساء: ٧٥] إلى قوله: {نَصِيرًا} هذا ولم يكن على المسلمين لوم فيهن فكيف بالتخليه بين المشركين وبين المؤمنات يظهر منهن لهم ما كان يحرم علينا إلا بِنكاح وقد حدثني الزهري أنه كان في كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كتب به بين المهاجرين والأنصار أن لا يتركوا مفرحًا إلا أن يعينوه في فداء أو عقل ولا نعلم أنه كان لهم يومئذ فيء موقوف ولا أهل ذمة يؤدون إليهم خراجًا إلا خاصة أموالهم ووصية رسول الله صلى

الله عليه وسلم المسلمين بالنساء في حجة الوداع وقوله: **إِنَّمَا أَوْصِيكُمْ بِالضَعِيفِينَ الْمَرْأَةَ وَالصَّبِيَّ** — ومن رأفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهن قوله: **إِنِّي لَا قُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أَطُولَ فِيهَا فَأَسْمَعَ بِكَاءِ الصَّبِيِّ فَاتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهَةً أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ** — فبكاؤها عليه من صبغة الكفر أعظم من بكائه بعض ساعة وهى في الصلاة وليعلم أمير المؤمنين أنه راع وأن الله مستوف منه وموفيه حين يوقف به على موازين القسط يوم القيامة أسأل الله أن يلقي أمير المؤمنين حجتَه ويحسن به الخلافة لرسوله في أمتِه ويؤتِيه من لدنِه أجرًا عظيمًا والسلام عليك.

رسالة الأوزاعي إلى سليمان بن مجالد:

عن الأوزاعي أنه كتب إلى سليمان بن مجالد أما بعد: فإننا وإن لم يكن جمعنا وإياك تلاق ولا بدء كتاب كنا على تواصل منه لم يبطئ منا عنك ما يجد المسلم من البشر لإخوانه وإن كانت الآفاق بهم مفترقة فإن الألفة بحمد الله جامعة وروح الله يجرى بين عبادِه فنسأل الله أن يجعلك وإيانا من نعمته في ذات بيننا على توفيق يدخلنا به برحمته في عبادِه الصالحين ثم إنه ينبغي لمن نعشه الله من الجهل وأفضل عليه بمعرفة ما نفع من الأمور وما ضر منها أن يتوقى إهمال نفسه ورفض السعى بالنصيحة لله عز وجل في عبادِه وإنك من الحق بسبب معرفة به وبنعمة من حجة الله عندك وبمكان ممن إليه جماع أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلا تدافع ما أنت مسئول عنه إن رأيت أن دونه قرابة أو لطف بطانة إذا كان بموقع من الحجاب عنه موضوع وممن إن قال لم يتهم وإن خولف لم يستغش فإن عذر عليه أمر في موطن أدرك غيره في سواه وقد رأيت أن أكتب إليك في أمر رأيك له موضعًا وأرجو أن تكون بما عليك فيه من الحق عالمًا إن شاء الله إن ترك لن يؤمن سوء تبعته وتعجيل الغير إلا أن يعفو الله ويلهم المخرج والتوبة إليه وذلك فيما أصاب المشركون من عذارى المسلمين ونسائهم بقالقلا وترك مفاداتهم فإن بكاءهم إلى الله عز وجل بمرأى

وأصواتهم منه بمسمع حين يكشف المشركون عوراتهن وحين ينظرن من أولادهن إلى صبغة الكفر بعد الإيمان فالله الله فيهن فإنك من أمرهن بسقب وبحيث إن قلت فيهن بخير سمع منك أوكان معذرة إلى الله عز وجل فأد رحمك الله حصتك فيهن إلى الله وحصص من لا يستطيع أن يقع موقعك من ولى أمورهم واشتر نفسك بذلك من الله بمالك فإنك تقرض كريماً شاكراً عسى الله إن مس عباده بعقاب نجاك منه أو برحمة يخصك بها وقد كتبت إلى أمير المؤمنين فيهن بكتاب بعثت به إليك لتدفعه إليه ولكن بما أحببت من تقديم القول فيهن سبباً أسأل الله أن يجعلك فيما يحب أن يقيم به عباده معاوناً وبالحق فيه قائماً وأن يؤتيك عليه من لده أجرًا عظيمًا والسلام عليك ورحمة الله.

رسالة الأوزاعي إلى عيسى بن علي:

كتب الأوزاعي إلى عيسى بن علي أما بعد: فإن سياحتكم في سبيل الله كان أمر هدى وقربة فنسأل الله أن يجعلها غزوة يقطع بها ما كانت فيه هذه الأمة من جهد حدثها ثم لا يعيدها فيه وأن يستقبل به التوبة عليهم والعفو عنهم وحسن الخلافة لنبيه صلى الله عليه وسلم فيهم أنه رءوف رحيم ونسأله أن يتم لك أجرها وتفضيل النفقة فيها وقد بلغني كتابك جواب ما كنت كتبت به إليك في أهل قال يقال تذكر أنه أضربهم أنك لم تر أحدًا به طرق يقوم بذلك ولا يذكر به وتأمرنى بمحادثتك فيهم إن قضا الله لك من غزاتك إياباً وصدقت رحمك الله فيما ذكرت فكم من موسوم يرى أن عنده خيراً من أهل الآفاق يقدم على خليفة وآخر مقيم عنده وفي صحابته ليس عنده فضل عن مسأله لنفسه فيذكر بحق ضعيف بعيد الشقة أو مستحوذ عليه في دار الشرك فإنه قد كان حين تغيرت حال الناس وفيهم بقية يذكرون فيبلغ عنهم ويقولون فيسمع منهم ثم صرت في دولة زمان أمر العامة فيه على جفاء لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً وحال الخاصة على أمور متفرقة، وعصمة رأى كل فرقة في ألفتها معرفة محبتها إلا

قليلًا فكن رحمك الله للضعفاء بحقوقهم قائمًا وبأمر سبائا المؤمنات وولدانهن مهتمًا ومن الوجد عليهن من ذل الكفر وتكشف عوراتهن ورد ولدانهن إلى صبغة الكفر بعد الإيمان معنيًا وبالسعى بالنصيحة لمن لا ولى له ولا مذكر به إلا الله عاملاً عسى الله أن يجعلك له في الأرض شاهداً وله فيما يحب أن يعمل به موالياً جعلك الله ممن اختصه برحمته فسارع إلى مغفرته وآب إلى رضوانه والسلام عليك.

رسالة الأوزاعي إلى أبي بلج:

كتب الأوزاعي إلى أبي بلج أما بعد: صرف الله عنا وعنك الميل عن الحق من بعد المعرفة والجهل عما نفع واتباع الهوى بغير هدى منه فإن أبا الدرداء كان يقول لن تزالوا بخير ما أحببتم خياركم وما قيل فيكم بالحق فعرفتكموه فإن عارف الحق كعامله وقد تقدمك أمران أما أحدهما فالكتاب له مصدق والسنة عليه شاهدة والنصر به مؤيد وأمر الناس عليه جامع وأما الآخر فالتجوز على الألفة إلى غل لامودة فيه وإلى طمع لا أمانة فيه وإلى بيع حكم لا عمل فيه حتى وهنت القوة وظهر في الإسلام فسادة وقد رأيت كتباً ظهرت فيما عندكم ومقالة سوء بعقوبة فرط وصحبة غليظة للمسلمين وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بخفض الجناح لهم وبالرأفة بهم والمعدلة بينهم يعفى عن مسيئهم فيما يجمل العفو فيه ويعاقب المذنب على قدر ذنبه لا يقتحم بالعقوبة وجهه فإنه بلغنا أن صكة الوجه يوم القيامة لا تغفر فكيف من الموت أجمل من عقوبته لا يثنى إلى حدود الله عطفه ولا يقف في سيرته على أمره يريه جهله إنه في الأمور مخير وإن غيه رشد فهو لحرم الله عند غضبه ملغى وبالعادة في دين الله وعلى عباده يسفه فإنكم جعلتم أمانتكم من أهل ذمتكم مأكلًا وبين أهوائكم حتى هلكت الأموال وعلقت الرجال مع المثلة في اللحي وتقطيع الأبخار ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما بلغنا: ^١من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجُه — فأعظم بندامة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قليل

حجيجه لقد أحدثت تلك الأعمال فيما بلغني من المسلمين ضغائن ولبعض ذوي النهى في جهاده معكم رياء بما تأتينا بذلك كتبهم يسألون عنه أسأل الله أن يثني بنا وبكم إلى أمره ويتغمد ما سلف منا ومنكم بعفوه وذكر أن أكتب إلى صاحبك فإنه يتجمل بالكتاب إليه ويستمتع مني ولعل الله عز وجل أن ينفع وقد كتبت إليه بما لم آله نصحا وقد بلغني أن عمر بن عبد العزيز أتاه أخ له من الأنصار قال له إن شئت كلمتك وأنت عمر بن عبد العزيز فيما تكره اليوم وتحب غداً وإن شئت كلمتك اليوم وأنت أمير المؤمنين فيما تحب اليوم وتكره غداً فقال عمر: بل كلمني اليوم وأنا عمر بن عبد العزيز فيما أكره اليوم وأحب غداً جعل الله في طاعته ألفتنا وفيما يحب تقلبنا ومثوانا آمين والسلام.

رسالة الأوزاعي إلى أبي عبيد الله وزير الخليفة:

عن الأوزاعي أنه كتب إلى أبي عبيد الله أما بعد: فإنني أسأل الله عز وجل أن لا يسلب منك عقلاً ولا ديناً وأن يجعل الغالب عليك فيما أنت فيه التوقي لما كنت تعرف وتكره قبل أن تبلى ولا يجهلك عنه فتنة طمع ولا كثرة شغل وأن يمن عليك بذكر قلة المتاع وتقريب حضور فراقه ثم يجعلك لحظك فيه مؤثراً وعلى سلبه منك مشفقاً فإنك المرء أحب أن أتعاهده بذكر ما عسى الله أن يحدث به خيراً فإنني أرجو أن يكون الغيب مني على النصيح لك وحب العصمة في دينك وصرف السوء عنك فيه إن شاء الله وقد سألتني إدريس الكتاب إليك فإن قدرت له رحمك الله على لحق في سكان جبلة طلبت له وأعنته بما عسى الله أن يجعل قضاء حاجته بما يتسبب منه وأعنت عليه ثم يجزيك به خيراً ويجعله من النوافل المذخورة في الآخرة إن شاء الله فعلت والسلام عليك (1).

* * *

(1) عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبو محمد الرازي التميمي، الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، 1271 - 1952، 1/ 188 - 202.

الإمام أحمد بن حنبل

الإمام أحمد بن حنبل

أعلام الفقهاء

الإمام أحمد بن حنبل

إمام السنة، وبطل المحنة، وعلم الزهاد، وصاحب الإسناد، أرادوا صرفه عن السنة فما انصرف؛ لأن أحمد ممنوع من الصرف.

فأثبت في مستنقع الهول رجله وقال لها من دون أخمصك الحشر.

تردى ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر.

رد الأغلاط فضربوه بالسياط، وأرسل على الجهمية شهياً، وأدخلوه الكير فخرج ذهباً، وأرادوا إسكاته فصاح الجمهور، وحبسوه فطارت دعوته، وقيدوه فانطلق علمه، وحاصروه فانتشرت مناقبه.

الإمامة عند أحمد قولٌ وعملٌ، سنة وجماعة، مغالبةٌ للهوى، كسرٌ للنفس، اقتداءٌ بمن سلف، احترامٌ للنص، اضطراح للفضول، محافظةٌ على الفرائض، تزودٌ بالنوافل، ترقبٌ للأجل، تقصيرٌ للأمل.

الحق حصانه، الحجة سلطانه، الصدق برهانه، السنة عنوانه، أفرح ما يكون إذا انتهى خبزه، أغيظ ما يكون إذا كثر كنزه، الدنيا عنده ثوبٌ وعمامةٌ وحذاءٌ ورغيفٌ، والآخرة سجدةٌ ودمعةٌ وفكرةٌ وعبرةٌ، هدده المعتصم فاعتصم بالله، أوثقه الوثائق وقال: وافق، فقال: معاذ الله، ناداه المتوكل إلى المأكل فقال: كلا.

سمن فهمه فهزل جسمه، عظم ثوابه فبليت ثيابه، رث منزله فحسنت منزلته.

أحمد: من المحبرة إلى المقبرة، من المحنة إلى المنحة، من التعذيب إلى التهذيب.

هو علم من أعلام الإسلام، والرجل الإمام (1)

(1) عائض القرني، سلسلة القمم لأهل الهمم. بتصرف يسير، 4 / 12.

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي البغدادي، وشيبان حي من بكر القبيلة المشهورة من قبائل العرب.

ولد في ربيع الأول على المشهور سنة 164 هجرية في بغداد، وكانت أمه قد حملت به في مرو التي كان يقيم فيها أبوه، والمعروف أن أباه مات بعد ولادته عن ثلاثين سنة تقريباً، وأحمد إذ ذاك صغير لا يدرك شيئاً بدليل أنه نفى رؤيته لأبيه وجده. وكان جده قد انتقل إلى خراسان، وكان والياً على سرخس في العهد الأموي، ثم انضم إلى صفوف الدعوة العباسية حتى أودى في هذا السبيل، ويقال: إنه كان قائداً. نشأ أحمد - رضي الله عنه - يتيمًا، وقامت على تربيته أمه - صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيباني - وترك له أبوه بيتاً في بغداد يسكنه وبيتاً آخر يغل غلة ضئيلة. وكان في هذا كشيخه الإمام الشافعي في اليتيم والفقر والحاجة وعلو الهمة. تشابهت نشأة التلميذ والأستاذ ولكل منهما أم تدفعه إلى التقدم والعلو والزيادة من الخير. نشأ الإمام أحمد - رضي الله عنه - ببغداد، وتربى فيها تربيته الأولى، وقد كانت بغداد إذ ذاك تموج بالناس الذين اختلفت مشاربهم، وتخالفت مآربهم، وزخرت بأنواع العلوم والمعارف، ففيها القراء والمحدثون والمتصوفة وعلماء اللغة والفلاسفة وغيرهم، فقد كانت حاضرة العالم الإسلامي، وقد توافر فيها ما توافر في حواضر العالم من تنوع المسالك وتعدد السبل وتنازع المشارب ومختلف العلوم حتى إذا أتم حفظ القرآن وعلم اللغة اتجه إلى الديوان ليتمرن على التحرير والكتابة، ولقد قال في ذلك: كنت وأنا غليم أختلف إلى الكتاب، ثم أختلف إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة. وكان وهو صبي محل ثقة الذين يعرفونه من الرجال والنساء حتى إنه ليروى أن الرشيد وهو بالرقعة مع جنده وكان أولئك الجند يكتبون إلى نسائهم بأحوالهم فلا يجد النساء غير أحمد يقرأ لهن ما كتب به إليهن، ويكتب لهن الردود ولا يكتب ما يراه منكراً من القول.

شب أحمد على هذا، واستمر في طلب العلم بعزم صادق وجد، وأمه تشجعه على ذلك، وترشده وتدعوه إلى الرفق بنفسه إذا خشيت عليه الإرهاق، وحكى ذلك أحمد عنها فقال: كنت ربما أردت البكور في الحديث فتأخذ أُمي بثيابي وتقول: اصبر حتى يؤذن الناس أو حتى يصبحوا، وكان اتجاهه إلى الأخذ عن رجال الحديث. ويروى أن أول تلقيه كان على القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة فقد قال: أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف، وفي تاريخ الحافظ الذهبي قال خلال: كان أحمد قد كتب كتب الرأي، وحفظها ثم لم يلتفت إليها.

اتجه أحمد إلى كتابة الحديث من سنة 179 هـ حينما كان عمره ست عشرة سنة، واستمر مقيماً في بغداد يأخذ عن شيوخ الحديث فيها حتى سنة مائة وست وثمانين، وابتدأ في هذه السنة رحلته إلى البصرة، ثم إلى الحجاز واليمن وغيرها، واستمر ملازماً لشيخه هشيم بن بشير بن أبي خازم الواسطي حتى سنة وفاته 183.

قال صالح بن أحمد قال أبي: كتبت عن هشيم سنة 179، ولزمناه إلى سنة ثمانين وإحدى وثمانين واثنين وثمانين وثلاث. ومات في سنة ثلاث وثمانين. كتبنا عنه كتاب الحج نحواً من ألف حديث وبعض التفسير وكتاب القضاء وكتباً صغاراً، فقال صالح: يكون ثلاثة آلاف، قال: أكثر، ثم ارتحل في طلب العلم إلى الحجاز وغيره وقد ذكر ابن كثير تفصيل رحلاته الحجازية في تاريخه البداية والنهاية جزء 10 ص 326 وكان من أبرز الشخصيات التي التقى بها الإمام أحمد أثناء رحلاته وفي إقامته، الإمام الشافعي - رضي الله عنه - فقد أخذ عنه، واستفاد منه كثيراً، وكان الشافعي يجله ويقدره ويعول عليه في معرفة صحة الحديث أحياناً، ورشحه الإمام الشافعي عند الرشيد لقضاء اليمن فأبى أحمد، وقال له: جئت إليك لأقتبس منك العلم تأمرني أن أدخل لهم في القضاء، وكان ذلك في آخر حياة الرشيد، ثم رشحه الشافعي مرة ثانية لقضاء اليمن عند الأمين

فأبى أحمد وكان ذلك 195 هـ.

ودخل الشافعي يوماً على أحمد بن حنبل فقال: يا أبا عبد الله كنت اليوم مع أهل العراق في مسألة كذا فلو كان معي حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فدفع أحمد إليه ثلاثة أحاديث فقال له: جزاك الله خيراً. وقال الشافعي لأحمد يوماً: أنتم أعلم بالحديث، والرجال، فإذا كان الحديث الصحيح فعلموني إن شاء يكون كوفياً أو شامياً حتى أذهب إليه إذا كان صحيحاً، وهذا من كمال دين الشافعي وعقله حيث سلم هذا العلم لأهله؛ وقال عبد الوهاب الوراق: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، قالوا له: وأي شيء بان لك من علمه وفضله على سائر من رأيت؟ قال: رجل سئل عن ستين ألف مسألة فأجاب فيها بأن قال (أخبرنا) و(حدثنا). وقال أبو زرعة الرازي:

حفظ أحمد بن حنبل بالذاكرة على سبعمئة ألف حديث، وفي لفظ آخر قال أبو زرعة الرازي: كان أحمد يحفظ ألف ألف، فقل له: وما يدريك؟ قال: ذكراته فأخذت عليه الأبواب.

كان الإمام أحمد يقول: - فاتني مالك فأخلف الله علي بسفيان بن عيينة؛ وفاتني حماد بن زيد فأخلف الله علي إسماعيل ابن عليه. وكان ملازماً لكتابة الحديث فانشغل بذلك عن كل شيء حتى عن الزواج فلم يتزوج إلا بعد الأربعين. وقيل له: يا أبا عبد الله قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين فقال: مع المحبرة إلى المقبرة، فأنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر.

وقد روى المزني: أن الشافعي قال: ثلاثة من عجائب الزمان: عربي لا يعرب كلمه وهو أبو ثور، وأعجمي لا يخطئ في كلمة وهو الحسن الزعفراني، وصغير كلما قال شيئاً صدقه الكبار وهو أحمد بن حنبل. وقال الشافعي: - خرجت من بغداد ما خلفت بها أحداً أورع ولا أفقه

ولا أتقى من أحمد بن حنبل، ولم يزل على ذلك مكباً على الحديث والإفتاء وما فيه نفع المسلمين، والتف حوله أصحابه يأخذون عنه الحديث والفقه وغيرهما، وألف المسند في مدة ستين سنة تقريباً، وكان قد ابتدأ بجمعه في سنة 180 هـ أول ما بدأ بطلب الحديث، وسيأتي الكلام على المسند إن شاء الله تعالى، وألف في التفسير، وفي الناسخ والمنسوخ، وفي التاريخ، وفي المقدم والمؤخر في القرآن، وفي جوابات القرآن، وألف المناسك الصغير والكبير، وفي حديث شعبة، وألف كتاب الزهد، وكتاب الرد على الجهمية والزنادقة، وكتاب الصلاة، وكتاب السنة وكتاب الورع والإيمان، وكتاب العلل والرجال، وكتاب الأشربة، وجزءاً في أصول السنة، وفضائل الصحابة، وله قصائد متناثرة، وأجزاء في بعض الأصول والمسائل، كما نقل عنه مجموعة من المسائل، منها مسائل الإمام أحمد برواية أبي داود السجستاني صاحب السنن وهي مطبوعة نشرها السيد محمد رشيد رضا بمطبعة المنار وتقع في 328 صفحة. وهي أجوبة على بعض المسائل التي سئل عنها الإمام أحمد في الفقه؛ ومنها مسائل ابنه عبد الله بن أحمد، ومسائل إسحق بن إبراهيم رواية ابن منصور المروزي وهي مخطوطة وتوجد في المكتبة الظاهرية بدمشق وغير ذلك من مؤلفاته رضي الله عنه.

كان في بغداد أيام المأمون تيارات ثقافية متضادة: منها ما كان عليه السلف الصالح من أهل السنة والجماعة الممثل في حلقات أهل الحديث والفقهاء وغيرهم ممن يرجعون إلى النصوص الشرعية. ويثبتون الله ما أثبتته لنفسه وما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تأويل ولا تعطيل ومن أبرز هؤلاء: الإمام أحمد ومحمد بن نوح وأحمد بن نصر الخزازي وغيرهم. ومنها تيار المعتزلة القائلين بخلق القرآن وتأويل آيات الصفات وغير ذلك مما هو معروف من مذهبهم: كالقول بالعدل والتوحيد والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان الرشيد يقاوم القول بخلق القرآن فلم يجروا أحد عليه مدة حياته كما روي عن محمد بن نوح قال: سمعت هارون الرشيد يقول: بلغني أن بشرًا المريسي زعم أن القرآن مخلوق، علي إن أظفرتني الله به لأقتلنه قتلة ما قتلها أحد قط، فلما مات الرشيد وتولى الأمين أراد المعتزلة حمله على ذلك فأبى.

فلما تولى المأمون الخلافة، وكان يميل إلى المعتزلة ويقربهم وكان أستاذه أبو الهذيل العلاف من زعماء المعتزلة وكذلك قاضيه أحمد بن أبي دؤاد فأشار عليه ابن أبي دؤاد بإظهار القول بخلق القرآن، فأظهر القول بذلك عام 212 هـ. فكان المأمون يناظر من يغشى مجلسه في ذلك ولكنه لم يلزم بذلك أحدًا بل ترك الناس أحرارًا فيما يذهبون إليه، فلما كان 218 هـ رأى المأمون حمل الناس وخصوصًا العلماء والقضاة والمفتين على القول بخلق القرآن الكريم؛ وكان المأمون آنذاك في الرقة فأرسل إلى واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم وهو صاحب الشرطة ببغداد أن يجمع من حضرته من القضاة ويمتحنهم فيما يقولون ويعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه، ويعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله بمن لا يقول بهذا القول وكان ذلك في ربيع الأول من عام 218 هـ.

فثار العلماء حين سمعوا كتاب المأمون إلى نائبه في بغداد وقال واحد منهم: لقيت ثمانمائة شيخ ونيقًا وسبعين فما رأيت أحدًا يقول بهذه المقالة - يعني خلق القرآن - وقد حبس وعذب وقتل في هذه المحنة خلائق لا يحصون كثرة كما يراه القارئ المتتبع لتلك الحقبة من التاريخ، وصارت هذه المحنة هي الشغل الشاغل للدولة والناس خاصتهم وعامتهم وأصبحت حديث مجالسهم وأنديتهم وحاضرتهم وباديتهم في العراق وغيره وقام الجدل فيها بين العلماء، ووقع امتحان الأمراء للعلماء والقضاة والفقهاء والمحدثين في مصر والشام وفارس وغيرها حتى تناول الإمام البخاري وشيوخه الأجلة الأفضال: يحيى بن معين وعلي بن المديني ويزيد بن هارون

وزهير بن حرب وغيرهم من الأئمة المجمع على جلالته وإمامته في حفظ السنة المطهرة وعلومها.

وأرسل المأمون لصاحب الشرطة في بغداد بأن يوافيه بجواب من امتحن منهم فوافاه بجوابهم وإذا هو يتضمن إنكار هذه المقالة والتشنيع على من قال بها فلم يقتنع المأمون بذلك، فبعث إليه بكتاب ثان يأمره فيه بإشخاص سبعة من المحدثين المشهورين في بغداد أو ثمانية وهم :- محمد بن سعد كاتب الواقدي وأبو مسلم ويحيى بن معين وزهير بن حرب وإسماعيل بن داود وإسماعيل بن أبي مسعود وأحمد بن إبراهيم الدورقي. لكي يمتحنهم وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل. إلا أن ابن أبي دؤاد حذف اسم الإمام أحمد من القائمة لمعرفة بصلابته وشدة في هذا الأمر.

ثم أمر المأمون بعد ذلك بحمل الإمام أحمد ومحمد بن نوح إليه في طرسوس فحملا إليه بأغلالهما فأما محمد بن نوح فمات في أثناء الطريق قبل أن يصل. وأما الإمام أحمد ومرافقوه فبلغهم وفاة المأمون قبل وصولهم فعادوا إلى بغداد، وألقي الإمام أحمد في الحبس. ويقال: إن أحمد دعا على المأمون وكانت وفاة المأمون في عام 218.

ثم تولى الخلافة المعتصم، وكان المأمون قد أوصاه بتقريب ابن أبي دؤاد والاستمرار بالقول بخلق القرآن وأخذ الناس بذلك. وكان أحمد في السجن فاستحضره من السجن، وعقد له مجلساً مع ابن أبي دؤاد وغيره؛ وجعلوا يناقشونه في خلق القرآن، وأحمد يستدل عليه بالنصوص الواردة. ويقول لهم: أعطوني دليلاً من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانفض المجلس ذلك اليوم دون شيء، وأمر المعتصم برده إلى السجن. وفي اليوم التالي أحضر من السجن، وعقد المجلس وكان موقفه رائعاً جليلاً كموقفه في الأمس ورغم المحاولات والمناقشات صمم الإمام أحمد على كلامه، وفشل القوم كفشلهم بالأمس. وانفض الاجتماع، ورد الإمام أحمد إلى السجن، وفي اليوم الثالث أعيد انعقاد المجلس، وأحضر

الإمام أحمد من السجن وأعيدت المناقشة. وكان المعتصم عند عقد مجلس المناظرة قد بسط بمجلسه بساطاً، ونصب كرسيًا جلس عليه وازدحم الناس إذ ذاك كازدحامهم أيام الأعياد، وكان مما دار بينهم أن قال للإمام أحمد: ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله غير مخلوق قال الله تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ} [التوبة: ٦].

قال: هل عندك حجة غير هذا؟ قال: نعم قول الله تعالى: {الرَّحْمَنُ} [الرحمن: ١]، {عَلَّمَ الْقُرْآنَ} [الرحمن: ٢]، ولم يقل خلق القرآن، وقال تعالى: {يَس} [يس: ١]، {وَأَنْقُرْآنَ الْحَكِيمِ} [يس: ٢]، ولم يقل المخلوق، فقال المعتصم: أعيده للحبس وتفرقوا، فلما كان من الغد جلس المعتصم مجلسه ذلك. وقال: هاتوا أحمد بن حنبل فاجتمع الناس، وسمعت لهم ضجة ببغداد فلما جيء به، وقف بين يديه والسيوف قد جردت والرماح قد ركزت والأتراس قد نصبت والسياط قد طرحت.

فسأله المعتصم عما يقول بالقرآن. قال: أقول غير مخلوق، وأستدل بقوله تعالى: {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي} [السجدة: ١٣] الآية، قال: فإن يكن القول من الله تعالى فإن القرآن كلام الله، وأحضر المعتصم له الفقهاء والقضاة فناظروه بحضرته ثلاثة أيام وهو يناظرهم، ويظهر عليهم بالحجج القاطعة ويقول: أعطوني دليلاً من كتاب الله أو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال المعتصم قهرنا أحمد وحلف ليضربنه بالسياط، وأمر الجلادين فأحضروا ولما جيء بالسياط نظر إليها المعتصم فقال: انتوني بغيرها.

قال أبو عبد الله: ثم صيرت بين العقابين (١). فعلق الإمام أحمد بالعقابين، ورفع حتى صار بينه وبين الأرض مقدار قبضة، قال أحمد: وشدت يداي وجيء بكرسي فوضع له - يعني للمعتصم - وابن أبي دؤاد قائم على رأسه والناس أجمعون قيام ممن حضر، فقال لي إنسان ممن

(١) والعقaban بضم العين خشبتان يوضع بينهما الرجل ليجلد قاله في تاج العروس.

شهدي: خذ بنابي الخشبتيين بيدك، وشد عليهما فلم أفهم ما قال. قال: فتخلعت يداي لما شددت، ولم أمسك الخشبتيين، قال أبو الفضل - يعني ابنه صالحا - ولم يزل أبي - رحمه الله - يتوجع منهما من الرسغ إلى أن توفي، قال أبو عبد الله فقلت: يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ إِلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثٍ** — (1). الحديث. فبم تستحل دمي وأنا لم آت شيئا من هذا. يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدي الله عز وجل كوقوفي بين يديك، يا أمير المؤمنين راقب الله، فلما رأى المعتصم ثبوت أبي عبد الله وتصميمه لان فخشي ابن أبي دؤاد من رأفته عليه فقال: يا أمير المؤمنين إن تركته قيل: إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله، أو أن يقال: غلب خليفتين فهاجه ذلك، وطلب كرسيًا جلس عليه، وقام ابن أبي دؤاد وأصحابه على رأسه ثم قال للجلادين: تقدموا وجعل أحدهم يتقدم إلى الإمام أحمد فيضربه سوطين ثم يتنحى ثم يتقدم الآخر فيضربه سوطين، والمعتصم يحرضهم على التشديد في الضرب، ثم قام إليه المعتصم وقال له يا أحمد: علام تقتل نفسك إني والله عليك لشفيق فما تقول؟ فيقول أحمد: أعطوني دليلاً من كتاب الله وسنة رسوله حتى أقول به، ثم رجع المعتصم، فجلس فقال للجلاد: تقدم وحرضه على إيجاعه بالضرب ويقول: شدوا قطع الله أيديكم، قال أحمد: فذهب عقلي عند ذلك فلم أفق إلا وقد أفرج عني ثم جيء بي إلى دار إسحاق ابن إبراهيم فحضرت صلاة الظهر فصليت فقالوا صليت والدم يسيل منك فقلت: قد صلى عمر - رضي الله عنه - وجرحه يثعب دمًا وكان ذلك في رمضان سنة 218. ثم نقل أحمد إلى بيته واستقر فيه حيث لم يقو على السير فلما برئت جراحه، وقوي جسمه خرج إلى المسجد،

(1) صحيح البخاري الديات (6484)، صحيح مسلم القسامة والمحاربين والقصاص والديات (1676)، سنن الترمذي الديات (1402)، سنن النسائي تحريم الدم (4016)، سنن أبو داود الحدود (4352)، سنن ابن ماجه الحدود (2534)، مسند أحمد بن حنبل (382/1)، سنن الدارمي الحدود (2298).

وصار يدرس في المسجد ويملي الحديث حتى مات المعتصم.

فلما ولى الواثق منع الإمام أحمد من الاجتماع بالناس وقال: لا تساكني في بلد أنا فيه فأقام الإمام ببغداد مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق، وذلك مدة خمس سنوات تقريباً.

فلما تولى المتوكل الخلافة سنة 232 بقيت المحنة قائمة خلال عامين من حكمه ثم رفعت سنة 234 وكانت قد بدأت من السنة الأخيرة من خلافة المأمون وهي سنة 218 وانتهت في السنة الثانية أو الثالثة من خلافة المتوكل سنة 234 حيث أوقف المتوكل أخذ الناس بالمحنة. وأصدر إعلاناً عاماً في كافة أنحاء الدولة نهى فيه عن القول بخلق القرآن، وتهدد من يخوض في ذلك بالقتل فعم الناس الفرح في كل مكان، وأثنوا على سجايا الخليفة ومآثره ونسوا شروره ورذائله، وسمع الدعاء له من كل جانب، وذكر اسمه مع اسمي الخليفين أبي بكر وعمر وعمر بن عبد العزيز.

وكان المتوكل يكره العلويين، ويسرف في مطاردتهم فجعل المعتزلة يحيكون دسائسهم لدى الخليفة ضد الإمام أحمد، ويتهمونهم بالجنوح إلى العلويين، وتتطور المحنة لتأخذ لونا آخر، وتشتد الرقابة على الإمام أحمد وامتدت أعناق أهل الفتنة فاتهموا الإمام أحمد لدى الخليفة أنه يؤوي في بيته أحد العلويين ذوي القدر الخطير ويثور الخليفة فيرسل من فوره إلى بغداد لمفاجأة بيت الإمام أحمد والقبض على العلوي المزعوم، وفي ليلة من الليالي بعد أن نام الناس، وهدأت الحركة وأرخى الليل سدوله على بغداد الهادئة الساكنة سمع أحمد دقاً عنيقاً على باب داره فقام إلى الباب ففتحه فإذا به أمام رجلين وامرأتين أما الرجلان فهما مظفر حاجب عبد الله بن إسحاق نائب بغداد والآخر ابن الكلبى صاحب البريد. وأما المرأتان فمهمتهما هي مهمة البوليس النسوي في أيامنا هذه. قال مظفر: يقول لك الأمير: إن أمير المؤمنين كتب إليه أن عندك طلبته العلوي، وقال ابن الكلبى: نعم إنك تؤوي في بيتك علويًا من أعداء أمير المؤمنين وقد جننا

لأخذه، فقال الإمام أحمد: إني لا أعرف هذا ولا أرى سوى طاعة أمير المؤمنين في العسر واليسر والمنشط والمكره والأثرة. وسكت الإمام قليلاً سكتة ذكر فيها حرمانه من المسجد بدون مسوغ، واستأنف يقول: إني أتأسف عن تأخري عن الصلاة وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين، قال ابن الكلبي: قد أمرني أمير المؤمنين أن أحلفك ما عندك طلبته أفتحلف؟ قال أحمد: إن استحلقتني حلفت فأحلفه ابن الكلبي بالله، فحلف وبالطلاق فحلف. وكان نساء الدار والصبيان قد حضروا، وحضر ابنه صالح فقال ابن الكلبي: أريد أن أفتش منزلك ومنزل ابنك صالح، وقام مظفر وابن الكلبي ففتشا البيت وفتشت المراتان النساء فلم يعثروا على شيء وفتشا بيت صالح، فلم يجدوا شيئاً وفتشت المراتان أماكن الحريم وجاءوا بشمعة فأدلوها في البئر، وانصرفوا بعد أن لم يجدوا شيئاً.

وتولى ابن الكلبي وصف حال الإمام أحمد للمتوكل من احتباسه عن الجمعة والجماعة بدون مسوغ ومن صدق لهجته فيما يكن لأمر المؤمنين من السمع والطاعة في المنشط والمكره ومن براءته مما عزاه إليه خصومه، وأذن الله بانكشاف الغمة فجاءه بعد يومين كتاب من علي بن الجهم أن أمير المؤمنين قد صح عنده براءتك مما قذفت به وكان أهل البدع قد مدوا أعناقهم فالحمد لله الذي لم يشمتهم بك.

وأقبلت الخلافة على الإمام تخطب وده وتطلب المؤانسة بقربه والتبرك بدعائه وأخذت الأيام تدبر مولية عن المعتزلة. فمرض ابن أبي دؤاد بالفالج، وجاء بعض أعيان الدولة يتقربون إلى الإمام أحمد بذكر ما نزل بابن أبي دؤاد ويومئون إلى أن كرامة الإمام على الله أوجبت ذلك القصاص فلم يلتفت إليهم الإمام أحمد وصمت ولم يرد، وظهر عليه التبرم بما قالوا.

ومضت الأيام في إدارها على المعتزلة فغضب الخليفة على ابن أبي دؤاد وقبض على أبنائه وصادر أملاكه وأمواله وجواهره، وأخذ ابن أبي

دؤاد إلى بغداد بعد أن أشهد عليه ببيع ضياعه فكان يأتي إلى الإمام أحمد من يحمل إليه تلك الأنباء فيكرم نفسه أن تنزل إلى مستوى الشماتة الرخيص بل كان الخليفة نفسه يرسل إليه كأنه يستفتيه فيما يرى من مصير أموال ابن أبي دؤاد فكان يسكت ولا يجيب بشيء وهو موقف جدير أن يلقي على الناس دروساً في عظمة النفس وشدة الإقبال على جلائل الأمور والانصراف عن سفاسفها وتوافهها رحم الله الإمام أحمد لقد كان إماماً في كل مكرمة.

ثم أرسل إليه الخليفة المتوكل كتاباً يقول فيه: قد صح نقاء ساحتك، وقد أحببت أن أنس بقربك وأتبرك بدعائك وقد وجهت إليك بعشرة آلاف درهم معونة على سفرك وفرح آل أحمد بالعافية تقبل مع السعة والجاه، وحل بالدار نشاط وأنس، ودب فيها بعد الوحشة دبیب الحركة بمن صار يغشاها من رسل الخليفة وكبار رجال الدولة. قال ابنه صالح: لما جاء كتاب المتوكل بالمال ناداني أبي في جوف الليل فقممت إليه فإذا به يبكي فلما رأيته قال: ما نمت ليلتي هذه سلمت من هؤلاء حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم.

فلما كان الصباح جاء الحسين البزاز والمشايخ فقال: يا صالح جئني بالميزان وبالدرهم ثم أخذ يزن المال ويقول: وجهوا هذا إلى أبناء المهاجرين وهذا إلى أبناء الأنصار وهذا لفلان ليفرق في ناحيته وهذا لفلان وهكذا حتى فرقها كلها فلما فرقها أحس أنه فرق معها كربته وتنفس الصعداء ونفض الكيس ثم تصدق به.

وكان لا بد لأحمد من تلبية أمر الخليفة لا خضوعاً لقوة السلطان بل وفاء لحق السمع والطاعة الذي فرضه الإسلام لأولي الأمر في غير معصية، فخرج من بغداد إلى سامراء ومعه يعقوب المعروف بقوصرة وهو الرسول الذي حضر إليه من لدن الخليفة بالمال والخطاب وخرج معه بعض بنيه وكان يعقوب شديد السرور بنجاح مهمته فقد قبل أحمد بن حنبل

أن يخرج معه، وكان يدرك مبلغ السرور الذى سيدخل قلب أمير المؤمنين بذلك.

نزل الإمام بسامراء ضيقاً على أمير المؤمنين ولم يكن للخليفة من هم بعد أن عرف كل شيء عن أحمد إلا أن يرضيه، وألاً يحمله على شيء يكرهه.

عرف الخليفة أن أحمد لا يقبل ماله فلم يكن له بد من النزول على رغبته واحترام إرادته ولكن لا بد من أن يصله في قرابته فليكن المال لأهله وبنيه دون أن يعلم وتسلم صالح ابنه بأمر الخليفة عشرة آلاف على الفور مكان التي فرقها أبوه ببغداد على أبناء المهاجرين والأنصار وسواهم.

وعرف رجال القصر لهفة الخليفة وشدة إقباله على أحمد وإكباره له فأقبلوا عليه بمثل ما أقبل سيدهم كل يخطب وده ويبتغي إليه المنزلة ويحاول أن يسره بما يستطيع.

أمر الخليفة أن تفرش الدار التي هيئت له بالفرش الوثيرة وأن ترتب له ومن معه من بنيه مائدة شهية واسعة وأمر أن يقطع له ملابس فاخرة: طيلسان وقلنسوة وشارات رسمية من السواد الذي اختارته الدولة العباسية شعاراً لها.

ويحضر يحيى بن خالد فيقول: إن الخليفة أمرني أن أصير لك مرتبة في أعلى ويصير ولده المعتز في حرك تؤدبه بما شئت من أدب القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء يحيى في اليوم التالي يدعوه أن يركب إلى دار المعتز ويقول في لهجة مهذبة: تركب يا أبا عبد الله فيقول الإمام أحمد: ذاك إليكم وكان يوماً مشهوداً في القصر ألبسوه هناك الطيلسان وما أمر له به الخليفة من ألوان الثياب والشارات ويقول بعض الخدم: إن الخليفة كان مع أمه مستترين

خلف ستار من ستور القصر يرقب في خفاء ما يكون من أحمد، فلما رآه يدخل أخذته خفة وغشيته هزة من الفرح ولمع السرور في عينيه وقال. يا أمه قد أنارت الدار بدخول أحمد.

يقول ابنه صالح: لما عاد أبي من القصر إلى الدار التي أعدت له نزع عنه الثياب التي أنعم بها عليه. وجعل يبكي ويقول: سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم، ما أحسبني سلمت من دخولي على هذا الغلام فكيف بالخليفة الذي يجب نصحه من وقت أن تقع عيني عليه إلى أن أخرج من عنده؟! ثم التفت إلى الملابس وقال لابنه: وجه بهذه الثياب إلى بغداد لتباع وحذار أن يشتري أحد منكم شيئاً منها.

أما الفرش الوثيرة الطرية فقد نحى نفسه عنها، وألقى بنفسه على مضرية خشنة له، ونظر إلى حجرة في جانب الدار فأمر أن يحول إلى ركن منها وأن لا يسرج فيها سراج قط، وأما المائدة فقد عافها فلم يدخل بطنه شيء منها وكانت شهية حافلة.

وأخيراً بلغ الضجر بالإمام أحمد كل مبلغ وبرم بكل شيء وزهد في كل شيء ولم يعد أبغض إليه من أن يلقي رجال الخليفة حتى كان يدعم مع بنيه في الدهليز، ويقبل على صلاته ما شاء الله، وكان المرض ينزل به فيراه عافية سابعة لما فيه من عافية احتجاجه عنهم. اشتكت عينه مرة فلما برئت ضاق ببرئها وقال لولده صالح: ألا تعجب كانت عيني تشتكي فتمكث حياً حتى تبرأ ثم هي في هذه المرة تبرأ في سرعة. والله لقد تمنيت الموت في الأمر الذي كان أيام المعتصم وإني لأتمنى الموت في هذا، إن هذا فتنة الدنيا وكان ذاك فتنة الدين نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وأما مرضه ووفاته فإنه مرض تسعة أيام قال ابنه عبد الله: سمعت أبي يقول: استكملت سبعا وسبعين سنة فحم من ليلته وهو محموم يتنفس تنفساً شديداً، وقال صالح: وكنت قد عرفت علته وكنت أمرضه إذا اعتل.

وجاء الفتح بن سهل إلى الباب ليعوده فحجبه وأتى ابن علي بن الجعد فحجبه، وكثر الناس فقال لي: أي شيء ترى؟ قلت: تأذن لهم فيدعون لك قال: أستخير الله تعالى فأذن لهم فجعلوا يدخلون عليه أفواجًا، ويسلمون عليه ويرد عليهم بيده، ويسألونه عن حاله، ويدعون له حتى تمتلئ الدار، ثم يخرجون ويدخل فوج آخر، وكثر الناس، وامتأ الشارح، وأغلقت باب الزقاق، وجاء رجل من جيراننا قد خضب فسر به، وقال: إني لأرى الرجل يجيء شيئًا من السنة فأفرح به فدخل فجعل يدعو له فيقول أبي: ولجميع المسلمين.

وجاء رجل فقال: تلتف لي بالإذن عليه فإني قد حضرت ضربه يوم الدار، وأريد أن استحلّه. فقلت له، فأمسك فلم أزل به حتى قال: أدخله فأدخلته فقام بين يديه وجعل يبكي وقال: يا أبا عبد الله أنا كنت ممن حضر ضربك يوم الدار، وقد أتيتك فإن أحببت القصاص فأنا بين يديك وإن رأيت أن تحلني فعلت. قال: على أن لا تعود لمثل ذلك قال: نعم قال: فإني جعلتك في حل فخرج يبكي وبكى من حضر من الناس ثم قال: وجه فاشتر تمرًا وكفر عني كفارة يمين فأخبرته بأني قد فعلت قال: الحمد لله. ثم قال: اقرأ علي الوصية فقرأتها فأقرّها وكنت أنام إلى جنبه فإذا أراد حاجة حركني فأناوله، وجعل يحرك لسانه ولم يئن إلا في الليلة التي توفي فيها، ولم يزل يصلي قائمًا أمسكه فيركع ويسجد وأرفعه في ركوعه ولم يزل عقله ثابتًا.

وتسامع الناس بمرضه وكثروا وسمع السلطان بكثرة الناس فوكل ببابه وباب الزقاق المراقبة وأصحاب الأخبار، ثم أغلق باب الزقاق حتى تعطل بعض الباعة، وحيل بينهم وبين البيع والشراء، وكان الرجل إذا أراد أن يدخل إليه ربما دخل من بعض الدور وربما تسلق، وجاء أصحاب الأخبار فقعدوا على الأبواب وجاءه صاحب ابن طاهر فقال: إن الأمير يقرئك السلام وهو يشتهي أن يراك فقال: هذا مما أكرهه وأمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره، وأصحاب الخير يكتبون بخبره إلى العسكر. والبرد

تختلف كل يوم وجاء بنو هاشم فدخلوا عليه وجعلوا يبكون، وجاء قوم من القضاة وغيرهم فلم يؤذن لهم فلما كان قبل وفاته بيوم أو يومين قال: ادعوا لي الصبيان بلسان ثقيل فجعلوا ينضمون إليه وجعل يشمهم ويمسح بيده على رؤوسهم وعينه تدمع فقال له رجل: لا تغتم لهم يا أبا عبد الله فأشار بيده فظننا أن معناه إني لم أرد هذا المعنى. وكان يصلي قاعدًا ويصلي وهو مضطجع لا يكاد يفتر ويرفع يده في إيماء الركوع واشتدت علته يوم الخميس ووضأته فقال: خلل الأصابع، وثقل ليلة الجمعة فلما كان يوم الجمعة الموافق اثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام 241 توفي صدر النهار لساعتين منه فصاح الناس وعلت الأصوات بالبكاء حتى كأن الدنيا قد ارتجت وامتألت السكك والشوارع وقال صالح: وجه ابن طاهر يعني نائب بغداد بحاجبه مظفر ومعه غلامين معهما مناديل فيها ثياب وطيب فقلت: أقرئ الأمير السلام وقل له: إن أمير المؤمنين قد كان أعفاه في حياته مما كان يكره، ولا أحب أن أتبعه بعد موته بما كان يكرهه في حياته.

وقد كانت الجارية غزلت له ثوبًا عشاريًا قوم بثمانية وعشرين درهماً ليقطع منه قميصين فقطعنا له لفافتين وأخذ منه فوران لفافة أخرى فأدرجناه في ثلاث لفائف واشترينا له حنوطًا وفرغ من غسله وكفناه، وحضر نحو مائة من بني هاشم ونحن نكفنه، وجعلوا يقبلون جبهته حتى رفعناه على السرير، وقال صالح: وجه الأمير ابن طاهر فقال: من يصلي عليه؟ قلت: أنا، فلما صرت إلى الصحراء إذا ابن طاهر واقف فخطا إلينا خطوات وعزانا ووضع السرير فلما انتظرت هنيهة تقدمت وجعلت أسوي صفوف الناس فجاءني ابن طاهر فقبض هذا على يدي ومحمد بن نصر على يدي وقالوا: الأمير. فمانعتهم فنحياني وصلى ولم يعلم الناس بذلك فلما كان من الغد علم الناس فجعلوا يجيئون ويصلون على القبر، ومكث

الناس ما شاء الله يأتون فيصلون على القبر فكانت الصفوف من الميدان إلى قنطرة باب القطيعة سوى ما كان في الأطراف والحواري والسطوح والمواضع المتفرقة، ومن كان في السفن في الماء وقد حزر من حضر جنازته فكانوا سبعمائة ألف وقيل: ثمانمائة ألف وقيل: بلغوا ألف ألف وثلاثمائة ألف، وقيل غير ذلك مما يدل على أنهم جمع غفير وكان - رضي الله عنه - يقول في حال صحته: قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز.

وقد صنف في ترجمته مصنفات مستقلة منها: المناقب لأبي الفرج بن الجوزي في مجلد، ومنها لأبي إسماعيل الأنصاري في مجلدين، ومنها لأبي بكر البيهقي في مجلد، ومنها لأبي زهرة مجلد، ومنها لأحمد الدومي في مجلد، وغير ذلك عدا ما في غضون كتب التاريخ والتراجم من ذكر مناقبه وثناء الناس عليه رحمه الله وسائر أئمة المسلمين وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم (1).

مواقف من حياة الإمام أحمد:

فانظر هل لهذين من خلف أو عوض؟!

عن عبد الله بن الإمام أحمد قال، قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي، فأني أسمعك تكثر الدعاء له؟ فقال: يا بني: كان الشافعي رحمه الله كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف أو عوض؟

(1) المصادر: - القاضي أبو الحسين بن أبي يعلى: طبقات الحنابلة. - ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب. أبو زهرة: أحمد بن حنبل. الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي: أصول مذهب الإمام أحمد. - عبد الحليم الجندي: أحمد بن حنبل إمام أهل السنة. أحمد عبد الجواد الدومي: أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا - ولتر م. باتون ترجمة عبد العزيز عبد الحق: أحمد بن حنبل والمحنة.

أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي: الفتح الرباني وشرحه بلوغ الأمان، ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد. عبد القادر بن أحمد بن بدران: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل. عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، أحمد بن حنبل، مجلة البحوث الإسلامية -.

إذا أردت أن تتفقه فتعال فخذ بركابه من الجانب الآخر:

وعن صالح بن الإمام أحمد قال: لقيني يحيى بن معين فقال: أما يستحيي أبوك مما يفعل؟ فقلت: وما يفعل؟ قال: رأيته مع الشافعي والشافعي راكب، وهو راجل أخذ بزمam دابته. فقلت لأبي ذلك، فقال: إن لقيته فقل: يقول لك أبي: إذا أردت أن تتفقه فتعال فخذ بركابه من الجانب الآخر.

فضيه يقول الشافعي:

وعن أبي حميد بن أحمد البصري قال: كنت عند أحمد بن حنبل نتذاكر في مسألة، فقال رجل لأحمد: يا أبا عبد الله لا يصح فيه حديث. فقال: إن لم يصح فيه حديث ففيه يقول الشافعي وحجته أثبت شيء فيه.

(ثم قال: أي أحمد) قلت للشافعي: ما تقول في مسألة كذا وكذا فأجاب فيها، فقلت: من أين قلت؟ هل فيه حديث أو كتاب؟ قال: بلى فنزع في ذلك حديثاً للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو حديث نص.

إمام عالم من قریش:

وكان أحمد رحمه الله يقول: إذا سئلت في مسألة لا أعرف فيها خبراً قلت فيها: يقول الشافعي، لأنه إمام عالم من قریش.

رجلاً لم تر عيناك مثله:

وعن داود بن علي الأصبهاني قال: سمعت إسحاق بن راهويه يقول: لقيني أحمد بن حنبل بمكة فقال: تعالى حتى أريك رجلاً لم تر عيناك مثله.. فأراني الشافعي.

إذا كان صحيحاً:

كان ذلك رأي أحمد بن حنبل في الشافعي، ولا غرو فإن يكون التلميذ معجباً بأستاذه معترفاً له بالفضل، ولكن الشافعي نفسه لم يمنع تتلمذ أحمد عليه من أن يعترف به بالفضل والعلم بالسنة فيقول له: أما أنتم فأعلم

بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحاً فأعلموني إن يكن كوفيّاً أو بصريّاً أو شامياً، أذهب إليه إذا كان صحيحاً.

وكان الشافعي حين يحدث عن أحمد لا يسميه تعظيماً له بل يقول: (حدثنا الثقة من أصحابنا أو أنبأنا الثقة أو أخبرنا الثقة).

ذلك يوضح لنا بعض ما كان عليه أسلافنا من أدب جم، وخل عال لا ينال منه الاختلاف، ولا يؤثر فيه تباين الاجتهادات، وتلك آداب الرجال الذين تخرجوا في المدرسة المحمدية، فما عاد للهوى عليهم من سلطان؛ وكتب التراجم والطبقات والمناقب والتاريخ حافلة بما لا يحصى من المواقف النبيلة، والمناظرات الطريفة بين كبار الأئمة والتي كان الأدب سداها، والخلق الإسلامي الرفيع لحمتها، وحري بنا ونحن نعيش الشتات في كل أمورنا أن نعود إلى فيء تلك الدوحة المباركة، ونلتقي على الآداب الكريمة التي خلفها لنا سلفنا الصالح إن كنا جادين في السعي لاستئناف الحياة الإسلامية الفاضلة.

ونحن لا ننكر أن هناك مواقف لم تلتزم فيها هذه الآداب، أو خلت من تلك السمات الخيرة التي ذكرناها، ولكنها كانت مواقف من أولئك المقلدين أو المتأخرين الذين أشربوا روح التعصب، ومردوا على التقليد، ولم يدركوا حقيقة الروح العلمية العالية الكامنة وراء أسباب اختلاف الفقهاء، ولم يلهموا تلك الآداب الرفيعة التي كانت وليدة النية الصادقة في تحري الحق، وإصابة الهدف الذي رمى إليه الشارع الحكيم، ويبدو أنهم كانوا من أولئك الذين قال فيهم الإمام الغزالي: فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين، وبعد أن كانوا أعزّة بالإعراض عن السلاطين أدلة بالإقبال عليهم.

والمطلوب سيد نفسه لا ينزع إلا عن الحق، الطالب باع نفسه فلا يشدوا إلا بما يطيب لشاريه، فحولوا الاختلاف الذي كان نعمة أثرت الفقه الإسلامي وأثبت واقعية هذا الدين ورعايته لمصالح الناس إلى عذاب أليم، وصار عاملاً من أخطر عوامل الفرقة والتناحر بين المسلمين.. بل تحول

إلى نعمة بددت الكثير من طاقات الأمة فيما لا جدوى منه، وشغلها بما لا ينبغي أن تتشغل به.

والاختلاف الذي تعرضنا لبعض جوانبه في الصفحات السابقة وألمحنا إلى ما كان في رجاله من آداب رفيعة هو الاختلاف الذي وضع فيه الكاتبون كتبهم في "أسباب اختلاف الفقهاء" قديماً وحديثاً، أما الخلاف الذي لا تلا تلك القرون الخيرة فهو خلاف من نوع آخر، كما أن له أسباباً أخرى مختلفة.

بين أحمد بن حنبل ومالك:

عن أبي زرعة الدمشقي قال: سمعت أحمد بن حنبل يسأل عن سفيان ومالك إذا اختلفا في الرواية، فقال: مالك أكثر في قلبي. قال: قلت فمالك والأوزاعي إذا اختلفا؟ فقال: مالك أحب إليّ، وإن كان الأوزاعي من الأئمة، قيل له: وإبراهيم (أي النخعي) فكأنه كان يرى أن إبراهيم لا ينبغي أن يقرن بمالك لأنه ليس من أهل الحديث، فقال: ضعه مع أهل زمانه. وسئل عن رجل يريد أن يحفظ حديث رجل واحد بعينه قيل له: حديث من ترى له؟ قال: يحفظ حديث مالك(1).

وما ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك:

ذكر عبد الغني المقدسي في كتابه مخنة الإمام أحمد بسنده إلى أبي علي حنبل قال: حضرت أبا عبد الله - أي أحمد بن حنبل -، وأتاه رجل في مسجدنا، وكان الرجل حسن الهيئة كأنه كان مع السلطان، فجلس حتى انصرف من كان عند أبي عبد الله، ثم دنا منه فرفعه أبو عبد الله لما رأى من هيئته، فقال الرجل: يا أبا عبد الله! اجعلني في حل، قال أحمد: من ماذا؟! قال: كنت حاضراً يوم ضربت، وما أعنت ولا تكلمت، إلا أنني حضرت ذلك.

(1) طه جابر فياض العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام، 1 / 32 - 35.

فأطرق أبو عبد الله ثم رفع رأسه إليه فقال: أحدث الله توبة ولا تعد إلى مثل ذلك الموقف، فقال له: يا أبا عبد الله! أنا تائب إلى الله تعالى من السلطان، قال له أبو عبد الله: فأنت في حل وكل من ذكرني إلا مبتدع، قال أبو عبد الله: وقد جعلت أبا إسحاق - المعتصم - في حل، ورأيت الله عز وجل يقول: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ} [النور: ٢٢] وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر بالعفو في قضية مسطح.

ثم قال أبو عبد الله: العفو أفضل، وما ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك، لكن لتعف وتصفح عنه فيغفر الله لك كما وعدك.

كثر بكاؤك الليلة فما السبب!:

ساق المقدسي رحمه الله بسنده إلى أبي علي الحسن بن عبد الله الخرقى قال: بت مع أحمد بن حنبل ليلة، فلم أره ينام إلا يبكي إلى أن أصبح، فقلت: يا أبا عبد الله كثر بكاؤك الليلة فما السبب؟ قال أحمد: ذكرت ضرب المعتصم إياي ومر بي في الدرس قوله تعالى: {وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [الشورى: ٤٠] فسجدت وأحلته من ضربى في السجود.

رجل صالح ابتلي فينا فما نعمل!:

ذكر ابن رجب في طبقات الحنابلة عن أبي محمد فوزان قال: جاء رجل إلى الإمام أحمد فقال له: نكتب عن محمد بن منصور الطوسي؟! فقال: إذا لم تكتب عن محمد بن منصور فعمن يكون ذلك؟! قالها مراراً، فقال: الرجل ل: إنه يتكلم فيك، فقال أحمد رحمه الله تعالى: رجل صالح ابتلي فينا فما نعمل؟!.

وما أعجب! مواقف الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، اقرؤوا هذا الكتاب محنة الإمام أحمد بن حنبل، انظروا مواقفه مع من عاداه ومع من

ضربه ومع من سبه وشتمه، فرحم الله الإمام أحمد.

يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك:

كان رضي الله عنه يقول: طوبى لمن أحمل الله تعالى ذكره وكان يقول: رأيت رب العزة في المنام فقلت: يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك فقال بكلامي يا أحمد، فقلت: بفهم أو بغير فهم قال: بفهم وبغير فهم وكان رضي الله عنه إذا جاءه حديث وحده لم يحدثه حتى يكون معه غيره قلت وكذلك كان يحيى بن معين وعبد الله بن داود والله أعلم.

وكان رضي الله عنه يقول: تزوج يحيى بن زكريا عليهما السلام مخافة النظر، وكان رضي الله عنه يضرب به المثل في اتباع السنة واجتناب البدعة، وكان لا يدع قيام الليل قط، وله في كل يوم وليلة ختمة وكان يسر ذلك عن الناس وقال أبو عصمة رضي الله عنه: بت ليلة عند أحمد رضي الله عنه فجاءني بماء فوضعه، فلما أصبح نظر إلى الماء كما هو فقال: يا سبحان الله رجل يطلب العلم ولا يكون له ورد من الليل، وكان يلبس الثياب النقية البياض ويتعهد شاربته وشعر رأسه وبدنه، وكان مجلسه خاصاً بالآخرة لا يذكر فيه شيء من أمر الدنيا وكان يأتي العرس والإملاك والختان، ويأكل، وتعرت أمه من الثياب، فجاءته زكاة فردها، وقال: العربي لهن خير من أوساخ الناس، وأنها أيام قلائل ثم نرحل من هذه الدار، وكان إذا جاع أخذ الكسرة اليابسة فنفضها من الغبار ثم صب عليها الماء في قصعة حتى تبتل ثم يأكلها بالملح، وكانوا في بعض الأوقات يطبخون له في فخارة عدساً وشحمًا، وكان أكثر إدامه الخل، وكان إذا مشى في الطريق لا يمكن أحداً يمشي معه، ولما مرض عرضوا بوله على الطبيب فنظر إليه وقال هذا بول رجل قد فقت الغم والحزن كبده، وكان يحيى الليل كله من منذ كان غلاماً وكان من أصبر الناس على الوحدة لا يراه أحد إلا في المسجد أو جنازة أو عيادة، وكان يكره المشي في الأسواق، وكان ورده كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة فلما ضرب بالسياط

ضعف بدنه فكان يصلي مائة وخمسين ركعة كل يوم وليلة، وحج رضي الله عنه خمس حجات ثلاثاً منها ماشياً وكان ينفق في كل حجة نحو عشرين درهماً ولما قدم للسياط أيام المحنة أغاثه الله تعالى برجل يقال له أبو الهيثم العيار فوقف عنده وقال: يا أحمد أنا فلان اللص ضربت ثمانية عشر ألف سوط لأقر فما أقررت، وأنا أعرف أنني على الباطل فاحذر أن تتقلق وأنت على الحق من حرارة السوط، فكان أحمد كلما أوجعه الضرب تذكر كلام اللص، وكان بعد ذلك لم يزل يترحم عليه ولما دخل أحمد على المتوكل قال المتوكل لأمه: يا أماه قد نارت الدار بهذا الرجل ثم أتوا بثياب نفيسة فألبسوها له فبكى وقال: سلمت منهم عمري كله حتى إذا دنا أجلي بليت بهم وبدنياهم ثم نزعها لما خرج، وكان رضي الله عنه يواصل الصوم فيفطر كل ثلاثة أيام على تمر وسويق، وقال الفضيل بن عياض رضي الله عنه: حبس الإمام أحمد رضي الله عنه ثمانية وعشرين شهراً، وكان فيها يضرب كل قليل بالسياط إلى أن يغمى عليه وينخس بالسيف ثم يرمى على الأرض ويداس عليه ولم يزل كذلك إلى أن مات المعتصم، وتولى الخلافة الواثق فاشتد الأمر على أحمد وقال: لا أسكن في بلد ألد فيه فأقام مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولي المتوصل فرفع المحنة عن أحمد وأمر بإحضاره وإكرامه وإعزازه وكتب إلى الأفاق برفع المحنة وإظهار السنة وأن القرآن غير مخلوق وخمدت المعتزلة وكانوا أشد الطوائف المبتدعة (1).

ألزم التقوى قلبك.. :

حدث علي بن المديني قال: قال لي أحمد بن حنبل:

إني لأحب أن أصحبك إلى مكة، وما يمنعني من ذلك إلى أني أخاف أن أملك أو تملني. قال: فلما ودعته قلت له: - يا أبا عبد الله توصيني بشيء؟

(1) الشعراني، الطبقات الكبرى، 52/1.

قال: الزم التقوى قلبك وانصب الآخرة أمامك.

يا أبت ما هذا الكتاب؟!

حدث صالح بن أحمد بن حنبل قال: دخلت على أبي في أيام الوائق - والله يعلم في أي حالة نحن - وقد خرج لصلاة العصر، وقد كان له لبد يجلس عليها، قد أتت عليه سنون كثيرة حتى قد بلي، فإذا تحته كتاب كاغد، وإذا فيه:

(بلغني يا أبا عبد الله ما أنت فيه من الضيق، وما عليك من الدين، وقد وجهتُ إليك بأربعة آلاف درهم على يدي فلان لتقضي بها دينك، وتوسع بها على عيالك، وما هي من صدقة ولا زكاة، وإنما هو شيء ورثته من أبي).

فقرأت الكتاب ووضعته. فلما دخل قلت: يا أبت ما هذا الكتاب؟ فاحمر وجهه وقال: رفعته منك. ثم قال: تذهب بجوابه، فكتب إلى الرجل:

(وصل كتابك إليّ ونحن في عافية، فأما الدين: فإنه لرجل لا يرهقنا، وأما عيالنا: فهم في نعمة والحمد لله).

فذهبت بالكتاب إلى الرجل الذي كان أوصل كتاب الرجل، فقال: ويحك لو أن أبا عبد الله قبل هذا الشيء ورمى به مثلاً في دجلة كان مأجوراً، لأن هذا رجل لا يعرف له معروف.

فلما كان بعد حين ورد كتاب الرجل بمثل ذلك، فردّ عليه الجواب بمثل ما ردّ، فلما مضت سنة أو أقل أو أكثر ذكرناها فقال: لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت (1).

عليّ قاسم الجنة والنار:

(1) مجلة حضارة الإسلام - السنة 8 - العدد 9 - ذو القعدة/387 - شباط/1968.

سئل أحمد بن حنبل عن قول الناس: عليٌّ قاسم الجنة والنار، قال: هذا صحيح، لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وعلى آله قال لعليّ بن أبي طالب: **لَا يَجِبُكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يَبْغُضُكَ إِلَّا مُنَافِقٌ**، فالمؤمن في الجنة والمنافق في النار—.

حتى أنتفع به كما انتفعت:

قال أبو عبد الله بن الجراح: قصدني أحمد بن حنبل فسألني أن أخرج إليه شيئاً من العلم، فأخرجت إليه كتاب العقل لداود بن المحبر، فانتخب منه أحاديث وردّ الكتاب، فسألته عن ذلك فقال: لم أر فيه أحاديث صحاحاً، قال ابن الجراح: كله صحيح، قال أحمد: ومن أين عرفت؟ قال: لأنني استعملته فوجدته كله صحيحاً، فقال: ردّ الكتاب إليّ حتى أنتفع به كما انتفعت.

أحمد بن حنبل يكتب شعر أبي نواس

ولكن قل علي رقيب:

قال أحمد بن يحيى ثعلب: دخلت على أحمد بن حنبل فرأيت رجلاً تهمة نفسه لا يحب أن يكثر عليه كأن النيران قد سعرت بين يديه، فما زلت أرفق به، وتوسلت بالشييبانية إليه فقلت: أنا من مواليك يا أبا عبد الله، وذكرت له عبد الله بن الفرّج، قال أبو العباس: وعبد الله بن الفرّج هذا من صالح أهل البلد فقرم إلى حديثي وانبسط إلي وقال: في أي شيء نظرت؟ فقلت: في علم اللغة والشعر، فقال: مررت بالبصرة وجماعة يكتبون الشعر عن رجل، فقل لي هذا أبو نواس، فتخللت الناس ورأني، فلما جلست أمل علينا:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل :: خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة :: ولا أن ما يخفى عليه يغيب
هونا لعمر الله حتى تتابعتم :: ذنوب على آثارهن ذنوب
فيا ليت أن الله يغفر ما مضى :: ويأذن في توباتنا فتوب

ثم أطرق، فعلمت أنه قد مل، فسلمت وانصرفت.

قال محمد بن العباس: فحدث أبي بهذا عبد الله بن المعتز وأنا حاضر أسمع فأنشده الأبيات، فقال لنا عبد الله: هذه الأبيات لأبي نواس من زهدياته (1).

أنت وأبوك في طرفي نقيض:

قرأ عبد الله بن أحمد بن حنبل في الصلاة: اقرأ باسم ربك الذي خلق؛ فقل له: أنت وأبوك في طرفي نقيض، زعم أبوك أن القرآن ليس بمخلوق، وأنت تزعم أن الرب مخلوق.

ولم صاراً أحققين!:

وقد روي عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال لو جاءني رجل فقال إني حلفت بالطلاق أن لا أكلم في هذا اليوم من هو أحقق وكلم رافضياً أو نصرانياً لقلت له: حنثت فقال له ابن الديناري: أعزك الله ولم صاراً أحققين؟ قال: لأنهما خالفا الصادقين.

أما الصادق الأول فعيسى عليه السلام قال للنصارى: إني عبد الله وقال أن اعبدوا الله فقالوا لا وعبدوه جهلاً وحمقاً. والصادق الثاني الإمام علي رضي الله عنه فإنه قال عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال عن أبي بكر وعمر هذان سيدا كهول أهل الجنة والرافضة يسبونهما.

الطعام كان من غيب الله:

قيل: اجتمع أربعة من الأئمة الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبو ثور، ومحمد بن الحكم رضي الله عنهم عند أحمد بن حنبل يتذكرون فصلوا صلاة المغرب وقدموا الشافعي ثم ما زالوا يصلون في المسجد إلى أن صلوا العتمة ثم دخلوا بيت أحمد بن حنبل ودخل أحمد على امرأته ثم خرج على أصحابه وهو يضحك فقال الشافعي مم تضحك يا أبا عبد الله؟

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 359/1.

قال: خرجت إلى الصلاة ولم يكن في البيت لقمة من طعام والآن فقد وسع الله علينا قال الشافعي: فما سببه قال: أحمد قالت لي أم عبد الله أنكم لما خرجتم إلى الصلاة جاء رجل عليه ثياب بيض حسن الوجه عظيم الهيئة ذكرني الرائي ففقه

يا أحمد بن حنبل فقلنا: لبيك فقال: هاكم خذوا هذا فسلم إلينا زنبيلاً أبيض وعليه مندل طيب الرائحة وطبق مغطى منديل آخر وقال: كلوا من رزق ربكم وأشكروا له فقال الشافعي: يا أبا عبد الله فما في الزنبيل والطبق؟ فقال: عشرون رغيفاً قد عجنّت باللبن واللوز المقشور أبيض من الثلج وأذكى من المسك ما رأى الرءاؤون مثله وخروف مشوي مزعفر حار وملح في سكرجة وخل في قارورة على الطبق وبقل وحلواء متخذة من سكر طبرزد ثم أخرج الكل ووضع بين أيديهم فتعجبوا من شأنه وأكلوا ما شاء الله قال فلم تذهب حلاوة ذلك الطعام والحلواء مدة طويلة وكل من أكل من ذلك الطعام ما احتاج إلى طعام غيره مدة شهر فلما أن فرغوا من الأكل حمل أحمد ما بقي منه وأدخله إلى أهله فأكلوا وشبعوا وبقي منه شيء فأجمع رأيهم على أن الطعام كان من غيب الله وأن الرسول كان ملكاً من الملائكة قال صالح بن حنبل: ما أصابتنا مجاعة قط ما دام ذلك الزنبيل في بيتنا وكان يأتينا الرزق من حيث لا تحتسب رضي الله عنهم وأعاد علينا من بركاتهم (1).

أفتحله لنا أم تحرمه علينا؟!

وروي أن أخت بشر بن الحارث قصدت أحمد بن حنبل فقالت: إنا قوم نغزل الليل ومعاشنا منها، وربما تمر بنا مشاعل بني طاهر ولالة بغداد ونحن على السطح فنغزل في ضوءها الطاقة والطاقتين، أفتحله لنا أم تحرمه علينا؟ فقال لها: من أنت؟ قالت: أخت بشر، قال: أه يا آل بشر لا

(1) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، 147/1.

عدمتمكم، لا أزال أسمع الورع الصافي من قبلكم (1).

يؤكل الطعام لثلاث:

وقال ابن مفلح في طبقات الحنابلة في ترجمة علي بن محمد المصري قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: يؤكل الطعام لثلاث: مع الإخوان بالصدور، ومع الفقراء بالإيثار، ومع أبناء الدنيا بالمروءة. انتهى.

هذا الحديث يكفيني:

حكي أن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه سمع شخصاً من وراء النهر يروي أحاديث مثلثة فسار إليه ودخل عليه فوجده يطعم كلباً وهو مشغول به قال الإمام أحمد: فأخذت في نفسي وأضمرت أن أرجع إذا لم يلتفت الرجل إلي ثم قال: حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: "من قطع رجاء من ارتجاء قطع الله رجاءه يوم القيامة فلم يلج الجنة وإن أرضنا هذه ليست بأرض كلاب وقد قصدني هذا الكلب فخشيت أن أقطع رجاءه" قال: فقال الإمام أحمد رحمه الله هذا الحديث يكفيني ثم رجع قافلاً إلى أهله.

من غير بيت بشر:

وروى أن امرأة جاءت إلى أحمد بن حنبل تسأله فقالت: إني امرأة أغزل بالليل والنهار وأبيعه ولا أبيع غزل الليل من غزل النهار فهل على ذلك شيء فقال: يجب أن تبيني فلما انصرفت قال أحمد، لابنه: اذهب فانظر أين تدخل فرجع فقال دخلت دار بشر فقال: قد عجبت أن تكون هذه السائلة من غير بيت بشر (2).

لا يزيد على قوله اللهم اغفر للمعتصم:

(1) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 50/1.

(2) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، 316/1، 216/2.

سمعت إسحاق بن أحمد القطان البغدادي بتستر يقول كان لنا جار ببغداد كنا نسميه طبيب القراء وكان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم فقال لي: دخلت يوماً على أحمد بن حنبل فإذا هو مغموه مكروب فقلت: ما لك يا أبا عبد الله؟ قال: خير قلت: وما الخير؟ قال: امتحنت بتلك المحنة حتى ضربت ثم عالجوني وبرأت إلا أنه بقى في صلي موضع يوجعني هو أشد علي من ذلك الضرب قال: قلت اكشف لي عن صلبك قال: فكشف لي فلم أر فيه إلا أثر الضرب فقط فقلت: ليس لي بذي معرفة ولكن سأستخبر عن هذا قال: فخرجت من عنده حتى أتيت صاحب الحبس وكان بيني وبينه فضل معرفة فقلت له: أدخل الحبس في حاجة قال: أدخل فدخلت وجمعت فتیانهم وكان معي دريهمات فرقتهما عليهم وجعلت أحدثهم حتى أنسوا بي ثم قلت: من منكم ضرب أكثر قال: فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضرباً وأشدّهم صبراً قال: فقلت له: أسألك عن شيء فقال: هات فقلت: شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم ضرب على الجوع للقتل سياطاً يسيرة إلا أنه لم يمت وعالجوه وبرأ إلا أن موضعاً في صلبه يوجعه وجعاً ليس له عليه صبر قال: فضحك فقلت: مالك؟ قال: الذي عالجه كان حائناً قلت: إيش الخبر؟ قال: ترك في صلبه قطعة لحم ميتة لم يقلعها قلت: فما الحيلة؟ قال: يبط صلبه وتؤخذ تلك القطعة ويرمى بها وإن تركت بلغت إلى فؤاده فقتلته قال: فخرجت من الحبس فدخلت على أحمد بن حنبل فوجدته على حالته فقصصت عليه القصة قال: ومن يبطه؟ قلت: أنا، قال: أو تفعل قلت: نعم قال: فقام فدخل البيت ثم خرج وبیده مخدتان وعلى كتفه فوطه فوضع إحداهما لي والأخرى له ثم قعد عليها وقال: استخر الله فكشفت الفوطه عن صلبه وقلت أرني موضع الوجع فقال: ضع إصبعك عليه فإني أخبرك به فوضعت إصبعي وقلت ها هنا موضع الوجع قال: ههنا أحمد الله على العافية فقلت: ها هنا قال: ها هنا أحمد الله على العافية فقلت: ها هنا قال: الله العافيه قال: فعلمت

أنه موضع الوجع قال: فوضعت الموضع عليه فلما أحس بحرارة الموضع وضع يده على رأسه وجعل يقول اللهم اغفر للمعتصم حتى بططته فأخذت القطعة الميتة ورميت بها وشدت العصابة عليه وهو لا يزيد على قوله اللهم اغفر للمعتصم قال: ثم هدأ وسكن ثم قال: كأي كنت معلقاً فأصدرت قلت: يا أبا عبد الله إن الناس إذا امتحنوا محنة دعوا على من ظلمهم ورأيته تدعو للمعتصم قال: إني أفكرت فيما تقول وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكرهت أن آتي يوم القيامة وبينني وبين أحد من قرابته خصومة هو مني في حل (1).

هذه مشية الخدام في دار السلام:

سمعنا أبا يحيى زكريا بن يحيى السمسار يقول: رأيت أحمد بن حنبل في المنام وعلى رأسه تاج مرصع بالجوهر وفي رجليه نعلان من ذهب وهو يخطر بهما قال: قلت أبا عبد الله ماذا فعل الله بك قال: غفر لي وأدناني من نفسه وتوجني بيده هذا التاج وقال: هذا بقولك القرآن كلام الله غير مخلوق قال قلت فما هذه الخطرة التي لم أعرفها لك في دار الدنيا قال: هذه مشية الخدام في دار السلام (2).

قال الحسن بن محمد: رأيت أحمد بن حنبل رضي الله عنه في النوم

يا أبا علي لو رأيت صلاتنا على النبي صلى الله عليه وسلم في الكتب كيف تزهو بين يدينا؟ ولذا قال سفيان الثوري: لو لم يكن لصاحب الحديث فائدة إلا الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يصلي عليه ما دام اسمه في ذلك الكتاب صلى الله عليه وسلم . وقال عبد الله بن عبد

(1) محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، 1397 - 1977، ص 166.

(2) أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي، معجم السفر، تحقيق: عبدالله عمر البارودي، المكتبة التجارية - مكة المكرمة، ص 48.

الحكم: رأيت الشافعي رضي الله عنه في النوم فقلت ما فعل الله بك؟ فقال رحماني وغفر لي وزفني إلى الجنة كما تزف العروس، ونثر علي كما ينثر على العروس، فقلت: بماذا بلغت هذه الحالة؟ فقال لي قائل: بقولك في (كتاب الرسالة) من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، قلت فكيف ذلك؟ قال: صلى الله على محمد عدد ما ذكره الذاكرون وعدد ما غفل عن ذكره الغافلون فلما أصبحت نظرت إلى الرسالة فوجدت الأمر كما رأيت صلى الله عليه وسلم. وذكر في جلاء الأفهام من هذا أشياء كثيرة. وفي حديث ابن عباس مرفوعاً: ^١جاءني جبريل عليه السلام فقال: إنه من ذكرت عنده فلم يصل عليك فأبعده الله وأسحقه، فقلت: آمين—⁽¹⁾. ومن حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه مرفوعاً: ^٢أن جبريل عرض لي فقال: بعد من ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت: آمين—⁽²⁾ عن أبي هريرة مرفوعاً:

^٣رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي—. وعن الحسين بن علي رضوان الله عليهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ^٤البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي—⁽³⁾ وما أحسن قول الإمام الصرصري في ذلك: من لم يصل عليه إن ذكر اسمه فهو البخيل وزده وصف جبان وإذا الفتى في العمر صلى مرة في سائر الأقطار والبلدان صلى عليه الله عشرًا فليزد عبد ولا يجنح إلى نقصان وأخرج النسائي عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ^٥ما اجتمع قوم ثم تفرقوا عن غير ذكر الله عز وجل وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم إلا قاموا عن أنتن من جيفة—⁽⁴⁾ إلا أنه قال: ^٦إلا قاموا عن أنتن جيفة— قال الإمام أبو عبد الله

(1) رواه الترمذي وحسنه.

(2) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد، والترمذي وحسنه.

(3) رواه النسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وصححه، والترمذي، وزاد في سننه علي بن أبي طالب وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(4) ورواه أبو داود الطيالسي.

المقدس: هذا على شرط مسلم (1).

اللهم يا رب كل شيء بقدرتك على كل شيء:

رؤي الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في المنام ف قيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وألبسني نعلين من ذهب وقال: يا أحمد ادعني بالدعوات التي كنت تدعوني بها في الدنيا فقلت: اللهم يا رب كل شيء بقدرتك على كل شيء اغفر لي كل شيء ولا تسألني عن شيء فقال: يا أحمد قم فادخل الجنة (2).

إن كنت تعلم أني على صواب فلا تهتك ستري:

قال بعضهم: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فسألته عن أحمد فقال: اسأل عنه موسى فسألته فقال: هو من الصديقين وقال بعضهم: رأيت زبيدة في المنام وكنتها أم العزيز وشعرها أبيض فسألته عن ذلك فقالت: لما جردوا الإمام أحمد للضرب زفرت جهنم زفرة فلم يبق أحد في القبور إلا أبيض شعره ولما ضربه الجلاذ أول ضربة بالسوط شق خاصرته فقال: اللهم اعم بصره ثم رآه بعد ذلك وهو أعمى فسأله عن ذلك فقال: حتى تخرج الروح قبل أن تقول القرآن مخلوق فقال الإمام أحمد: اللهم إن كان صادقاً فرد عليه بصره فرد الله بصره وفي السوط الأول قال: بسم الله وفي الثاني قال: لا حول ولا قوة إلا بالله وفي الثالث قال: القرآن كلام الله غير مخلوق وفي الرابع لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ثم انقطعت حاشية سراويله فقال: اللهم إني أسألك باسمك الذي ملأت به العرش إن كنت تعلم أني على صواب فلا تهتك ستري فرفعت سراويله.

(1) محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الثانية، 1423 هـ - 2002 م، ص18.

(2) عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عثمان الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، 107/1.

من أنت؟!

قال معروف الكرخي: رأيت رجلاً في المنام قلت له: من أنت؟ قال: موسى بن عمران قلت: موسى بن عمران الذي كلم الله قال: نعم ثم رأيت ثلاثة نزلوا من سقف البيت فقلت: من هؤلاء؟ قال: عيسى ابن مريم ونبيكم محمد وأحمد بن حنبل وحملة العرش والملائكة يشهدون القرآن كلام الله غير مخلوق.

رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام:

قال الشافعي رضي الله عنه رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال: اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل واقراءه مني السلام وقل له: إنك ستمتحن وتدعى إلى خلق القرآن فلا تجبهم فيرفع الله لك علماً يوم القيامة (1).

فأفاضه على سائر جسده:

وحكي أن الشافعي رضي الله تعالى عنه، لما كان بمصر، رأى في المنام سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول له: بشر أحمد بن حنبل بالجنة، على بلوى تصيبه فإنه يدعى إلى القول بخلق القرآن فلا يجب إلى ذلك، بل يقول هو منزل غير مخلوق. فلما أصبح الشافعي رضي الله تعالى عنه، كتب صورة ما رآه في منامه، وأرسله مع الربيع إلى بغداد إلى أحمد فلما وصل بغداد، قصد منزل أحمد واستأذن عليه فأذن له، فلما دخل عليه قال له: هذا كتاب أخيك الشافعي، فقال له: هل تعلم ما فيه؟ قال: لا ففتحه وقرأه وبكى. وقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله. ثم أخبره بما فيه، فقال: الجائزة، وكان عليه قميصان أحدهما على جسده، والآخر فوقه. فنزع الذي على جسده ودفعه إليه. فأخذه ورجع إلى الشافعي. فقال له الشافعي: ما أجازك؟ قال: أعطاني القميص الذي على جسده. فقال: أما أنا

(1) الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، 470/2.

فلا أفجعك فيه، ولكن أغسله وائتني بمائه، فغسله وأتاه بالماء، فأفاضه على سائر جسده (1).

والله لرفسته لي أحب إلي من سفرتي:

قال أحمد بن منصور الرمادي: خرجت مع أحمد (يعني ابن حنبل) ويحيى (ابن معين) إلى عبد الرزاق (ابن همام الصنعاني) خادماً لهما، قال: فلما عدنا إلى الكوفة قال يحيى بن معين: أريد أن اختبر أبا نعيم، فقال أحمد: لا تُردُّ فالرجل ثقة، قال يحيى: لا بد لي، فأخذ ورقة فكتب فيها ثلاثين حديثاً وجعل على رأس كل عشرة منها حديثاً ليس من حديثه ثم إنهم جاؤوا إلى أبي نعيم فخرج وجلس على دكان طين (مكان مرتفع) وأخذ أحمد بن حنبل فأجلسه عن يمينه ويحيى عن يساره وجلست أسفل الدكان، ثم أخرج يحيى الطبق فقرأ عليه عشرة أحاديث، فلما قرأ الحادي عشر، قال أبو نعيم: ليس هذا من حديثي؛ اضرب عليه، ثم قرأ العشر الثاني وأبو نعيم ساكت فقرأ الحديث الثاني، فقال أبو نعيم: ليس هذا من حديثي فاضرب عليه ثم قرأ العشر الثالث ثم قرأ الحديث الثالث فتغير أبو نعيم وانقلبت عيناه، ثم أقبل على يحيى فقال: أمّا هذا - وذراع أحمد بيده - فأورع من أن يعمل مثل هذا، وأمّا هذا - يريدني - فأقل من أن يفعل ذلك، ولكن هذا من فعلك يا فاعل، وأخرج رجله فرفس يحيى فرمى به من الدكان وقام فدخل داره فقال أحمد بن حنبل ليحيى: ألم أمنعك وأقل لك إنه ثبت، قال: والله لرفسته لي أحب إلي من سفرتي.

فاتهمه على الإسلام:

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه لما سئل عن رجل تنقص معاوية، وعمر بن العاص أيقال له رافضي؟ فقال: "إنه لم يجترئ عليهما إلا وله خبيثة سوء، ما انتقص أحداً من الصحابة إلا وله داخله

(1) كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 119/1.

سوء“. وفي رواية أخرى قال: “إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام“ (1).

لا حتى أموت:

عن صالح بن أحمد بن حنبل قال: لما حضرت أبي الوفاة فجلست عنده والخرقة بيدي أشد بها لحبيبه، قال: فجعل يغرق ثم يفيق ويفتح عينيه ويقول: بيده هكذا لا بعد لا بعد لا بعد، ففعل هذا مرة وثانية فلما كان في الثالثة قلت له: يا أبة إيش هذا الذي لهجت به في هذا الوقت؟! فقال: يا بني أما تدري؟! قلت: لا، فقال: إبليس لعنه الله قائم بحدائي عاض على أنامله يقول: يا أحمد فتني! فأقول: لا حتى أموت.

متى يجد العبد طعم الراحة؟:

عن أبي عبد الله أحمد بن حنبل أنه جاءه رجل من أهل خراسان فقال: يا أبا عبد الله قصدتك من خراسان أسألك عن مسألة! قال له: سل؛ قال: متى يجد العبد طعم الراحة؟ قال: عند أول قدم يضعها في الجنة.

إنما تحفة المؤمن حضرته:

قال المروزي: قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: كأنك بالموت وقد فرق بيننا، ما أعدل بالفقر شيئاً؛ أنا أفرح إذا لم يكن عندي شيء، إني لأتمنى الموت صباحاً ومساءً؛ أخاف أن أفتن في الدنيا؛ قال مسروق: إنما تحفة المؤمن حفرته.

العلم خزائن يقسم الله لمن أحب:

قال أحمد بن حنبل: العلم خزائن يقسم الله لمن أحب، لو كان يخص بالعلم أحداً لكان بيت النبي صلى الله عليه وسلم أولى؛ كان عطاء بن أبي رباح حبشياً، وكان يزيد بن أبي حبيب نوبياً أسود، وكان الحسن مولى للأنصار، وكان ابن سيرين مولى للأنصار.

(1) البداية والنهاية، 142/8.

لو أن للذنوب ريحاً ما جلس إلي منكم أحد:

قال المروزي: قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: ما أكثر الداعين لك! فتغرغرت عيناه وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجاً، وقال: قال محمد بن واسع: لو أن للذنوب ريحاً ما جلس إلي منكم أحد.

ولعنتي تبلغ السابع من الولد:

قال ابن القيم: ذكر الإمام أحمد عن وهب: أن الرب تبارك وتعالى قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل: “إني إذا أطعت رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية، وإذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد.”

من كلام الإمام أحمد:

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عن الغناء فقال: الغناء ينبت النفاق في القلب؛ ثم ذكر قول مالك: إنما يفعله عندنا الفساق.

قال أبو غداء: سمعت أحمد بن حنبل يقول: يعجبني أن يكون للرجل ركعات من الليل والنهار معلومة فإذا نشط طولها وإذا لم ينشط خففها.

قال أحمد بن حنبل رحمه الله: هب المسيء قد عفي عنه أليس قد فاتته ثواب المحسنين؟

قال أحمد بن حنبل: ما شبهت الشباب إلا بشيء كان في كمي فسقط.

أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاعتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة، وترك الخصومات، والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال، والخصومات في الدين.

والسنة عندنا: آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والسنة تفسر القرآن، وهي دلائل القرآن.

ومن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقبلها ويؤمن بها، لم

يكن من أهلها: الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لم؟ ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها.

ومن لم يعرف تفسير الحديث ويبلغه عقله، فقد كُفي ذلك وأحكم له، فعليه الإيمان به، والتسليم له، مثل حديث الصادق المصدوق، وما كان مثله في القدر، ومثل أحاديث الرؤية كلها، وإن ثبت عن الأسماع، واستوحش منها المستمع، فإنما عليه الإيمان بها، وألا يردَّ منها حرقاً واحداً، وغيرها من الأحاديث المأثورات عن الثقات.

وأن لا يخاصم أحداً ولا يُناظره، ولا يتعلم الجدل، فإن الكلام في القدر والرؤية والقرآن، وغيرها من السنن، مكروه منهى عنه، ولا يكون صاحبه إن أصاب بكلامه السنة: من أهل السنة حتى يدع الجدل ويسلم، ويؤمن بالآثار.

والقرآن كلام الله، وليس بمخلوق، ولا تضعف أن تقول: ليس بمخلوق، فإن كلام الله منه، وليس منه شيء مخلوق، وإياك ومناظرة من أحدث فيه، ومن قال باللفظ وغيره، ومن وقف فيه، فقال: لا أدري مخلوق أو ليس بمخلوق، وإنما هو كلام الله، وليس بمخلوق.

والإيمان بالرؤية يوم القيامة، كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من الأحاديث الصحاح.

والإيمان بالميزان كما جاء، وتوزن أعمال العباد كما جاء في الأثر. وأن الله تبارك وتعالى يكلم العباد يوم القيامة ليس بينهم وبينه ترجمان. والإيمان بالحوض، وأن لرسول الله صلى الله عليه وسلم حوضاً يوم القيامة ترد عليه أمته، عرضه مثل طوله مسيرة شهر، أنيته كعدد نجوم السماء على ما صحت به الأخبار من غير وجه.

والإيمان بعذاب القبر، وأن هذه الأمة تُفتن في قبورها وتُسأل عن الإيمان، والإسلام، ومن ربه، ومن نبيه؟ ويأتيه منكر ونكير كيف شاء الله

عز وجل، وكيف أراد.

والإيمان بشفاعته النبي صلى الله عليه وسلم ، وبقوم يخرجون بعدما احترقوا وصاروا فحمًا، فيؤمر بهم إلى نهر على باب الجنة كما جاء في الأثر، كيف شاء الله، وكما شاء.

والإيمان أن المسيح الدجال خارج، مكتوب بين عَيْنَيْهِ: كافر، والأحاديث التي جاءت فيه، والإيمان بأن ذلك كائن، وأن عيسى ابن مريم ينزل فيقتله بباب لُد.

والإيمان قولٌ وعمل يزيد وينقص، كما جاء في الخبر: **أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خَلْقًا** — (1).

وخيرُ هذه الأمة بعد نبيها، أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، نقدم هؤلاء الثلاثة، كما قدمهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا في ذلك.

ثم بعد هؤلاء الثلاثة أصحاب الشورى الخمسة: علي بن أبي طالب، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، كلهم يصلح للخلافة، وكلهم إمام.

ثم من بعد أصحاب الشورى، أهل بدر من المهاجرين، ثم أهل بدر من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على قدر الهجرة والسابقة أولاً فأول.

ثم أفضل الناس بعد هؤلاء، أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم القرن الذي بعث فيهم.

(1) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه: (4682)، والترمذي في كتاب الرضاع، باب حق المرأة على زوجها: (1162)، وأحمد في مسنده: (250 / 2)، (472)، وصححه ابن حبان في كتاب البر والإحسان، باب حسن الخلق: (4176)، والحاكم في كتاب الإيمان: (3 / 1)، ووافقه الذهبي.

كل من صحبه سنة، أو شهرًا، أو يومًا، أو ساعةً، أو رآه ساعةً فهو من أصحابه، له من الصَّحْبَةِ على قدر ما صحبه، وكانت سابقته معه، وسمع منه، ونظر إليه.

فأدناهم صحبة هو أفضل من القرن الذين لم يروه ولو لقوا الله بجميع الأعمال.

كان هؤلاء الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم ورأوه وسمعوا منه.

ومن رآه بعينه وآمن به ولو ساعة أفضل بصحبته من التابعين ولو عملوا كل أعمال الخير.

والسمع والطاعة للأئمة. وأمير المؤمنين، البر والفاجر، من ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه ورضوا به، ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسُمي أمير المؤمنين.

والغزو ماضٍ مع الأمراء إلى يوم القيامة، البر والفاجر لا يترك. وقسمة الفَيء، وإقامة الحدود إلى الأئمة ماضٍ ليس لأحد أن يطعن عليهم ولا ينازعهم، ودفع الصدقات إليهم جائزة وناقذة، من دفعها إليهم أجزأت عنه، برًا كان أو فاجرًا.

وصلاة الجمعة خلفه وخلف من ولي جائزة تامة، ركعتان من أعادهما فهو مبتدع، تارك للآثار، مخالف للسنة، ليس له من فضل الجمعة شيء إذا لم ير الصلاة خلف الأئمة من كانوا، برهم وفاجرهم، فالسنة أن تصلي معهم ركعتين، من أعادهما فهو مبتدع، وتدين بأنها تامة ولا يكن في صدرك من ذلك شك.

ومن خرج على إمام المسلمين، وقد كان الناس اجتمعوا عليه، وأقروا له بالخلافة، بأي وجه كان، بالرضا أو بالغلبة، فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين، وخالف الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن مات

الخارج عليه، مات ميتة جاهلية.

ولا يحل قتال السلطان، ولا الخروج عليه لأحدٍ من الناس، فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة والطريق.

ولا يشهد على أهل القبلة بعمل يعمل به بجنةٍ ولا نار، يرجو للصالح ويخاف عليه، ويخاف على المذنب ويرجو له رحمة الله.

ومن لقي الله بذنب تجب له به النار، تائبًا غير مُصرٍّ عليه، فإن الله عز وجل يتوب عليه، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات.

ومن لقيه وقد أقيم عليه حدّ ذلك الذنب في الدنيا فهو كفارته كما جاء الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (1).

ومن لقيه مُصرًّا غير تائب من الذنوب التي قد استوجبت بها العقوبة، فأمره إلى الله عز وجل إن شاء عدّبه، وإن شاء غفر له، ومن لقيه كافرًا عدّبه ولم يغفر له.

والرجم حق على من زنى وقد أحسن إذا اعترف، أو قامت عليه بينة. وقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد رجم الأئمة الراشدون.

ومن انتقص أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أبغضه لحدثٍ كان منه، أو ذكر مساوئه، كان مبتدعًا حتى يترحم عليهم

(1) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار: (18)، ومسلم في كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها: (1709)، والترمذي في كتاب الحدود، باب ما جاء أن الحدود كفارة لأهلها: (1439)، والنسائي في كتاب البيعة، باب البيعة على فراق المشرك: (4178)، وأحمد في مسنده: (5 / 314، 320)، والدارمي في كتاب السير، باب في بيعة النبي ﷺ: □

(2457)، عن عبادة بن الصامت قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مجلس فقال: يا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله، فهو إلى الله؛ إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه—، فبايعناه على ذلك. (واللفظ للبخاري).

جميعاً ويكون قلبه لهم سليماً.

والنفاق هو الكفر، أن يكفر بالله، ويعبد غيره، ويظهر الإسلام في العلانية، مثل المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه الأحاديث التي جاءت نرويتها كما جاءت ولا نفسرها.

مثل: **﴿ لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كَفَارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ﴾** (1).

ومثل: **﴿ إِذَا تَقَى الْمُسْلِمَانُ بَسِيفِيهِمَا فَالْقَاتِلَ وَالْمَقْتُولَ فِي النَّارِ ﴾** (2).

ومثل: **﴿ سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ ﴾** (3).

ومثل: **﴿ أَيُّهَا رَجُلٌ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرٌ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا ﴾** (4).

ومثل: **﴿ كُفْرٌ بِاللَّهِ تَبَرُّؤٌ مِنْ نَسَبٍ وَإِنْ دَقَّ ﴾** (5).

ونحوه من الأحاديث مما قد صح وحُفظ، فإننا نسلم له، وإن لم يعلم تفسيرها، ولا يتكلم فيه، ولا يجادل فيه، ولا تُفسر هذه الأحاديث إلا مثل ما جاءت ولا نردها إلا بأحق منها.

- (1) أخرجه البخاري واللفظ له، في كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل " ويلك " : (6166)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ : ﴿ لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كَفَارًا ۖ ﴾ : إلخ: (66)، وأبو داود في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه: (4686)، والنسائي في كتاب تحريم الدم، باب تحريم القتل: (4125)، وأحمد في مسنده: (2 / 85، 87، 104).
- (2) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ [الحجرات: 9] (31)، ومسلم في كتاب الفتن وأشرط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما: (2888).
- (3) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن.. إلخ: (48)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ : ﴿ سَبَابُ الْمُسْلِمِ ۖ ﴾ : إلخ: (64)، والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشتم: (1983)، والنسائي في كتاب تحريم الدم، باب قتل المسلم: (4105).
- (4) أخرجه البخاري واللفظ له في كتاب الأدب، باب من أكفر أخاه.. إلخ: (6104)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه: يا كافر: (60).
- (5) رواه الدارمي في كتاب الفرائض، باب من ادعى إلى غير أبيه: (2864)، وأبو بكر المروزي في (مسند أبي بكر الصديق) برقم: (90)، وأورده الهيثمي في (مجمع الزوائد)، كتاب الإيمان، باب فيمن ادعى غير نسبه.. إلخ: (1 / 97).

والجنة والنار مخلوقان قد خُلِقتا كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن زعم أنهما لم تخلقا فهو مكذب بالقرآن وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أحسبه يؤمن بالجنة والنار.

ومن مات من أهل القبلة موحدًا يُصَلَّى عليه، ويستغفر له، ولا تترك الصلاة عليه لذنب أذنبه صغيرًا كان أو كبيرًا، وأمره إلى الله عز وجل (1).

رسالة الإمام أحمد إلى الخليفة المتوكل في مسألة القرآن (2): بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

حدث صالح قال: كتب عبيد الله بن يحيى إلى أبي رحمة الله عليه يخبره: أن أمير المؤمنين أمرني أن أكتب إليك أسألك عن أمر القرآن، لا مسألة امتحان، ولكن مسألة معرفة وبصيرة. فأملى على أبي رحمة الله:

إلى عبيد الله، أحسن الله عاقبتك أبا الحسين في الأمور كلها، ودفع عنك مكاره الدنيا والآخرة برحمته، قد كتبت إليك رضي الله عنك بالذي سأل عنه أمير المؤمنين بأمر القرآن بما حضرني، وإني أسأل الله أن يديم توفيق أمير المؤمنين فقد كان الناس في خوض من الباطل، واختلاف شديد يغمسون فيه حتى أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين، فنفى الله بأمير المؤمنين كل بدعة، وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق

(1) (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) للالكائي: (1 / 156 - 164).

(2) هذه الرسالة جواب على مسألة الخليفة العباسي أمير المؤمنين المتوكل، وهو جعفر بن المعتصم

(206هـ - 247هـ)، حيث كتب وزيره عبيد الله بن يحيى بن حاقان (263هـ) إلى الإمام أحمد يخبره أن أمير المؤمنين أمره أن يكتب إليه يسأله عن القرآن، لا مسألة امتحان - أي اختبار واستظهار لما في قلبه - لكن مسألة معرفة وتبصر، وبها أملى الإمام أحمد الجواب بهذه الرسالة. ومن ميزات هذه الرسالة أنها جمعت قول الإمام أحمد - بلفظ نفسه - في هذه المسألة العظيمة، وأنها جاءت في خلاص الناس من شرك تلك المحن، وثالثها عناية العلماء بهذه الرسالة بكثرة روايتها ونقلتها.

المحابس، فصرف الله ذلك كله، وذهب به أمير المؤمنين.

ووقع ذلك من المسلمين موقعاً عظيماً ودعوا الله لأمير المؤمنين، فأسأل الله أن يجيب في أمير المؤمنين صالح الدعاء، وأن يتم ذلك لأمير المؤمنين، ويزيد في نيته ويعينه على ما هو عليه.

وقد ذكر عن عبد الله بن عباس - رحمة الله عليه - أنه قال: لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؛ فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم (1).

وذكر عبد الله بن عمرو: (أن نفراً كانوا جلوساً بباب النبي صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا، وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا. قال: فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج فكأنما فقي في وجهه حب الرمان. فقال: أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، إنما ضلت الأمم قبلكم في مثل هذا، إنكم لستم مما هاهنا في شيء انظروا الذي أمرتم به فاعملوا به، وانظروا الذي نهيتم عنه فانتهوا عنه — (2).

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تماروا في القرآن، فإن مرأه فيه كفر — (3).

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل، فجعل عمر يسأله عن الناس، فقال: يا أمير المؤمنين قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا.

فقال ابن عباس: فقلت: والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة. قال: فزبرني عمر، ثم قال: مه، فانطلقت إلى منزلي

(1) هذا الخبر عنه رضي الله عنهما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم (10217) في كتاب فضائل القرآن من طريق جعفر عن ليث عن عطاء عنه به. وذكره الحافظ ابن حجر في المطال

297 / 3، من طريق مسدد به وذكر محقق الكتاب الأعظمي أن البوصيري سكت عليه.

(2) صحيح مسلم العلم (2666)، سنن ابن ماجه المقدمة (85)، مسند أحمد بن حنبل (196/2).

(3) مسند أحمد بن حنبل (205/4).

مكتئباً حزيباً، فبينما أنا كذلك إذ أتاني رجل فقال: أجب أمير المؤمنين، فخرجت فإذا هو بالباب ينتظرني، وأخذ بيدي فخلاً بي، وقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إن كنت أسأت فإني أستغفر الله عز وجل وأتوب إليه، وأنزل حيث أحببت. قال: لتحدثني ما الذي كرهت مما قال الرجل، قال: إنما قلت يا أمير المؤمنين متى يتسارعوا هذه المسارعة يتحقوا، ومتى يتحقوا يختصموا، ومتى يختصموا يختلفوا، ومتى يختلفوا يقتتلوا. قال: لله أبوك، والله إن كنت لأكتمها الناس حتى جئت بها (1).

وروي عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: هل من رجل يحملني إلى قومه؛ فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي — (2).

وروي عن جبير بن نفير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه - يعني القرآن - — (3).

وروي عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه - يعني القرآن - — (4).

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: " جردوا القرآن ولا تكتبوا فيه شيئاً إلا كلام الله " (5).

(1) أخرجه عبد الرزاق في المصنف رقم (20368)، وأبو يعقوب البسوي في المعرفة بالتاريخ 1 / 516 - 517، كلاهما من طريق معمر عن علي بن بزيمة الجزري عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس به، وهذا إسناد كله ثقات، وذكره ابن الأثير في النهاية 1 / 414.

(2) سنن الترمذي فضائل القرآن (2925)، سنن أبو داود السنة (4734)، سنن ابن ماجه المقدمة (201)، مسند أحمد بن حنبل (390/3)، سنن الدارمي فضائل القرآن (3354).

(3) سنن الترمذي فضائل القرآن (2911)، مسند أحمد بن حنبل (268/5).

(4) سنن الترمذي فضائل القرآن (2911)، مسند أحمد بن حنبل (268/5).

(5) رواه عبد الرزاق في المصنف رقم (7944) عن سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء، عن ابن مسعود به. وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبه في مصنفه رقم (10301) عن وكيع عن سفيان به. ورواه أيضاً برقم (10302) عن سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، قال

وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال: " إن هذا القرآن كلام الله فضعوه على مواضعه " (1).

وقال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد إذا قرأت كتاب الله وتدبرته ونظرت في عملي كدت أن أياس وينقطع رجائي. قال: فقال له الحسن: " إن القرآن كلام الله وأعمال بني آدم إلى الضعف والتقصير فاعمل وأبشر " .

وقال فروة بن نوفل الأشجعي: " كنت جارا لخباب وهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فخرجت معه يوماً من المسجد وهو آخذ بيدي، فقال: يا هناة تقرب إلى الله بما استطعت؛ فإنك لن تقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه " .

وقال رجل للحكم بن عتيبة: ما حمل أهل الأهواء على هذا؟ قال:

عبد الله به. وقال في المجمع 7 / 161: وعن أبي الزعراء قال: قال عبد الله: " جرّدوا القرآن لا تلبسوا به ما ليس منه ". رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير أبي الزعراء، وقد وثقه ابن حبان، وقال البخاري: " لا يتابع في حديثه ". 1 هـ. ووثقه أيضاً العجلي وابن سعد في الطبقات كما في التهذيب 6 / 61. والله أعلم.

(1) رواه أحمد في الزهد عن يحيى بن غيلان، ثنا رشدين، ثنا يونس، عن ابن شهاب، عن عمر رضي الله عنه به وزاد: " ولا تتبعوا أهواءكم ". وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة من وجهين بمعناه رقم 117 - 118: الأول: قال حدثني أبو معمر، ثنا جرير، عن ليث، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء عن عمر رضي الله عنه بلفظ: " إن هذا القرآن كلام الله عز وجل، فلا أعرفنّ ما عطفتموه على أهوائكم ". وأخرجه هكذا الدارمي في الرد على الجهمية ص 90، وأبو بكر الأجري في الشريعة ص 76 من طريق أبي إسحاق الفزاري عن الحسين بن عبد الله النخعي عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عمر به. والثاني: قال: حدثني عثمان بن أبي شيبة، ثنا جرير بن عبد الحميد عن ليث بن أبي سليم عن سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء عن عبد الله بن هانئ عن عمر ببعضه وهو: " أن القرآن كلام الله عز وجل ". ورواه الدارمي في سننه 1 / 533 من طريق إسحاق، ثنا جرير به. والأجري في الشريعة ص 77 من طريق عثمان وأبي شيبة به، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات 1 / 591 - 592 من كلا الطريقين وفي الاعتقاد بنفس الإسناد ص 104، والحديث حسن بمجموع طرقه وله شواهد كثيرة عن جماعة من الصحابة ذكر بعضها البيهقي في الأسماء والصفات 1 / 591 - 601. والله أعلم.

وقال معاوية بن قررة، وكان أبوه ممن أتى النبي صلى الله عليه وسلم
 ﷺ: إياكم وهذه الخصومات فإنها تحبط الأعمال.—.

وقال أبو قلابة، وكان أدرك غير واحد من أصحاب رسول الله صلى
 الله عليه وسلم: ﷺ لا تجالسوا أصحاب الأهواء أو قال أصحاب الخصومات
 فإنني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون.—.

ودخل رجلان - من أصحاب الأهواء - على محمد بن سيرين فقالا: يا
 أبا بكر، نحدثك بحديث؟ قال: لا. قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله؟ قال:
 لا. لتقومان عني، أو لأقومنه. قال: فقام الرجلان فخرجا. فقال بعض القوم:
 يا أبا بكر، ما كان عليك أن يقرأ عليك آية من كتاب الله؟ فقال محمد بن
 سيرين: “إني خشيت أن يقرأ علي آية، فيحرفانها، فيقر ذلك في قلبي”
 فقال محمد: “لو أعلم أنني أكون مثل الساعة لتركتهما—.”

وقال رجل من أهل البدع لأيوب السختياني: “يا أبا بكر، أسألك عن
 كلمة، فولى وهو يقول بيده: ولا نصف كلمة—.”

وقال ابن طاووس لابن له - وتكلم رجل من أهل البدع -: أدخل
 أصبعيك في أذنيك حتى لا تسمع ما يقوله. ثم قال: اشد، اشد.

وقال عمر بن عبد العزيز: “من جعل دينه عرضاً للخصومات أكثر
 التنقل—.”

وقال إبراهيم النخعي: “إن القوم لم يدخر عنهم شيء خبيء لكم لفضل
 عندكم—.”

وكان الحسن البصري يقول: “شر داء خالط قلباً، يعني الهوى—.”

وقال حذيفة بن اليمان - وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
 ﷺ: اتقوا الله معاشر القراء، خذوا طريق من كان قبلكم، والله لئن استقمتم لقد
 سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن تركتموه يميناً وشمالاً لقد ضللتكم ضلالاً بعيداً—، أو

قال: ﴿مبيناً — (1)﴾.

وإنما تركت ذكر الأسانيد، لما تقدم من اليمين التي حلفت بها مما قد علمه أمير المؤمنين، لولا ذلك ذكرتها بأسانيدها.

وقد قال الله جل ثناؤه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وأخبر تبارك وتعالى بالخلق، ثم قال: والأمر، فأخبر أن الأمر غير الخلق.

وقال تبارك وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١﴾ [الرحمن: ١]، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾ [الرحمن: ٢]، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣﴾ [الرحمن: ٣]، ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤] فأخبر تبارك وتعالى أن القرآن من علمه. وقال: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠﴾ [البقرة: ١٢٠] وقال: ﴿وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا قِيلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَوْلَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قَوْلَ بَعْضٍ وَلَئِنْ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥] وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا وَعَرَبِيًّا وَلَئِنْ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۝٣٧﴾ [الرعد: ٣٧] (2)، فالقرآن علم الله.

- (1) أخرج البخاري أكثره في صحيحه في كتاب الاعتصام بالسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ رقم 6853 من طريق الأعمش عن إبراهيم عن همام عن حذيفة. أما بلفظ الإمام أحمد فأخرجه محمد بن نصر المروزي في السنة ص 25 من طريق يحيى بن يحيى ثنا سليم بن أخضر عن عوف بن إبراهيم عن حذيفة رضي الله عنه به. وأخرجه بمثل لفظ البخاري من طريقه أيضاً، وأخرجه ابن وضاح القرطبي في (البدع والنهي عنها) ص 10، أخبرنا أسد عن محمد بن حازم عن الأعمش عن إبراهيم عن همام بن الحازمي عن حذيفة به. ومن وجه آخر أيضاً عن ابن المبارك عن عبد الله بن عون عن إبراهيم عن حذيفة به، وكذا رواه ابن عبد البر في (الجامع) 2 / 119 عن ابن مسعود أيضاً في 2 / 97 واللالكائي في (أصول السنة) رقم 119، وأبو نعيم في (الحلية) 1 / 280 والبيهقي في (شرح السنة) 1 / 214 وغيرهم، رحمهم الله.
- (2) في هذه الآيات استدلل الإمام على أن الذي أوتيته الرسول هو العلم وهو من علم الله وهو القرآن. فكيف يكون ما هو من علم الله مخلوقاً؟! وفي آية الرعد كذلك نص بتنزيله حكماً عربياً، وهل يكون بهذا مخلوقاً؟!

وفي هذه الآيات دليل على أن الذي جاءه صلى الله عليه وسلم هو القرآن لقوله: {وَلِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} [البقرة: ١٢٠].

وقد روي عن غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون: “القرآن كلام الله ليس بمخلوق” (1). وهو الذي أذهب إليه، ولست بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلا ما كان من كتاب الله، أو في حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وشرعه، أو عن أصحابه - رحمة الله عليهم - أو عن التابعين، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود. وإنني أسأل الله أن يطيل بقاء الأمير، وأن يثبتته ويمده منه بمعونة، إنه على كل شيء قدير (2).

* * *

(1) هذه الجملة العظيمة تواتر نقلها عن سلفنا الصالح تواتراً كثيراً حتى أفردت في أجزاء مستقلة وضمن مؤلفات السنة الكبار ففيه من المستقل: رسالة الحربي السابقة، ورسالة جعفر بن إدريس القزويني وغيرهما. أما داخل المؤلفات الجامعة لمقالات أهل السنة في أصول الاعتقاد فهو مما اشتهر وكثر نقله. ومن المؤلفات الكبار الحاوية لتواتر هذه الجملة الرد على الجهمية للأئمة: أحمد بن حنبل، وعثمان الدارمي، والبخاري، وكتاب الشريعة لأبي بكر الأجري ص 72 - 96. وكتاب (السنة) رواية أبي بكر خلال الجزء السادس والسابع من المخطوط من ورقة (56 - 192). و(السنة) لعبد الله بن أحمد (1 \ 106 - 171)، وكتاب (الإبانة الكبرى) لابن بطة العكبري الحنبلي من (ص 495 - 615)، (وشرح أصول اعتقاد أهل السنة) للالكائي الجزء الثاني منه بتمامه، (والأسماء والصفات) للبيهقي (1 \ 585)، إلى نهاية المجلد الأول تقريباً، و(ذم الكلام) لأبي إسماعيل الهروي في الباب السادس عشر، باب إنكار أئمة الإسلام ما أحدثه المتكلمون في الدين من الأغاليط وصعاب الكلام والشبهة والمجادلة وزايغ التأويل والمهازلة ورأيهم فيهم على الطبقات من أول الجزء الثاني إلى الورقة 247. و(الاعتقاد) للبيهقي ص 43 - 54، في باب القول في القرآن. إلى بقية الحديث والسنن في أثناء أبواب التوحيد، وذم الرأي والخصومة في الدين، وصفات الله، رحم الله مؤلفيها وأجزل مثوبتهم، آمين.

(2) إبراهيم بن إسحاق الحربي، رسالة في أن القرآن غير مخلوق، تحقيق: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل، دار العاصمة - الرياض، الطبعة الأولى، 1995، ص 47 - 61، مجلة البحوث الإسلامية، 51 / 175 - 194.

الإمام الشافعي

الإمام الشافعي

أعلام الفقهاء

الإمام الشافعي

إمام العباقرة، وعبقري الأئمة، له في العلم سبب، وفي البيت نسب، وفي المروءة حسب.

سالت قريحته فتفجرت أنهار الحكمة من على لسانه، وسأقت رياح التوفيق سحب علمه فسالت أدوية بقدرها. ذاكرته أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين.

الشافعي أخذ من الأثر روحه، ومن الفقه خلاصته، ومن البيان ناصيته ومن الشعر حلاوته، ومن المجد ذروته.

قعد للعلماء القواعد فغضب عليه أعداء الشريعة؛ لأنهم رضوا بأن يكونوا مع القواعد، فخرت به قريش، وتبجحت به العراق، وخرجت إليه مصر، حاور محمد بن الحسن فقطع أزراره، ورد على المريسي فأطفأ ناره، وجاور أحمد فشكر جواره.

الشافعي لدنيا العلوم شمس، ولأبدان الأخبار عافية، وللليل المدلهم قمر، في الشرع شعره، في الحق بذله، للآخرة طلبه، لله سعيه، لما خرج إلى البلاد لبست بغداد الحداد وأمست في سواد.

الألفاظ سكر، والقصد نضيد، حفر لحدًا للملاحدة، وعزل في زنزانة الإحباط المبتدعة، ورد الأباطيل في جوه أهل التعطيل، إن سألنا عن أهل الكلام فالجريد والنعال. وأهل السنة: رواد الجنة. والفلاسفة: أهل سفه. ومالك: نجم الممالك. وأحمد بن حنبل: زرع سنبل.

أتاه المال ففر منه إلى العلم، وأتته الدنيا فهرب إلى الآخرة تعلم الفراسة في اليمن، فكشف أهل الزيغ والأفن، تدجج بالحجج فألحم الدجاجة، وصال بالأصول على أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم.

درس الطب فمرض جسمه، وداوى الناس فزاد عُظمه.

المروءة عنده ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت أشعر من لبيد،
التواضع: أحب الصالحين ولست منهم.

ميزة الشافعي: التفرد، ومنقبته التجرد، تفرد في الفهم، فعصر من زهر
الذهن رحيقاً، وتجرد للحق فنسج من بز الشريعة ثوباً سابغاً.

فاح طيب ذكره في الأنوف، فيا فرحة من شم، وهزم الباطل فكأنه شم
عطر منشم، الشافعي شهاب ثاقب أحرقت به شياطين الإنس ولهم عذاب
واصب.

يا بن إدريس أيها الشهم الأجل أنت سيف الحق في العلياء سُلّ.
مسكين من جادل الشافعي وناظره، مسكين من عارضه وكابره،
مسكين من عرفه وما ذاكره.

درس محمد بن إدريس علوم محمد صلى الله عليه وسلم فترك علماً لا
يغسله الماء، ولا تطفئه الريح ولا يلفه الظلام، ولا ينسيه الدهر، الرسوخ
في يسر، العمق في سهولة، الأصالة في إشراق، البراعة في نصوع.
أهل فارس يعرفونه، وأهل الصين يذكرونه، وأهل الأندلس يمدحونه،
وأهل الباطل يبغضونه.

إذا مرجت الآراء بزغ رأي الشافعي كالنجم الثاقب، إن تكلم أسكت
الخطباء، وإن أنشد صمت الأدباء والبلغاء، أحب الملة فأمهرها روحه،
وعشق العلم فأعطاه عمره، وأخلص للرسالة ففاضت لها نفسه، فهو عاشق
المثل، سامي المقاصد، رجل المروءات، ناشر السنة بين أهلها، وناصرها
على أعدائها، وحافظها لمحبيها، وشارحها لناقليها.

وإن تفق الأنام وأنت منهم :::: فإن المسك بعض دم الغزال
ورث أنوار الرسالة، فألف للأمة الرسالة، مات أبوه فكفلته الأم، فقدم
للناس كتاب الأم، إذا نطق الشافعي فكان السيل أقبيل، والفجر بزغ، والنور

سطع، صحة مخارج، حلاوة لفظ، قوة حجة، براعة دليل، سلامة إنشاء: {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} [الجمعة: ٤].

في الفقه إمام، في النقل حجة، في النسك علم، في اللغة أستاذ في الذكاء آية.

سرت به أمة من غزة فسبحان الذي أسرى، وعاش في مكة لينفع أم القرى.

الشافعي لم يستند إلى النسب ولو أنه مُطْلَبِيّ، ولم يتكل على الجاه فهو أبيّ، ولكن أخذ بأسباب الخلود، وهجر أسباب الفناء، فأمات في حياته النفس الأمارة، وأحيا بوفاته النفس المطمئنة، فنوديت: {أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً} [الفجر: ٢٨].

إذا كانت الحياة بالبساط والسياط والسلطة والسطوة فأين أصحابها بعد موتهم: {هَلْ نَحْسُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} [مريم: ٩٨].

عند الشافعي: اتباع الأثر عبادة، الوقوف مع النقل عقل، توقير الصحبة عقيدة، رد الشُّبُه جهاد، تعليم الناس ربانية، ترك المعاصي هجرة، أهل الحديث رؤوس، المبتدعة سفلة، علم الكلام غي، المنصب دُل، الدنيا دنيئة. بدا إلى البادية فهذّ شعر هذيل، كان رأساً وسواه ذيلاً، احتسى علم مالك، ومص فهم أبي حنيفة، وجمع بين النثر والشعر، والرواية والدراية والعقل والنقل.

الشافعي عروبة حجازية، وفصاحة عراقية، ورقة مصرية، أعجب ما فيه روح التجديد في المذهب القديم، وقدم التأصيل في مذهبه الجديد، سخر الشعر للشرعية، والنحو للوحي، والرأي للرواية، التعليل للتأويل، حملته المهمة فأضناه الطالب، وخلع الدنيا فلبس تاج القبول، خاف الدنيا والدنيا، وجانب الشيطان والشر والشهوة والشبهة.

إن خطب أطنب وأطرب، وأتى بكل أطيب.. وإن أفتى شفى وكفى

وأوفى.

فلج خصوم الإسلام، ونكس رايات الأقزام وأبقى ذكره للأيام، دمع الضلال، واكتسح الجهال، {وإن كانت مكرهم لتزول منه الجبال} [إبراهيم: ٤٦].

انكسر به ظهر الجبرية، وثلم به قدر القدرية، وأخرجت حجه شبه الخوارج، واهتز في يده سنان السنة (1).

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد ابن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي، الإمام العلـم أبو عبدالله الشافعي المكي المطلبى الفقيه، نسيب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

... وقد ولد الإمام الشافعي - رضي الله تعالى عنه - بغزة سنة مائة وخمسين من الهجرة، فلم يكد يبلغ سنتين من عمره حتى حمل إلى مكة، فنشأ بها، وأقبل على علوم اللغة واعتنى بالأدب والشعر، فبرع في ذلك، وحبّب إليه الرمي، حتى فاق الأقران، وصار يصيب من العشرة تسعة.

... والسائب بن عبيد الله المطلبى - الذي نسب إليه الشافعي: أحد من أسر يوم " بدر " من المشركين، وكان يشبهه بالنبي.

... وأمه هي: الشفاء بنت أرقم بن نضلة، ونضلة هو أخو عبد المطلب، من بني هاشم، ويقال: إنه أسلم بعد أن فدى نفسه. وابنه شافع له رؤيته هو معدود من صغار الصحابة. وكانت أم الشافعي أزدية.

حَفِظَهُ لِلْقُرْآنِ وَتِلَاوَتِهِ لَهُ:

... حفظ الإمام الشافعي - رحمه الله - القرآن، فما من حرف مرّ به إلا وهو يعلم معناه والمراد منه... وقال ابن عبد الحَكَم: سمعت الشافعي يقول:

(1) عائض بن عبد الله القرني، سلسلة القم لأهل الهمم، 4 / 11.

قرأت على إسماعيل بن قسطنطين، وقال: قرأت على شبل، وقال شبل: قرأت على عبد الله بن كثير، وهو على مجاهد، ومجاهد على ابن عباس.

... وقال الكرابيسي: بتُّ مع الشافعي غير ليلة، وكان يصلي نحو ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة، وكان لا يمرُّ بآية رحمةٍ إلا سأل الله، ولا يمرُّ بآية عذابٍ إلا تَعَوَّذَ منها.

شيوخ الشافعي:

... تتلمذ الإمام الشافعي لعدد غير قليل من الشيوخ فأخذ عنهم وروى عنهم كثير من علومه، نذكر منهم:

مالك بن أنس:

أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، ولد سنة 93هـ من الهجرة، وهو شيخ العلماء وأستاذ الأئمة، وكان بيته بيت علم، فجده الأعلى أبو عامر صحابي جليل، وجده الأسفل مالك من كبار علماء التابعين، تبحر في علم الحديث والتفقه في الكتاب والسنة، ويعد الشافعي ممن أخذ عنه العلم. وقد عرض عليه “الموطأ” حفظاً. توفي في الليلة الرابعة عشرة من ربيع الثاني سنة 179هـ ودفن بالبقيع، وله من العمر 86 سنة.

الماجشون:

عبد العزيز بن عبدالله بن أبي سلمة التيمي، له كتب مصنفة رواها عنه ابن وهب، وكان الماجشون أصبهانياً نزل المدينة وكان من العلماء الربانيين. توفي سنة 164هـ.

مسلم بن خالد الزنجي:

... أبو خالد المخزومي المشهور بالزنجي فقيه “مكة”، تفقه وأفتى وتصدر للعلم وهو الذي أذن للشافعي في الإفتاء، حدث عنه الشافعي وكان فقيهاً، عابداً، يصوم الدهر. مات سنة 180هـ. وله 80 سنة.

إبراهيم بن سعد:

إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف، شيخ الشافعي الحافظ الإمام أبو إسحاق الزهري المدني، ولي قضاء المدينة وروى عنه من الكبار شعبة والليث بن سعد وعاش 75 سنة. توفي سنة ثلاث أو أربع وثمانين ومائة.

إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي الفقيه:

أبو إسحاق الأسلمي المدني أحد الأعلام، روى عن الزهري وخلق كثير حدث عنه الشافعي وابن جريج وهو من شيوخه قال عنه الشافعي: كان قديراً، وقال عنه أحمد بن حنبل: قديراً جهمي كل بلاء فيه ترك الناس حديثه. توفي سنة 184 هـ.

سفيان بن عيينة:

سفيان بن عيينة بن ميمون العلامة الحافظ أبو محمد الهلالي الكوفي، محدث الحرم. ولد سنة سبع ومائة، وطلب العلم في صغره، حدث عنه الشافعي والزعفراني والرملي، وخلق لا يحصون، وكان إمام الحجة حافظاً واسع العلم كبير القدر، وقد حج سبعين سنة. قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز.

مات سنة 198 هـ.

إسماعيل بن جعفر:

إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري قارئ أهل المدينة ومؤدب علي بن المهدي ببغداد تولى إمارة الحج غير مرة، وكان أسن من الرشيد بشهور..

تلاميذ الشافعي:

كثر تلاميذ الإمام الشافعي ممن روا عنه ونهلوا من فيض علمه نذكر منهم:

أبو بكر الحميدي:

هو أبو بكر عبدالله بن الزبير بن عيسى القرشي المكي المعروف بالحميدي، رحل مع الشافعي من مكة إلى مصر ولزمه حتى مات، ورجع مكة يفتي إلى أن توفي بها سنة 219هـ. روى عن الشافعي أن الشعرة الواحد يجب فيها ثلث مد، وفي الشعرتين ثلثان في الحج.

أبو عبيد القاسم بن سلام:

له صحبة مع الشافعي وكتب كتبه وكان بغدادياً الأصل وله اختيار ولم يُجَرِّد للشافعي. توفي بمكة سنة 224هـ وهو ابن 73 سنة.

أحمد بن حنبل:

هو أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني إمام أهل السنة يقول فيه الشافعي: "خرجت من العراق، فما تركت رجلاً أفضل، ولا أعلم، ولا أروع، ولا أتقى من أحمد بن حنبل. ولد في مدينة بغداد سنة أربع وستين ومائة، كفلته أمه بعد وفاة والده، وأخذ العلم من يحيى بن معين، وإسحاق ابن راهويه، والشافعي، وغيرهم وقد كان الشافعي يُعَظِّمُه. توفي سنة 241هـ، وله من العمر 77 سنة.

من أبرز تلاميذ الشيخ الشافعي:

لقد اشتهرت جلالة الشافعي رحمه الله في العراق وسار ذكره في الآفاق واعترف له العلماء وعظمة مكانته عند الخلفاء وولاة الأمر، وعكف عليه للاستفادة منه الصغار والكبار والأئمة والأخيار، وتمسكوا بطريقته ومنهم:

البُويطي:

... هو يوسف بن يحيى القرشي البُويطيُّ المصري الفقيه، صاحب الشافعي، وكنيته أبو يعقوب.

... قال الذهبي - في "السير": الإمام العلامة سيِّدُ الفقهاء، يوسف

أبو يعقوب بن يحيى المصري البويطي، صاحب الإمام الشافعي، لازمه مُدَّةً وتخرَّجَ به، وفاق الأقران.

... روى - رحمه الله - عن: عبد الله بن وهب، ومحمد بن إدريس الشافعي.

ولم تذكر الكتب التي ترجمت له سوى ابن وهب، والشافعي من شيوخه.

ذِكْرُ مَنْ وَثَّقَهُ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ:

... قال ابن أبي حاتم: سئل عنه أبي؟ فقال: صدوق.

... وقال ابن عبد البر: كان من أهل الدين والعلم والفهم والثقة، صلياً في السنة، يردُّ على أهل البدع، وكان حسن النظر.

وقال الذهبي: مات الإمام البويطي في قيده مسجوناً بـ "العراق" في سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

وممن أَرَّخَ وفاته في هذه السنة أيضاً الخطيب، وقال: هذا القول في وفاته أصح، وقد ذكره هكذا غير واحد.

أبو ثور:

إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي من رواة القديم، قال أحمد بن حنبل: أعرفه بالسنة منذ خمسين سنة، قال وهو عندي كسفيان الثوري، مات سنة أربعين ومئتين، وكان أبو ثور على مذهب الحنفية، فلما قدم الشافعي بغداد تبعه وقرأ كتبه ويسر علمه. وله مصنفات كثيرة يذكر فيها الاختلاف ويحتجُّ لاختياره.

حرملة بن يحيى:

... هو حرملة بن يحيى بن عبدالله بن حرملة المصري الشجيري صاحب الشافعي، كان إماماً حافظاً للحديث والفقه، ولد سنة ست وستين

ومئة، صنف المبسوط والمختصر المعروف به، توفي ستة ثلاث وأربعين ومائتين....

المزني:

... أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزني، المصري. ولد سنة خمس وسبعين ومائة كان إماماً ورعاً وقال الشافعي فيه: لو ناظر الشيطان لغلبه، صنف المبسوط والمختصر والمنثور والترغيب في العلم وغيرها. وصنف كتاباً مفرداً على مذهبه لا على مذهب الشافعي. توفي سنة أربع وستين ومائتين. ودفن بالقرب من قبر الإمام الشافعي.

الزعفراني:

... أبو علي الحسن بن محمد بن الصَّبَّاح الزعفراني، كان إماماً في اللغة، وكان يذهب إلى مذهب أهل العراق فتركه وتفقه للشافعي. قرأ على الشافعي الكتاب كله نيفاً على ثلاثين جزءاً. وكتبه عنه، وهو الكتاب المعروف بالبغدادي وبالقديم، ويقال لكتابه المصري الذي كتبه بمصر الجديد. مات سنة ست وستين ومائتين.

الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ:

... هو: الربيع بن سليمان بن عبد الجَبَّار بن كامل المرادي، مولاهم، المصري المؤدّن، صاحب الإمام الشافعي، وراوي كتبه... قال الإمام الذهبي: صاحب الإمام الشافعي، وناقل علمه، وشيخ المؤدّنين بجامع "الفسطاط"، ومستملي مشايخ وقته.

وقد أجمعت المَصَادِرُ التي ترجمت له على أن كنيته: أبو مُحَمَّدٍ.

وكان مَوْلَدُهُ - كما ذكر الإمام الذهبي رحمه الله في "السير" - في سنة أربع وسبعين ومائة، أو قبلها بعام، وتوفي يوم الاثنين لعشر بقين من شوال سنة سبعين ومائتين.

روى عن عَدَدٍ كبير من الشيوخ. وخلق كثير.

والحسين بن علي الكرابيسي ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم، وقد سبق الحديث عنهما.

مكانته العلمية:

... حاز الإمام الشَّافعي من ألوان الثقافة وفنون العلم والمعرفة، ما لم يظفر به أحد غيره من الأئمة؛ لأمرين:

... أحدهما: أصالة نظره وعمق تفكيره ووفور عقله، الأمر الذي ساعده على الإفادة مما يحيط به، ولقد صدق القاسم بن سلام، حيث يقول: “ما رأيت رجلاً قطُّ أعقل من الشَّافعي”.

... وثانيهما: كثرة أسفاره إلى “اليمن”، و“العراق”، و“مصر”، واتصاله المستمر بالعلماء، حيث نهل من علومهم ومعارفهم شيئاً عظيماً.

... وكانت نتيجة التَّرحال أن نال ثقافة واسعة في اللغة، والأدب، والحديث، والفقه على طريقتي أهل الحديث وأهل الرأي؛ كما أنه نال ثقافة اجتماعية اكتسبها من مشاهدة حياة البدو في البادية، والحضارة الأولى في “الحجاز”، و“اليمن”، والحضارة العريقة المعقدة المركبة في كل من “العراق” و“مصر”.

أصول المذهب الشافعي:

... كان الإمام الشافعي في بداية طلبه للعلم يعد نفسه تلميذاً للإمام مالك بن أنس، وأحد رجال مدرسته، إلى أن قدِمَ “العراق” للمرة الثانية، فأسس هناك مذهباً مستقلاً.

... وقد دَرَسَ الشافعي مذاهب المتقدمين، وبحث بدقة متناهية مسلك المدرستين: مدرسة الحديث، ومدرسة الرأي، وأحدث بعد هذا التمهيد طريقة نقدية جديدة جمعت بين مميزات المدرستين؛ وبذلك كوّن مركزاً وسطاً بين أهل الرأي، وأهل الحديث.

أصول المذهب:

... قال الإمام الشافعي في " الأم ": " الأصل: قرآن أو سنة، فإن لم يكن فقياسٌ عليهما، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله، وصحَّ الإسناد به - فهو المنتهى، والإجماع أكبر من الخبر الفرد، والحديث على ظاهره، وإذا احتُمِل المعاني فما أشبه ظاهره أو لاها به، وإذا تكافأت الأحاديث فأصحُّها إسناداً أو لاها، وليس المنقطع بشيءٍ ما عدا منقطع ابن المسيَّب، ولا يقاس أصلٌ على أصل، ولا يقال للأصل: لِمَ وكيف؟ وإنما يقال للفرع: لِمَ؟ فإذا صحَّ قياسه على الأصل صحَّ وقامت به الحجَّة " .

... ويؤخذ من هذا الكلام أن أصول مذهبه: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس؛ لكن انفرد بمسئلك منفرد في طريقة العمل بكل منها، وهذا لا يعني الحصر؛ بل قال بحجِّية قول الصَّحابي، والعُرف، والاستصحاب، أيضاً.

... وعن أصول مذهب الشافعي يقول الأستاذ الشيخ علي الخفيف:

... وقد امتاز مذهب الشافعي بأصوله التي ذكرها صاحبه، ففصلها، وناضل عنها في كتابه الأم، والرسالة التي وضعها في هذا الغرض، فكانت أصولاً لمذهبه مقطوعاً بها غير مظنونة، مروية عن الشافعي نفسه، غير مستتبطة من النظر في مذهبه.

... وفيما يلي نشير إلى أصول المذهب الشافعي في إيجاز:

1- الكتاب: وقد عدَّ الشافعي (كغيره من الفقهاء، والقرآن المصدر الأول للتشريع لا يُقدم عليه سواه، فهو المنبع الأول لاستقاء الفقه، والشافعي يحتج بظاهر الكتاب، ما لم يَقم دليل على أن المراد بالآية غير ظاهرها

2- السُّنة: ذهب الإمام الشافعي إلى القول بحجية خبر الواحد ودافع عن العمل به دفاعاً شديداً، ما دام راويه ثقة ضابطاً، وما دام الحديث

متصلاً برسول الله، وأخذ على الحنفية أنهم قدموا القياس عليه.

... ويرى أن السنة إذا صحّت يجب اتباعها اتباع القرآن، لكن لا يرى العمل بالمرسل إلا بشروط: كأن يكون من مراسيل سَعِيد بن المسيّب.

3- الإجماع: ويعني عند الشافعي: عدم العلم بالخلاف على أساس أن العلم بالاتفاق غير ممكن.

... وقد ردّ الشافعي ما ذهب إليه شيخه الإمام مالك، من اعتباره إجماع أهل " المدينة " حجة، وأصلاً من أصول الفقه.

4- قول الصحابي: احتج الشافعي - في قوله القديم - بأقوال الصحابة، أمّا في الجديد: فالمعروف عنه - كما يقول كثير من أصحابه - أنه لم يحتج به على أساس أنه نقل أقوالاً لهم ثم خالفها.

... وقد ذهب ابن القيم إلى خلاف ذلك، حيث قال: إن كلام الشافعي - في الجديد -: " العلم طبقات: الأولى: الكتاب والسنة، والثانية: الإجماع فيما ليس كتاباً ولا سنة، الثالثة: أن يقول صحابي، فلا يعلم له مخالف من الصحابة، الرابعة: اختلاف الصحابة، الخامسة: القياس " - يدل على أن قول الصحابي حجة في وقوله الجديد أيضاً.

... قال الإمام في " الأم ": ما كان الكتاب والسنة موجودين، فالعذر عن سماعهما مقطوع إلا باتباعهما، فإذا لم يكن ذلك، صرنا إلى أقاويل أصحاب رسول الله أو واحدٍ منهم، ثم كان قول الأئمة: أبي بكر، أو عمر، أو عثمان - إذا صرنا فيه إلى التقليد - أحب إلينا؛ وذلك إذا لم نجد دلالة في الاختلاف تدل على أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة، فنتبع القول الذي معه الدلالة؛ لأن قول الإمام مشهور بأنه يلزمه الناس، ومن لزم قوله الناس كان أشهر ممن يفتي الرجل أو نفر، وقد يأخذ بفتياه أو يدعها، وأكثر المفتين يُفتنون للخاصة في بيوتهم ومجالسهم، ولا تُعني العامة بما قالوا عنايتهم بما قال الإمام.

5- القياس: كان الشافعي أول من تكلم في القياس، وضبط قواعده، وبَيَّنَّهَا؛ فهو وإن لم يعرفه بالحد، ولا بالرسم التام - إلا أنه وضحه بالأمثلة، والتوضيح بالمثل من قبيل الرسم الناقص.

... وقد وقف الشافعي موقفاً وسطاً بين تشدد مالك، وتوسع أبي حنيفة، واشترط في الأخذ به: أن تكون علته منضبطة، ولا يكون في المسألة حديث صحيح، ولو كان من أخبار الآحاد.

6- الاستصحاب: عمل الإمام الشافعي بالاستصحاب، وعده من مصادر الأحكام.

7- العرف: تأثر فقه الشافعي بالأعراف السائدة في " مصر " في عهده؛ فرجع عما بناه من أحكام فقهية على أعراف وعادات العراقيين؛ وهذا يعني أن الشافعي يعتبر العرف مصدراً من مصادر الأحكام.

8- الاستحسان: لم يأخذ الشافعي - كما هو المعروف عنه - بالاستحسان، بل نَقَمَ عليه وعلى من يقول به، حتى قال: " من استحسَن فقد شَرَّع ".

... غير أن الشافعي بني بعض المسائل الفقهية على الاستحسان، منها قوله: استحسَن أن تكون المتعة في حق العقيم ثلاثين درهماً، وقوله: أستحسن أن يؤجَّل الشفيع ثلاثاً.

... وفي السارق قال: إذا أخرج يده اليسرى بدل اليمينى فقطعت، القياس أن تقطع يميناه، والاستحسان ألا تقطع.

... وبناء على ذلك فإن الاستحسان الذي حمل عليه الشافعي وأنكره هو ما يستحسنه الناس ويشتهونه بغير دليل، وهذا ما لم يقل به أحد من المجتهدين.

كان الشافعي يقضي الساعات الطوال في دروس متصلة، ينتقل من علم إلى علم، يجلس في حلقاته إذا صلى الفجر، فيأتيه من يريدون تعلم

القرآن، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء طلاب الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه، فإذا انتهوا جاء بعدهم من يريدون تعلم العربية والعروض والنحو والشعر، ويستمر الشافعي في دروسه من بعد صلاة الفجر حتى صلاة الظهر!!

وكما كان الشافعي فقيهاً ومحدثاً كبيراً، كان أيضاً شاعراً رقيقاً فاض شعره بالتقرب إلى الله، فما هو ذا يستغفر الله ويدعوه قائلاً:

ولما قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِي :: جَعَلْتُ رَجَائِي نَحْوَ عَفْوِكَ سُلَّمًا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرِئَتْهُ :: بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا
ويوصي الشافعي من خلال شعره بآلا نرد على السفية قائلاً:

إذا نطق السفية فلا تجبه :: فخير من إجابته السكوت
فإن كلمته فرجت عنه :: وإن خليته كمداً يموت
ويصور عزة نفسه، وإن كانت ثيابه قديمه بالية، فتحتها نفس أبيية عزيزة غالية لا مثيل لها فيقول:

عليّ ثياب لو يباع جميعها بفلس :: لكان الفلس منهن أكثر
وفيهن نفس لو يُقاسُ ببعضها :: نفوسُ الوري كانت أجلّ وأكبراً

ومرض الشافعي، وقربت ساعة وفاته؛ فدخل عليه أحد أصحابه وقال له: كيف أصبحت؟ فأجاب الشافعي: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقاً، ومن كأس المنية شارباً، ولسوء عملي ملاقياً، وعلى الكريم سبحانه وارداً، ولا والله ما أدري روعي تصير إلى الجنة فأهنيها أو إلى النار فأعزيها.

ومات الشافعي ليلة الجمعة من آخر رجب عام 204هـ، وبعد صلاة العصر خرجت الجنازة من بيت الشافعي (بمصر) مخترقة شوارع الفسطاط وأسواقها، حتى وصلت إلى درب السباع؛ حيث أمرت السيدة نفيسة - رضي الله عنها - بإدخال النعش إلى بيتها، ثم نزلت إلى فناء الدار

وصلت عليه صلاة الجنازة، وقالت: رحم الله الشافعي إنه كان يحسن الوضوء (1).

مواقف من حياة الشافعي:

الشافعي ومحمد بن الحسن:

يقول الإمام الشافعي: ذكرت محمد بن الحسن يوماً، فدار بيني وبينه كلام واختلاف، حتى جعلت أنظر إلى أوداجه تدر، وتتقطع أزراره.

ويقول محمد بن الحسن: إن كان أحد يخالفنا فيثبت خلافه علينا فالشافعي، فقليل له: فلم؟ قال: لبيانه وتثبته في السؤال والجواب والاستماع.

تلك هي بعض نماذج من آداب علماء الأمة، نستنبط منها: أن خلف الأمة في قرون الخير كان يسير حذو السلف، والكل يستقي من أدب النبوة، ولم يكن أدب السلف الصالح يقتصر على تجنب التجريح والتشنيع، بل كان من الآداب الشائعة في ذلك الجيل من العلماء التثبت في أخذ العلم واجتناب الخوض فيما لا علم لهم به، والحرص على تجنب الفتيا خوفاً من الوقوع في الخطأ. قال صاحب القوت: وروينا عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت في هذا المسجد (مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم) مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم أحد يسأل عن حديث أو فتيا إلا ودّ أن أخاه كفاه ذلك. وفي لفظ آخر: كانت المسألة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر، ويردها الآخر حتى ترجع إلى الذي سأل عنها أول مرة.

مالك والشافعي:

يقول الإمام الشافعي: مالك بن أنس معلمي، وعنه أخذت العلم، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم، وما أحد آمن علي من مالك بن أنس وكان يقول: إذا جاءك الحديث من مالك فشد به يدك، كان مالك بن أنس إذا شك في

(1) النكت في المسائل المختلف فيها بين الشافعي وأبي حنيفة.

الحديث طرحه كله.

هذا أفضل فتیان زمانه. :

كان ابن عيينة هو من هو في مكانته إذا جاءه شيء من التفسير والفتيا التفت إلى الشافعي وقال: سلوا هذا. وكثيراً ما كان يقول إذا رآه: هذا أفضل فتیان زمانه. وحين بلغه نبأ وفاة الشافعي قال: إن مات محمد بن إدريس فقد مات أفضل أهل زمانه.

أدعو الله للشافعي حتى في صلاتي:

وكان يحيى بن سعيد القطان يقول: أنا أدعو الله للشافعي حتى في صلاتي. وكان عبد الله بن عبد الحكم وولده على مذهب الإمام مالك، ولكن هذا لم يمنع عبد الله بن الحكم من أن يوصي ولده محمداً بلزوم الإمام الشافعي حيث قال له: ألزم هذا الشيخ (يعني الشافعي) فما رأيت أحداً أبصر بأصول العلم أو قال: أصول الفقه منه. ويبدو أن الولد قد أخذ بنصيحة أبيه حيث يقول: لولا الشافعي ما عرفت كيف أرد على أحد، وبه عرفت ما عرفت، وهو الذي علمني القياس رحمه الله فقد كان صاحب سنة وأثر، وفضل وخير، مع لسان فصيح، وعقل صحيح رصين.

كالشمس للدنيا:

عن عبد الله بن الإمام أحمد قال، قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي، فإنني أسمعك تكثر الدعاء له؟ فقال: يا بني: كان الشافعي رحمه الله كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف أو عوض؟

أما يستحيي أبوك مما يفعل!:

وعن صالح بن الإمام أحمد قال: لقيني يحيى بن معين فقال: أما يستحيي أبوك مما يفعل؟ فقلت: وما يفعل؟ قال: رأيت مع الشافعي والشافعي راكب، وهو راجل أخذ بزمام دابته. فقلت لأبي ذلك، فقال: إن لقيته فقل: يقول لك أبي: إذا أردت أن تتفقه فتعال فخذ بركابه من الجانب

فضيه يقول الشافعي وحجته أثبت:

وعن أبي حميد بن أحمد البصري قال: كنت عند أحمد بن حنبل نتذاكر في مسألة، فقال رجل لأحمد: يا أبا عبد الله لا يصح فيه حديث. فقال: إن لم يصح فيه حديث ففيه يقول الشافعي وحجته أثبت شيء فيه (ثم قال: أي أحمد) قلت للشافعي: ما تقول في مسألة كذا وكذا فأجاب فيها، فقلت: من أين قلت؟ هل فيه حديث أو كتاب؟ قال: بلى فنزع في ذلك حديثاً للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو حديث نص.

وكان أحمد رحمه الله يقول: إذا سئلت في مسألة لا أعرف فيها خبراً قلت فيها: يقول الشافعي، لأنه إمام عالم من قریش.

وعن داود بن علي الأصبهاني قال: سمعت إسحاق بن راهويه يقول: لقيني أحمد بن حنبل بمكة فقال: تعالى حتى أريك رجلاً لم تر عيناك مثله.. فأراني الشافعي.

كان ذلك رأي أحمد بن حنبل في الشافعي، ولا غرو فإن يكون التلميذ معجباً بأستاذه معترفاً له بالفضل، ولكن الشافعي نفسه لم يمنع تتلمذ أحمد عليه من أن يعترف له بالفضل والعلم بالسنة فيقول له: أما أنتم فأعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحاً فأعلموني إن يكن كوفيّاً أو بصريّاً أو شامياً، أذهب إليه إذا كان صحيحاً.

وكان الشافعي حين يحدث عن أحمد لا يسميه (تعظيماً له) بل يقول: (حدثنا الثقة من أصحابنا أو أنبأنا الثقة أو أخبرنا الثقة) (1).

ادفع إليه الدنانير التي معك:

كان الشافعي راكباً على حمار فمر على سوق الحدادين فسقط سوطه من يده فوثب إنسان فمسحه بكفه وناولته إياه فقال لغلّامه: ادفع إليه الدنانير

(1) طه جابر فياض العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام، ص 32 - 33.

التي معك فما أدري أكانت سبعة أو تسعة.

أمعك من نفقتنا شيء؟!

قال وكنا يوماً مع الشافعي فانقطع شسع نعله فأصلحه له رجل فقال يا ربيع: أمعك من نفقتنا شيء؟ قلت: نعم، قال: كم؟ قلت: سبعة دنانير قال: ادفعها إليه.

تشهوا ما أحببتهم:

وقال أبو سعد: كان الشافعي من أجود الناس وأسخاهم كفاً كان يشتري الجارية الصناع التي تطبخ وتعمل الحلواء ويقول لنا: تشهوا ما أحببتهم فقد اشتريت جارية تحسن أن تعمل ما تريدون فيقول بعض أصحابنا: اعلمي اليوم كذا وكذا وكنا نحن نأمرها.

وقال الربيع: كان الشافعي إذا سألته إنسان شيئاً يحمر وجهه حياء من السائل ويبادر بإعطائه رحمه الله ورضي عنه.

فلا تطفئه بالمعصية:

قال له شيخه مالك بن أنس رضي الله عنه: إن الله عز وجل قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بالمعصية.

اتق الله واجتنب المعاصي:

وقال الشافعي: لما رحلت إلى مالك فسمع كلامي نظر إلي ساعة وكانت لمالك فراسة فقال: ما اسمك؟ قلت: محمد قال: يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن فقلت: نعم، وكرامة فقال: إذا كان غداً تجيء ويجيء من يقرأ لك الموطأ فقلت: إنني أقرأه ظاهراً فغدوت إليه وابتدأت فكلما تهيبت مالاً وأردت أن أقطع أعجبهته قراءتي وأغراني بقول زد يا فتى حتى قرأته عليه في أيام يسيرة ثم أقمت بالمدينة إلى أن توفي مالك رضي الله عنه ثم ذكر خروجه إلى اليمن.

يجب أن تكون قاضياً:

وفي رواية فقرأته عليه وربما قال لي في شيء قد مر أعد حديث كذا فأعيدته حفظًا وكأنه أعجبه فقال أنت يجب أن تكون قاضيا.

قلت من رهطك:

قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام قبل حلمي فقال لي: يا غلام فقلت: لبيك يا رسول الله قال: ممن أنت؟ قلت: من رهطك قال: ادن مني فدنوت منه ففتح فمي فأمر من ريقه على لساني وفمي وشفتي وقال: امض بارك الله فيك فما أذكر أنني لحننت في حديث بعد ذلك ولا شعر.

يا رسول الله بقول من أخذ:

وعن أبي الحسن علي بن أحمد الدينوري الزاهد قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت: يا رسول الله بقول من أخذ فأشار إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: خذ بيد هذا فأنت به ابن عمنا الشافعي ليعمل بمذهبه فيرشد ويبلغ باب الجنة ثم قال الشافعي بين العلماء كالبدر بين الكواكب.

وقال الشافعي: ما ناظرت أحداً قط على الغلبة وفي رواية ما ناظرت أحداً قط إلا على النصيحة وقال أبو عثمان محمد بن الشافعي: ما سمعت أبي ناظر أحداً قط فرفع صوته.

فحمل كتبي فبثها في الهواء:

وقال الربيع: رأيت من الشافعي ما لا أحصى وكان إذا انصرف اتشح بردائه ووضعت له منارة قصيرة واتكأ على وسادة وتحتة مضررتان ويأخذ القلم فلا يزال يكتب وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: رأيت في المنام كأن أتيا أتاني فحمل كتبي فبثها في الهواء فسألت بعض المعبرين فقال إن صدقت رؤياك لم يبق بلد من بلاد الإسلام إلا ودخل علمك فيه.

ما فعل الله بك!:

وقال الإمام الحافظ محمد بن مسلم بن داره بالراء لما مات أبو زرعة الرازي رأيته في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: قال لي الجبار سبحانه وتعالى ألقوه بأبي عبد الله وأبي عبد الله وأبي عبد الله الأول مالك والثاني الشافعي والثالث.

أحمد بن حنبل وقال أبو عبد الله محمد بن يعقوب الهاشمي: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال الشافعي في الجنة أو من أهل الجنة.

ليس ثم أكبر منه:

وقال أبو العباس الأصم رأيت عبد الله بن صالح في المنام وذكرت الشافعي فأشار عبد الله بيده نحو السماء وقال: ليس ثم أكبر منه (1).

إن كان منكم فلم تغلبوا وإن كان عليكم فتأهبوه:

وقال علي الرازي: حج، بشر المريسي فلما قدم قيل له: من لقيت بمكة؟ قال: رأيت رجلاً إن كان منكم فلن تغلبوا وإن كان عليكم فتأهبوه وخذوا حذرکم وهو محمد بن إدريس الشافعي وقال المريسي مع الشافعي نصف عقل أهل الدنيا.

وقال ما رأيت أعقل من الشافعي وقال ما رأيت أمهر من الشافعي.

وقال رأيت بمكة فتى لئن بقي ليكونن رجل الدنيا (2).

رحلة الشافعي في طلب العلم:

عن زكريا بن يحيى البصري، ويحيى بن زكريا بن جبرية النيسابوري كلاهما عن الربيع بن سليمان، وبعضهم يزيد على بعض في الحكاية. قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: كنت أنا في الكتاب أسمع المعلم يلقي الصبي الآية فأحفظها أنا، ولقد كنت - ويكتبون أئمتهم فإلى أن يفرغ المعلم من

(1) الإمام النووي، تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر، دار النشر دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى سنة النشر 1996، 1/ 85.

(2) الإمام النووي، تهذيب الأسماء واللغات، 1/ 77 - 78.

الإملاء عليهم - قد حفظت جميع ما أُملي، فقال لي ذات يوم: ما يحل لي أن آخذ منك شيئاً. قال: ثم لما خرجت من الكتاب كنت أتلقط الخزف والدفوف وكرب النخل أكتاف الجمال، أكتب فيها الحديث وأجئ إلى الدواوين فأستوهب منها الظهور فأكتب فيها حتى كانت لأمي حباب فملأتها أكتافاً وخزفاً وكرباً مملوءة حديثاً، ثم إنني خرجت عن مكة فلزمت هذيلاً في البادية أتعلم كلامها وأخذ طبعها وكانت أفصح العرب. قال: فبقيت فيهم سبع عشرة سنة، أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب، فمر بي رجل من الزبيريين من بني عمي فقال لي: يا أبا عبد الله: عز علي ألا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه، فتكون قد سدت أهل زمانك، فقلت: فمن بقي نقصد؟ فقال لي: مالك بن أنس سيد المسلمين يومئذ. قال: فوقع في قلبي فعمدت إلى الموطأ فاستعرتة من رجل بمكة فحفظته في تسع ليال ظاهراً قال: ثم دخلت إلى والي مكة وأخذت كتابه إلى والي المدينة، وإلى مالك بن أنس قال: فقدمت المدينة فأبلغت الكتاب إلى الوالي، فلما أن قرأ قال: يا فتى إن مشى من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون علي من المشي إلى باب مالك بن أنس، فلست أرى الذل حتى أقف على بابه فقلت: - أصلح الله الأمير - إن رأى الأمير يوجه إليه ليحضر. قال: هيهات، ليت أني إذا ركبت أنا ومن معي وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا. قال: فواعدته العصر وركبنا جميعاً، فوالله لكان كما قال: لقد أصابنا من تراب العقيق. قال: فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير: قولي لمولاي إني بالباب. قال: فدخلت فأبطأت ثم خرجت فقالت: إن مولاي يقرئك السلام ويقول: إن كانت مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف، فقال لها: قولي له: إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة. قال: فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي فوضعت، ثم

إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار، وهو شيخ طويل مسنون اللحية فجلس وهو متطلس فرفع إليه الوالي الكتاب، فبلغ إلى هذا: إن هذا رجل من أمره وحاله فتحدثه وتفعل وتصنع، رمى بالكتاب من يده ثم قال: سبحان الله! أوصار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ بالوسائل؟ قال: فرأيت الوالي وقد تهيبه أن يكلمه فتقدمت إليه وقلت: - أصلحك الله - إني رجل مطلبى ومن حالي وقصتي، فلما أن سمع كلامي نظر إلى ساعة وكانت لمالك فراسة فقال لي: ما اسمك؟ قلت: محمد. فقال لي يا محمد. اتق الله واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن ثم قال: نعم كرامة، إذا كان غداً تجئ ويجئ من يقرأ لك. قال: فقلت أنا أقوم بالقراءة. قال: فغدوت عليه وابتدأت أن أقرأه ظاهراً والكتاب في يدي، فكلما تهيبت مالكاً وأردت أن أقطع أعجبه حسن قراءتي وإعرابي فيقول: يا فتى زد حتى قرأته في أيام يسيرة، ثم أقمت بالمدينة حتى توفى مالك بن أنس، ثم خرجت إلى اليمن فارتفع لي بها الشأن، وكان بها وال من قبل الرشيد وكان ظلوماً غشوماً، وكنت ربما أخذ على يديه وأمنعه من الظلم. قال: وكان باليمن تسعة من العلوية قد تحركوا وإني أخاف أن يخرجوا، وإن ههنا رجلاً من ولد شافع المطلب لا أمر لي معه ولا نهى. قال: فكتب إليه هارون: أن احمل هؤلاء واحمل الشافعي معهم فقرنت معهم. قال: فلما قدمنا على هارون الرشيد أدخلنا عليه وعنده محمد بن الحسن. قال: فدعا هارون بالنطع والسيف وضرب رقاب العلوية، ثم التفت محمد بن الحسن فقال: يا أمير المؤمنين، هذا المطلبى، لا يغلبنك بفصاحته فإنه رجل لسن. فقلت: مهلاً يا أمير المؤمنين فإنك الداعي وأنا المدعو، وأنت القادر على ما تريد مني، ولست القادر على ما أريد منك، يا أمير المؤمنين، ما تقول في رجلين: أحدهما يراني أخاه، والآخر يراني عبده أيهما أحب إلي؟ قال: الذي يراك أخاه. قال: قلت فذاك أنت يا أمير المؤمنين. قال فقال لي: كيف ذاك؟ فقلت يا أمير المؤمنين، إنكم ولد العباس وهم ولد علي، ونحن بنو

المطلب، فأنتم ولد العباس ترونا إختكم وهم يرونا عبيدهم. قال: فصري ما كان به فاستوى جالساً فقال: يا بن إدريس: كيف علمك بالقرآن؟ قلت: عن أي علومه تسألني؟ عن حفظه فقد حفظته ووعيته بين جنبي وعرفت وقفه وابتدائه، وناسخه ومنسوخه وليليه ونهاريه ووحشيه وأنسيه، وما خوطب به العام يراد به الخاص، وما خوطب به الخاص يراد به العام.

فقال لي: والله يا بن إدريس لقد ادعيت علماً فكيف علمك بالنجوم؟ فقلت: إني لأعرف منها البري من البحري، والسهلي والجبلي والفيلق والمصبح وما تجب معرفته. قال: فكيف علمك بأنساب العرب. قال: فقلت إني لأعرف أنساب اللئام وأنساب الكرام ونسبي ونسب أمير المؤمنين. قال: لقد ادعيت علماً فهل من موعظة تعظ بها أمير المؤمنين؟ قال: فذكرت موعظة لطاوس اليماني فوعظته بها، فبكى وأمر لي بخمسين ألفاً وحملت على فرس وركبت من بين يديه وخرجت، فما وصلت الباب حتى فرقت الخمسين ألفاً على حجاب أمير المؤمنين وبوابيه. قال: فلحقني هرثمة وكان صاحب هارون فقال: اقبل هذه مني. قال: فقلت له إني لا آخذ العطية ممن هو دوني، وإنما أخذها ممن هو فوقني. قال: فوجد في نفسه. قال: وخرجت كما أنا حتى جئت منزلي فوجهت إلى كاتب محمد بن الحسن بمائة دينار وقلت: اجمع الوراقين الليلة على كتب محمد بن الحسن وانسخها لي ووجه بها إلي. قال: فكتبت لي ووجه بها إلي.

قال: اجتمعنا أنا ومحمد بن الحسن على باب هارون وكان يجلس فيه القضاة والأشراف ووجوه الناس إلى أن يؤذن لهم. قال: واجتمعنا في ذلك المكان. قال وفيه جماعة من بني هاشم وقريش والأنصار والخلق يعظمون محمد بن الحسن لقربه من أمير المؤمنين وتمكنه. قال: فاندفع يعرض بي ويذم أهل المدينة فقال: من أهل المدينة؟ وأي شيء يحسن أهل المدينة؟ والله لقد وضعت كتاباً على أهل المدينة كلها لا يخالفني فيه أحد، ولو علمت أن أحداً يخالفني في كتابي هذا تبلغني إليه آباط الإبل لصرت حتى

أرد عليه. قال الشافعي: فقلت إن أنا سكت نكست رؤوس من هاهما من قریش، وإن أنا رددت عليه أسخطت على السلطان، ثم إنني استخرت الله في الرد عليه، فتقدمت إليه فقلت: - أصلحك الله - لم طعنك على أهل المدينة وذكرك لأهل المدينة؟ إن كنت أردت رجلاً واحداً وهو مالك بن أنس فألا ذكرت ذلك الرجل بعينه ولم تطعن على أهل حرم الله وحرم رسوله وكلهم على خلاف ما ادعيت، وأما كتابك الذي ذكرت أنك وضعت على أهل المدينة، فكتابك من بعد بسم الله الرحمن الرحيم، خطأ إلى آخره، قلت في شهادة القابلة كذا وكذا وهو خطأ، وفي مسألة الحامل كذا وكذا وهو خطأ، وقلت في مسألة كذا، وكذا وكذا وهو خطأ، فاصفر محمد بن الحسن ولم يحر جواباً. وكتب أصحاب الأخبار إلى الرشيد بما كان فضحك وقال: ماذا ننكر لرجل من ولد المطلب أن يقطع مثل محمد بن الحسن. قال: فعارضني رجل من أهل المجلس من أصحابه فقال: ما تقول في رجل دخل منزل رجل فرأى بطة ففقا عينها، ماذا يجب عليه؟ قال: قلت: ينظر إلى قيمتها وهي صحيحة وقيمتها وقد ذهبت عينها، فيقوم ما بين القيمتين، ولكن ما تقول أنت وصاحبك في رجل محرم نظر إلى فرج امرأة فأنزل؟ قال: ولم يكن لمحمد حذافة بالمناسك. قال: فصاح به محمد وقال له: ألم أقل لك لا تسأله؟ قال: ثم أدخلنا على الرشيد فلما أن استويينا بين يديه قال لي: يا أبا عبد الله، تسأل أو أسأل؟ قال: قلت ذاك إليك. قال: فأخبرني عن صلاة الخوف أو اجبة هي؟ قلت: نعم، فقال: ولم؟ فقلت: لقول الله عز وجل: {وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ} [النساء: 102]. فدل أنها واجبة. قال: وما تنكر من قائل قال لك: إنما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وهو فيهم، فلما أن زال عنهم النبي صلى الله عليه وسلم زالت تلك الصلاة؟ فقلت: وكذلك قال الله عز وجل لنبيه: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة: 103]، فلما أن زال عنهم النبي صلى الله عليه وسلم زالت عنهم الصدقة؟ فقال: لا. قلت: وما الفرق

بينهما والنبي صلى الله عليه وسلم هو المأمور بهما جميعاً؟ قال: فسكت ثم قال: يا أهل المدينة ما أجرأكم على كتاب الله؟ فقلت: الأجرأ على كتاب الله من خالفه. قال: فقد قال الله عز وجل: {وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ} [الطلاق: ٢]، فقلت: أنتم: نقضي باليمين مع الشاهد فقلت: لكننا نقول بما قال الله، ونقضي بما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنك أنت إذا خالفت كتاب قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد خالفت كتاب الله. قال: وأين لكم رد اليمين؟ قال: قلت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: وأين؟ قلت: قصة حويصة ومحبيصة وعبد الرحمن حين قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصة القتيل: **يَحْلِفُونَ وَتَسْتَحِقُونَ دَمَ صَاحِبِكُمْ؟** — قالوا: لم نشهد ولم نعاين؟ قال: **يَحْلِفُ لَكُمْ يَهُودٌ**، فلما أن نكلوا رد اليمين إلى اليهود. قال: فقال لي: إنما كان ذلك استقهاماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فقلت يا أمير المؤمنين، هذا بحضرتك يزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفهم من اليهود. فقال الرشيد: ثكلتك أمك يا بن الحسن، رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفهم من اليهود؟. نطع وسيف، فلما رأيت الجد من أمير المؤمنين قلت: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإن الخصمين إذا اجتمعوا تكلم كل واحد منهما بما لا يعتقد ليقطع به صاحبه، وما أرى أن محمداً يرى نقصاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فسريت عنه. قال: ثم ركبنا جميعاً وخرجنا من الدار. قال: فقال لي: يا أبا عبد الله فعلتها؟ قال: فقلت: فكيف رأيته بعد ذلك؟.

مناظرة إسحاق بن راهويه مع الشافعي رضي الله عنه:

حدث الأبري بإسناده: قال إسحاق بن راهويه: كنا عند سفیان بن عیینة نكتب أحاديث عمرو بن دينار، فجاءني أحمد بن حنبل فقال لي: يا أبا يعقوب: قم حتى أريك رجلاً لم تر عيناك مثله. قال: فقممت فأتى بي فناء زمزم فإذا هناك رجل عليه ثياب بيض تعلو وجهه السمرة، حسن السمات، حسن العقل، وأجلسني إلى جانبه فقال له: يا أبا عبد الله، هذا إسحاق بن

راهويه الحنظلي فرحب بي وحياني، فذاكرته وذاكرني فانفجر لي منه علم أعجبني حفظه قال: فلما أن طال مجلسنا قلت له: يا أبا عبد الله قم بنا إلى الرجل، قال: هذا هو الرجل، فقلت: يا سبحان الله، أقمنا من عند رجل يقول: حدثنا الزهري، فما توهمت إلا أن تأتي بنا إلى رجل مثل الزهري أو قريب منه. فأتيت بنا إلى هذا الشاب أو هذا الحدث، فقال لي: يا أبا يعقوب اقتبس من الرجل، فإنه ما رأيت عينا مثله. قال الأبري: قال إسحاق: فسألته عن سكني ببيت مكة - أراد الكرى - فقال جائز. فقلت: إي يرحمك الله، وجعلت أذكر له الحديث عن عائشة وعبد الرحمن وعمر وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن كره كرى بيوت مكة وهو ساكت يسمع وأنا أسرد عليه. فلما فرغت سكت ساعة وقال: يرحمك الله، أما علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: هل ترك لنا عقيل من رباع أو دار؟ قال: فوالله ما فهمت عنه ما أراد بها ولا أرى أن أحداً فهمه. قال الحاكم: فقال إسحاق: أتأذن لي في الكلام؟ فقال: نعم، فقلت: حدثنا يزيد بن هارون عن هشام عن الحسن أنه لم يكن يرى ذلك، وأخبرنا أبو نعيم وغيره عن سفيان عن منصور عن إبراهيم أنه لم يكن يرى ذلك. قال الحاكم: ولم يكن الشافعي عرف إسحاق، فقال الشافعي لبعض من عرفه: من هذا؟ فقال: هذا إسحاق بن إبراهيم بن الحنظلي بن راهويه الخراساني. فقال له الشافعي: أنت الذي يزعم أهل خراسان أنك فقيهم؟ قال إسحاق: هكذا يزعمون. قال الشافعي: ما أحوجني أن يكون غيرك في موضعك، فكنت أمر بعرك أذنيه. وقال الحاكم في خبر آخر: قال له الشافعي: لو قلت قولك احتجت إلى أن أسلسل أنا أقول لك: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تقول: عطاء وطاوس ومنصور وإبراهيم والحسن وهؤلاء لا يرون ذلك، هل لأحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة؟ قال إسحاق لبعض من معه من المراوزة بلسانهم: مردك لا كما لا نيست، قرية عندهم بمرور يدعون العلم، وليس لهم علم واسع.

وقال الأبري: قال إسحاق لبعض من معه: الرجل مالاني، ومالان: قرية من قرى مرو وأهلها فيهم سلامة. قال الحاكم في خبره: فلما سمع الشافعي تراطنه علم أنه قد نسبه إلى شيء. فقال تناظر؟ وكان إسحاق جريئاً فقال: ما جئت إلا للمناظرة. فقال له الشافعي: قال الله عز وجل: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ} [الحشر: ٨] الآية. نسب الدار إلى المالكيين أو غير المالكيين قال إسحاق: إلى المالكيين. قال الشافعي: فقله عز وجل أصدق الأقاويل، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن—، أنسب رسول الله صلى الله عليه وسلم الدار إلى مالك أو إلى غير مالك؟ قال إسحاق: إلى مالك. فقال الشافعي: وقد اشترى عمر بن الخطاب دار الحجامين فأسكنها، وذكر له جماعة من أصحاب صلى الله عليه وسلم اشتروا دور مكة

وجماعة باعوها. وقال إسحاق له: قال الله عز وجل: {سَوَاءٌ أَعْكُفُ فِيهِ وَالْبَادُ} [الحج: ٢٥]. فقال الشافعي: اقرأ أول الآية. قال: {وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً أَعْكُفُ فِيهِ وَالْبَادُ} [الحج: ٢٥]. قال الأبري: قال الشافعي: والعكوف يكون في المسجد، ألا ترى إلى قوله: {لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ} [البقرة: ١٢٥]، والعاكفون يكونون في المساجد، ألا ترى إلى قوله عز وجل: {وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ} [البقرة: ١٨٧]، فدل ذلك أن قوله عز وجل: {سَوَاءٌ أَعْكُفُ فِيهِ وَالْبَادُ} [الحج: ٢٥]، في المسجد خاص، فأما من ملك شيئاً فله أن يكرى وأن يبيع. قال الحاكم: وقال الشافعي: ولو كان كما تزعم لكان لا يجوز أن تنتشد فيها ضالة ولا ينحر فيها البدن ولا تنتثر فيه الأرواث، ولكن هذا في المسجد خاصة. قال فسكت إسحاق ولم يتكلم. وفي خبر الأبري: فلما تدبرت ما قال من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل ترك لنا عقيل من رباع أو دار؟— علمت أنه قد فهم ما ذهب عنا. قال إسحاق: ولو كنت قد أدركني هذا الفهم وأنا بحضرته لعرفته ذاك، ثم

نظرنا في كتبه فوجدنا الرجل من علماء هذه الأمة.

كيف أصبحت؟!

وحدث المزني وهو إبراهيم إسماعيل بن يحيى قال: دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقلت: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله جل ذكره وارداً، ولا والله ما أدري روعي تصير إلى الجنة أو إلى النار فأعزيها ثم بكى وأنشأ يقول:

فلما قسا قلبي وضائق مذهبي :::: جعلت رجائي نحو عفوك سلماً
تعاظمي ذنبي فلما قرنته :::: بعفوك ربي كان عفوك أعظماً
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تنزل :::: تجود وتعفو منه وتكرماً
فلولاك لم يقدر بإبليس عابد :::: فكيف وقد أغوى صفيك آدماء؟

رضا الناس غاية لا تدرك:

وحدث يونس بن عبد الأعلى الصدفي قال: قال لي الشافعي رضي الله عنه: يا أبا موسى، رضا الناس غاية لا تدرك، ما أقوله لك إلا نصحاً، ليس إلى السلامة من الناس سبيل، فانظر ما فيه صلاح نفسك فالزمه، ودع الناس وما هم فيه.

ليس هذا من كيسكم:

وحدث الحسن بن محمد الزعفراني قال: كنا نحضر مجلس بشر المريسي فكنا لا نقدر على مناظرته، فمشينا إلى أحمد بن حنبل فقلنا له: ائذن لنا في أن نحفظ الجامع الصغير الذي لأبي حنيفة، لنخوض معهم إذا خاضوا. فقال: اصبروا فالآن يقدم عليكم المطلبي الذي رأيته بمكة. قال: فقدم علينا الشافعي فمشوا إليه وسألناه شيئاً من كتبه، فأعطانا كتاب اليمين مع الشاهد فدرسته في ليلتين، ثم غدوت على بشر المريسي وتخطيت إليه فلما رأيته قال: ما جاء بك يا صاحب حديث؟ قال: قلت: ذرني من هذا،

إيش الدليل على إبطال اليمين مع الشاهد؟، فناظرته فقطعته فقال: ليس هذا من كيسكم هذا من كلام رجل رأيته بمكة، معه نصف عقل أهل الدنيا.

وكان في السفرة دجاجتان:

وحدث الآبري بإسناد إلى المزني عن الشافعي قال: كنا في سفر بأرض اليمن فوضعنا سفرتنا لنتعشى وحضرت صلاة المغرب فقلنا نصلي ثم نتعشى، فتركنا سفرتنا كما هي، وكان في السفرة دجاجتان فجاء ثعلب فأخذ إحدى الدجاجتين فلما قضينا صلاتنا أسفنا عليها وقلنا حررنا طعامنا، فبينما نحن كذلك إذ جاء الثعلب وفي فيه شيء كأنه الدجاجة فوضعه فبادرنا إليه لنأخذ ونحن نحسبه الدجاجة قد ردها، فلما قمنا لخلاصها فإذا هو قد جاء إلى الأخرى فأخذها من السفرة وأصبنا الذي قمنا إليه لنأخذه ليفة قد هياها مثل الدجاجة.

على الرأس والعينين:

ومن كتاب الإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي بإسناده إلى الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي وسأله رجل عن مسألة فقال: يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كذا وكذا. فقال له السائل: يا أبا عبد الله، أتقول بهذا؟ فارتعد الشافعي واصفر لونه وحال وتغير وقال: ويحك، أي أرض تقلني؟ وأي سماء تظلني إذا رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أقل به، نعم على الرأس والعينين.

فأقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قال: وسمعت الشافعي يقول: ما من أحد إلا وتذهب عنه سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزب عنه، فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما قلت، فأقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قولي وجعل يردد هذا الكلام.

ورأيت الجسد الآخر بالسوق ذاهباً وراجعا:

وروي عن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال: دخلت بلدة اليمن فرأيت بها إنساناً من وسطه إلى أسفله بدن واحد ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان برأسين ووجهين وأربع أيدٍ وهما يأكلان ويشربان ويتقاتلان ويتلاطمان ويصطلحان قال ثم غبت عنهما قليلاً ورجعت فقبل لي: أحسن الله عزاءك في أحد الشقين فقلت وكيف صنع به؟ فقبل ربط في أسفله حبل وثيق وترك حتى ذبل ثم قطع ورأيت الجسد الآخر بالسوق ذاهباً وراجعاً.

ثلاثة تضني:

حكى عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه كان نازلاً عند الزعفراني ببغداد فكان الزعفراني يكتب في كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية فأخذها الشافعي منها يوماً وألحق فيها لوناً آخر فعرف الزعفراني ذلك فأعتق الجارية سروراً بذلك وكانت سنة السلف رضي الله عنهم أن يقدموا جملة الألوان دفعة ليأكل كل شخص ما يشتهي ومن السنة أن يشيع المضيف الضيف إلى باب الدار وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لا ينتظر من يحضر من عشيرته فقد قيل: ثلاثة تضني: سراج لا يضيء ورسول بطيء ومائدة ينتظر لها من يجيء ونزل الإمام الشافعي رضي الله عنه بالإمام مالك رضي الله عنه فصب بنفسه الماء على يديه وقال له:

لا يرعك ما رأيت مني فخذ :: ماء الضيف على المضيف فرض
أعرض طعامك وابذله لمن أكلأ :: واحلف على من أبي واشكر لمن فعلا
ولا تكن سابري العرض محتشما :: من القليل فلست الدهر محتفلا⁽¹⁾

الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها:

قال: الشيخ أبو الوليد حسان بن محمد الفقيه: كنا في مجلس القاضي

(1) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، 399/1.

أبي العباس بن سريج سنة ثلاث وثلاثمائة فقام إليه شيخ من أهل العلم فقال له: أبشر أيها القاضي فإن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها، وإنه بعث على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز وتوفي سنة ثلاث ومائة، وبعث على رأس المائتين أبا عبد الله بن إدريس الشافعي وتوفي سنة أربع ومائتين، وبعثك على رأس الثلاثمائة. ثم أنشأ يقول:

اثان مضيا فبورك فيهما :: عمر الخليفة ثم حلف السود
الشافعي الألعبي محمد :: إرث النبوة وابن عم محمد
أبشر أبا العباس إنك ثالث :: من بعدهم سقياً لنوبة أحمد

قال: فصاح القاضي وبكى وقال: إن هذا الرجل قد نعى إلى نفسي.
قال: فمات القاضي أبو العباس في تلك السنة.

رأيت بالمدينة أربع عجائب:

وعن المزني سمعت الشافعي يقول: رأيت بالمدينة أربع عجائب. رأيت جدة لها إحدى وعشرين سنة، ورأيت رجلاً فلسة القاضي في مدين نوى، ورأيت شيخاً قد أتى عليه تسعون سنة يدور نهاره حافياً رجلاً على القيان يعلمهن الغناء فإذا جاءت الصلاة صلى قاعداً، وكان بالمدينة وال وكان رجلاً صالحاً فقال: مالي لا أرى الناس يجتمعون على بابي كما يجتمعون على أبواب الولاية؟ فقالوا: إنك لا تضرب أحداً ولا تؤذي الناس. فقال أهكذا؟ علي بالإمام فنصب بين العقابين وجعل يضرب والإمام يقول: - أعز الله الأمير - إيش جرمي، وهو يقول: حملنا بنفسك، حتى اجتمع الناس على بابه.

أهون من اعتذار إلى صديق يشوبه الكذب:

وعن خيثمة بن سليمان بن حيدرة قال: جاء رجل إلى الشافعي فقال له: - أصلحك الله - صديقك فلان عليل، فقال الشافعي: والله لقد أحسنت إلي وأيقظني لمكرمة، ودفعت عني اعتذار يشوبه الكذب ثم قال: يا غلام، هات السبئية ثم قال: للمشي على الحفاء، على علة الوجاء في حر الرمضاء من

ذي طوى أهون من اعتذار إلى صديق يشوبه الكذب. ثم أنشأ يقول:

أرى راحة للحق عند قضائه :: ويثقل يوماً إن تركت على عمد
وحسبك حظاً أن ترى غير كاذب :: وقولك لم أعلم وذاك من الجهد
ومن يقض حق الجار بعد ابن عمه :: وصاحبه الأذن على القرب والعبد
يعش سيداً يستعذب الناس ذكره :: وإن نابه حق أتوه على قصد

هذا جزاء من سب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يقال: إن الشافعي رضي الله عنه قدم إلى مصر سنة تسع وتسعين ومائة في أول خلافة المأمون، وكان سبب قدومه إلى مصر أن العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله بن العباس استصحبه فصحبه، وكان العباس هذا خليفة لأبيه عبد الله على مصر، ولم يزل الشافعي بمصر إلى أن ولي السري بن الحكم البلخي - من قوم يقال لهم: الزط - مصر واستقامت له، وكان يكرم الشافعي ويقدمه ولا يؤثر أحداً عليه، وكان الشافعي محبباً إلى الخاص والعام لعلمه وفقهه، وحسن كلامه وأدبه وحلمه، وكان بمصر رجل من أصحاب مالك بن أنس يقال له فتیان فيه حدة وطيش، وكان يناظر الشافعي كثيراً ويجتمع الناس عليهما، فتناظرا يوماً في مسألة بيع الحر وهو العبد المرهون إذا أعتقه الراهن ولا مال له غيره، فأجاب الشافعي بجوار بيعه على أحد أقواله، ومنع فتیان منه، لأنه يمضي عتقه بكل وجه وهو أحد أقوال الشافعي، فظهر عليه الشافعي في الحجاج، فضاق فتیان بذلك ذرعاً فشتم الشافعي شتماً قبيحاً فلم يرد عليه الشافعي حرفاً ومضى في كلامه في المسألة، فرفع ذلك رافع إلى السري، فدعا الشافعي وسأله عن ذلك وعزم عليه فأخبره بما جرى، وشهد الشهود على فتیان بذلك، فقال السري: لو شهد آخر مثل الشافعي. على فتیان لضربت عنقه، وأمر فتیان فضرب بالسياط وطيف به على جمل وبين يديه مناد ينادي: هذا جزاء من سب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم إن قوماً تعصبوا لفتیان من سفهاء الناس وقصدوا حلقة الشافعي حتى خلت من

أصحابه وبقي وحده، فهجموا عليه وضربوه فحمل إلى منزله، فلم يزل فيه عليلاً حتى مات.

قال ابن يونس: كان للشافعي ابن اسمه محمد، قدم مع أبيه مصر وتوفي بها في شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين. وقيل: كان له ولد آخر اسمه محمد أيضاً يروي عن سفيان بن عيينة. ولي قضاء الجزيرة وتوفي بها بعد أربعين ومائتين (1).

هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة:

وقف الشافعي - رحمه الله - موقفاً حكيماً مسدداً مع أهل الكلام، فقال - رحمه الله تعالى -: “ حكمي في أهل الكلام: أن يضربوا بالجريد والنعال، ويحملوا على الإبل، ويطاف بهم في الأسواق والعشائر، يُنادى عليهم ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام ” (2).

وقال: “ مذهبي في أهل الكلام تقنيع رؤوسهم بالسياط، وتشريدكم في البلاد ” (3).

إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء:

قال يونس بن عبد الأعلى الصوفي قلت للشافعي: إن صاحبنا الليث كان يقول: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة. فقال الشافعي - رحمه الله: قصر الليث - رحمه الله، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب (4).

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدياء، 339/2 - 352.

(2) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي 10 / 29، والبداية والنهاية 10 / 254، وفتاوى ابن تيمية 16 / 473.

(3) انظر: سير أعلام النبلاء 10 / 29.

(4) شرح العقيدة الطحاوية ص 510، وسير أعلام النبلاء 10 / 23. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1423هـ، 364/1 - 367.

شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات تدع علمه. وتتكلف علم الخالق!

وجاء رجل من أهل الكلام إلى الشافعي - وهو في مصر - فسأله عن مسألة من الكلام فقال له الشافعي: أتدري أين أنت؟ قال الرجل: نعم. قال: هذا الموضع الذي أغرق الله فيه فرعون، أبلغك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالسؤال عن ذلك؟ قال: لا. قال: هل تكلم فيه الصحابة؟ قال: لا. قال: هل تدري كم نجمًا في السماء؟ قال: لا. قال: فكوكب منها، تعرف جنسه، طلوعه، أفوله، مم خلق؟ قال: لا. قال: فشيء تراه بعينك من الخلق لست تعرفه، تتكلم في علم خالقه؟ ثم سأله الشافعي عن مسألة من الوضوء فأخطأ فيها، ففرعها على أربعة أوجه، فلم يصب في شيء من ذلك، فقال له: شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات تدع علمه، وتتكلف علم الخالق؟ إذا “ هجس في ضميرك ذلك فارجع إلى الله، وإلى قوله - تع - إِلَىٰ - {وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ { [البقرة: ١٦٣ - ١٦٤]، فاستدلّ بالمخلوق على الخالق، ولا تتكلف علم ما لم يبلغه عقلك.

فتاب الرجل (1) على يد الشافعي من علم الكلام، وأقبل على فقه الكتاب والسنة، وكان يقول بعد التوبة: “ أنا خلق من أخلاق الشافعي “ (2).

من كلام الشافعي:

ما تُقَرَّبُ إلى الله عز وجل بعد أداء الفرائض بأفضل من طلب العلم.
طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

(1) وهذا الرجل الذي تاب من علم الكلام على يد الشافعي، هو المزني، الإمام العلامة علم الزهاد، أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن عمرو بن مسلم المزني المصري، تلميذ الشافعي، ولد سنة 175 هـ، وله المختصر في الفقه، وقد شرحه عدة من العلماء، توفي - رحمه الله - سنة 264 هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي 12 / 492.
(2) انظر: سير أعلام النبلاء 10 / 25، 26، 31، 32.

العلم ما نفع ليس ما حفظ.

ليس لأحد أن يقول في شيء حلال ولا حرام إلا من جهة العلم؛
وجهة العلم: ما نص في الكتاب أو في السنة أو في الإجماع أو في
القياس على هذه الأصول ما في معناها.

العالم يسأل عما يعلم، وعما لا يعلم، فيثبت ما يعلم، ويتعلم ما لا يعلم
والجاهل يغضب من التعلم، ويأنف من التعليم.

كفى بالعلم فضيلة أن يدعيه من ليس فيه، ويفرح إذا نسب إليه،
وكفى بالجهل شيناً أن يتبرأ منه من هو فيه، ويغضب إذا نسب إليه.
إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث، فكأنني رأيت رجلاً من أصحاب
النبي صلى الله عليه وسلم ، جزاهم الله خيراً، هم حفظوا لنا الأصل، فلهم
علينا الفضل.

المراء في الدين يقسي القلب، ويورث الضغائن.

إذا أنت خفت على عملك العجب، فانظر:

رضا من تطلب، وفي أي ثواب ترغب، ومن أي عقاب ترهب، وأي
عافية تشكر، وأي بلاء تذكر. فإنك إذا تفكرت في واحدة من هذه الخصال،
صغر في عينك عملك.

إن الدنيا دحض منزلة، ودار مذلة، عمرانها إلى خرائب صائر،
وساكنها إلى القبور زائر، شملها على الفرق موقوف، وغناها إلى الفقر
مصروف، الإكثار فيها إفسار، والإعسار فيها يسار.

فافزع إلى الله، وارض برزق الله، لا تتسلف من دار بقائك إلى دار
فنائك. فإن عيشك فيء زائل، وجدار مائل، أكثر من عملك، وأقصر من
أملك.

لولا المحابر، لخطبت الزنادقة على المنابر.

الليبيب العاقل هو الفطن المتعافل.

رضا الناس غاية لا تدرك، وليس إلى السلامة من ألسنة الناس سبيل،
فعليك بما ينفعك فالزمه.

ما رفعت من أحد فوق منزلته، إلا وضع مني بمقدار ما رفعت منه.
من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضي فلم يرض فهو
شيطان.

أصل العلم التثبت، وثمرته السلامة، وأصل الورع القناعة، وثمرته
الراحة، وأصل الصبر الحزم، وثمرته الظفر، وأصل العمل التوفيق،
وثمرته النجاح، وغاية كل أمر الصدق.

الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء
السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط.

أرفع الناس قدرًا من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلًا من لا يرى فضله.
الحسد إنما يكون من لؤم العنصر، وتعادي الطبائع، واختلاف
التركيب، وفساد مزاج البنية، وضعف عقد العقل.

ليس من المروءة أن يخبر الرجل بسنه، لأنه إن كان صغيرًا
استحقروه، وإن كان كبيرًا استهزموه.

ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته.

إذا ثبت الأصل في القلب، أخبر اللسان عن الفروع.

طبع ابن آدم على اللؤم، فمن شأنه أن يتقرّب ممن يتباعد عنه، ويتباعد
ممن يتقرّب منه.

من واعظ أخاه سرًا، فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية، فقد
فضحه وخانه.

ليس العاقل الذي يدفع بين الخير والشر، فيختار الخير، ولكن العاقل

الذي يدفع بين الشرّين فيختار أيسرهما.

- من حضر مجلس العلم بلا محبرة وورق كان كمن حضر الطاحون بغير قمع.

لا يعرف الرياء إلا المخلصون.

من نمّ لك نمّ عليك، ومن نقل إليك نقل عنك.

من تزيّن بباطل هتك الله ستره.

من كتم سرّه كانت الخيرة في يده.

قال رحمه الله: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

وقال: من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم.

وقال: ما تقرب إلى الله تعالى بشيء بعد الفرائض أفصل من طلب العلم.

وقال: ما أفلح في العلم إلا من طلبه في القلة ولقد كنت أطلب القرطاس فيعسر علي.

وقال: لا يطلب أحدًا هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ولكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش وخدمة العلم وتواضع النفس أفلح.

وقال: تفقه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه.

وقال: من طلب علمًا فليدقق لئلا يضيع دقيق العلم.

وقال: من لا يحب العلم لا خير فيه ولا يكون بينك وبينه صداقة ولا معرفة.

وقال: زينة العلماء التوفيق وحليتهم حسن الخلق وجمالهم كرم النفس.

وقال: زينة العلم الورع والحلم.

وقال: لا عيب بالعلماء أقبح من رغبتهم فيما زهدهم الله فيه وزهدهم

فيما رغبتم فيه.

وقال: ليس العلم ما حفظ العلم ما نفع.

وقال: فقر العلماء فقر اختيار وفقر الجهال فقر اضطرار.

وقال: المراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغائن.

وقال: الناس في غفلة عن هذه السورة: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ} ﴿٢﴾

[العصر: ٢].

وقال: الشافعي الظرف الوقوف مع الحق كما وقف.

وقال: ما كذبت قط ولا حلفت بالله صادقاً ولا كاذباً.

وقال: ما تركت غسل الجمعة في برد ولا سفر ولا غيره.

وقال: ما شبع منذ ست عشرة سنة إلا شبعة طرحتها من ساعتني.

وقال: من لم تعزه التقوى فلا عز له.

وقال: ما فزعت من الفقر قط.

وقال: طلب فضول الدنيا عقوبة عاقب الله بها أهل التوحيد.

وقيل للشافعي: ما لك تدمن إمساك العصا ولست بضعيف فقال لأذكر

أني مسافر يعني في الدنيا.

وقال: من شهد الضعف من نفسه نال الاستقامة

وقال: من غلبته شدة الشهوة لزمته العبودية لأهلها ومن رضي بالقنوع

زال عنه الخضوع

وقال: خير الدنيا والآخرة في خمس خصال غنى النفس وكف الأذى

وكسب الحلال ولبس التقوى والثقة بالله عز وجل على كل حال.

وقال: أنفع الذخائر التقوى وأضرها العدوان.

وقال: من أحب أن يفتح الله قلبه أو ينوره فعليه بترك الكلام فيما لا

يعنيهِ واجتناب المعاصي ويكون له خبئة فيما بينه وبين الله تعالى من عمل.

وفي رواية فعليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب.

وقال: يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها

وقال ليونس بن عبد الأعلى: لو اجتهدت كل الجهد على أن ترضي الناس كلهم فلا سبيل فاخلص عملك ونيتك لله عز وجل.

وقال: لو أوصى رجل بشيء لأعقل الناس صرف إلى الزهاد.

وقال: سياسة الناس أشد من سياسة الدواب.

وقال: العاقل من عقله عقله عن كل مذموم.

وقال: لو علمت أن شرب الماء البارد ينقص مروءتي لما شربته ولو كنت اليوم ممن يقول الشعر لرثيت المروءة.

وقال: للمروءة أربعة أركان حسن الخلق والسخاء والتواضع والنسك

وقال: المروءة عفة الجوارح عما لا يعنيها.

وقال: أصحاب المروءات في جهد

وقال: من أحب أن يقضي الله له بالخير فليحسن الظن بالناس.

وقال: لا يكمل الرجل في الدنيا إلا بأربع بالديانة والأمانة والصيانة والرزانة.

وقال: أقمت أربعين سنة أسأل إخواني الذين تزوجوا عن أحوالهم في تزوجهم فما منهم أحد قال إنه رأى خيراً.

وقال: ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته وقال: من صدق في أخوة أخيه قبل الله وسد خلله وغفر الله.

وقال: من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً.

وقال: ليس سرور بعدل صحبة الإخوان ولا غم يعدل فراقهم.

وقال: لا تقصر في حق أخيك اعتماداً على مودته.

وقال: لا تبذل وجهك إلى من يهون عليه ردك وقال: من برك فقد أوثقك ومن جفاك فقد أطلقك.

وقال: من نم لك نم بك ومن إذا أَرْضِيته قال فيك ما ليس فيك وإذا أغضبتك قال فيك ما ليس فيك.

وقال: الكيس العاقل هو الفطن المتغافل.

وقال: من وعظ أخاه سرّاً فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

وقال: من سام بنفسه فوق ما تساوي رده الله تعالى إلى قيمته.

وقال: الفتوة حلي الأحرار.

وقال: من تزين بباطل هتك ستره.

وقال: التواضع من أخلاق الكرام والتكبر من شيم اللئام.

وقال: التواضع يورث المحبة والقناعة تورث الراحة.

وقال: أرفع الناس قدرًا من لا يرى قدره وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضله.

وقال: إذا كثرت الحوائج فابدأ بأهمها.

وقال: من كتم سره كانت الخيرة في يده.

وقال: الشفاعات زكاة المروءات.

وقال: ما ضحك من خطأ رجل إلا ثبت الله صوابه في قلبه.

وقال: أبين ما في الإنسان ضعفه فمن شهد الضعف من نفسه نال

الاستقامة مع الله تعالى.

وقال: قال رجل لأبي بن كعب رضي الله عنه: عظمي فقال: واخ الإخوان على قدر تقواهم ولا تجعل لسانك مذلة لمن لا يرغب فيه ولا تغبط الحي إلا بما تغبط به الميت.

وقال: من صدق الله نجا ومن أشفق على دينه سلم من الردى ومن زهد في الدنيا قرت عيناه بما يرى من ثواب الله تعالى غداً.

وقال: كن في الدنيا زاهداً وفي الآخرة راغباً واصدق الله تعالى في جميع أمورك تتج غداً مع الناجين.

وقال: من كان فيه ثلاث خصال فقد أكمل الإيمان من أمر بالمعروف وائتمر به ونهى عن المنكر وانتهى عنه وحافظ على حدود الله تعالى.

وقال لأخ له في الله تعالى يعظه ويخوفه: يا أخي إن الدنيا دحض منزله ودار مذلة عمرانها إلى الخراب صائر وساكنها للقبور زائر شملها على الفرقة موقوف وغناها إلى الفقر مصروف الإكثار فيها إفسار والإعسار فيها يسار فافزع إلى الله وارض بزرق الله تعالى ولا تستلف من دار بقائك في دار فنائك فإن عيشك فيء زائل وجدار مائل أكثر من عملك وقصر من أملك.

وقال: أرجى حديث للمسلمين حديث أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ♂ إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مسلم يهودي أو نصراني وقيل يا مسلم هذا فداؤك من النار — رواه مسلم في صحيحه.

وقال: الاستنباط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء والانقباض عنهم مكسبة للعداوة فكن بين المنقبض والمنبسط.

وقال: ما أكرمت أحداً فوق مقداره إلا اتضع من قدرتي عنده بمقدار ما زدت في إكرامه.

وقال: لا وفاء لعبد ولا شكر للئيم ولا صنعة عند نذل.

وقال: صحبة من لا يخاف العار عار يوم القيامة.

وقال: عاشر كرام الناس تعش كريماً ولا تعاشر اللئام فتنسب إلى اللؤم.

وقال له رجل: أوصني فقال: إن الله تعالى خلقك حرّاً فكن حرّاً كما خلقك.

وقال من سمع بأذنه صار حاكياً ومن أصغى بقلبه كان واعياً ومن وعظ بفعله كان هادياً.

وقال: من الذل أشياء حضور مجلس العلماء بلا نسخة وعبور الجسر بلا قطعة ودخول الحمام بلا سطل وتذلل الشريف للدنيء لينال منه شيئاً وتذلل الرجل للمرأة لينال من مالها شيئاً ومداراة الأحمق فإن مداراته غاية لا تدرك

وقال: من ولي القضاء ولم يفتقر فهو لص

وقال: لا بأس على الفقيه أن يكون معه سفيه يسافه به.

وقال: إذا أخطأتك الصنعة إلى من يتقي الله عز وجل فاصطنعها إلى من يتقي العار⁽¹⁾.

من شعر الحكمة للشافعي:

هذه هي الدنيا:

تموت الأسد في الغابات جوعاً :: ولحم الضأن تأكله الكلاب
وعبد قد ينام على حرير :: وذو نسب مفارشه التراب

دعوه إلى التنقل والترحال:

ما في المقام لذي عقل وذو أدب :: من راحة فدع الأوطان واغترب

(1) الإمام النووي، تهذيب الأسماء واللغات، 1 / 74 - 78، عبد الله بن عبد المحسن التركي، مجمل اعتقاد أئمة السلف، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، 1417 هـ ص 41 - 46.

سافر تجد عوضًا عن تفارقه :::: وأنصَبَ فإن لذيد العيش في النَّصب
إني رأيت ركود الماء يفسده :::: إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب
والأسد لولا فراق الغاب ما افترست :::: والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة :::: لملَّها الناس من عجم ومن عرب
والتُّبرُ كالثُّرب مُلقًى في أماكنه :::: والعود في أرضه نوع من الخطب
فإن تغرب هذا عزَّ مطلبه :::: وإن تغرب ذاك عزَّ كالذهب

الضرب في الأرض:

سأضرب في طول البلاد وعرضها :::: أنال مرادي أو أموت غريبًا
فإن تلفت نفسي فله درها :::: وإن سلمت كان الرجوع قريبًا

آداب التعلم:

اصبر على مر الجفا من معلم :::: فإن رسوب العلم في نفراته
ومن لم يذق مر التعلم ساعة :::: تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه :::: فكبر عليه أربعًا لوفاته
وذات الفتى والله بالعلم والتقى :::: إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

متى يكون السكوت من ذهب:

إذا نطق السفية فلا تجبه :::: فخير من إجابته السكوت
فإن كلمته فرّجت عنه :::: وإن خليته كمداً يموت

عدو يتمنى الموت للشافعي:

تمنى رجال أن أموت، وإن أمت :::: فتلك سبيل لست فيها بأوحد
وما موت من قد مات قبلي بضائر :::: ولا عيش من قد عاش بعدي بمخلد
لعل الذي يرجو فنائي ويدّعي :::: به قبل موتي أن يكون هو الردى

لا تيأسن من لطف ربك:

إن كنت تغدو في الذنوب جليداً :::: وتخاف في يوم المعاد وعيدا
فلقد أذاك من المهيمن عفوه :::: وأفاض من نعم عليك مزيدا

لا تياسن من لطف ربك في الحشا :: في بطن أمك مضغة ووليدا
لو شاء أن تصلى جهنم خالدا :: ما كان ألهم قلبك التوحيد

فوائد الأسفار:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا :: وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرج هم، واكتساب معيشة :: وعلم وآداب، وصحة ماجد

الوحدة خير من جليس السوء:

إذا لم أجد خلا تقياً فوحدتي :: ألد وأشهى من غوى أعاشره
وأجلس وحدي للعبادة آمناً :: أقر لعيني من جليس أحاذره

أدب المناظرة:

إذا ما كنت ذا فضل وعلم :: بما اختلف الأوائل والأواخر
فناظر من تناظر في سكون :: حليماً لا تلح ولا تكابر
يفيدك ما استفادا بلا امتنان :: من النكت اللطيفة والنوادر
وإياك اللجوج ومن يراني :: بأني قد غلبت ومن يفاخر
فإن الشر في جنات هذا :: يعني بالتقاطع والتدابير

العلم مغرس كل فخر:

العلم مغرس كل فخر فافتخر :: واحذر يفوتك فخر ذاك المغرس
واعلم بأن العلم ليس يناله :: من همه في مطعم أو ملبس
إلا أخو العلم الذي يعنى به :: في حالتيه عارياً أو مكتسى
فاجعل لنفسك منه حظاً وافراً :: واهجر له طيب الرقاد وعبس
فلعل يوماً إن حضرت بمجلس :: كنت أنت الرئيس وفخر ذاك المجلس

نور الله لا يهدى لعاص:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي :: فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور :: ونور الله لا يهدى لعاص

لمن نعطي رأينا:

ولا تعطين الرأي من لا يريدہ :::: فلا أنت محمود ولا الرأي نافعہ

الذل في الطمع:

حسبي بعلمي إن نفع :::: ما الذل إلا في الطمع!
من راقب الله رجوع :::: ما طار طير وارتفع
إلا كما طار وقع!

الحب الصادق:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه :::: هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته :::: إن المحب لمن يحب مطيع
في كل يوم يتديك بنعمة :::: منه وأنت لشكر ذلك مضيع

فضل التغرب:

ارحل بنفسك من أرض تضام بها :::: ولا تكن من فراق الأهل في حرق
فالغبر الخام روث في موطنه :::: وفي التغرب محمول على العنق
والكحل نوع من الأحجار تنظره :::: في أرضه وهو مرمى على الطرق
والكحل نوع من الأحجار تنظره :::: فصار يحمل بين الجفن والحدق

أيهما الذئب:

سهرى لتقيح العلوم الذي :::: من وصل غانية وطيب عناق
وصرير أعلامي على صفحاتها :::: أحلى من الدُّوكاء والعشاق
والذئب من نقر الفتاة لدفها :::: نقري لألقي الرمل عن أوراقى
وتمايلي طرباً لحل عويصة :::: في الدرس أشهى من مدامة ساق
وأبيت سهران الدجى وتبيتہ :::: نوماً وتبغى بعد ذاك لحاقي

مشاعر الغريب:

إن الغريب له مخافة سارق :::: وخضوع مديون وذلة موثق
فإذا تذكر أهله وبلاده :::: ففؤاده كجناح طير خافق

التوكل على الله:

توكلت في رزقي على الله خالقي :: وأيقنت أن الله لا شك رازقي
وما يك من رزقي فليس يفوتني :: ولو كان في قاع البحار العوامق
سيأتي به الله العظيم بفضله :: ولو، لم يكن من اللسان بناطق
ففي أي شيء تذهب النفس حسرة :: وقد قسم الرحمن رزق الخلائق

العلم رفيق نافع:

علمي معي حيثما يمت ينفعني :: قلبي وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي :: أو كنت في السوق كان العلم في السوق

تول أمورك بنفسك:

ما حك جلدك مثل ظفرك :: فتول أنت جميع أمرك
وإذا قصدت لحاجة :: فاقصد لمعترف بفضلك

فتنة عظيمة:

فساد كبير عالم متهتك :: وأكبر منه جاهل متمسك
هما فتنة في العالمين عظيمة :: لمن بهما في دينه يتمسك

دعوهُ إلى التعلم:

تعلم فليس المرء يولد عالمًا :: وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده :: صغير إذا التفت عليه الجحافل
وإن صغير القوم إن كان عالمًا :: كبير إذا ردت إليه الجحافل

إدراك الحكمة ونيل العلم:

لا يدرك الحكمة من عمره :: يكسح في مصلحة الأهل
ولا ينال العلم إلا فتي :: خال من الأفكار والشغل
لو أن لقمان الحكيم الذي :: سارت به الركبان بالفضل
بُلي بفقر وعيال لما :: فرق بين التبن والبقل

أبواب الملوك:

إن الملوك بلاء حيثما حلوا :: فلا يكن لك في أبواهم ظل
 ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا :: جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
 فاستعن بالله عن أبواهم كرما :: إن الوقوف على أبواهم ذل

المهلكات الثلاث:

ثلاث هن مهلكة الأنام :: وداعية الصحيح إلى السقام
 دوام مُداممة ودوام وطء :: وإدخال الطعام على الطعام

العلم بين المنح والمنع:

أأنثر درأ بين سارحة البهم :: وأنظم منشوراً لرعاية الغنم
 لعمرى لئن ضيعت في شر بلدة :: فليست مُضيعة فيهم غرر الكلم
 لئن سهل الله العزيز بلطفه :: وصادفت أهلاً للعلوم والحكم
 بثت مفيداً واستفدت ودادهم :: وإلا فمكنون لدي ومُكْتَم
 ومن منح الجهال علماً أضاعه :: ومن منع المستوجين فقد ظلم

العيب فينا:

نعيب زماننا والعيب فينا :: وما لزماننا عيب سوانا
 ونهجو ذا الزمان بغير ذنب :: ولو نطق الزمان لنا هجانا
 وليس الذنب يأكل لحم ذئب :: ويأكل بعضنا بعضاً عيانا

يا واعظ الناس عما أنت فاعله:

يا واعظ الناس عما أنت فاعله :: يا من يعد عليه العمر بالنفس
 احفظ لشيبك من عيب يدنسه :: إن البياض قليل الحمل للدنس
 كحامل لثياب الناس يغسلها :: وثوبه غارق في الرجس والنجس
 تبغي النجاة ولم تسلك طريقها :: إن السفينة لا تجري على اليبس
 ركوبك النعش ينسيك الركوب على :: ما كنت تركب من بغل ومن فرس
 يوم القيامة لا مال ولا ولد :: وضمة القبر تنسي ليلة العرس

الصديق الصدوق:

إذا المرء لا يريعاك إلا تكلفا :: فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
 ففي الناس أبدال وفي الترك راحة :: وفي القلب صبر للحبيب وإن جفا
 فما كل من تهواه يهواك قلبه :: ولا كل من صافيته لك قد صفا
 إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة :: فلا خير في ود يجيء تكلفا
 ولا خير في خل يخون خليله :: ويلقاه من بعد المودة بالجفا
 وينكر عيشاً قد تقادم عهده :: ويظهر سراً كان بالأمس قد خفا
 سلام على الدنيا إذا لم يكن بها :: صديق صدوق صادق الوعد منصفا

ومن شعر الشافعي:

ومتعب النفس مرتاح إلى بلد :: والموت يطلبه في ذلك البلد
 وضاحك والمنيا فوق هامته :: لو كان يعلم غيباً مات من كمد
 من كان لم يؤت علماً في بقاء غد :: فلا يفكر لما يجيء بعد غد⁽¹⁾

من شعر الشافعي، وهو:

يا راكباً قف بالمحصب من منى :: واهتف بقاعد خيفها والناهض
 سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى :: فيضاً كملتطم الفرات الفائض
 إن كان رفضاً حب آل محمد :: فليشهد الثقلان أني رافضي⁽²⁾

من شعر الشافعي:

قد يعسر المرء في رزقه :: ويرزق الفاجر والكافر
 ويسلم الأطمس من حفرة :: يسقط فيها الناظر الباصر
 ويحفظ الجاهل من لفظة :: يهلك فيها العالم الماهر
 لا يعجب الإنسان من أمره :: هذا الذي قدره القادر⁽³⁾

ومن شعر الشافعي:

أمت مطامعي فأرحت نفسي :: فإن النفس ما طمعت تهون

(1) القفطي، المحمدون من الشعراء، ص 41.

(2) الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، 32/2.

(3) ابن كنان، يوميات شامية، 1/ 4.

وأحييت القنوع وكان ميتاً :: ففي إحيائه عرضي مصون
إذا طمع يحل بقلب عبد :: علة مهانة وعلاه هون⁽¹⁾

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

ومن منح الجهال علماً أضاعه :: ومن منع المستوجين فقد ظلم
وقيل: ما كل تربية تحتل القلائد، ولا كل ضريبة تستحق الفوائد.

روي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه:

نحن الزمان كثيرة لا تنقضي :: وسرورها يأتيك كالأعياد
وقال:

تأتي المكاره حين تأتي جملة :: ونرى السرور يجيء في الفلوات⁽²⁾

ومن شعره:

إذا لم أجد خلاً تقياً فوحدتي :: ألد وأشهى من غوي أعاشره
وأجلس وحدي للسفاهة آمناً :: أقر لعيني من جليس أحاذره⁽³⁾

وقول الإمام الشافعي:

وأحق خلق الله بالهم امرؤ :: ذو همّة يلبى بعيش ضيق
و بعده:

فلا ينحل في المجد مالك كله :: فينحل نجدٌ كان بالمل عقدُه
ودبره تدبير الذي المجد كفه :: إذا حارب الأعداء والمال زنده
فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله :: ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

وقال الإمام الشافعي:

أرى نفسي تنوق إلى أمور :: يقصر دون مبلغها مالي
فنفسى لا تطاوعني لبخل :: ومالي لا يبلغني فعالي

(1) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، 2 / 147.

(2) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 1 / 15، 484.

(3) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، 1 / 256.

وقال أيضاً:

يا لهف نفسي على ملٍ أفرقه :::: على المقلين من أهل المروءات
إنَّ اعتذاري إلى من جاء يسألني :::: ما ليس عندي من إحدى المصيباتِ

وقال الإمام الشافعي:

خذوا بدمي ذلك الغزال فإنه :::: رماني بسهمي مقلتيه على عمد
ولا تقتلوه أنني أنا عبيده :::: وفي مذهبي لا يقتل الحر بالعبد! (1)

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

بلوت بني الدنيا فلم أر فيهم :::: سوى من غدا والبخل ملء إهابه
فجردت من غمد القناعة صارماً :::: قطعت رجائي منهم بدبابه
فلا ذا يراني واقفاً في طريقه :::: ولا ذا يراني قاعداً عند بابيه
غني بلا مال عن الناس كلهم :::: وليس الغنى إلا عن الشيء لا به
إذا ظالماً يستحسن الظلم مذهباً :::: ولج عتوواً في قبيح اكتسابه
فكله إلى صرف الليالي فإنها :::: ستبدي له ما لم يكن في حسابه
فكم قد رأينا ظالماً متمرداً :::: يرى النجم تيهها تحت ظل ركابه
فعما قليل وهو في غفلاته :::: أناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح لا مال ولا جاه يرتجى :::: ولا حسنات تلتقي في كتابه
وجوزي بالأمر الذي كان فاعلاً :::: وصب عليه الله سوط عذابه (2)

وما أحسن قول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

خبرت بني الدنيا فلم أر منهم :::: سوى خادع والخبث حشو إهابه
فجردت عن غمد القناعة صارماً :::: قطعت رجائي منهم بدبابه
فلا ذا يراني واقفاً بطريقه :::: ولا ذا يراني قاعداً عند بابيه
غني بلا مال عن الناس كلهم :::: وليس الغنى إلا عن الشيء لا به (3)

(1) اليوسي، زهر الأكم في الأمثال و الحكم، 250/1، 260.

(2) الأبيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، 117/2.

(3) محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

لو أن بالخيال الغنى لوجدتني :: بنجوم أفلاك السماء تعلقني
لكن من رزق الحجا حرم الغنى :: صدان مفترقان أي تفرق
فإذا سمعت بأن محروماً أتى :: ماء ليشربه فغاص فصدق
أو أن محظوظاً غداً في كفه :: عود فأورق في يديه فحقق⁽¹⁾

ومن شعر الإمام الشافعي:

دع الأيام تفعل ما تشاء :: ولا تجزع لحادثة الليالي
وكن رجلاً على الأهوال جلداً :: وإن كثرت غيوبك في البرايا
تستتر بالسَّخاء فكل عيب :: ولا تُر للأعادي قط ذلاً
ولا ترج السَّماحة من بخيل :: ورزقك ليس ينقصه التائي
ولا حزن يدموم ولا سُروور :: إذا ما كنت ذا قلب قنوع
ومن نزلت بساحته المنايا :: وأرض الله واسعة ولكُنْ
دع الأيام تغدير كل حين :: وطب نفساً إذا حكم القضاء
فما لحواذ الدنيا بقاء :: وشيمتك السَّماحة والوفاء
وسرك أن يكون لها غطاء :: يُعطيه كما قيل السَّخاء
فإن شماتة الأعداء داء :: فما في النار للظمآن ماء
وليس يزيد في الرزق العناء :: ولا بأس عليك ولا رخاء
فأنت ومالك الدنيا سواء :: فلا أرض تقيه ولا سماء
إذا نزل القضا ضاق الفضاء :: فما يُغني عن الموت الدَّواء

ومن شعر الإمام الشافعي:

سأكنم علمي عن ذوي الجهل طاقت :: ولا أنثر الدر النفيس على الغنم
فإن يسر الله الكريم بفضله :: وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم
بشت مفيداً واستفدت ودادهم :: وإلا فمخزون لدي ومكتم

العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة الثانية 1423 هـ - 2002، 2 / 426.
(1) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، 2 / 435.

فمن منح الجهال علماً أضاعه :: ومن منع المستوجبين فقد ظلم⁽¹⁾

* * *

(1) كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 2 / 255.

الإمام أبو حنيفة

الإمام أبو حنيفة

أعلام الفقهاء

الإمام أبو حنيفة

هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الفارسي عرف بالإمام الأعظم. كان جده من أهل كابل قد أسر عند فتح بلاده ثم من عليه. وأبو حنيفة - وإن كان مولى - لم يجر عليه الرق ولا على أبيه بل كان حر النفس أصيلاً ولم يكن نسبه الفارسي غاضاً من قدره في عصر يقدم شرف التقوى على شرف النسب. وكان العلم في عصره أكثره في الموالي (1) فكانوا الوسط العلمي للدولة الإسلامية بعد الصحابة ردحاً طويلاً من الزمن فصدقت فيه نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء فارس** — (2).

ولد أبو حنيفة رضي الله عنه في الكوفة سنة ثمانين للهجرة على رواية الأكثرين ونشأ وتربى بها وعاش أكثر حياته فيها متعلماً ومجادلاً ومعلماً. ولد أبوه ثابت على الإسلام ويروى أنه التقى بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه صغيراً فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته.

نشأ أبو حنيفة رضي الله عنه في بيت إسلامي خالص وقد ابتدأ حياته تاجراً ثم لفته الشعبي فقيه الأثر لما لمح فيه من مخايل الذكاء وقوة الفكر إلى الاختلاف إلى العلماء مع التجارة فانصرف إلى العلم دون أن يهمل التجارة.

تتقف أبو حنيفة رضي الله عنه بالثقافة الإسلامية التي كانت في عصره فقد حفظ القرآن على قراءة عاصم ودرس الحديث وعرف قدراً من النحو والأدب والشعر كما درس علم الكلام وأصول الدين وجادل الفرق المختلفة في مسائل الاعتقاد وما يتصل به ثم عدل إلى الفقه واستمر

(1) الموالي: اسم أطلقه المؤرخون على غير العرب من المسلمين.

(2) مسند الإمام أحمد: ج 2 / ص 297.

عليه واستغرق كل مجهوده الفكري وقد ذكر في اختياره للفقه قوله: “ كلما قلبته وأدرته لم يزد إلا جلاله.. ورأيت أنه لا يستقيم أداء الفرائض وإقامة الدين والتعبد إلا بمعرفته وطلب الدنيا والآخرة إلا به “.

وقد اتجه أبو حنيفة رضي الله عنه إلى دراسة الفتيا على المشايخ الكبار الذين كانوا في عصره ولزم شيخه حماد بن أبي سليمان مذ كان في الثانية والعشرين من عمره إلى أن مات شيخه وأبو حنيفة رضي الله عنه في الأربعين من عمره.

ومع ملازمة أبي حنيفة رضي الله عنه لشيخه حماد فقد كان كثير الرحلة إلى بيت الله الحرام حاجًا يلتقي في مكة والمدينة بالفقهاء والمحدثين والعلماء يروي عنهم الأحاديث ويذاكرهم الفقه ويدارسهم ما عندهم من طرائق.

وكان يتتبع التابعين أينما وحيثما ثقفوا وخصوصًا من اتصل منهم بصحابة امتازوا في الفقه والاجتهاد وقد قال في ذلك: “ تلقيت فقه عمر وفقه عبد الله بن مسعود وفقه ابن عباس عن أصحابهم “.

وقد جلس الإمام أبو حنيفة في الأربعين من عمره في مجلس شيخه حماد بمسجد الكوفة وأخذ يدارس تلاميذه ما يعرض له من فتاوى وما يبلغه من أقضية وقيس الأشباه بأشباهها والأمثال بأمثالها بعقل قوي مستقيم ومنطق قوي حتى وضع تلك الطريقة الفقهية التي اشتق منها المذهب الحنفي

وكان أبو حنيفة رضي الله عنه بالغ التدين شديد التنسك عظيم العبادة صائمًا بالنهار قائمًا بالليل تاليًا لكتاب الله خاشعًا دائمًا في طاعة الله قام الليل ثلاثين سنة وكان القرآن الكريم ديدنه وأنيسه

كان كثير البكاء يرحمه جيرانه لكثرة بكائه كثير الحياء جم الأدب وخاصة مع شيوخه بارًا بوالديه يدعو لهما في كل صلاة ويتصدق عنهما.

كان كثير الورع يقول: “ لو أن عبدًا عبد الله تعالى حتى صار مثل هذه السارية ثم إنه لا يدري ما يدخل في بطنه حلال أو حرام ما تقبل منه “. ولذا كان شديد الحرج في كل ما تخالطه شبهة الإثم فإن ظن إثمًا أو توهمه في مال خرج منه وتصدق به على الفقراء والمحتاجين وقد تصدق ببضاعته كلها عندما باع شريكه ثوبًا معيبًا دون أن يظهر عيبه.

كان عظيم الأمانة في معاملاته حتى شبهه كثيرون في تجارته بأبي بكر الصديق رضي الله عنه فكان مثلاً كاملاً للتاجر المستقيم كما هو في الذروة بين العلماء. قال فيه معاصره مليح بن وكيع: “ كان أبو حنيفة عظيم الأمانة وكان والله في قلبه جليلاً كبيراً عظيماً وكان يؤثر رضا ربه على كل شيء ولو أخذته السيوف في الله لاحتمل “.

ومن أخلاقه السماحة والجود فقد كانت تجارته تدر عليه الدر الوفير رغم ورعه واكتفائه من الربح بالقدر اليسير وكان ينفق أكثره على المشايخ والمحدثين اعترافاً بفضل الله عليه فيهم

قال فيه الفضيل بن عياض: “ كان أبو حنيفة رجلاً فقيهاً معروفاً بالفقه واسع المال معروفاً بالأفضال على كل من يطيف به صبوراً على تعلم العلم بالليل والنهار حسن الليل كثير الصمت قليل الكلام حتى ترد مسألة في حلال أو حرام فكان يحسن أن يدل على الحق رهاباً من مال السلطان “.

كان رحمه الله واحد زمانه لو انشقت عنه الأرض لانشقت عن جبل من الجبال في العلم والكرم والمواساة والورع والإيثار لله تعالى.

وكان أبو حنيفة رضي الله عنه حريصاً على أن يكون مظهره كمخبره حسناً فكان كثير العناية بثيابه كثير التطيب حسن الهيئة يحث من يعرفه على العناية بملبسه وسائر مظهره مذكراً بحديث رسول الله صلى الله عليه

وسلم : ٥٠ إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده — (1).

عاش أبو حنيفة رضي الله عنه عصراً مليئاً بالمشاحنات والتيارات فقد أدرك دولتي بني أمية والعباس وكان موقفه واضحاً من كل ما يجري حوله ولم يعرف عنه يوماً أنه خرج مع الخارجيين أو ثار مع الثائرين.. لكن لما طلب منه عمر بن هبيرة والي الأمويين على الكوفة أن يعمل معه امتنع فسجن وعذب ثم هرب ولجأ إلى مكة واتخذها مقاماً ومستقراً له من سنة (130 - 136) للهجرة فعكف على الفقه والحديث يطلبهما بمكة التي ورثت علم ابن عباس رضي الله عنهما.

ولما استتب الأمر للعباسيين عاد إلى الكوفة وأعلن ولاءه لهم وتابع حلقات درسه في مسجد الكوفة. واستمر على ولاءه للدولة العباسية إلا أنه على ما يظهر انتقد موقف الخليفة المنصور من بعض آل البيت من أبناء علي رضي الله عنه وكان حول الخليفة كثيرون يحسدون أبا حنيفة - رضي الله عنه - ويوغرون صدر المنصور عليه فكان أن عرض عليه الخليفة المنصور منصب القضاء امتحاناً لإخلاصه فاعتذر الإمام عن قبول المنصب تخرجاً من الوقوع في الإثم لأنه يرى القضاء منصباً خطيراً لا تقوى نفسه على احتماله وتعرض لمحنة قاسية بسبب رفضه إذ وجد الخليفة المنصور الفرصة مواتية للنيل منه فسجن وعذب ثم أخرج من السجن على أن يفتي فكان يرجع المسائل ولا يفتي فيها بشيء فسجن من جديد ثم أخرج ومنع من الفتوى والناس والخروج من المنزل فكانت تلك حاله إلى أن توفي رحمه الله سنة (150) للهجرة على أصح الأقوال. وقيل إنه مات مقتولاً بالسّم في سجنه رحمه الله.

وكان قد أوصى أن يدفن بأرض الخيزران فحمل إليها. وقدر عدد من شيع جنازته وصلى عليها بخمسين ألفاً. وقد صلى المنصور نفسه عليها

(1) الترمذي: ج 5 / كتاب الزينة باب 41 / 2819.

إقراراً منه بعظمة دينه وتقواه وقال: من يعذرني منك حيًا وميتًا؟ رحم الله الإمام.

منزلته العلمية ومصادر علمه:

كان الإمام أبو حنيفة فقيهاً مستقلاً قد سلك في تفكيره مسلكاً استقل به وتعمق فيه. وقد بقيت أصوات الثناء تتجاوب في الأجيال تعطر سيرته قال أحد العلماء: “ أقمت على أبي حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول منه صمًا فإذا سئل عن شيء من الفقه تفتح وسال كالوادي وسمعت له دويًا وجهارة بالكلام “. كما وصفه معاصره الورع التقي عبد الله بن المبارك بأنه مخ العلم فهو قد أصاب من العلم اللباب ووصل فيه إلى أقصى مداه وكان يستبطن المسائل ويستكنه كنهها ويتعرف أصولها ويبني عليها. ولقد شغل عصره بفكره وعلمه ومناظراته فهو بين المتكلمين يناقشهم ويدفع أهواء ذوي الأهواء ويناقش الفرق المختلفة وله رأي في مسائل علم الكلام أثر عنه بل هناك رسائل نسبت إليه وله في الفقه والتخريج وفهم الأحاديث واستنباط علل أحكامها والبناء عليها المقام الأعلى حتى إن بعض معاصريه قال: “ إنه لم يعرف أحداً أحسن فهماً للحديث منه “.

من أين جاء لأبي حنيفة رضي الله عنه كل هذا العلم؟ ما مصادره؟ ما مهيئاته؟ ما الذي توافر له حتى كان منه ما رواه تاريخ العالم الإسلامي؟

لقد تهيأ لتوجيه أبي حنيفة رضي الله عنه توجيهاً علمياً ونبوغه في وجهته أمور أربعة أولها: صفاته التي جبل عليها ثانيها: شيوخه الموجهون الذين التقى بهم وأثروا فيه ثالثها: حياته الشخصية وتجاربه ورابعها: العصر الذي أظله والبيئة الفكرية التي عاش فيها.

اتصف أبو حنيفة رضي الله عنه بصفات جعلته في الذروة بين العلماء صفات العالم الحق الثبت الثقة البعيد المدى في تفكيره المتطلع إلى الحقائق الحاضر البديهة الذي تسارع إليه الأفكار

كان رضي الله عنه ضابطاً لنفسه مستولياً على مشاعره لا تعبت به الكلمات العارضة ولا تبعده عن الحق العبارات النابية كان يقول: “ اللهم من ضاق بنا صدره فإن قلوبنا قد اتسعت له “. وقد أوتي استقلالاً في تفكيره جعله لا يخضع في رأيه إلا لنص من كتاب أو سنة أو فتوى صحابي ولم يؤثر فيه الحب والبغض.

كان عميق الفكرة بعيد الغور في المسائل لا يكتفي بالبحث في ظواهر الأمور والنصوص ولا يقف عند ظاهر العبارة بل يسير وراء مراميها البعيدة أو القريبة ولعل ذلك العقل الفلسفي المتعمق هو الذي دفعه لأن يتجه أول حياته إلى علم الكلام كما دفعه لدراسة الحديث دراسة متعمقة يبحث عن علل ما اشتمل عليه من أحكام مستعينا بإشارات الألفاظ ومرامي العبارات.

كان حاضر البديهة لا تحتبس فكرته ولا يفحم في جدال واسع الحيلة يعرف كيف ينفذ إلى ما يفحم به خصمه من أيسر السبل وله في ذلك غرائب ومدهشات حتى قيل فيه: إنه لو أراد أن يثبت الحكم وعكسه لما أعجزه ذلك.

كان مخلصاً في طلب الحق مما نور قلبه وأضاء بصيرته فكان لا يهمله إلا الحق سواء كان غالباً أو مغلوباً. وكان لإخلاصه لا يفرض في رأيه أنه الحق المطلق بل يقول: “ قولنا هذا رأي وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاء بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا “.

هذه جملة الصفات التي جعلت من أبي حنيفة رضي الله عنه فقيهاً انتفع بكل غذاء روحي وصل إليه كما التقى الإمام أبو حنيفة بعدد من الذين عمروا من الصحابة منهم أنس بن مالك وعبد الله بن أبي أوفى وسهل بن سعد رضوان الله عليهم ولكنه لم يرو عنهم إذ كان في سن لقائه بهم صغيراً ولكن أجمع العلماء على أنه التقى بكبار التابعين وجالسهم ودارسهم وروى عنهم وتلقى فقههم

وقد قال: “ كنت في معدن العلم والفقهاء فجالست أهلهم ولزمت فقيهاً من فقهاءهم “.

وهذا يدل على أنه عاش في وسط علمي وجالس العلماء وعرف مناهج بحثهم ثم اختار من بينهم فقيهاً وجد فيه ما يرضي نزوعه العلمي وهو حماد ابن أبي سليمان الذي انتهت مشيخة الفقه العراقي في عصره فلزمه ثماني عشرة سنة. وكان حماد قد تلقى معظم فقهه على إبراهيم النخعي فقيه الرأي كما تلقى عن الشعبي فقيه الأثر وهما اللذان انتهى إليهما فقه الصحابييين الجليلين عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما وكانا قد أقاما بالكوفة وأورثا أهلها تراثاً فقهياً عظيماً.

ومن شيوخه عطاء بن أبي رباح الذي أخذ خلاصة علم ابن عباس رضي الله عنهما عن مولاه عكرمة. وكان أبو حنيفة رضي الله عنه يلازمه ما دام مجاوراً لبيت الله الحرام.

ومنهم نافع مولى ابن عمر رضي الله عنهما وقد أخذ عنه أبو حنيفة رضي الله عنه علم ابن عمر وعلم عمر رضي الله عنهما. وهكذا اجتمع للإمام أبي حنيفة علم عمر وعلي وابن عباس وابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم عن طريق من تلقى عنهم من تابعيهم رضي الله عنهم أجمعين.

ولم يقتصر الإمام أبو حنيفة على الأخذ عن هؤلاء الفقهاء بل تجاوز ذلك إلى أئمة آل البيت فأخذ عنهم ودارسهم منهم الإمام زيد بن علي زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وعبد الله بن الحسن بن الحسن.

ولم يكن اتصال أبي حنيفة رضي الله عنه العلمي مقصوراً على رجال الجماعة وأئمة آل البيت بل اتصل بمختلف الفرق وتعرف على آرائهم وأقوالهم فكان يأخذ من كل هذه العناصر ثم يخرج منها بفكر جديد ورأي قويم لم يكن من نوعها وإن كان فيه خيرها

وهكذا نستطيع أن نقول إنه تلقى فقه الجماعة الإسلامية بشتى منازعها وإن كان قد غلب عليه تفكير أهل الرأي بل عد شيخ أهل الرأي.

كما كانت حياة الإمام أبي حنيفة ودراساته وتجاربه تتجه به نحو تكوين فقيه العراق الأول.

فقد زاول التجارة وكان عليماً بأحوال البيع والعرف التجاري مما جعله يتكلم في معاملات الناس وأحكامها كلام الخبير الفاهم فجعل للعرف مكاناً في تخريجه الفقهي وأحسن التخريج بالاستحسان عندما يكون في القياس منافاة للمصلحة أو العدالة.

كما كان كثير الرحلة إلى الحج وغيره يلتقي بالعلماء يدارس ويذاكر وينظر ويروي ويفتي. هذا إلى ما تفيدته الرحلات نفسها من فتق للذهن ومعرفة بمواطن الوحي والبلاد المختلفة فيحيط خبراً بمعاني الآثار ودقائق الأخبار ويحسن التفريع في المسائل الفقهية ويحكم تصورها والإلمام بأحكامها.

وقد كان أبو حنيفة رضي الله عنه مغرمًا بالجدل والمناظرة منذ شب في طلب العلم ومجادلته في العقائد أرهفت تفكيره وعمقت مداركه ومناظراته في الفقه أطلعته على أحاديث وأوجه للقياس وفتاوى للصحابة لم يكن مطلعاً عليها.

وطريقة الإمام أبي حنيفة الخاصة في التدريس جعلت درسه مجالاً لتثقيف المعلم والمتعلم معاً فقد كان يطرح الفكرة ويناقشها مع تلاميذه كل يدلي برأيه مخالفاً أو موافقاً وبعد تقليب النظر يدلي هو بالرأي الذي تنتجه هذه الدراسة فيقر الجميع به. وهذا جعل علمه في نمو متواصل وفكره في تقدم مستمر.

وأدرك الإمام أبو حنيفة العصر الأموي في عنفوانه وقوته ثم في تحدره وانهيائه وأدرك الدولة العباسية في نشأتها قوية ظافرة ناهضة

وعاش أبو حنيفة رضي الله عنه في العصر الأموي اثنتين وخمسين سنة وهي السن التي تربى فيها وبلغ أشده ثم بلغ أوجه العلمي ونضجه الفكري الكامل. ولم يدرك من العصر العباسي إلا ثماني عشرة سنة وكانت عاداته الفكرية ومناهجه العلمية قد استقامت وصار ينتج الكثير ولا يأخذ إلا القليل. وعلى هذا فما أخذه الإمام أبو حنيفة من عصره كان أكثره من الأموي وأقله من العباسي وكان العصر العباسي نمواً لما في العصر الأموي ونتائج لمقدمات بدأت قبله.

وقد أغنت الحياة السياسية الحافلة بالصراعات والاتجاهات والحياة الاجتماعية التي ضمت عناصر مختلفة لكل منها طابع خاص رغم أنها انصهرت جميعها في بوتقة الإسلام والمشاكل الفكرية في أمور العقيدة وما نشأ عنها من فرق ونحل وازدهار حركة الترجمة عن الفكر اليوناني والفارسي والهندي وتفرغ العلماء للخوض في علوم الدين الذي أثمر حركة التدوين للحديث وكثرة المناظرات والرحلات العلمية. أغنت هذه الأجواء السياسية والاجتماعية والفكرية والعلمية مدارك الفقهاء وساعدت في تفتق أذهان العلماء وأوجدت مناخاً ملائماً ساعد في استخراج المسائل وفي فرض الفروض والتصورات.

وكان أبو حنيفة رضي الله عنه أشهر فقهاء الرأي كما كان مالك أشهر فقهاء الحديث. ويقصد بالرأي: كل ما يفتي فيه الفقيه في الأمور التي لا يجد فيها نصاً ويعتمد في فتواه على ما عرف من الدين بروحه العامة أو ما يتفق مع أحكامه في جملتها في نظر المفتي أو ما يكون مشابهاً لأمر منصوص عليه فيها فيلحق الشبيه بالشبيه. وعلى ذلك يكون الرأي شاملاً للقياس والاستحسان والمصالح المرسلة والعرف.

وأساس الاختلاف بين أهل الرأي وأهل الحديث ليس في الاحتجاج بالسنة بل في أمرين: في الأخذ بالرأي وفي تفريغ المسائل تحت سلطانه.

فقد كان أهل الحديث لا يأخذون بالرأي إلا اضطراراً ولا يفرغون المسائل فلا يستخرجون أحكاماً لمسائل لم تقع بل لا يفتون إلا فيما يقع من الوقائع. أما أهل الرأي فيكثرّون في الإفتاء بالرأي ما دام لم يصح لديهم حديث في ذلك الموضوع الذي يجتهدون فيه ولا يكتفون باستخراج أحكام المسائل الواقعة بل يفرضون مسائل غير واقعة ويضعون لها أحكاماً بآرائهم. وكان أكثر أهل الحديث بالحجاز لأنه موطن الصحابة الأول ومكان الوحي ولأن التابعين الذين أقاموا فيه تخرجوا على صحابة لم يكثرّوا من الرأي. وأكثر أهل الرأي كانوا بالعراق لأنهم تخرجوا على ابن مسعود رضي الله عنه وهو ممن كانوا يتخرجون في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يتخرج في الاجتهاد برأيه ولأن العراق كان موطناً لفلسفات وعلوم مدارس قديمة كما أن أسباب الرواية لم تتوافر عند أهله.

وقد عرف أبو حنيفة رضي الله عنه باتجاهه إلى الفرض والتقدير فكان يقدر مسائل لم تقع ويبين حكمها ويوضح أدلتها ويقول في ذلك: “إنا نستعد للبلاء قبل نزوله فإذا ما وقع عرفنا الدخول فيه والخروج منه”.

وهكذا زاد أبو حنيفة رضي الله عنه الفقه التقديري نمواً وأكثر فيه وسلك الفقهاء من بعده مسلك الفرض والتقدير واختلفوا في المقدار.

ذكر العلماء مسنداً من الأحاديث والآثار منسوباً إلى أبي حنيفة رضي الله عنه ولكن أكثر الآراء على أن أبا حنيفة رضي الله عنه لم يدون في الفقه كتاباً مبوباً فقد كان المعروف أن تلاميذه يدونون آراءه ويقيدونها وربما كان ذلك بإملائه أحياناً وكان هو يراجع ما دون أحياناً ليقره أو ليغيره. وكان في جلساته الفقهية مع تلاميذه يلقي مسألة مسألة يقلبها ويسمع ما عندهم ويقول ما عنده وينظرهم حتى يستقر أحد الأقوال فيها ثم يثبتها أبو يوسف في الأصول حتى أثبت الأصول كلها. وبهذا النحو من التحرير دون مذهب الإمام أبي حنيفة وأصحابه ونشره أصحابه كتباً مبوبة مرتبة منظمة.

وكانت الأقوال التي نقلها أصحاب الإمام أبي حنيفة خالية من الدليل إلا ما يكون من أثر منقول أو خبر مشهور أو اعتماد على فتوى صحابي أو انتهاء إلى رأي تابعي وقليلاً ما يذكر قياسها أو عماد استحسانها اللهم إلا ما كتب أبي يوسف ولا تحكي إلا القليل. ولا شك أن ذلك يبعد بنا عن معرفة الإمام أبي حنيفة القياس صاحب الاستحسان الذي عد أقوى قانس في عصره فلم يجرو أحد على منازعته في القياس إذا قايس أو استحسّن.

وإذا كانت الطبقة التي وليت أصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه قد عنيت بالاستدلال واستخراج الأقيسة في الأحكام وبيان أوجه الاستحسان وأحكام العرف فإننا لسنا على ثقة كاملة من أن هذا الاستدلال الذي يسوقونه هو نفس ما كان يفكر فيه الإمام أبو حنيفة وما اهتدى على ضوئه إلى ما قرره من أحكام.

كان لأبي حنيفة رضي الله عنه تلاميذ كثيرون منهم من كان يرحل إليه ويستمتع أمداً ثم يعود إلى بلده بعد أن يأخذ طريقه ومنهاجه ومنهم من لازمه. وقد قال هو في أصحابه الذين لازموه: “ هؤلاء ستة وثلاثون رجلاً منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء وستة يصلحون للفتوى واثنان أبو يوسف وزفر يصلحان لتأديب القضاة وأرباب الفتوى “.

ولا شك أن هؤلاء الصحاب الذين يقرر أبو حنيفة رضي الله عنه صلاحيتهم للقضاء والإفتاء وتأديب القضاة كانوا في حياته من النضج العلمي بحيث يمكن أن تعهد إليهم هذه الأمور الخطيرة وكانوا في سن تؤهلهم لها. أما محمد بن الحسن فقد كان في الثامنة عشر من عمره حينما توفي أبو حنيفة رحمه الله ولم تكن سنه تؤهله للقضاء مع أننا سنجد فقه أبي حنيفة - رضي الله عنه - خاصة وفقه العراقيين عامة مدين لمحمد بن الحسن بكتبه فهي التي حفظته وأبقته للأخلاف مرجعاً يرجع إليه ومنها يستقى منه.

قد أضفت خدمة تلاميذ الإمام أبي حنيفة لمذهبه وعنايتهم بذلك جلالاً

على المذهب وإمامه. وسنخص بالذكر بعض أصحابه ممن كان لهم أثر في نقل فقهه إلى الأجيال اللاحقة.

أبو يوسف (113 - 182 هـ):

وهو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري نسباً والكوفي منشأ وتعلماً ومقاماً. نشأ فقيراً تضطّره الحاجة للعمل ثم أمدّه الإمام أبو حنيفة بالمال فانصرف إلى طلب العلم. جلس إلى ابن أبي ليلى الفقيه قبل أن يجلس إلى أبي حنيفة رضي الله عنه ثم انقطع إليه مع اتصاله بالمحدثين. وكان فقيهاً عالماً حافظاً كثير الحديث عدّ أحفظ أصحاب الإمام أبي حنيفة للحديث. ولي القضاء لثلاثة من الخلفاء العباسيين: المهدي والهادي ثم الرشيد الذي كانت له عنده مكانة وحظوة.

وقد استفاد الفقه الحنفي من أبي يوسف فوائد جليّة إذ أن اختباره للقضاء جعله يصقل المذهب صقلاً علمياً بسبب اطلاعه على الشؤون العامة ومشاكل الناس فأصبح قياسه واستحسانه مشتقاً من الحياة العملية لا من الفروض النظرية فقط. وقد استمد المذهب الحنفي نفوذاً مكيناً بتولي أبي يوسف القضاء وكونه القاضي الأول للدولة.

ولعل أبا يوسف أول فقهاء الرأي الذين دعموا آراءهم بالحديث وبذلك جمع بين طريقة أهل الرأي وطريقة أهل الحديث

ولأبي يوسف كتب كثيرة دون فيها آراءه وآراء شيوخه منها كتاب الآثار وكتاب أبي حنيفة وابن أبي ليلى وكتاب الرد على سير الأوزاعي وغيرها. وفي كتبه جمال في التعبير ووضوح وجزالة ودقة قياس وإحكام فكر إلى جانب بعض الأدلة الفقهية المصورة لاتجاه الإمام أبي حنيفة في تفكيره.

محمد بن الحسن الشيباني (132 - 189 هـ):

يكنى أبا عبد الله وينتسب إلى شيبان بالولاء. كانت سنه عند موت

الإمام أبي حنيفة ثمانى عشرة سنة فلم يتلق عنه أمداً طويلاً ولكنه أتم دراسته لفقهِ العراق الذى صقله القضاء على أبى يوسف كما تلقى فقهِ الحجاز عن مالك رضى الله عنه وروايته للموطأ من أجود الروايات وتلقى فقد الشام عن الأوزاعي.

وكانت له قدرة ومهارة فى التفريع والتخريج بالإضافة إلى درايته الواسعة البالغة فى الأدب وامتلاكه أعنة البيان. قال فيه الشافعي: " كان محمد بن الحسن يملأ العين والقلب وكان أفصح الناس إذا تكلم خيل إلى سامعه أن القرآن نزل بلغته ". وقد تمرس بالقضاء أيضاً مما أفاده علما وتجربة وقرب فقهه من الناحية العملية التى لا تقتصر على التصور والنظر المجرد. وكان عنده اتجاه إلى التدوين فهو يعد بحق ناقل فقهِ العراقيين إلى الأخلاف وتعد كتبه المرجع الأول لفقهِ أبى حنيفة رضى الله عنه سواء فى ذلك ما كان بروايته عن أبى يوسف ومراجعته عليه وما كان قد دونه من فقهِ أهل العراق وتلقاه عن أبى يوسف وغيره.

وأهم كتبه: المبسوط والزيادات والجامع الصغير والسير الصغير والسير الكبير والجامع الكبير وتسمى الأصول وسميت كتب ظاهر الرواية لأنها رويت عن محمد برواية الثقات فهي ثابتة عنه إما متواترة أو مشهورة. ومن كتبه أيضاً كتاب الآثار الذى جمع فيه الأحاديث والآثار التى رواها أبو حنيفة رضى الله عنه وهو يتلاقى فى كثير من مروياته مع كتاب الآثار لأبى يوسف وكلاهما يعد مسنداً لأبى حنيفة رضى الله عنه وقد جمعا بعناوين فقهية مرتبة. وهذه الكتب هي عماد النقل فى الفقهِ الحنفى وتعد الأصل الذى يرجع إليه فى فقهِ الإمام أبى حنيفة وأصحابه.

زفر بن هذيل (110 - 158 هـ):

وهو أقدم صحبة لأبى حنيفة رضى الله عنه من أصحابيه أبى يوسف ومحمد. كان ذكياً قوياً الحجة أخذ عن الإمام أبى حنيفة فقهِ الرأي وكان أحد أصحابه قياساً. ليس له كتب بل عمل على نشر آراء أبى حنيفة رضى

الله عنه بلسانه في مناظراته الفقهية مع علماء البصرة وكان قد تولى قضاءها في حياة شيخه. وقد خلف زفر أبا حنيفة رضي الله عنه في حلقة ثم خلفه من بعده أبو يوسف.

المذهب الحنفي وانتشاره:

المذهب الحنفي الذي تلقته الأجيال وخرج العلماء المسائل على ما استتبط من أصوله هو مدرسة فقهية تجمع آراء الإمام أبي حنيفة واجتهاداته إلى أقوال واجتهادات أصحابه وتلاميذه وبعض معاصريه كما تضم ما أضافه فقهاء آخرون تبنا المذهب وساروا على نفس أصوله وإن لم يعاصروا شيخه. فكان لاختلاط الرواية عن الإمام أبي حنيفة بالرواية عن غيره ولاتحاد الأصول أثر في مزج الآراء وجعل مجموعها مذهباً واحداً.

وقد نشأ المذهب في موطن الإمام في الكوفة ثم تدارسه العلماء ببغداد بعد وفاة شيخه ثم شاع وانتشر في أكثر البقاع الإسلامية فكان في العراق ثم في مصر والشام وبلاد الروم وما وراء النهر ثم اجتاز الحدود فكان في الهند والصين حيث لا منافس له ولا مزاحم ويكاد يكون المنفرد في تلك الأصقاع النائية إلى الآن إذ المسلمون في الهند والصين يسرون في عبادتهم وفي تنظيم أسرهم عليه دون سواه.

وقد ابتدأ ينال المنزلة الرسمية التي يسرت له الانتشار منذ أن ولي أبو يوسف منصب القضاء للرشد ثم صار قاضي القضاة فكان لا يعين قاضياً في البلاد الإسلامية من أقصى المشرق إلى شمالي إفريقيا إلا أن يكون حنفياً. فكان المذهب الحنفي المذهب الرسمي للدولة وفي عهد العباسيين ثم العثمانيين.

وإذا كان انتشار المذهب الحنفي في أول الأمر بسبب اختيار الخلفاء للقضاة من أئمة فقد اكتسب نفوذاً قوياً بسبب إلف الناس له ونشاط العلماء والمناظرات فيه. كما أن طبيعة المذهب المرنة جعلته قابلاً لكل الأزمنة

ملائمًا لكل الظروف والبيئات.

مواقف من حياة الإمام أبي حنيفة:

تزييت قبل أن تحصرم:

لما جلس أبو يوسف رحمه الله تعالى للتدريس من غير إعلام أبي حنيفة رحمه الله فأرسل إليه أبو حنيفة رحمه الله رجلاً فسأله عن خمس مسائل: الأولى: قصار جدد الثوب وجاء به مقصوراً هل يستحق الأجرة أم لا؟ فأجاب أبو يوسف رحمه الله: لا يستحق الأجر فقال له الرجل: أخطأت فقال: لا يستحق فقال: أخطأت ثم قال له الرجل: إن كانت القصار قبل الجدد اسودت اسودت الجدد لا تستحق

الثانية: هل الدخول في الصلاة بالفرض أم بالسنة فقال: بالفرض فقال:

أَخْطَأْتُ. فَقَالَ: بِالسَّيِّئَةِ فَقَالَ: لَا أَخْطَأُ. فَتَحِيرَ أَبُو يُوسُفَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

فقال الرجل: بهما لأن التكبير فرض ورفع اليدين سنة.

الثالثة: طير سقط في قدر على النار فيه لحم ومرق: هل يأكلان؟ أم لا؟

فَقَالَ: يُوَكَّلُ. فَخَطَّاهُ فَقَالَ: لَا يُوَكَّلُ فَخَطَّاهُ ثُمَّ قَالَ: إِنْ كَانَ اللَّحْمُ مَطْبُوعًا

قبل سقوط الطير يغسل ثلاثاً ويؤكل وترمي المرقة وإلا يرمى الكل له.

الرابعة: مسلم له زوجة ذمية ماتت وهي حامل منه تدفن في أي المقابر

فقال أبو يوسف رحمه الله: في مقابر المسلمين فخطأه فقال: في مقابر أهل

الذمة فخطأه فتحير أبو يوسف.

فقال الرجل: تدفن في مقابر اليهود ولكن يحول وجهها عن القبلة حتى

يكون وجه الولد إلى القبلة لأن الولد في البطن يكون وجهه إلى ظهر أمه.

الخامسة: أم ولد لرجل تزوجت بغير إذن مولاهما فمات المولى هل

تجب العدة من المولى فقال: تجب فخطأه ثم قال: لا تجب فخطأه ثم قال

الرجل: إن كان الزوج دخل بها: لا تجب وإلا: وجبت فعلم أبو يوسف

تقصيره فعاد إلى أبي حنيفة رحمه الله فقال: تزيت قبل أن تحصرم.

من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه:

وفي مناقب الكردي: أن سبب انفراده أنه مرض مرضاً شديداً فعاده الإمام وقال: لقد كنت أملك بعدي للمسلمين ولئن أصبت ليموتن علم كثير فلما برأ أعجب بنفسه وعقد له مجلس الأمالي وقال له حين جاء: ما جاء بك إلا مسألة القصار سبحان الله من رجل يتكلم في دين الله ويعقد مجلساً لا يحسن مسألة في الإجارة: ثم قال: من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه انتهى.

خدعتني امرأة وفقهتني امرأة وزهدتني امرأة:

وفي مناقب الكردي: قال الإمام الأعظم رحمه الله: خدعتني امرأة وفقهتني امرأة وزهدتني امرأة

أما الأولى: قال: كنت مجتازاً فأشارت إلي امرأة إلى شيء مطروح في الطريق فتوهمت أنها خرساء وأن الشيء لها فلما رفعته إليها قالت: احفظه حتى تسلمه لصاحبه.

الثانية: سألتني امرأة عن مسألة في الحيض فلم أعرفها فقالت قولاً تعلمت الفقه من أجله.

الثالثة: مررت ببعض الطرقات فقالت امرأة: هذا الذي يصل الفجر بوضوء العشاء فتعمدت ذلك حتى صار دأبي.

لا أرجو الجنة ولا أخاف النار:

وسئل الإمام رحمه الله تعالى عن من قال: أرجو الجنة ولا أخاف النار ولا أخاف الله تعالى وآكل الميتة وأصلي بلا قراءة وبلا ركوع وسجود وأشهد بما لم أره وأبغض الحق وأحب الفتنة فقال أصحابه: أمر هذا الرجل مشكل.

فقال الإمام: هذا الرجل يرجو الله لا الجنة ويخاف الله لا النار ولا

يخاف الظلم من الله تعالى في عذابه ويأكل السمك والجراد ويصلي على الجنازة ويشهد بالتوحيد ويبغض الموت وهو حق ويحب المال والولد وهما فتنة له.

فقام السائل وقبل رأسه وقال: أشهد أنك للعلم وعاء.

حكاية الإمام مع قتادة: في امرأة المفقود

لا أجيبكم بشيء:

قدم قتادة الكوفة فاجتمع عليه الناس فقال: سلوني عن الفقه فقال الإمام: ما تقول في امرأة المفقود فقال: قول عمر رضي الله تعالى عنه تتربص أربع سنين ثم تعتد عدة الوفاة وتتزوج بما شئت له قال: فإن جاء زوجها الأول وقال: تزوجت وأنا حي وقال الثاني: تزوجتني ولك زوج أيهما يلاعن؟ فغضب قتادة وقال: لا أجيبكم بشيء.

أول مسألة خالف فيها أستاذه:

قال الإمام: خرجنا مع حماد نشيع لأعمش وأعوز الماء لصلاة المغرب فأفتى حماد باليتيم لأول الوقت فقلت: يؤخر إلى آخر الوقت فإن وجد الماء وإلا يتيمم ففعلت فوجد في آخر الوقت وهذه أول مسألة خالف فيها أستاذه.

جارية لها غلام:

وكان للإمام جارية لها غلام أصاب منها دون الفرج فحبلت فقال أهلها له: كيف تلد وهي بكر فقال: هل لها أحد تثق به قالوا: عمتها فقال: تهب الغلام منها ثم تزوجها منه فإذا أزال عذرتها ردت الغلام إليها فيبطل النكاح.

حكاية النسوة يغنين:

وخرج الإمام إلى بستان فلما رجع مع أصحابه إذ هو بابن أبي ليلى راكبًا على بغلته فتسايرا فمرا على نسوة يغنين فسكتن فقال الإمام: أحسنتن فنظر ابن أبي ليلى في قمطره فوجد قضية فيها شهادته فدعاه ليشهد في

تلك القضية فلما شهد أسقط شهادته وقال: قلت للمغنيات: أحسنتن فقال: متى قلت ذلك حين سكتن أم حين كن يغنين قال: حين سكتن قال: أردت بذلك: أحسنتن بالسكوت فأمضى شهادته.

حكاية الأختين والأخوين وإفتاء الإمام:

و كان أبو حنيفة رحمه الله تعالى في وليمة في الكوفة وفيها العلماء والأشراف وقد زوج صاحبها ابنيه من أختين فغلطت النساء فزفت كل بنت إلى غير زوجها ودخل بها فأفتى سفيان بقضاء علي رضي الله عنه: على كل منهما المهر وترجع كل إلى زوجها فسئل الإمام فقال: علي بالغلامين فأتي بهما فقال: أوجب كل منكما أن يكون المصاب عنده قالاً: نعم فقال لكل منهما: طلق التي عند أخيك ففعل ثم أمر بتجديد النكاح فقام سفيان فقبله بين عينيه

كلب الروم والمسائل الثلاث:

وحكى الخطيب الخوارزمي أن كلب الروم أرسل إلى الخليفة مالاً جزيلاً على يد رسوله وأمره أن يسأل العلماء عن ثلاث مسائل فإن هم أجابوك: أبذل لهم المال وإن لم يجيبوك فاطلب من المسلمين الخراج فسأل العلماء فلم يأت أحد بما فيه مقنع وكان الإمام إذ ذاك صبيّاً حاضراً مع أبيه فاستأذنه في جواب الرومي فلم يأذن له فقام واستأذن من الخليفة فأذن له وكان الرومي على المنبر فقال له: أسائل أنت؟ قال: نعم.

قال: انزل مكانك الأرض ومكاني المنبر فنزل الرومي وصعد أبو حنيفة رحمه الله تعالى فقال: سل فقال: أي شيء كان قبل الله تعالى قال: هل تعرف العدد قال: نعم قال: ما قبل الواحد قال: هو الأول ليس قبله شيء قال: إذا لم يكن قبل الواحد المجازي اللفظ شيء فكيف يكون قبل الواحد الحقيقي فقال الرومي: في أي جهة وجه الله تعالى؟ قال: إذا أوقدت السراج فالى أي وجه نوره قال: ذاك نور يستوي فيه الجهات الأربع فقال: إذا كان النور المجازي المستفاد الزائل لا وجه له إلى جهة فنور خالق

السموات والأرض الباقي الدائم المفيض كيف يكون له جهة؟ قال الرومي: بماذا يشتغل وجه الله تعالى قال: إذا كان على المنبر مشبه مثلك نزله وإذا كان على الأرض موحد مثلي رفعه كل يوم هو في شأن فترك المال وعاد إلى الروم.

وصية الإمام الأعظم لأبي يوسف رحمه الله:

وصية الإمام الأعظم لأبي يوسف رحمه الله بعد أن ظهر له منه الرشد وحسن السيرة والإقبال على الناس فقال له: يا يعقوب وقر السلطان وعظم منزلته وإياك والكذب بين يديه والدخول عليه في كل وقت ما لم يدعك لحاجة علمية فإنك إذا أكثرت إليه الاختلاف تهاون بك وصغرت منزلتك عنده فكن منه كما أنت من النار تنتفع وتتباعد ولا تدن منها فإن السلطان لا يرى لأحد ما يرى لنفسه وإياك وكثرة الكلام بين يديه فإنه يأخذ عليك ما قلته ليرى من نفسه بين يدي حاشيته أنه أعلم منك وإنه يخطئك فتصغر في أعين قومه ولتكن إذا دخلت عليه تعرف قدرك وقدر غيرك.

ولا تدخل عليه وعنده من أهل العلم من لا تعرفه فإنك إن كنت أدون حالاً منه لعلك تترفع عليه فيضرك وإن كنت أعلم منه لعلك تنحط عنه فتسقط بذلك من عين السلطان وإذا عرض عليك شيئاً من أعماله فلا تقبل منه إلا بعد أن تعلم أنه يرضاك ويرضى مذهبك في العلم والقضايا كيلا تحتاج إلى ارتكاب مذهب غيرك في الحكومات ولا تواصل أولياء السلطان وحاشيته بل تقرب إليه فقط وتباعد عن حاشيته ليكون مجدك وجاهك باقياً.

ولا تتكلم بين يدي العامة إلا بما تسأل عنه وإياك والكلام في العامة والتجار إلا بما يرجع إلى العلم كيلا يوقف على حبك ورغبتك في المال فإنهم يسيئون الظن بك ويعتقدون ميلك إلى أخذ الرشوة منهم ولا تضحك ولا تتبسم بين يدي العامة

ولا تكثر الخروج إلى الأسواق ولا تكلم المراهقين فإنهم فتنة ولا بأس أن تكلم الأطفال وتمسح رؤوسهم ولا تمش في قارعة الطريق مع المشايخ

والعامة فإنك إن قدمتهم ازدرى ذلك بعلمك وإن أخرتهم ازدرى بك من حيث إنه أسن منك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا فليس منا** — ولا تقعد على قوارع الطريق فإذا دعاك ذلك فاقعد في المسجد ولا تأكل في الأسواق والمساجد ولا تشرب من السقايات ولا من أيدي السقائين ولا تقعد على الحوانيت ولا تلبس الديباج والحلي وأنواع الإبريسم فإن ذلك يفضي إلى الرعونة.

ولا تكثر الكلام في بيتك مع امرأتك في الفراش إلا وقت حاجتك إليها بقدر ذلك.

ولا تكثر لمسها ومسها ولا تقربها إلا بذكر الله تعالى ولا تتكلم بأمر نساء الغير بين يديها ولا بأمر الجواري فإنها تنبسط إليك في كلامك ولعلك إذا تكلمت عن غيرها تكلمت عن الرجال الأجانب.

ولا تتزوج امرأة كان لها بعل أو أب أو أم أو بنت إن قدرت إلا بشرط ألا يدخل عليها أحد من أقاربها فإن المرأة إذا كانت ذات مال يدعي أبوها أن جميع مالها له وأنه عارية في يدها ولا تدخل بيت أبيها ما قدرت.

وإياك أن ترضى أن تزف في بيت أبويها فإنهم يأخذون أموالك ويطمعون فيها غاية الطمع وإياك وأن تتزوج بذات البنين والبنات فإنها تدخر جميع المال لهم وتسرق من مالك وتنفق عليهم فإن الولد أعز عليها منك.

ولا تجمع بين امرأتين في دار واحدة ولا تتزوج إلا بعد أن تعلم أنك تقدر على القيام بجميع حوائجها.

واطلب العلم أولاً ثم أجمع المال من الحلال ثم تزوج فإنك إن طلبت المال في وقت التعلم عجزت عن طلب العلم ودعاك المال إلى شراء الجواري والغلمان وتشتغل بالدنيا والنساء قبل تحصيل العلم فيضيع وقتك ويجتمع عليك الولد ويكثر عيالك فتحتاج إلى القيام بمصالحهم وتترك العلم

واشتغل بالعلم في عنفوان شبابه وقت فراغ قلبك وخاطرک ثم اشتغل
بالمال ليجتمع عندك فإن كثرة الولد والعيال يشوش البال فإذا جمعت المال
فنزوح.

وعليك بتقوى الله تعالى وأداء الأمانة والنصيحة لجميع الخاصة
والعامة ولا تستخف بالناس ووقر نفسك ووقرهم ولا تكثر معاشرتهم إلا
بعد أن يعاشروك وقابل معاشرتهم بذكر المسائل فإنه إن كان من أهله
اشتغل بالعلم وإن لم يكن من أهله أحبك.

وإياك وأن تكلم العامة بأمر الدين في الكلام فإنهم قوم يقلدونك
فيشتغلون بذلك ومن جاءك يستفتيك في المسائل فلا تجب إلا عن سؤاله
ولا تضم إليه غيره فإنه يشوش عليك جواب سؤاله

وإن بقيت عشر سنين بلا كسب ولا قوت فلا تعرض عن العلم فإنك
إذا أعرضت عنه كانت معيشتك ضنكا وأقبل على متفقهيك كأنك اتخذت
كل واحد منهم ابنا وولدا لتزيدهم رغبة في العلم ومن ناقشك من العامة
والسوقة فلا تناقشه فإنه يذهب ماء وجهك ولا تحتشم من أحد عند ذكر
الحق وإن كان سلطانا ولا ترض لنفسك من العبادات إلا بأكثر مما يفعله
غيرك ويتعاطاها فالعامة إذا لم يروا منك الإقبال عليها بأكثر مما يفعلون
اعتقدوا فيك قلة الرغبة واعتقدوا أن علمك لا ينفعك إلا ما نفعهم الجهل
الذي هم فيه.

وإذا دخلت بلدة فيها أهل العلم: فلا تتخذها لنفسك بل كن كواحد من
أهلهم ليعلموا أنك لا تقصد جاههم وإلا يخرجون عليك بأجمعهم ويطعنون
في مذهبك والعامة يخرجون عليك وينظرون إليك بأعينهم فتصير مطعونا
عندهم بلا فائدة وإن استفتوك في المسائل فلا تناقشهم في المناظرة
والمطارحات ولا تذكر لهم شيئا إلا عن دليل واضح ولا تطعن في
أسائدتهم فإنهم يطعنون فيك

وكن من الناس على حذر وكن لله تعالى في شرك كما أنت له في علانيتك ولا يصلح أمر العلم إلا بعد أن تجعل سره كعلانيته وإذا أولاك السلطان عملاً لا يصلح لك فلا تقبل ذلك منه إلا بعد أن تعلم أنه إنما لا يوليئك ذلك إلا لعلمك وإياك وأن تتكلم في مجلس النظر على خوف فإن ذلك يورث الخلل في الإحاطة والكلل في اللسان.

وإياك أن تكثر الضحك فإنه يميت القلب ولا تمس إلا على طمأنينة ولا تكن عجولاً في الأمور ومن دعاك من خلفك فلا تجبه فإن البهائم تنادى من خلفها وإذا تكلمت فلا تكثر صياحك ولا ترفع صوتك واتخذ لنفسك السكون وقلة الحركة عادة كي يتحقق عند الناس ثباتك.

وأكثر ذكر الله تعالى فيما بين الناس ليتعلموا ذلك منك واتخذ لنفسك أوراذاً خلف الصلاة تقرأ فيها القرآن وتذكر الله تعالى وتشكره على ما أودعك من الصبر وأولاك من النعم واتخذ لنفسك أياماً معدودة من كل شهر تصوم فيها ليقنتي غيرك بك.

وراقب نفسك وحافظ على الغير لتنتفع من دنياك وآخرتك بعلمك ولا تشتت بنفسك ولا تبع بل اتخذ لك غلاماً مصلحاً يقوم بأشغالك وتعتمد عليه في أمورك ولا تطمئن إلى دنياك وإلى ما أنت فيه فإن الله تعالى سائلك عن جميع ذلك.

ولا تشتت الغلمان المردان ولا تظهر من نفسك التقرب إلى السلطان وإن قربك فإنه ترفع إليك الحوائج فإن قمت أهانك وإن لم تقم أعابك.

ولا تتبع الناس في خطئهم بل اتبع في صوابهم وإذا عرفت إنساناً بالشر فلا تذكره به بل اطلب منه خيراً فاذكره به إلا في باب الدين فإنك إن عرفت في دينه ذلك فاذكره للناس كيلا يتبعوه ويحذروه وقال عليه السلام: **أذكروا الفاجر بما فيه حتى يحذره الناس وإن كان ذا جاه ومنزلة—** والذي ترى منه الخلل في الدين فاذكر ذلك ولا تبال من جاهه فإن الله

تعالى معينك وناصرك وناصر الدين فإذا فعلت ذلك مرة هابوك ولم يتجاسر أحد على إظهار البدعة في الدين.

وإذا رأيت من سلطانك ما لا يوافق العلم فاذاً ذلك مع طاعتك إياه فإن يده أقوى من بيدك تقول له: أنا مطيع لك في الشيء أنت فيه سلطان ومسلط علي غير أنني أذكر من سيرتك ما لا يوافق العلم فإذا فعلت مع السلطان مرة كفاك لأنك إذا واطبت عليه ودمت لعلهم يقهرونك فيكون في ذلك قمع للدين فإذا فعل ذلك مرة أو مرتين ليعرف منك الجهد في الدين والحرص في الأمر بالمعروف فإذا فعل ذلك مرة أخرى فادخل عليه وحدك في داره وانصحه في الدين وناظره إن كان مبتدعاً وإن كان سلطاناً فاذاً له ما يحضرك من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن قبل منك وإلا فاسأل الله تعالى أن يحفظك منه.

واذكر الموت واستغفر للأستاذ ومن أخذت عنهم العلم وداوم على التلاوة وأكثر من زيارة القبور والمشايخ والمواضع المباركة واقبل من العامة ما يعرضون عليك من رؤياهم في النبي صلى الله عليه وسلم وفي رؤيا الصالحين في المساجد والمنازل والمقابر ولا تجالس أحداً من أهل الأهواء إلا على سبيل الدعوة إلى الدين ولا تكثر اللعب والشتيم وإذا أذن المؤذن فتأهب لدخول المسجد كيلاً تتقدم عليك العامة.

ولا تتخذ دارك في جوار السلطان وما رأيت على جارك فاستره عليه فإنه أمانة ولا تظهر أسرار الناس ومن استشارك في شيء فأشر عليه بما تعلم أنه يقربك إلى الله تعالى.

واقبل وصيتي هذه فإنك تنتفع بها في أولاك وأخراك إن شاء الله تعالى.

وإياك والبخل فإنه يبغض به المرء ولا تك طماعاً ولا كتاباً ولا صاحب تخليط بل احفظ مروءتك في الأمور كلها.

وألبس من الثياب البيض في الأحوال كلها وأظهر غنى القلب مظهرًا من نفسك قلة الحرص والرغبة في الدنيا وأظهر من نفسك الغناء ولا تظهر الفقر وإن كنت فقيرًا وكن ذا همة فإن من ضعفت همته ضعفت منزلته.

وإذا مشيت في الطريق فلا تلتفت يمينًا ولا شمالًا بل داوم النظر إلى الأرض وإذا دخلت الحمام فلا تساو الناس في أجرة الحمام والمجلس بل ارجح على ما تعطي العامة لتظهر مروءتك بينهم فيعظمونك ولا تسلم الأمتعة إلى الحائك وسائر الصنائع بل اتخذ لنفسك ثقة يفعل ذلك ولا تماكس بالحبات والدوانيق ولا تزن الدراهم بل اعتمد على غيرك.

وحقر الدنيا المحقرة عند أهل العلم فإن ما عند الله خير منها وول أمورك غيرك ليمكنك الإقبال على العلم فإن ذلك أحفظ لحاجتك

وإياك إن تكلم المجانين ومن لا يعرف المناظرة والحجة من أهل العلم والذين يطلبون الجاه ويستغرقون بذكر المسائل فيما بين الناس فإنهم يطلبون تخجيلك ولا يبالون منك وإن عرفوك على الحق.

وإذا دخلت على قوم كبراة فلا ترتفع عليهم ما لم يرفعوك كيلا يلحق بك منهم أذية وإذا كنت في قوم تتقدم عليهم في الصلاة ما لم يقدموك على وجه التعظيم.

ولا تدخل الحمام وقت الظهيرة والغداة ولا تخرج إلى النظارات ولا تحضر مظالم السلاطين إلا إذا عرفت أنك إذا قلت شيئًا ينزلون على قولك بالحق فإنهم إن فعلوا ما لا يحل وأنت عندهم ربما لا تملك منعهم ويظن الناس أن ذلك حق لسكوتك فيما بينهم وقت الإقدام عليه.

وإياك والغضب في مجلس العلم ولا تقصص على العامة فإن القاص لا بد له أن يكذب وإذا أردت اتخاذ مجلس لأحد من أهل العلم فإن كان مجلس فقه فاحضر بنفسك واذكر فيه ما تعلمه وإلا فلا كيلا يغتر الناس بحضورك

فيظنون أنه على صفة من العلم وليس هو على تلك الصفة وإن كان يصلح للفتوى فاذكر منه ذلك وإلا فلا ولا تقعد ليدرس الآخر بين يديك بل اترك عنده من أصحابك ليخبرك بكيفية كلامه وكمية علمه ولا تحضر مجالس الذكر أو من يتخذ مجلس وعظ بجاهك وتركيتك له بل وجه أهل محلّتك وعامتك الذين تعتمد عليهم مع واحد من أصحابك.

وفوض أمر المناكح إلى خطيب ناحيتك وكذا صلاة الجنازة والعديد.
ولا تنسني من صالح دعائك واقبل هذه الموعظة مني وإنما أوصيك لمصلحتك ومصلحة المسلمين (1).

ثانياً: ومن ذلك أيضاً أن أبا حنيفة ترك لحم الغنم لما فقدت شاة في الكوفة إلى أن علم موتها، سبع سنين تورعاً منه لاحتمال أن تبقى تلك الشاة الحرام فيصادف أكل شيء منها فيظلم قلبه، إذ هذا شأن أكل الحرام، وإن انتفى الإثم للجهل بعين الحرام.

أبو حنيفة ومالك:

أخرج القاضي عياض في (المدارك) قال: قال الليث بن سعد: لقيت مالكا في المدينة، فقلت له: إني أراك تمسح العرق عن جبينك. قال: عرقت مع أبي حنيفة، إنه لفقيه يا مصري. قال الليث: ثم لقيت أبا حنيفة، وقلت له: ما أحسن قول هذا الرجل فيك (يشير إلى مالك) فقال أبو حنيفة: ما رأيت أسرع منه بجواب صادق، ونقد تام.

قال ابن سماعة: قال أبو يوسف: حج أبو حنيفة ف وقعت بالكوفة مسألة الدور فسئل ابن شبرمة وابن أبي ليلى والثوري والناس بالكوفة فلم يكن عندهم فيها شيء فسئل أصحاب أبي حنيفة فلم يكن عندهم فيها جواب فقالوا: ليس لها إلا أبو حنيفة فاشترأبت نفوسنا إلى قدومه حتى خفنا عليه

(1) زَيْنُ الْعَابِدِينَ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ نُجَيْمٍ (926 - 970هـ)، الْأَشْبَاهُ وَالنُّظَائِرُ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1400هـ=1980م، 426/1 - 433.

وعلى أنفسنا وخفنا أن يعجز عن الجواب فيذهب قدره وقدرنا معه حتى تمنى بعضنا موته فلما قرب أبو حنيفة من الكوفة استقبلته وقلت أخبره بالمسألة لعله أن يعمل فكره فيها قبل أن يسأل عنها فلما لقيته قال يعقوب: فحملني معه ثم جاء الناس وكثروا يستقبلونه فلم أقدر أن أقول له فيها شيئاً ثم دعا بدابة فركب وحملني على دابة معه وحمل سائر الناس حولنا حتى ضاقت الطرقات فلما قدم وأتى المسجد صلى فيه ركعتين واجتمع الناس فكان أول شيء سئل عنه المسألة التي ألقيت من الدور قال: فلما ألقيت عليه نكس رأسه قال: فلما رأيته نكس رأسه علمت أنها ستخرج ثم رفع رأسه فقال الجواب فيها كذا وكذا قال فسررنا وسر الناس قال: فلما مات أبو حنيفة كنت يوماً في دار الخيفة إذ مر بنا رجل جل فقالوا هذا الحاسب وجعل أصحاب الخليفة يعظمونه فدعوته وقلت باب من الفقه وكانت المسألة قد اضطرب علي منها شيء مما قاله أبو حنيفة فقلت: إنا قد احتجنا فيه إلى الحساب قال: فأخبرته قال: اعمله من باب كذا وكذا فعملته فلم يخرج فقال: باب كذا فعملته فلم يخرج فلم يزل يلقي علي الأبواب فلم يخرج فقال: لم يبق إلا باب واحد فإن خرج وإلا فليس له باب يخرج منه أصلاً فذكر قول أبي حنيفة فعملت به فخرج فقلت: ليست يخرج وخفت أن يذهب فيعمل عليه تلك المسألة قال: فانصرفت فعملت الباب وعملت المسائل عليه وجعلت إذا لقيته فسألني أعني عليه الجواب مخافة أن يفتن له وكان مفتتاً حاسباً.

قال بشر بن الوليد: سمعت أبا يوسف يقول: سمعت داود الطائي يقول: لما نزل أبو العباس الكوفة وجه إلى العلماء فجمعهم فقال: إن هذا الأمر قد أفضى إلى أهل بيت نبيكم وجاءكم الله بالفضل وإقامة الحق وأنتم يا معشر العلماء أحق من أعان عليه ولكم الحباء والكرامة والضيافة من مال الله ما أحببتم فبايعوا بيعة تكون لكم عند إمامكم حجة عليكم وأمائاً في معادكم لا تلقون الله بلا إمام فتكونوا ممن لا حجة له ولا تقولوا أمير المؤمنين نهابه

أن نقول الحق فنظر القوم إلى أبي حنيفة فقال: إن أحببتم أن أتكلم عني وعنكم فأمسكوا قالوا: قد أحببنا ذلك فقال: الحمد لله الذي بلغ الحق من قرابة من نبيه صلى الله عليه وسلم وأماط عنا جور الظلمة وبسط ألسنتنا بالحق وقد بايعناك على أمر الله والوفاء لك بعهد الله إلى قيام الساعة فلا أخلى الله هذا الأمر ممن قربه من نبيه فأجابه أبو العباس بجواب جميل.

وقال مثلك من خطب عن العلماء لقد أحسنوا اختيارك وأحسننت في البلاغ فلما خرجوا قالوا له: ما أردت بقولك إلى قيام الساعة وقد انقضت الساعة قال: إن احتلتم علي احتلت لنفسي وأسلمتكم للبلاء فسكت القوم وعلموا أن الحق ما صنع.

عجزت النساء أن يلدن مثلك:

قال شريك: قال كنا في جنازة ومعنا سفيان الثوري وابن شبرمة وابن أبي ليلى، وأبو حنيفة وأبو الأحوص ومندل وحبان وكانت الجنازة لكهل سيد من كهول بني هاشم توفي ابن له فخرج في جنازته وجوه أهل الكوفة يمشون حتى وقفت الجنازة فسأل الناس عنها فقالوا: خرجت أمه ولهى وألقت ثوبها عليه وبرزت وكشفت رأسها وكانت هاشمية شريفة فصاح أبوه بها فأمرها أن ترجع فأبت فحلف بالطلاق لترجعن وحلفت بعناق كل مملوك لها ألا ترجع حتى يصلى عليه فمشى الناس بعضهم إلى بعض ووقفوا وسألوا فلم يتكلم فيها أحد وأجاب منهم أحد بجواب فهتف أبوه بأبي حنيفة وقال: يا نعمان أغثنا فجاء أبو حنيفة فقال: كيف حلفت؟ فأعادت عليه وقال للكهل: كيف حلفت؟ فأعاد عليه فقال: ضعوا السرير فوضع فقال للأب: تقدم فصل على ابنك فتقدم فصلى عليه والناس خلفه ونادوا فيمن تقدم حتى لحقوا بالناس ثم قال: احملوه إلى قبره وارجعني إلى منزلك فقد بررت وقال لأبيه: ارجع فقد بررت فقال ابن شبرمة: يومئذ عجزت النساء أن يلدن مثلك سريعاً ما عليك في العلم كلفة.

فكيف أصنع إذا تبين الخطأ:

قال ابن المبارك: سأل رجل أبا حنيفة عن خوخة أراد أن يفتحها في حائط له في داره فقال: افتح ما شئت ولا تطلع على جارك فأتى به جاره إلى ابن أبي ليلى فمنعه منه فشكا إلى أبي حنيفة قال: فافتح فيه باباً فجاء ليفتح الباب فأتى به إلى ابن أبي ليلى فمنعه فقال: كم قيمة حائطك؟ قال: ثلاثة دنانير قال: هي لك علي واذهب فاهدم الحائط من أوله إلى آخره فجاءه يهدمه فمنعه فأتى به إلى ابن أبي ليلى فقال: يهدم حائطه وتسألني أن أمنعه من ذلك اذهب فاهدمه واصنع ما شئت قال: فلم عنيتني ومنعتني من فتح خوخة وكان ذلك أهون علي قال: إذا كان يذهب إلى من يدلّه على خطأي فكيف أصنع إذا تبين الخطأ.

ولو وزن عقله بعقل نصف أهل الأرض في الفقه لرجحهم إن شاء الله:

قال ابن المبارك: سألت أبا حنيفة عن درهم لرجل ودرهمين لآخر اختلطت ثم ضاع درهمان من الثلاثة لا يعلم من أيهما فقال أبو حنيفة: الدرهم الباقي بينهما على ثلاثة قال: فلقيت ابن شبرمة فسألته عنها فقال: سألت عنها أحداً فقلت: نعم، سألت أبا حنيفة قال: قال لك الدرهم الباقي بينهما أثلاثاً قلت: نعم، قال: أخطأ العبد ولكن درهم من الدرهمين الضائعين يحيط العلم أنه من الدرهمين والدرهم الآخر هو منهما جميعاً فالدرهم الذي بقي هو بينهما نصفين قال: فاستحسننت ذلك جداً فلقيت أبا حنيفة ولو وزن عقله بعقل نصف أهل الأرض في الفقه لرجحهم إن شاء الله فقال لي: لقيت ابن شبرمة فقال لك قد أحاط العلم أن أحد الدرهمين الضائعين من الدرهمين وبقي الدرهم الباقي فهو بينهما نصفان قلت: نعم قال: إن الثلاثة حيث اختلطت وجبت الشركة بينهما فصار لصاحب الدرهم ثلث كل درهم ولصاحب الدرهمين ثلثا من كل درهم فأى درهم ذهب بحصتهما.

تحسن كل شيء:

قال ابن المبارك: رأيت أبا حنيفة في طريق مكة وشوى لهم فصيل سمين فاشتھوا أن يأكلوه بخل فلم يجدوا شيئاً يصبون فيه الخل فتحيروا فرأيت أبا حنيفة وقد حفر في الرمل حفرة وبسط عليها السفرة وسكب الخل على ذلك الموضع فأكلوا الشواء بالخل فقالوا له تحسن كل شيء قال عليكم بالشكر فإن هذا شيء ألهمته لكم فضلاً من الله عليكم.

إن السلطان الأعظم لا يأمر بقتل من لا يستحق القتل:

حدث أبو حنيفة عن حماد أنه كان يقول: إذا سئلت عن معضلة فاعلمها سؤالاً على سائلك عنها حتى تخلص من مسألته لك ففس إلى رجل فقعد لي على الباب وأنا عند ابن هبيرة وقد أمر بي إلى السجن فسعى الرجل إلى السجن فقال: يا أبا حنيفة يحل للرجل إذا أمره السلطان الأعظم أن يقتل رجلاً أن يقتله قال: قلت له وكان الرجل ممن وجب عليه القتل قال: نعم، قلت: فاقطله قال: فإن لم يكن ممن وجب عليه القتل قال: قلت إن السلطان الأعظم لا يأمر بقتل من لا يستحق القتل.

الله الله لا يسمعوا بهذا فلا آخذ منهم شيئاً:

قال بشر بن الوليد: كان في جوار أبي حنيفة فتى يغشى مجلس أبي حنيفة ويكثر عنده فقال يوماً لأبي حنيفة إني أريد التزويج إلى آل فلان من أهل الكوفة وقد خطبت إليهم وقد طلبوا مني من المهر فوق وسعي وطاقتي وقد تعلق نفسي بالتزويج فقال أبو حنيفة: فاستخر الله وأعطهم ما يطلبونه منك فاعل زوجتك أن تسمح لك إذا دخلت بها بما يبقى من الصداق عليك فأجابهم إلى ما طلبوه فلما عقدوا النكاح بينهم وبينه جاء إلى أبي حنيفة فقال له: إني قد سألتهم أن يأخذوا مني البعض وليس في وسعي الكل وقد أبوا أن يحملوها إلي إلا بعد وفاء المهر كله فماذا ترى قال: احتل واقترض حتى تدخل بأهلك فإن الأمر يكون أسهل عليك من تشدد هؤلاء القوم ففعل ذلك وأقرضه أبو حنيفة فيمن أقرضه فلما دخل بأهله وحملت إليه قال له

أبو حنيفة: ما عليك أن تظهر أنك تريد الخروج من هذا البلد إلى موضع بعيد وأنت تريد أن تسافر بأهلك معك فاكثرى الرجل جملين وجاء بهما وأظهر أنه يريد الخروج إلى خراسان في طلب المعاش وأنه يريد حمل أهله معه فاشتد ذلك على أهل المرأة وجاؤوا إلى أبي حنيفة يشكونه ويستفتونه في ذلك فقال لهم أبو حنيفة: فأرضوه بأن تردوا عليه ما أخذتموه منه فأجابوا إلى ذلك فقال أبو حنيفة للفتى: أن القوم قد سمحوا أجابوا أن يردوا عليك ما أخذوه منك من المهر ويبرئوك منه فقال له الفتى فأنا أريد منهم شيئاً آخر فوق ذلك فقال له أبو حنيفة أيما أحب إليك أن ترضى بهذا الذي بذلوه لك وإلا أقرت المرأة لرجل بدين فلا يمكنك أن تحملها ولا تسافر بها حتى تقضي ما عليها من الدين قال: فقال الرجل: الله الله لا يسمعون بهذا فلا آخذ منهم شيئاً فأجاب إلى الجلوس وأخذ ما بذلوه من المهر.

فأعطوني منها ديناراً واحداً:

عن وكيع قال: كنا عند أبي حنيفة وأتته امرأة فقالت: مات أخي وخلف ستمائة دينار فأعطوني منها ديناراً واحداً قال: ومن قسم فريضتكم؟ قالت: داود الطائي قال: هو حقك أليس خلف أخوك بنتين قالت: بلى، قال: وأماً قالت: بلى، قال: وزوجة قالت: بلى قال: واثنى عشر أماً وأخناً واحدة قالت: بلى قال: فإن للبنات الثلاثين أربعمائة وللأم السدس مائة وللمرأة خمسة وسبعين ويبقى خمس وعشرون للإخوة أربعة وعشرون لكل أخ ديناران فلك دينار.

قال: لا وانصرف من وقته:

قال الحسن بن أبي مالك دخل أبو حنيفة إلى ابن أبي ليلى ومعه أبو يوسف ليقضي حقه فلما جلس أبو حنيفة عنده قال ابن أبي ليلى لحاجبه: ائذن لمن حضر من الخصوم في التقدم كأنه أراد أن يرى أبو

حنيفة إمضاءه في القضاء والحكم فدخل الخصوم وتقدم إليه جماعة فحكم بينهم ثم تقدم إليه رجلان فقال أحدهما: أعزك الله إن هذا الرجل قذف أمي بالزنى وشتمني وقال يا بن الزانية وأنا أسأل القاضي أن يأخذ لي بحقي فقال ابن أبي ليلى للمدعى عليه: ما تقول؟ فقال له أبو حنيفة رضي الله عنه لم تسأله عن دعواه وليس هو له خصم إنه إنما يذكر أنه رمى بالزنا أمه فهل ثبتت وكالته عن أمه عندك قال: لا قال فأقبل على صاحبك فاسأله أحية أمه أم ميتة؟ فإن كانت حية فلا وجه لدعواه إلا بوكالة منها في المطالبة بحقها وإن كانت ميتة كان قولاً آخر.

قال: فرجع ابن أبي ليلى على المدعى فقال له: أمك أحية أم ميتة قال: بل، ميتة قال له: أقم عندي البينة بوفاتها حتى أعلم ذلك قال: فأقام عنده البينة بوفاتها فذهب ابن أبي ليلى ليسأل المدعى عليه عما يقول المدعي فقال له أبو حنيفة أقبل على صاحبك فسله هل لأمه وارث غيره فإن كان له إخوة كانت المطالبة له ولهم وإن كان هو الوارث وحده كان قولاً آخر فقال ابن أبي ليلى للمدعي: هل لأمك وارث غيرك؟ قال: لا قال: فأقم عندي البينة بذلك فأقام البينة أنه وارث أمه لا وارث لها غيره قال: فذهب ابن أبي ليلى ليسأل المدعى عليه عن دعوى المدعي فقال أبو حنيفة رضي الله عنه: أقبل على صاحبك واسأله عن أمه أحره أم أمة فقال ابن أبي ليلى للرجل أمك حرة أم أمة؟ قال: بل حرة قال فأقم عندي بذلك بينة فأقام البينة بذلك فذهب ليسأل المدعى عليه فقال أبو حنيفة رضي الله عنه: ارجع أيضاً إلى صاحبك واسأله أمسلة هي أم معاهدة قال: حرة مسلمة من بنات آل فلان قوم سراة بالكوفة قال: فأقم البينة عندي بأنها مسلمة فأقام البينة عنده بأنها مسلمة فقال أبو حنيفة رضي الله عنه شأنك الآن فاسأل الرجل عما ادعاه المدعي فسله فأنكر فقال للمدعي: ألك بينة؟ قال: نعم جماعة من وجوه أهل الكوفة قال فأحضرهم مع خصمك حتى أسمع شهادتهم عليه قال: فأحضرهم ونهض أبو حنيفة فقال له ابن أبي ليلى تجلس حتى تحضر

البيضة قال: لا وانصرف من وقته.

رجل فما فوقه يا أبا حنيفة:

قال أسد بن عمرو: دخل قتادة الكوفة فنزل دار أبي بردة فخرج فقال: لا يسألني أحد عن مسألة من الحلال والحرام إلا أجبته فقال له أبو حنيفة: يا أبا الخطاب ما تقول في رجل غاب عن أهله أعواماً ونعى إليها وظنت امرأته أنه ميت فتزوجت ثم قدم زوجها الأول وقد ولدت ولداً فنفاه الأول وادعاه الثاني أكل واحد منهما قذفاً أم الذي أنكر الولد ما الجواب فيها فقال أبو حنيفة إن قال فيها برأيه ليخطئن وإن قال فيها حدثنا ليكذبن قال قتادة: أوقعت هذه المسألة قالوا: لا، قال: فلم تسألوني عما لم يكن؟ فقال له أبو حنيفة: إن العلماء يستعدون للبلاء ويتحرزون منه قبل نزوله فإذا نزل عرفوه وعرفوا الدخول فيه والخروج منه، فقال قتادة: دعوا هذا وسلوني عن التفسير، فقال أبو حنيفة: ما نقول في قول الله: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} [النمل: ٤٠] قال: نعم كان هذا أصف بن برخيا كاتب سليمان وكان يعرف اسم الله الأعظم قال: فهل كان سليمان عليه السلام يعرف هذا الاسم قال: لا، قال: أفيجوز أن يكون في زمن نبي من هو أعلم من النبي قال: لا، والله لا أحدثكم بشيء من التفسير سلوني عما اختلف فيه العلماء فقال أبو حنيفة: أمؤمن أنت، قال: أرجو، قال: ولم؟ قال لقوله تعالى: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} [الشعراء: ٨٢] قال أبو حنيفة: فهلا قلت كما قال إبراهيم عليه السلام لما قال له: {أَوَلَمْ تُؤْمِنْ} قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي [البقرة: ٢٦٠] قال: فقام قتادة فدخل الدار مغضباً وحلف أن لا يحدثهم قال أبو حنيفة: ثم قدم الكوفة بعد سنين وكان ضريراً فناديته يا أبا الخطاب ما تقول في قوله: {وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النور: ٢] قال رجل: فما فوقه يا أبا حنيفة وعرفني بالنعمة وكان يسمع الناس يكنوني.

هذا حسن:

عن إبراهيم الصائغ قال: كنت عند عطاء بن أبي رباح وعنده أبو حنيفة فسئل عن قول الله {وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} [الأنبياء: ٨٤] فقال عطاء رد الله على أيوب عليه السلام أهله ومثل أهله وولده فقال أبو حنيفة أو يرد الله على نبي ولدًا ليسوا له من صلبه يا أبا محمد فقال: ما سمعت فيها عافاك الله فقال: رد الله على أيوب أهله وولده من صلبه ومثل أجور ولده فقال هذا حسن.

كلنا عنه غافل:

قال أبو يوسف قال رجل لأبي حنيفة إني حلفت أن لا أكلم امرأتي أو تكلمني وحلفت بصدقة ما تملك أن لا تكلمني أو أكلمها قال: سألت عنها أحدًا قال: نعم، سفيان الثوري فقال: من كلم صاحبه حنث فقال: كلمها ولا حنث عليكما فذهب إلى سفيان وكان قرابة له فأخبره قال: فجاءني سفيان مغضبًا وقال تبيح الفروج قال: وما ذاك ثم قال أعيديا على أبي عبد الله السؤال فأعادوه فأعاد أبو حنيفة بمثل ما أفتى فقال له: من أين قلت؟ قال: لما شافهته باليمين بعدما حلف كانت مكلمة له وسقطت يمينه فإن كلمها فلا حنث عليه ولا عليها لأنها قد كلمته بعد اليمين فسقطت اليمين عنهما فقال سفيان: إنه ليكشف لك من العلم عن شيء كلنا عنه غافل.

هذا رزين:

عن علي بن مسهر قال: كنا عند أبي حنيفة رضي الله عنه فأتاه عبد الله ابن المبارك فقال له: ما تقول في رجل كان يطبخ قدرًا له فوقع فيها طائر فمات فقال أبو حنيفة لأصحابه: ما ترون فيها؟ فرووا له عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه يهراق المرق ويغسل اللحم ويؤكل فقال أبو حنيفة هكذا نقول إلا أن في ذلك شريطة إن كان وقع في حال غليانها ألقى اللحم وأهريق المرق وإن كان وقع فيها في حال سكونها غسل اللحم وأهريق المرق قال له ابن المبارك: من أين قلت هذا؟ فقال: لأنه إذا وقع فيها في حال غليانها فقد وصل من اللحم إلى حيث يصل منه الخل والتوابل

وإذا وقع فيها في حال سكونها فإنما لطخ اللحم ولم يداخله فقال ابن المبارك: هذا رزين يعني المذهب بالفارسية وعقد بيده ثلاثين.

هو والله من أولياء الله حقاً:

قال زائدة: قال رجل لأبي حنيفة ما تقول في رجل قال لا أرجو الجنة ولا أخاف النار وأكل الميتة وأشهد بما لم أر ولا أخاف الله وأصلي بلا ركوع ولا سجود وأبغض الحق وأحب الفتنة فقال له أبو حنيفة وكان يعرفه شديد البغض له: يا أبا فلان سألتني عن هذه ولك بها علم فقال له الرجل: لا ولكن لم أجد شيئاً هو أشنع من هذا فسألتك عنه فقال أبو حنيفة لأصحابه ما تقولون في هذا الرجل قالوا: شر رجل متهم هذه صفة كافر فتبسم أبو حنيفة وقال لأصحابه: هو والله من أولياء الله حقاً ثم قال للرجل: إن أنا أخبرتك أنه من أولياء الله تكف عني شر لسانك ولا تملي على الحفظة ما يضرك قال: نعم فقال أبو حنيفة: أما قولك لا أرجو الجنة ولا يخاف النار فإنه يرجو رب الجنة ويخاف رب النار وقولك لا يخاف الله فإنه لا يخاف ظلمه ولا جورَه فقال الله تعالى: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت: ٤٦] وقولك يأكل الميتة فهو أكل السمك وقوله يصلي بلا ركوع ولا سجود فقد جعل أكثر عمله الصلاة على النبي عليه السلام وقد لزم موضع الجنائز فهو يصلي عليها وقولك يشهد بما لم ير فهذه شهادة الحق يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وقولك يبغض الحق فهو يحب البقاء حتى يطيع الله أبداً ويبغض الموت وهو الحق قال تعالى {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} [ق: ١٩] وأما الفتنة فالقلوب مجبولة على حب المال والولد وذلك من الفتنة العظيمة على قلوب المؤمنين.

اشكر الله الذي رده عليك:

قال أبو يوسف: قال رجل لأبي حنيفة: إنني قد دفنت شيئاً ولا أدري أين دفنته من البيت قال: وأنا أخرى أن لا أدري به قال: فبكى الرجل فقال أبو

حنيفة: قوموا بنا فقام ومعه نفر من أصحابه فأتى بهم الرجل إلى منزله فقال: أين يكون من الدار وأين موضع قماشك؟ فأدخلهم إلى بيت في الدار فقال لأصحابه: لو كان هذا البيت لكم ومعكم شيء تريدون أن تدفنوه كيف كنتم تصنعون فقال: هذا كنت أدفنه ها هنا وقال الآخر موضعاً آخر حتى قالوا خمسة أقاويل فحفر منها موضعين ووجده في الثالث وقال له: اشكر الله الذي رده عليك.

فهلأ أتممت ليلتك شكراً لله تعالى:

عن الحسن بن زياد قال: دفن رجل ماله في موضع ثم نسي أي موضع دفنه فطلبه فلم يقع عليه فجاء إلى أبي حنيفة فشكا إليه فقال له أبو حنيفة: ليس هذا بفقّه فأحتال لك ولكن اذهب فصل الليلة إلى الغد فإنك ستذكر أي موضع دفنته فيه ففعل الرجل فلم يقم إلا أقل من ربع الليل حتى ذكر أي موضع فجاء إلى أبي حنيفة فأخبره فقال: قد علمت أن الشيطان لا يدعك تصلي ليلتك حتى يذكرك ويحك فهلأ أتممت ليلتك شكراً لله تعالى.

حتى يحضر ما هو أجل من هذا:

قال علي بن أبي علي: كنت عند الحسن بن علي قاضي مرو فذكر أبا حنيفة وفطنته فقال: استودع رجل من الحاج رجلاً بالكوفة وديعة وحج ثم رجع فطلب وديعته فأنكر المستودع الوديعة وجعل يحلف له فانطلق الرجل إلى أبي حنيفة وشاوره فقال: لا تعلم بجحوده أحداً وكان المستودع يجالس أبا حنيفة فخلاه فقال: إن هؤلاء قد بعثوا يستشيرون في رجل يصلح للقضاء فهل تنشط فتمانع الرجل قليلاً وأقبل أبو حنيفة يرغبه وهو يمتنع ثم جاء صاحب الوديعة فقال له أبو حنيفة: اذهب فقل له أحسبك نسيت أودعتك في وقت كذا والعلامة كذا قال: فذهب الرجل فقال له ذلك فذفع إليه الوديعة فلما رجع المستودع قال له أبو حنيفة إني نظرت في أمرك فرأيت أن أرفع من قدرك ولا أسميك حتى يحضر ما هو أجل من هذا.

قال فأجمعوا كل داعر وكل متهم:

عن محمد بن الحسن قال: دخل اللصوص على رجل فأخذوا متاعه واستحلفوه بالطلاق ثلاثاً أن لا يعلم أحداً وأصبح الرجل وهو يرى اللصوص يبيعون متاعه وليس يقدر يتكلم من أجل يمينه فجاء الرجل يشاور أبا حنيفة فقال له أبو حنيفة: أحضرنى أمام حيك والمؤذن والمستورين منهم فأحضرهم إياه فقال لهم أبو حنيفة: هل تحبون أن يرد الله على هذا متاعه؟ قالوا: نعم قال: فأجمعوا كل داعر وكل متهم فأدخلوهم في دار أو في مسجد ثم أخرجوهم واحداً واحداً فقولوا له: هذا لصك فإن كان ليس بلصه قال: لا، وإن كان لصه فليسكت فإذا سكت فاقتصوا عليه ففعلوا ما أمرهم به أبو حنيفة فرد الله عليه جميع ما سرق منه.

ما تقول في عبد بين اثنين؟!

قال يوسف بن خالد سمعت أبا حنيفة قال: قدم علينا ربيعة الرأي ويحيى ابن سعيد قاضي الكوفة فقال يحيى لربيعة: ألا تعجب من أهل هذا المصر أجمعوا على رأي رجل واحد قال أبو حنيفة: فبلغني ذلك فأرسلت إليه يعقوب وزفر وعدة من أصحابنا فقلت: قايسوه وناظروه فقال له يعقوب: ما تقول في عبد بين اثنين اعتقه أحدهما؟ قال: لا يجوز عتقه قال: لم؟ قال: لأن هذا ضرر وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم لا ضرر ولا ضرار قال: فإن أعتقه الآخر قال: جاز عتقه قال: تركت قولك إن كان الكلام الأول لم يعمل شيئاً ولم يقع به عتق فقد أعتقه الثاني وهو عبد فسكت (1).

ذكر ما روي من أخبار أبي حنيفة مع المنصور:

عن أبي حنيفة قال: دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين فقال: يا أبا حنيفة عمن أخذت العلم قلت: عن حماد عن إبراهيم عن أصحاب عمر بن

(1) القاضي أبي عبد الله حسين بن علي الصيمري، أخبار أبي حنيفة وأصحابه، عالم الكتب، سنة النشر 1405 هـ - 1985 م، ص 18 - 41.

الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم قال: بخ بخ استوثقت ما شئت يا أبا حنيفة رضي الله عن الطيبين المباركين صلوات الله عليهم أجمعين.

والله لو ضرب عنقي عن أن أمس منها درهماً ما مسسته:

قال الربيع بن يونس جمع المنصور مالكا وابن أبي ذئب وأبا حنيفة فقال لهم: كيف ترون هذا الأمر الذي أعطاني الله من أمر الأمة هل أنا لذلك أهل فسكت القوم فقال لابن أبي ذئب: ما تقول في الذي قلدني الله من أمر هذه الأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال: إن ملك الدنيا يؤتيه الله من يشاء وملك الآخرة يؤتيه الله من طلبه من الله ووفقه له وإن التوفيق إذا أطعت الله قرب منك وإن عصيت بعد وإن الخلافة تكون بإجماع أهل التقوى عليها والعون لمن وليها وأنت وأعوانك كنتم خارجين من التوفيق عالين على الخلق فإن سألت الله السلامة وتقربت إليه بالأعمال الزاكية كان ذلك في نجاتك وإلا فأنت المطلوب قال: فكننت أنا ومالك بن أنس نجمع ثيابنا نخاف أن يترشش علينا من دمه ثم قال لأبي حنيفة ما تقول قال المسترشد لدينه يكون بعيد الغضب إذا أنت نصحت لنفسك علمت أنك لم ترد الله باجتماعنا وإنما أردت أن تعلم العامة أنا نقول فيك ما تهواه مخافة سيفك وحبسك ولقد وليت الخلافة وما اجتمع عليك نفسان من أهل التقوى والخلافة تكون عن إجماع المؤمنين ومشورتهم فهذا أبو بكر يمسك عن الحكم ستة أشهر حتى أتتهبيعة أهل اليمن فقال لمالك ما تقول قال: لو لم يرك الله أهلا لذلك ما قدر لك ملك أمر الأمة وأزال عنهم من بعد من نبههم وقرب هذا الأمر إلى أهل بيته أعانك الله على ما ولاك وألهمك الشكر على ما خولك وأعانك على ما استرعاك فأمرهم فأنصرفوا ثم قال لي المنصور خذ معك ثلاث بدر واتبع القوم فإن أخذها مالك كلها فادفعها إليه وإن أخذ ابن أبي ذئب أو أبو حنيفة شيئا فجئني برأسيهما فأتيت ابن أبي ذئب فقلت له فقال: ما أرى هذا المال له فكيف آخذه لنفسي وقال أبو حنيفة: ما أنفع

له إن كان يعطي من يرحم أن يرحم نفسه ممن يظلم والله لو ضرب عنقي عن أن أمس منها درهمًا ما مسسته وأتيت مالًا فأخذها كلها فأتيت المنصور فأعلمته فقال: بهذه الصيانة حقنوا دماءهم.

انصرف إلى بلادك ولا تفت الناس:

قال الربيع بن يونس: سمعت المنصور يقول للفقهاء وفيهم أبو حنيفة: أليس الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: [♂]صحیح المؤمنون عند شروطهم؟ — فقالوا: بلى، فقال: إن أهل الموصل شرطوا أن لا يخرجوا علي وقد خرجوا فقد أحل الله لي دماءهم وأموالهم فسكت أبو حنيفة رضي الله عنه وجعل الجواب يكون من غيره فقال رجل منهم: يدك المبسوطة عليهم وقولك المقبول فيهم فإن عفوت فأهل العفو أنت وإن عاقبتهم فيما يستحقون فقال المنصور لأبي حنيفة: ما تقول أنت يا شيخ؟ فقال: ألسنا في خلافة نبوة وأمان؟ قال: بلى قال: إنهم شرطوا لك ما لا يملكون وشرطت عليهم ما ليس لك فإن أخذت ما لا يحل فشرط الله أحق أن يوفى به فقال: قوموا فقاموا فتفرقوا ثم أحضرهم فقال لأبي حنيفة: يا شيخ إني فكرت فيما قلت فإذا القول كما قلت انصرف إلى بلادك ولا تفتي الناس بما يكون فيه شين على إمامك فتبسط على أيدي الخوارج.

أراد الرجل أن يرهقنا فأرهقناه:

قال أبو خازم القاضي: تقلد الكوفة رجل من قبل أبي جعفر المنصور فأراد أذى أبي حنيفة فقال: والله لأسألنه عن مسألة تكون سببًا لقتله ثم أحضره على رؤوس الناس فقال: إن أمير المؤمنين يأمرني بضرب الأعناق وسفك الدماء وأخذ الأموال وانتهاك المحارم فأطيعه في ذلك أم أعصيه فقال له أبو حنيفة: ما يأمرك به أمير المؤمنين طاعة الله أم معصيته؟ قال: لا بل طاعة الله: فقال له أبو حنيفة: أطع أمير المؤمنين أكرمه الله في كل ما كان طاعة لله ولا تعصه وخرج وأصحابه على الباب فقال لهم: أراد الرجل أن يرهقنا فأرهقناه فإذا أتتكم معضلة فاجعلوا جوابها

لم أدعكم إلا لخير:

عن عبيد بن إسماعيل قال: بعث المنصور إلى أبي حنيفة وسفيان الثوري وشريك فأدخلوا عليه فقال لهم: لم أدعكم إلا لخير وكتب قبل ذلك ثلاث عهود فقال لسفيان: هذا عهدك على قضاء البصرة فخذها والحق بها وقال لشريك: هذا عهدك على قضاء الكوفة فخذها وامض وقال لأبي حنيفة: هذا عهدك على قضاء مدينتي وما يليها فخذها ثم قال لحاجبه: وجه معهم أو كما قال فمن أبى فاضربه مائة سوط فأما شريك فأخذ عهده ومضى وأما سفيان فقال لعون كان وكل به هو ذا أخرج ودخل منزله فوضع الكتاب في طاق بيته وهرب إلى اليمن فيقال أن هشام بن يوسف وعبد الرزاق سمعا منه هناك ويقال إنه كان يحدثهم قائماً على رجله خشية فحدثهم أربعة آلاف حديث فأما أبو حنيفة فلم يقبل العهد فضرب مائة سوط وحبس ومات في الحبس.

لقد شح على دينه إذ سخت به أنفس أقوام كثيرة:

وقال محمد بن شجاع: سمعت شيخاً يكنى أبا معشر يحدث بهذا الحديث فسألت الحسن بن أبي مالك عن ذلك فقال لي: هذا مشهور من أمره ما زلنا نتذكر هذا ونتحدث به قال جيء بأبي حنيفة إلى المنصور فأنزله قال: فجاء الحسن بن عمارة فقال له: يا أبا حنيفة قد احتجت إليك وإلى رأيك اليوم قد أمر لي بجائزة وذكر ألف درهم فإن لم أقبلها خشيت أن أقتل فاحتل لي في صرفها عني قال وأمر لأبي حنيفة بعشرة آلاف درهم وكان المتولي لإعطاء ذلك الحسن بن قحطبة فلما أحس أبو حنيفة بأنه يرسل بها إليه أصبح لا يكلم أحداً كأنه مغمى عليه فأتى في ذلك اليوم بالدرهم فجاء بها رسول الحسن بن قحطبة فدخل بها عليه فقالوا له: ما تكلم اليوم بكلمة فقال: كيف أصنع؟ قالوا: انظر ما ترى فوضعها في مسجدي في ناحية البيت فانصرف فمكنت تلك البكرة في ذلك الموضع فلما

مات أبو حنيفة كان ابنه حماد غائباً فقدم بعد موته فحمل البدره فأتى بها باب الحسن بن قحطبة فاستأذن فأذن له فدخل فقال إني وجدت في وصية أبي إذا دفنت فخذ هذه البدره التي في زاوية البيت فأت بها الحسن بن قحطبة فقل هذه وديعتك التي كانت عندنا فأدخلت البدره فنظر إليها الحسن وقال له: رحم الله أباك لقد شح على دينه إذ سخت به أنفس أقوام كثيرة.

قال عباس الدوري حدثونا عن المنصور أنه لما بنى مدينته ونزلها ونزل المهدي في الجانب الشرقي وبنى مسجد الرصافة أرسل إلى أبي حنيفة فجاء به فعرض عليه قضاء الرصافة فأبى فقال له: إن لم تفعل ضربتك بالسياط قال: أو تفعل قال: نعم فقعدي في القضاء يومين فلم يأت أحد فلما كان في اليوم الثالث أتاه رجل صفار ومعه آخر فقال الصفار: لي على هذا درهمان وأربعة دوانيق بقية ثمن تور صفر فقال أبو حنيفة: اتق الله وانظر فيما يقول الصفار قال: ليس له علي شيء فقال أبو حنيفة للصفار: ما تقول؟ قال: استحلفه لي فقال أبو حنيفة للرجل: قل والله الذي لا إله إلا هو فجعل يقول فلما رآه أبو حنيفة معزماً على أن يحلف قطع عليه وضرب بيده إلى كفه فحل صرة وأخرج درهمين ثقيلين فقال للصفار: هذان الدرهمان عوض من باقي تورك فنظر الصفار إليهما وقال: نعم فأخذ الدرهمين فلما كان بعد يومين اشتكى أبو حنيفة فمرض ستة أيام ثم مات.

أخبار أبي حنيفة مع سفيان الثوري:

إن رخصتنا بالكوفة لا تقبل بالمدينة:

قال بشار بن قيراط وكان شريك أبي حنيفة قال: حجبت مع أبي حنيفة وسفيان فكانا إذا نزلا منزلاً أو بلدة اجتمع عليهما الناس وقالوا فقيها العراق فكان سفيان يقدم أبا حنيفة ويمشي خلفه وإذا سئل عن مسألة وأبو حنيفة حاضر لم يجب حتى يكون أبو حنيفة هو الذي يجيب فسئل أبو حنيفة عن النبيذ فأراد أن يرخص فيه فوضع سفيان يده على فم أبي حنيفة

ثم قال له إن رخصتنا بالكوفة لا تقبل بالمدينة.

فلم يرجع سفيان بعد ذلك:

قال يحيى بن عبد الحميد: بلغ أبا حنيفة أن سفيان يتدثر بثوبه وينام خلف أسطوانته فيتسمع مسأله فقال أبو حنيفة إذا جاء فأذنوني فقل له: قد جاء سفيان فقال: حدثني سعيد بن مسروق أبو هذا المسجي عن عباية بن رفاع عن رافع بن خديج أن بغيراً من إبل الصدقة ند فرماه رجل بسهم فسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: كلوه فإن لهذه الإبل أوابد كأوابد الوحش فما ند عليكم فاصنعوا به هكذا قال: فلم يرجع سفيان بعد ذلك.

قال ابن سماعه: سمعت أبا يوسف قال: كان أبو حنيفة يجلس فكان سفيان يأتي متكرراً يسمع ما يقول من حيث لا يعلم به فانصرف فإذا رجل نائم ملتف بكسائه فقال أبو حنيفة: حدثني أبو هذا النائم سعيد بن مسروق والذي يعلم ما أقول لوددت أن كل شيء أحسنه في صدره أو صدر صبيان الكتاب.

وددت أنها كلها عندي مجتمعة أنظر فيها:

قال زائدة: رأيت تحت رأس سفيان كتاباً ينظر فيه فاستأذنته في النظر فيه فدفعه إلي فإذا هو كتاب الرهن لأبي حنيفة فقلت له: تنظر في كتبه فقال: وددت أنها كلها عندي مجتمعة أنظر فيها ما بقي في شرح العلم غاية ولكننا ما ننصفه.

حتى نسخه:

قال سجادة: دخلت أنا وأبو مسلم المستملي على يزيد بن هارون وهو نازل ببغداد على منصور بن مهدي فصعدنا إلى غرفة هو فيها فقال له أبو مسلم: ما تقول يا أبا خالد في أبي حنيفة والنظر في كتبه؟ فقال: انظروا فيها إن كنتم تريدون أن تفقهوا فإنني ما رأيت أحداً من الفقهاء يكره النظر

في قوله ولقد احتال الثوري في كتاب الرهن حتى نسخه.

قال نصر بن علي: سمعت أبا عاصم النبيل سئل أيهما أفقه سفيان أو أبو حنيفة فقال: إنما يقاس الشيء على شكله أبو حنيفة فقيه تام الفقه وسفيان رجل متفقه.

قال علي ابن مسهر: كنت آتي سفيان فأزفه علم أبي حنيفة فبلغ ذلك أبا حنيفة فقال: ويحك لم تحمل علمك إلى من لا يحمدك عليه.

أرجو أن يغفر الله تعالى لك ذلك:

قال ابن المبارك: قلت لأبي عبد الله سفيان الثوري ما تقول في الدعوة قبل الحرب قال: إن القوم اليوم قد علموا ما يقاتلون عليه فقلت: إن أبا حنيفة يقول فيها ما قد بلغك فنكس رأسه ثم رفعه فأبصر يميناً وشمالاً فلم ير أحداً قال: إن كان أبو حنيفة يركب في العلم أحد من سنان الرمح كان والله شديد الأخذ للعلم ذاباً عن المحارم متبعاً لأهل بلده لا يستحل أن يأخذ إلا بما يصح عنده من الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم شديد المعرفة بناسخ الحديث ومنسوخه وكان يطلب أحاديث الثقات والآخر من فعل النبي صلى الله عليه وسلم وما أدرك عليه عامة العلماء من أهل الكوفة في اتباع الحق أخذ به وجعله دينه قد شنع عليه قوم فسكتنا عنهم بما نستغفر الله تعالى منه بل قد كانت منا اللفظة بعد اللفظة قال: قلت أرجو أن يغفر الله تعالى لك ذلك.

المسكين قد شيخ بعدي:

قال أبا سليمان الجوزجاني: سمعت سلم بن سالم يقول كنت قاعداً عند مسعر وسفيان معنا إذ أقبل أبو حنيفة فأوسع له مسعر عن صدر المجلس فسلم عليهم فقال له مسعر: ألا تسلم على أبي عبد الله قال: ومن أبو عبد الله قال: سفيان قال: المسكين قد شيخ بعدي قال سفيان: من لا يشق ثيابه من هذا النبطي قال أبو سليمان: وكان الذي كان بين أبي حنيفة وسفيان من

الشر بهذا السبب.

يرحم الله أباك:

قال أبا يوسف: كنا عند مسعر وسفيان جالس إليه يذاكره إذ أقبل أبو حنيفة فأوسع له مسعر وقمت أنا من مجلسي له فقال له مسعر: ألا تسلم على أبي عبد الله فأقبل على سفيان فقال: يرحم الله أباك فلقد كان بعيداً من حب الرئاسة منصفاً لكل من رآه متبعاً للعلم ولقد أسرع إليك الشيب فقال سفيان: من لا يشق ثيابه من هذا النبطي وقام وخرج.

هو حديث السن والأحداث لهم حدة:

عن أبي يوسف قال: كان أبو حنيفة إذا بلغه عن سفيان ما يقول فيه مبلغ منه يقول هو حديث السن والأحداث لهم حدة فكان إذا أقبل قال هو حديث السن قال سفيان: بكم هو النبطي أكبر سنًا مني حتى يصغرني ولا يستحل أبو حنيفة أن يقول فيه شيئاً غير إنه حدث السن.

أخبار أبي حنيفة مع الشعبي ومحارب بن دثار والأعمش:

قال أبو حنيفة: كنت عند الشعبي فأتاه رجل فسبه فقال الشعبي:

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر :: لعزة من أعراضنا ما استحلت

نصراني تزوج نصرانية فأسلمت:

عن أبي حنيفة قال: سألت الشعبي عن نصراني تزوج نصرانية فأسلمت فقال ما قال فيها بنو استها يعني الحكم وحمادا قلت لا أدري فقال الشعبي: إن أسلمت هي عرض عليه الإسلام فإن قبل تركت معه وإلا فلها نصف الصداق إن أسلم هو عرض عليها الإسلام فإن أسلمت وإلا فرق بينهما ولا صداق لها.

أقياس أنت:

عن أبي حنيفة عن الشعبي عن مسروق قال: من نذر نذراً في معصية

فلا كفارة فيه قال أبو حنيفة: فقلت للشعبي قد جعل الله تعالى الظهار الكفارة وقد جعله معصية لأنه قال {وَأَنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مَنَّكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا} [المجادل: ٢] فقال أقياس أنت.

من هول ما يرى:

قال أبو حنيفة: كنت عند محارب بن دثار فتقدم إليه خصمان فادعى أحدهما على الآخر ثم حضر شاهدان فشهدا فالتفت الخصم إلى محارب فقال في أحد الشاهدين والله إنه لرجل صالح وإنه وإنه فقال له محارب: أتثني عليه وقد شهد عليك قال: إنه والله ما كانت منه هنة قبل هذه فقال محارب بن دثار: حدثني ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الطير لترخي مناقيرها وتخفق بأجنحتها يوم القيامة من هول ما يرى وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: شاهد الزور لا تزول قدماه حتى يتبوأ مقعده من النار قال: فرجع الشاهدان عن شهادتهما.

والله لا أفتيت بذلك أبدا:

قال أبو معاوية: قيل للأعمش في علته لولا أن أبا حنيفة يأتيك لأتيناك مرتين في اليوم الذي يعودك فيه فلما جاء أبو حنيفة قال له: إن الناس يستثقلوني بما أصنع بهم في الحديث وقد زدتنى أنت عندهم ثقلاً قالوا لي كيت وكيت فقال له: لولا العلم الذي يجريه الله تعالى على لسانك ما رأيتني ولا أحدا من أصحابي ببابك وذلك أن فيك خصالاً أنا لها كاره تتسحر عند طلوع الفجر وتقول هو الفجر الأول وقد صح عندي أنه الثاني وترى الماء من الماء وتفتي به وتجامع أهلك فإذا لم تنزل لم تغتسل أنت ولا هي ولولا أنك تتأول من الحديث ما غاب عنك معانيه ما استحللت أن أكلمك ولكنك تتأول شيئاً غيره والله أولى بك فما تسحر الأعمش بعد ذلك إلا بالليل ولا قرب أهله إلا اغتسل وأمرها بالغسل وقال صلاة وصيام تكون باختلاف

والله لا أفقتيت بذلك أبداً.

لا تعد إلى مثلها:

مر أبو حنيفة على بغلته يتبع جنازة فقال الأعمش: أسمع صوت حافر دابة فقيل له: أبو حنيفة فعض على شفته وقال: يا نعمان نمر في سكتنا بغير خفير فتبسم أبو حنيفة وقال: يا أبا محمد رأيت أن المرء لا يمر في سكتة بغير خفير فقال: لا تعد إلى مثلها (1).

فنور الله قلبك كما نورت قلبي:

وروى أن أبا حنيفة كان يتكلم في مسألة من المسائل القياسية، وشخص من أهل المدينة يتسمع، فقال: ما هذه المقايضة، دعوها فإن أول من قاس إبليس.

فأقبل عليه أبو حنيفة، فقال: يا هذا، وضعت الكلام في غير موضعه، إبليس رد على الله تعالى أمره، قال الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: { فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ } [٣٠] إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ } [الحجر: ٣٠، ٣١]، وقال: {إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٣٤]، وقال: {ءَاَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا} [الإسراء: ٦١] فاستكبر ورد على الله أمره، وكل من رد على الله تعالى أمره فهو كافر، وهذا القياس الذي نحن فيه نطلب فيه اتباع أمر الله تعالى؛ لأننا نرده إلى أصل أمر الله تعالى في الكتاب، أو السنة، أو إجماع الصحابة والتابعين، فلا نخرج من أمر الله تعالى، ويكون العمل على الكتاب والسنة والإجماع، فاتبعنا في أمرنا إليها أمر الله تعالى، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: ٥٩]. إلى قوله: {وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [النساء: ٥٩]، فنحن ندور حول الاتباع، فنعمل بأمر

(1) القاضي أبي عبد الله حسين بن علي الصيمري، أخبار أبي حنيفة وأصحابه، عالم الكتب، بيروت، 1405 هـ - 1985 م، 68 - 79.

الله تعالى، وإبليس خالف أمر الله تعالى، وردّه عليه، فكيف يستويان؟ فقال الرجل: غلطت يا أبا حنيفة، وثبتتُ إلى الله تعالى، فنور الله قلبك كما نورث قلبي.

بعض المسائل التي أجاب أبو حنيفة عنها:

مسألة، رجل رد عبداً أبقاً من مسيرة ثلاثة أيام.

قال أبو حنيفة: له الجعل أربعون درهماً. وكان القياس أن لا يجب، فترك الناس وأخذ من ذلك بالخبر الذي روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، في خبر طويل، أن رجلاً قدم بأبق من الفيوم، فقال القوم: لقد أصاب أجراً. فقال ابن مسعود: وأصاب جعلاً.

وقال من خالفه: لا يجب الجعل. فترك الخبر وأخذ بالقياس.

مسألة، ولو أن رجلاً خلق لحية رجل، أو حاجبيه، فلم تنبت ثانياً.

قال أبو حنيفة: يجب على الحالق دية كاملة.

وقال من خالفه: لا يجب الدية على الكمال.

وكان القياس أن لا يجب الدية على الكمال، فترك القياس، وأخذ بالخبر المروي في حديث سعيد بن المسيب، رحمه الله تعالى.

مسألة، ولو أن رجلاً أوجب على نفسه أن ينحر ولده.

قال أبو حنيفة: يلزمه أن يذبح شاة (1).

أبو حنيفة وجار له كان يغني بشعر العرجي:

عن الأصمعي قال: كان لأبي حنيفة جار بالكوفة يغني فكان إذا انصرف وقد سكر يغني في غرفته ويسمع أبو حنيفة غناؤه فيعجبه وكان كثيراً ما يغني

أَصَاعُونِي وَأَيَّ فَتَّى أَضَاعُوا :: لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادٍ تَغْرِ

(1) التقي الغزي، الطبقات السنية في تراجم الحنفية، ص40.

فلقية العسس ليلة فأخذوه وحبس ففقد أبو حنيفة صوته تلك الليلة فسأل عنه من عاد فأخبر فدعا بسواده وطويلته فلبسهما وركب إلى الوالي عيسى بن موسى فقال له: إن لي جاراً أخذ عسسك البارحة فحبس وما علمت منه إلا خيراً فقال عيسى: سلموا إلى أبي حنيفة كل ما أخذ العسس البارحة فأطلقوا جميعاً فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة وقال له سرّاً ألسنت كنت تغني يا فتى كل ليلة:

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتَى أَضَاعُوا

فهل أضعناك قال لا والله أيها القاضي ولكن أحسنت وتكرمت أحسن الله جزاءك قال فعد إلى ما كنت تغنيه فإني كنت آنس به ولم أر به بأساً قال: أفعل⁽¹⁾.

لا تفعل!

وكان سليمان الأعمش من الضجر بحيث اشتهر وانتشر؛ قال له الإمام أبو حنيفة النعمان: لولا أنني أخاف أن أشق عليك لأكثرت زيارتك. فقال: لا تفعل! فأنت تشق علي والله وأنت في دارك⁽²⁾.

حبيب إلي من دنياكم ثلاث:

عن النبي صلى الله عليه وسلم: **حبيب إلي من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة** — وقال أبو بكر الصديق: وأنا حبيب إلي من دنياكم ثلاث الجلوس بين يديك والصلاة عليك وإنفاق مالي عليك وقال في الرياض النضرة قالت عائشة رضي الله عنها: أنفق أبو بكر على النبي صلى الله عليه وسلم أربعين ألفاً وقال عمر رضي الله عنه: وأنا حبيب إلي من دنياكم ثلاث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود وقال عثمان رضي الله عنه: وأنا حبيب إلي من دنياكم ثلاث إطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام وقال علي رضي الله عنه وأنا

(1) أبي الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية، 1/ 399.

(2) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر، ص 136.

حبب إلي من دنياكم ثلاث الضرب بالسيف والصوم في الصيف وإقراء الضيف فنزل جبريل وقال: يا نبي الله وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث النزول على النبيين وتبليغ الرسالة للمرسلين والحمد لله رب العالمين ثم قال: إن الله تعالى يقول: وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث لسان ذاكر وقلب شاكر وجسد على البلاء صابر فالعمل بهذا كله من علامات المحبة لمن أراد الدخول في قوله صلى الله عليه وسلم من أحبني كان معي في الجنة وفي أول الحديث إشارة تأتي في أول باب الزهد إن شاء الله تعالى ولما وصل هذا الحديث إلى الأئمة الأربعة قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث تحصيلي العلم في طول الليل وترك الترفع والتعالي وقلب من حب الدنيا خال وقال الإمام مالك رضي الله عنه: وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث مجاورة روضته صلى الله عليه وسلم وملازمة تربته وتعظيم أهل بيته وقال الإمام الشافعي رحمه الله: وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث معاملة الخلق بالتلطف وترك ما يؤدي إلى التكلف والاقتداء بطريق التصوف وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث متابعة النبي صلى الله عليه وسلم في أخباره والتبرك بأنواره وسلوك طريق آثاره (1).

مجنون أنت!

اجتمع طائفة من الملاحدة بأبي حنيفة - رحمه الله - فقالوا: ما الدلالة على وجود الصانع؟ فقال: دعوني، فخطري مشغول بأمر غريب. قالوا ما هو؟ قال: بلغني أن في دجلة سفينة عظيمة مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة، وهي ذاهبة وراجعة من غير أحد يحركها ولا يقوم عليها، فقالوا له: مجنون أنت؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: إن هذا لا يصدقه عاقل. فقال لهم: فكيف صدقت عقولكم أن هذا العالم بما فيه من الأنواع والأصناف والحوادث العجيبة، وهذا الفلك الدوار السيّار يجري، وتحدث هذه الحوادث

(1) عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عثمان الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، تحقيق: عبد الرحيم مارديني، دار المحبة - دار آية - بيروت - دمشق - 2001 / 2002، 1 / 59.

من غير محدث، وتتحرك هذه المتحركات بغير محرك؟ فرجعوا على أنفسهم بالملام (1).

أخطأت في خمسة:

قال وكيع: قال لي أبو حنيفة النعمان بن ثابت: أخطأت في خمسة أبواب من المناسك بمكة فعلمنيها حجام، وذاك أني جئت أريد أن أحلق رأسي فقال لي: أعراقي أنت؟ قلت: نعم، وقد كنت قلت له: بكم تحلق رأسي؟ فقال: النسك لا يشارط فيه، اجلس، فجلست منحرفاً عن القبلة، فأومأ إلي باستقبال القبلة، وأدبرت رأسي من الجانب الأيسر فقال: أدر شقك الأيمن من رأسك فأدبرته، فجعل يحلق رأسي وأنا ساكت، فقال لي: كبر، فجعلت أكبر حتى قمت لأذهب فقال: أين تريد؟ قلت: رحلي، فقال: صل ركعتين ثم امض، فقلت: ما ينبغي أن يكون ما رأيت من عقل هذا الحجام إلا ومعه علم؛ فقلت له: من أين لك ما رأيتك أمرتني به؟ فقال: رأيت عطاء بن أبي رباح يفعل هذا (2).

أمؤمن أنت!

قال أسد بن عمرو: دخل قتادة الكوفة فنزل دار أبي بردة، فخرج عليهم وقال: لا يسألني أحد عن مسألة من الحلال والحرام إلا أجبتة، فقام أبو حنيفة فقال: يا أبا الخطاب، ما تقول في رجل غاب عن أهله أعواماً فظنت امرأته أنه قد مات فتزوجت، ثم رجع زوجها الأول وقد ولدت ولداً، فنفاه الأول وادعاه الثاني، فكل واحد منهما قذفها أو قذفها الذي أنكرها، ما جوابها؟ ونظر أبو حنيفة إلى أصحاب قتادة وقال: إن قال فيها برأيه ليخطئن، وإن روى فيها حديثاً ليكذبن، فقال قتادة: ويحك، أوقعت هذه المسألة؟ قال: لا، قال: ولم تسأل عنها؟ قال أبو حنيفة: إنا نستعد للبلاء قبل نزوله، فإذا وقع عرفنا الدخول فيه والخروج منه، فقال قتادة: والله لا حدثتكم بشيء من الحلال والحرام، فسلوني عن التفسير؛ فقام أبو حنيفة

(1) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية 3 / 127، والرياض الناضرة للسعدي ص 258.

(2) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، 5 / 131.

فقال: يا أبا الخطاب، ما تقول في قول الله تعالى: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَاءِ آيِكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} [النمل: ٤٠] قال: نعم هذا آصف بن برخيا كاتب سليمان، وكان يعلم اسم الله الأعظم، قال: وهل كان يعرف الاسم سليمان؟ قال: لا، قال: أفيجوز أن يكون في زمان نبي من هو أعلم من النبي؟ قال قتادة: والله لا حدثكم بشيء من التفسير، سلوني عما اختلف فيه العلماء؛ فقام أبو حنيفة فقال: يا أبا الخطاب، أمؤمن أنت؟ قال: أرجو، قال: ولم؟ قال: لَقول

الله تعالى: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} [الشعراء: ٨٢] قال أبو حنيفة: فهلا قلت كما قال إبراهيم حين قال الله تعالى: {أَوَلَمْ تُؤْمِنَنَّ قَال بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّيَطْمِنَّ قُلُوبِي} [البقرة: ٢٦٠] فقام قتادة مغضباً، وحلف أن لا يحدثهم بشيء البتة. وأنشد:

وبيت خلا من كل خير فناؤه :::: فضاقت علينا وهو رحب الأماكن
كأننا مع الجدران في جنباته :::: دمي في انقطاع الرزق لا في المحاسن^(١)

أترغب حتى أسمىك!:

قال الحسن بن علي قاضي مرو: كان أبو حنيفة من أفطن الناس، وذلك أن رجلاً كان يتجمل بالستر الظاهر والسمت البين، وكان يلبس على ذلك، فقدم رجل فأودعه مالا خطيراً وخرج حاجاً، فلما قضى نسكه عاد إلى صاحبه وطلب وديعته فجحده، فألح عليه فتمادى، وكاد يهيم الرجل، واستشار ثقة فقال له: كف عنه وصر إلى أبي حنيفة فدواؤك عنده، فانطلق الرجل إليه وخلا به وأعمله شأنه وشرح له قصته، فقال له أبو حنيفة: لا تعلم بها أحداً، وامض راشداً وعد إلي غداً، فلما أمسى أبو حنيفة جلس كعادته واختلف الناس إليه، فجعل يتنفس الصعداء كلما سئل عن شيء، فقليل له في ذلك قال: إن هؤلاء - يعني السلطان - قد احتاجوا إلى رجل يعينونه قاضياً إلى مكان، فقال الناس: اختر من أحببت فما يحضرك إلا نجم، ثم

(1) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والنخائر، 6 / 82.

أسبل كفه وخلا بصاحب الوديعة وقال له: أترغب حتى أسميك؟ فذهب يتمنع عليه، فقال له أبو حنيفة: اسكت فإنني أبلغ لك ما تريد، فانصرف الرجل مسروراً يظن الظنون بالجاه العريض والحال الحسنة، وصار رب المال إلي أبو حنيفة فقال له: امض إلى صاحبك ولا تخبره بما بيننا ولوح بذكري، وكفاك، فمضى صاحب الوديعة إلى الرجل ذلك فوفاه ماله، فصار الرجل إلى أبي حنيفة وأعلمه رجوع المال إليه، فقال: استر عليه، ولما غدا الرجل إلى أبي حنيفة طامعاً في القضاء، نظر إليه أبو حنيفة وقال: إنه قد نظرت في أمرك فرفعت قدرك عن القضاء (1).

لو ناظر الشيطان قطعه:

قال أعرابي: سمعت خيراً استگت منه مسامعي، واستهلت له مدامعي. قال أبو عبد الرحمن المقرئ: كنّا عند المقام وفينا مالك بن أنس، فطلع علينا أبو حنيفة فقال مالك: لقد جاءكم رجلٌ لو ناظر الشيطان قطعه (2).

قال أبو حنيفة: إذا جاء عن النبي صلى الله عليه وعلى آله شيء أخذناه، وإذا جاء عن الصحابة تخيرنا، وإذا جاء عن التابعين زاحمناهم.

لأي شيء استحللت دخول هذه البلدة وترويع النساء والصبيان؟!

قال أبو معاذ: أهل الكوفة صاروا موالٍي لأبي حنيفة لأن الضحاك الحروري دخل الكوفة عنوة فجلس في الجامع فحكم بقتل الرجال وسبي الذراري، فخرج أبو حنيفة إليه بقميص ورداء فقال: أريد أن أكلمك بكلمة، قال: هات، قال: لأي شيء استحللت دخول هذه البلدة وترويع النساء والصبيان؟ قال: لأن القوم مرتدون، فقال أبو حنيفة: لم يزل كان هذا دينهم، أو كانوا على غير هذا؟ فقال: كيف قلت؟ أعد علي، فأعاد، فقال الضحاك: أخطأنا، أخطأنا، أغمدوا سيوفكم وارجعوا.

(1) أبو حيان التوحيدي. البصائر والذخائر، 6 / 95.

(2) أبو حيان التوحيدي. البصائر والذخائر، 8 / 202.

فإن كنت كاذباً فأني لا أصلح:

قال خارجة بن مصعب: دعا أبو جعفر أبا حنيفة إلى القضاء فأبى فحبسه، ثم دعا به فقال له: أترغب عما نحن فيه؟ فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، لا أصلح للقضاء، فقال: كذبت، فقال أبو حنيفة: قد حكم علي أمير المؤمنين بأني لا أصلح لأنه نسبني إلى الكذب، فإن كنت كاذباً فأني لا أصلح، وإن كنت صادقاً فقد قلت: إني لا أصلح، فرده إلى الحبس.

إن كان ذلك مما ينفعكم فافعلوا:

قال عبد الله بن داود: كتب رجل كتاباً على لسان أبي حنيفة إلى والي جرجان فوصله بأربعة آلاف درهم، فقبل لأبي حنيفة فقال: إن كان ذلك مما ينفعكم فافعلوا. كان أبو حنيفة يقول: ما صليت صلاة إلا وأنا أستغفر الله من تركي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان أبو حنيفة يقول: ابن أبي ليلى استحل مني ما لا أستحل من سنور.

يا هذا، ليس للقرآن عندك قدر!

أسلم أبو حنيفة ابنه حماداً إلى المعلم فعلمه الحمد فوصله بخمسمائة درهم، فقال المعلم: إن هذا عظيم، فقال أبو حنيفة: يا هذا، ليس للقرآن عندك قدر؟ (1).

أمكنك الهرب فلم تهرب:

قال حدثنا محمد بن يحيى البصري قال: دعا المنصور أبا حنيفة والثوري ومسعراً وشريكا ليوليهم القضاء، فقال أبو حنيفة: أنا أتحامق فيكم فأقال وأتخلص، وأما مسعر فيتجان ويتخلص، وأما سفيان فيهرب، وأما شريك فيقع، فلما دخلوا عليه قال أبو حنيفة رحمه الله: أنا رجل مولى ولست من العرب ولا تكاد العرب ترضى بأن يكون عليهم مولى ومع ذلك فأني لا أصلح لهذا الأمر، فإن كنت صادقاً في قلبي فلا أصلح له، وإن كنت كاذباً فلا يجوز لك أن تولي كاذباً دماء المسلمين وفروضهم. وأما سفيان فأدركه

(1) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، 9 / 212 - 215.

المشخص في طريق فذهب لحاجته فانصرف المشخص ينتظر فراغه فبصر سفيان سفينة فقال للملاح إن مكنتني من سفينتك وإلا ذبحت بغير سكين. تأول قول النبي صلى الله عليه وسلم من جعل قاضياً فقد ذبح بغير سكين فأخفاه الملاح تحت السارية. وأما مسعر بن كدام فدخل على المنصور فقال له: هات يدك، كيف أنت وأولادك ودوابك؟ فقال: أخرجوه فإنه مجنون. وأما شريك فقال المنصور: تقلد فقال: أنا رجل خفيف الدماغ، فقال: تقلد وعليك بالمعصية والنبذ الشديد حتى يرجع عقلك، فتقلد، فهجره الثوري، وقال أمكنك الهرب فلم تهرب (1).

قل لغريمك: إن المال عندي:

ويقال: إن سبب وضع أبي حنيفة الفقه وتدوينه أنه كان في عصره اثنان حضرا إلى الحمام وأودعا صاحبه وداعة لها صورة، ودخلا الحمام. ثم إن أحدهما خرج وطلب الدواعة وأخذها وراح في سبيله. فلما خرج الآخر طلبها من الحمامي فقال له: إن صاحبك خرج وأخذها، فراح إلى الحكام في ذلك الزمان وشكاها إليهم فألزموه بالقيام بها للغريم الحاضر وقالوا له: أنت فرطت، وكان الواجب أن لا تدفع الدواعة إلا إليهما معاً كما أودعاك معاً، فبقي ذلك الرجل في حيرة لا يدري ما يصنع. فلقبه أبو حنيفة فسأله عن حاله لما رآه من الفكرة والحيرة، فأخبره بقضيته، فقال له: قل لغريمك: إن المال عندي، فأحضر لي صاحبك لأدفع الدواعة إليكما، فإذا أتى به حصلت على غريمك. فكان ذلك سبب خلاص الحمامي من تلك الورطة (2).

يا أبا يوسف من كان صاحب راية طالوت!:

عن المزني، عن الشافعي، قال: مضى أبو يوسف القاضي ليسمع المغازي من أبي إسحاق أو من غيره فأخل مجلس أبي حنيفة أياماً فلما

(1) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، عقلاء المجانين، 1 / 11.

(2) الصفدي، صرة الثائر على المثل السائر، ص 70.

أتاه، قال له أبو حنيفة: يا أبا يوسف من كان صاحب راية طالوت؟ قال له أبو يوسف: إنك إمام وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملائكة أيما كانت أولى بديراً أو أحداً، فإنك لا تدري أيهما كان قبل، فأمسك عنه (1).

متى ذهب بصرك يا أبا حنيفة؟!

ودخل أبو حنيفة الحمام فرأى فيه قوماً لا مآزر لهم، فأغلق عينيه، وجعل يتهدى بيديه. فقال له أحدهم: متى ذهب بصرك يا أبا حنيفة؟ قال: منذ انكشفت عورتكم (2).

ما ينبغي لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا:

قال أبو حنيفة رحمه الله: رأيت كأني نبشت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فضمت عظامه إلى صدري. فهللني، فسألت ابن سيرين، فقال: ما ينبغي لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا. قلت: أنا رأيته. قال: إن صدقت رؤياك لتحين سنة نبيك (3).

قوموا فما لكم هنا من فرج:

وحكى الهيثم بن عدي قال: ماشيت الإمام أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه في نفر من أصحابه إلى عيادة مريض من أهل الكوفة وكان المريض بخيلاً وتواصينا على أن نعرض بالغداء فلما دخلنا وقضينا حق العيادة قال بعضنا: آتتا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا: قال فتمطى المريض وقال: ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج فغمز أبو حنيفة أصحابه وقال: قوموا فما لكم هنا من فرج (4).

فتوى أبي حنيفة:

(1) المعافي بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص 253.

(2) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، 1 / 193.

(3) الزمخشري، ربيع الأبرار، 1 / 477.

(4) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، ص 14.

ومن المنقول من كتاب الأذكياء أن بعض اللصوص دخل بيتاً ومعه جماعة تحت أمره ونهيه في القتل والسرقة فظفروا بصاحب البيت وأوقفوه للقتل فتدخل عليهم في إبقاء مهجته وأخذ ما في البيت بكماله فقال كبيرهم: حلفوه بالطلاق الثلاث وعلى المصحف أنه لا يعلم بهم أحداً فأصبح الرجل يرى اللصوص يبيعون متاعه ولا يقدر أن يتكلم لأجل اليمين فجاء إلى أبي حنيفة وأعلمه بحاله فقال له: أحضر أكابر حيك وأدين جيرانك وإمام جماعتك فلما حضروا قال لهم أبو حنيفة: هل تحبون أن يرد الله على هذا الرجل متاعه؟ قالوا: نعم فقال: اجمعوا داعريكم فادخلوهم الجامع ثم أخرجوهم واحداً واحداً وكلما خرج منهم واحد قولوا هذا لصك فإن كان ليس بلصه قال: لا وإن كان لصه فليسكت فإذا سكت فاقبضوا عليه ففعلوا ذلك فرد الله عليه ما سرق له (1).

لا تتعرض لأبي حنيفة:

ومنه أن الربيع صاحب المنصور كان يعادي أبا حنيفة فحضر يوماً عند أمير المؤمنين فقال الربيع: يا أمير المؤمنين إن أبا حنيفة يخالف جدك ابن عباس وكان جدك يقول إذا حلف الرجل على شيء ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو بيومين كان ذلك جائزاً وأبو حنيفة لا يجوز ذلك إلا متصلاً باليمين فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم أن ليس لك في رقاب جندك عهد قال: كيف ذلك؟ قال: يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم فضحك المنصور وقال: يا ربيع لا تتعرض لأبي حنيفة.

بخمسة دراهم:

ومنه أن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه قال دخلت البادية فاحتجت إلى الماء فجاءني أعرابي ومعه قرية ملأنة فأبى أن يبيعهما

(1) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، ص 50.

إلا بخمسة دراهم فدفعتها له ثم أخذت القرية فقلت: ما رأيك يا أعرابي في السويق فقال: هات فأعطيته سويقاً ملتوثاً بزيت فجعل يأكل حتى امتلأ ثم عطش فقال: علي بشربة فقلت: بخمسة دراهم على قدح من ماء فاسترددت الخمسة وبقي الماء.

ومنه أنه كان بجوار أبي حنيفة شاب يغشى مجلسه فقال له يوماً من الأيام: يا إمام أريد التزويج إلى فلانة من أهل الكوفة وقد خطبتها من وليها فطلب مني من المهر فوق وسعي وطاقتي فقال أبو حنيفة: فاستخر الله تعالى وأعطهم ما طلبوه فلما عقدوا النكاح جاء إلى أبي حنيفة فقال: إني سألتهم أن يأخذوا مني البعض ويدعوا البعض عند الدخول فأبوا فما ترى؟ قال: احتل واقترض حتى تدخل بأهلك فإن الأمر يكون أسهل عليك من تعقيدهم ففعل ذلك فلما زفت إليه دخل بها قال له أبو حنيفة ما عليك أن تظهر الخروج بأهلك عن هذا البلد إلى موضع بعيد فاكتري الرجل جملين وأحضر آلة السفر وما يحتاج إليه وأظهر أنه يريد الخروج من البلد في طلب المعاش وأن يصحب أهله معه فاشتد ذلك على أهل المرأة وجاءوا إلى أبي حنيفة يستشيرونه فقال لهم أبو حنيفة: له أن يخرجها إلى حيث شاء فقالوا: لم نصبر على ذلك فقال: أرضوه بأن تردوا عليه ما أخذتم منه فأجابوه إلى ذلك فقال أبو حنيفة للفتى: إن القوم قد سمعوا وأجابوا إلى أن يردوا عليك ما أخذوا منك من المهر ويبروك فقال الفتى: لا بد من زيادة أخذها منهم فقال أبو حنيفة: أيهما أحب إليك أن ترضى بما بذلوا لك وإلا أقرت المرأة لرجل بدين عليها ولا يمكنك حملها ولا السفر بها حتى يقضى ما عليها من الدين قال: فقال الفتى: الله الله يا إمام لا يسمع أحد منهم بذلك ثم أجاب وأخذ ما بذلوه من المهر (1).

تلذذ العلماء بعلمهم:

كان أبو حنيفة رحمه الله إذا أخذته لذة المسائل يقول: أين الملوك من

(1) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، ص 51.

لذة ما نحن فيه؟ لو فطنوا لقاتلونا عليه (1).

أفيسرك أن أمك مغنية؟!

قال ابن أبي ليلى لأبي حنيفة: أيحل النبيذ وبيعه وشرأؤه؟ قال: نعم.
قال: أفيسرك أن أمك نبادة؟ فقال أبو حنيفة: أيحل الغناء وسماعه. قال:
نعم. قال: أفيسرك أن أمك مغنية؟

بتحليل أبي حنيفة؟!

ووضع رجل بالكوفة على باب المسجد نبيذاً بين يديه وجعل ينادي:
من يشتري رطلاً بدرهم بتحليل أبي حنيفة؟ فقال له أبو حنيفة: يا رجل إنك
فعلت قبيحاً! فقال: أأست حلاته؟ قال: صدقت ومن الحلال أنك تجامع
امراتك، ولو استحضرتها الجامع وجامعتها لاستقبح ذلك (2).

قص الشعرات البيض:

قال أبو حنيفة رضي الله عنه للحجام: التقط هذه الشعرات
البيضاء، فقال الحجام: لا تلتقطها فإنها تكثر. فقال: فإذا التقط السود
فلعلها تكثر (3).

ضلت مقاليدك يا أبا حنيفة:

مات رجلٌ وأوصى إلى أبي حنيفة وهو غائب، فقدم أبو حنيفة وارتفع إلى
ابن شبرمة، وادعى الوصية وأقام البينة، فقال له ابن شبرمة: يا أبا حنيفة،
أحلف أن شهودك شهدوا بحق، قال: ليس علي يمين، كنت غائباً، قال: ضلت
مقاليدك يا أبا حنيفة، قال: ضلت مقاليدي؟ ما تقول في أعمر شج فشهد له
شاهدان أن فلاناً شجه، أعلى الأعمى يميناً أن شهوده شهدوا بحق وهو لا
يرى؟

(1) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 1 / 9.

(2) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 1 / 304.

(3) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 1 / 461.

قال أعرابيُّ لعبد الملك: الناقة إذا كانت تمنع الحلب قومتها العصا، قال: إذن تكفأ الإناء وتكسر أنف الحالب (1).

الآن يمد أبو حنيفة رجله!

وزعموا إنّ الإمام أبا حنيفة، رحمه الله، كان به ذات مرة ألم في رجله، فكان يمدّها في المجلس بين يدي أصحابه. ثم إنّه يوماً حضر مجلسه رجل ذو هيئة كث اللحية لا يعرفه، فتوهمه فقيهاً وقبض رجله استحياء وصبر على ذلك مدة، والرجل لا يتكلم بشيء فبان له منه خلاف الظن، فمد رجله وقال ذلك (2).

من كلام الإمام أبو حنيفة:

“ إذا صح الحديث؛ فهو مذهبي ”.

“ لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا؛ ما لم يعلم من أين أخذناه ”.

وفي رواية: “ حرام على من لم يعرف دليلي أن يُفتي بكلامي ”.

زاد في رواية: “ فإننا بَشَر؛ نقول القول اليوم، ونرجع عنه غداً ”.

وفي أخرى: “ ويحك يا يعقوب! - وهو أبو يوسف - لا تكتب كل ما تسمع مني؛ فإنني قد أرى الرأي اليوم، وأتركه غداً، وأرى الرأي غداً، وأتركه بعد غد ”.

وقال الإمام أبو حنيفة: إن لم يكن العلماء أولياء الله في الأرض فليس لله فيها ولي (3).

وقال أبو حنيفة رحمه الله: ما أعلم أشد حزناً من المؤمن، شارك أهل الدنيا في هم المعاش، وتفرد في هم آخرته (4).

(1) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 2 / 361.

(2) اليوسي، زهر الأكم في الأمثال و الحكم، ص 59.

(3) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 1 / 8.

(4) الزمخشري، ربيع الأبرار، 1 / 342.

وقال أبو حنيفة: المكثّر من النحو كالمكثّر من غرس شجر لا يثمر (1).
 وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: إذا بليت بالسلطان فخرق دينك بالملق والروغان، ورقعه بالكفارات والاستغفار (2).
 وقال أبو حنيفة: لا خير فيمن لا يحفظ ماله ليصون به عرضه ويصل به رحمه ويستغنى به عن لئام الناس (3).
 قيل: وجد حماد بن أبي سليمان أستاذ أبي حنيفة زلة كانت منه إليه، فأظهر الإعراض عنه، فكتب إليه أبو حنيفة رقعة يقول فيها: من كان ذنبه إلى الكرام، والعفو عنه في أيدي الصالحين، وتوبته إلى الرحماء، وجنايته إلى الحكماء، كان حرياً بالسلامة، وجديراً بالتخلص من الملامة، وكان ذلك من سعادة جده، ومن التوفيق الذي لا يسلمه إلى أشد عاقبة أمره.
 فلما قرأها حماد صفح عن زلته، وأعادته إلى رتبته (4).
 شهد أبو حنيفة نكاحاً فقالوا له تكلم، فقال: الحمد لله شكراً لنعمته، وسبحان الله خضوعاً لعظمته، ولا إله إلا الله إقراراً بتوحيده، وصلى الله على سيدنا محمد عند ذكره. إن الله عز وجل خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهرأ، وكان ربك قديراً، على أن أحل النكاح وحرّم السفاح وأمرنا بالإصلاح، ثم إن فلاناً خطب إلى فلان، فعلى اسم الله فلتكن الإجابة، وعلى الخيرة تكون منه العقدة، زوجت وأنكحت (5).
 وسئل أبو حنيفة عن الغنى والفقر فقال: وهل طغى من طغى من خلق الله إلا بالغنى؟ (6).

(1) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 1 / 111.

(2) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 1 / 83.

(3) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ص 170.

(4) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 1 / 458.

(5) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 1 / 244.

(6) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 1 / 454.

* * *

الإمام مالك

الإمام مالك

أعلام الفقهاء

الإمام مالك

مالك بن أنس: دار مع الإمامة، وهجر الدنيا لأنه إمام دار الهجرة، أبدع في الأثر فثار عليه أهل البدع، العقل الغزير علمه أن الوقار ملك، وأن العلم نور، وأن الإمامة مطلب، أسرته يمانية، ونشأته حجازية، وخلافته عراقية، ومدرسته مغربية.

مالك بن أنس في خدمة العلم كأنس بن مالك في خدمة المعلم، تشابهت قلوبهم، لبي نداء الواجب فما أبطأ، ونطق بالحكمة فما أخطأ، ثم قدم للأمة كتاب الموطأ.

خافه أعداء الملة وخصوم الشريعة، فنادوا: (يا مالك! ليقض علينا ربك) سكن الدار، وجاور الأنصار، ونشر الآثار.

أرسل إلى العالم الموطأ، فنشر في التمهيد، ورتب في الاستذكار ونثر في المدونة، وضبط في الموافقات، علومه باسقات لها طلع نضيد، جادل أبا حنيفة، وعلم الشافعي، وورث علمه أحمد.

أما العقيدة: فالاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وأما الحديث: فتقة الراوي، وعدالة الشيخ، وشهرة المتن، وأما الفقه: فموافقة الأصل، واطراح الشواذ، واتباع المشهور.

وأما الزهد: فإظهار النعمة، واجتناب الحرام، ومخالفة الهوى، واطراح الدنيا.

مالك بن أنس: هو الإيجاز في بلاغة، والبساطة في عمق، والتواضع في هيبة، رآه أبو جعفر فكبر، وقال: وطئ لنا العلم فقال له: سهل لنا الحكم.

قال له القضاء: {هَيْتَ لَكَ} [يوسف: ٢٣] ، قال: {مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَحِيٌّ أَحْسَنَ مَثْوَايَ} [يوسف: ٢٣] وأتته الدنانير فصاح: {وَقَرَنَ فِي يَوْمِكُنَّ} [الأحزاب: ٣٣] وطلبه المنصب، فنادى: {فَمَاءَ آتَيْنِ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ} [النمل: ٣٦] (1).

بُشِّرَ أنس بن مالك بن أبي عامر ذات يوم ببشرى سعيدة، فقد رزقه الله بمولود أسماه (مالكا) كان ذلك الحدث السعيد سنة ثلاث وتسعين من الهجرة على بقعة من أظهر بقاع الأرض وهي المدينة المنورة، البلد الذي هاجر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فاستنارت بهم وازدانت.

فتح مالك عينيه على الحياة، فوجد التقدير والمهابة يعم المدينة وأهلها، وكيف لا وقد حوى ترابها جثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفن فيها، وضمت أرجاؤها حلقات العلم التي تنتشر في كل مكان.

نشأ الطفل في أسرة تشغل بالعلم، فجدّه (مالك بن أبي عامر) من كبار التابعين فشجعه ذلك على حفظ القرآن الكريم، فأتم حفظه وأتقن تلاوته، لكنه لم يكتفِ بذلك بل إنه أراد حفظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب إلى أمه وقال لها: يا أماه إني أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأريد أن أحفظ أحاديثه، فكيف لي بذلك؟! ابتسمت أمه ابتسامة صافية، وضمته إليها، ثم ألبسته ثياباً جميلة وعمته وقالت له: اذهب إلى (ربيعة الرأي) - وكان فقيهاً كبيراً - وتعلم من أدبه قبل علمه.

فجلس الطفل الصغير - مالك بن أنس - يستمع إلى شيخه وينهل من علمه، وبعد انتهاء الدرس يسرع بالجلوس تحت ظلال الأشجار ليحفظ ما سمعه من معلمه؛ حتى لا ينساه، وقد رآته أخته ذات مرة وهو على هذه الحال؛ فذهبت إلى أبيها وقصت عليه ما شاهده، فقال لها: يا بنيّتي إنه يحفظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مالك بن أنس كغيره

(1) عائض بن عبد الله القرني، سلسلة القمم لأهل الهمم، 4 / 10.

من الأطفال الصغار يحب اللعب؛ فشغله ذلك عن الدرس والعلم قليلاً إلى أن حدث له موقف كان له أثر كبير في حياته، فقد سأله أبوه يوماً في مسألة هو وأخوه النضر، فأصاب النضر، وأخطأ مالك في الرد على السؤال؛ فغضب منه والده، فكانت هذه الحادثة سبباً في عزمه على الجد والاجتهاد في العلم، فذهب من فوره إلى (ابن هرمز) وهو عالم كبير، فأخذ يتلقى العلم عليه سبع سنوات، وكان شديد الحرص على الاستفادة منه خلالها.

قال (ابن هرمز) لجاريته في يوم من الأيام: انظري من الباب، فلم تر إلا (مالكا) فرجعت إلى الشيخ وقالت له: لا يوجد إلا ذلك الغلام الأشقر (تعني مالكا) فقال لها: دعيه يدخل فذلك عالم الناس!! وتعلم منه مالك كيف يرد على أصحاب البدع والضلالات، وأراد مالك المزيد، فذهب إلى نافع (مولى عبد الله بن عمر) أحد الرواة العظام الذين روا عن ابن عمر أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكان ينتظره في شدة الحر يترقب خروجه من منزله، ثم يصطحبه إلى المسجد، حتى إذا ما انتهى (نافع) من أداء الصلاة ومكث برهة؛ انتهز الصبي الصغير الفرصة وسأله في الحديث والفقه، فنهل من علمه وأخذ عنه ما في رأسه من نور رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم لازم مالك بن أنس المحدث الكبير (ابن شهاب الزهري) ليتعلم على يديه، وحرص على ألا يفوته درس من دروس هذا الشيخ، حتى يوم العيد نفسه وهو اليوم الذي يلهو فيه الصبيان ويمرحون، روي عن مالك أنه قال: شهدت العيد، فقلت: هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه، فسمعتة يقول لجاريته: انظري من الباب، فنظرت، فسمعتها تقول: مولاك الأشقر مالك.. قال: أدخله، فدخلت، فقال: ما أراك انصرفت بعد إلى منزلك؟ قلت: لا، قال: هل أكلت شيئاً؟ قلت: لا، قال: اطعم، قلت: لا حاجة لي فيه، قال: فما تريد؟ قلت: تحدثني.. قال لي:

هات، فأخرجت ألواحي، فحدثني بأربعين حديثاً فقلت: زدني، قال: حسبك، إن كنت رويت هذه الأحاديث (أي يكفيك هذه الأحاديث إن كنت حفظتها) فأنت من الحفاظ، قلت: قد رويتها، فجذب الألواح من يدي، ثم قال: حدث، فحدثته بها، فردها إليَّ.. أي الألواح.

ولم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكا في العلم والفقه، والحفظ، والعزة ولم يجلس للفتوى حتى شهد له سبعون من جلة العلماء أنه أهل لذلك، يقول الإمام مالك: (ما أجبته في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني: هل تراني موضعاً لذلك؟ سألت ربيعة، وسألت يحيى بن سعيد، فأمراني بذلك، فقال له رجل: فلو أنهم نهوك؟ قال مالك: كنت أنتهي، لا ينبغي للرجل أن يبذل نفسه حتى يسأل من هو أعلم منه).

اشتهر الإمام مالك بكتابه (الموطأ) وهو كتاب حديث وفقه معاً، جمع فيه ما قوي عنده من حديث أهل الحجاز وأضاف إليه أقوال الصحابة وفتاوى التابعين، ثم رتبته على أبواب الفقه كالطهارة والصلاة والزكاة، وقد عمل في هذا الكتاب نحو أربعين عاماً، وقد تلقاه الناس بالقبول، وسمى مالك كتابه بهذا الاسم لأنه مهد به للناس ما اشتمل عليه من الحديث والفقه، أو لأن العلماء المعاصرين له بالمدينة واطئوه ووافقوه عليه، وقد طبع الكتاب كثيراً في مصر والهند.

يروى في فضله ومناقبه الكثير ولكن أهمها ما روي [عن أبي هريرة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم]: ^١ قال ليضربن الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة—.

إنه الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وصاحب أحد المذاهب الفقهية الأربعة في الإسلام وهو المذهب المالكي، وصاحب كتب الصحاح في السنة النبوية وهو كتاب الموطأ. يقول الإمام الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

هو شيخ الإسلام حجة الأمة إمام دار الهجرة أبو عبد الله مالك بن أنس ابن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث وهو ذو أصبح بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعة وهو حمير الأصغر الحميري ثم الأصبحي المدني حليف بني تيم من قريش فهم حلفاء عثمان أخي طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة.

وأمه هي عالية بنت شريك الأزدية وأعمامه هم أبو سهل نافع وأويس والربيع والنضر أولاد أبي عامر.

ولد مالك على الأصح في سنة 93هـ عام موت أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشأ في صون ورفاهية وتجمل

طلب الإمام مالك العلم وهو حدث لم يتجاوز بضع عشرة سنة من عمره وتأهل للفتيا وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة وقصده طلبة العلم وحدث عنه جماعة وهو بعد شاب طري.

عن ابن عيينة قال مالك عالم أهل الحجاز وهو حجة زمانه.

وقال الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

وعن ابن عيينة أيضاً قال: كان مالك لا يبلغ من الحديث إلا صحيحاً ولا يحدث إلا عن ثقة ما أرى المدينة إلا ستخرب بعد موته يعني من العلم.

- روي عن وهيب وكان من أبصر الناس بالحديث والرجال أنه قدم المدينة قال: فلم أرى أحداً إلا تعرف وتكرر إلا مالكا ويحيى بن سعيد الأنصاري.

روي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **يُخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة** — ويروى عن ابن عيينة قال: كنت أقول هو سعيد بن

المسيب حتى قلت كان في زمانه سليمان بن يسار وسالم بن عبد الله وغيرهما ثم أصبحت اليوم أقول إنه مالك لم يبق له نظير بالمدينة.

قال القاضي عياض: هذا هو الصحيح عن سفيان رواه عنه ابن مهدي وابن معين وذؤيب بن عمامه وابن المدني والزبير بن بكار وإسحاق بن أبي إسرائيل كلهم سمع سفيان يفسره بمالك أو يقول وأظنه أو أحسبه أو أراه أو كانوا يرونه.

وذكر أبو المغيرة المخزومي أن معناه ما دام المسلمون يطلبون العلم لا يجدون أعلم من عالم بالمدينة فيكون على هذا سعيد بن المسيب ثم بعده من هو من شيوخ مالك ثم مالك ثم من قام بعده بعلمه وكان أعلم أصحابه.

ولم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكا في العلم والفقهاء والجلالة والحفظ فقد كان بها بعد الصحابة مثل سعيد بن المسيب والفقهاء السبعة والقاسم وسالم وعكرمة ونافع وطبقتهم ثم زيد بن أسلم وابن شهاب وأبي الزناد ويحيى بن سعيد وصفوان بن سليم وربيعه بن أبي عبد الرحمن وطبقتهم فلما تفانوا اشتهر ذكر مالك بها وابن أبي ذئب وعبد العزيز بن الماجشون وسليمان بن بلال وفليح بن سليمان وأقرانهم فكان مالك هو المقدم فيهم على الإطلاق والذي تضرب إليه آباط الإبل من الآفاق رحمه الله تعالى.

قال أبو عبد الله الحاكم: ما ضربت أكباد الإبل من النواحي إلى أحد من علماء المدينة دون مالك واعترفوا له وروت الأئمة عنه ممن كان أقدم منه سنا كالليث عالم أهل مصر والمغرب والأوزاعي عالم أهل الشام ومفتيهم والثوري وهو المقدم بالكوفة وشعبة عالم أهل البصرة إلى أن قال وحمل عنه قبلهم يحيى ابن سعيد الأنصاري حين ولاه أبو جعفر قضاء القضاة فسأل مالكا أن يكتب له مائة حديث حين خرج إلى العراق ومن قبل كان ابن جريج حمل عنه.

يروى أبو مصعب فيقول: سمعت مالكا يقول دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين وقد نزل على فرش له وإذا على بساطه دابتان ما تروشان ولا تبولان وجاء صبي يخرج ثم يرجع فقال لي: أتدري من هذا؟ قلت: لا، قال: هذا ابني وإنما يفرع من هيبتك ثم ساءلني عن أشياء منها حلال ومنها حرام ثم قال لي: أنت والله أعقل الناس وأعلم الناس قلت: لا والله يا أمير المؤمنين قال: بلى ولكنك تكتم ثم قال: والله لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف ولأبعثن به إلى الآفاق فلأحملهم عليه. فقال مالك: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في الأمصار وإن تفعل تكن فتنة!!

مواقف من حياة الإمام مالك:

أحمد بن حنبل ومالك:

عن أبي زرعة الدمشقي قال: سمعت أحمد بن حنبل يسأل عن سفیان ومالك إذا اختلفا في الرواية، فقال: مالك أكثر في قلبي. قال: قلت فمالك والأوزاعي إذا اختلفا؟ فقال: مالك أحب إليّ، وإن كان الأوزاعي من الأئمة، قيل له: وإبراهيم (أي النخعي) فكأنه كان يرى أن إبراهيم لا ينبغي أن يقرن بمالك لأنه ليس من أهل الحديث، فقال: ضعه مع أهل زمانه (1).

وأظنك صاحب بدعة:

من أعظم مواقف الحكمة التي وقفها الإمام مالك موقفه مع من سأله عن الاستواء. فقد جاء إليه رجل وقال: يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى {طه: ٥} كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض، وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرحضاء (2)، ثم

(1) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى - (1 / 361).

(2) العرق إثر الحمى، أو عرق يغسل الجلد كثرة. انظر: المعجم الوسيط، مادة (رحض) (1 / 334).

رفع رأسه ورمى بالعود، وقال: “الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة” وأمر به فأُخرجَ (1).

وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر:

ومن مواقف الإمام مالك الحكيمة ما ردّ به على بعض العُباد حينما كتب إليه يعظه ويحضه على الانفراد والعزلة عن الناس، ويحضه على العمل، فكتب إليه مالك: “إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فربّ رجل فُتِحَ له في الصلاة ولم يُفْتَحْ له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتِحَ لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر” (2).

ما تصنعون بربيعة وهو نائم!:

وروى الترمذي في جامعه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **يُوشِكُ أَنْ يَضْرِبَ النَّاسَ بِأَكْبَادِ الْإِبِلِ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ فَلَا يَجِدُونَ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ** — قال: وهذا حديث حسن قال عبد الرزاق وسفيان بن عيينه: أنه مالك بن أنس ولقد حدث يوماً عن رببعة الرأي بن عبد الرحمن فاستزاد القوم من حديثه فقال: ما تصنعون بربيعة وهو نائم في تلك الطاق؟ فأتى رببعة فقيل له: أنت رببعة الذي يحدث عنك مالك قال: نعم، فقيل له: فكيف حظي بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك؟ قال: أما علمتم أن مثقالاً من دولت خير من حمل علم.

فتوى لم توافق غرض السلطان:

وسعى به إلى جعفر بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس رضي

(1) أبو نعيم في الحلية 6 / 325، وانظر: سير أعلام النبلاء 8 / 100، 101، 106، ومجموع فتاوى ابن تيمية 5 / 26، 5 / 144.

(2) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي 8 / 114.

الله عنهما وهو عم أبي جعفر المنصور وقالوا له: إنه لا يرى إيمان ببيعكم هذه بشيء فغضب جعفر ودعا به وجرده وضربه بالسياط ومدت يده حتى انخلعت كتفه وارتكب منه أمرًا عظيمًا فلم يزل بعد ذلك الضرب في علو رفعة وكأنما كانت تلك السياط حليًا حلي به وذكر ابن الجوزي في شذور العقود في سنة سبع وأربعين ومائة وفيها ضرب مالك بن أنس سبعين سوطًا لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان والله أعلم (1).

وليتني لم أفت بالرأي:

وحكى الحافظ أبو عبد الله الحميدي في كتاب جذوة المقتبس قال: حدث القعنبى قال: دخلت على مالك بن أنس في مرضه الذي مات فيه فسلمت عليه ثم جلست فرأيت يميني فقلت: يا أبا عبد الله مالذي يبكيك فقال لي: يا ابن قعنب ومالي لا أبكي ومن أحق بالبكاء مني والله لو ددت أني ضربت بكل مسألة أفيت فيها برأي بسوط سوط وقد كانت لي السعة فيما قد سبقت إليه وليتني لم أفت بالرأي أو كما قال.

وروي أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره ثم دس عليه من يسأله فروى على ملأ من الناس ليس على مستكره طلاق فضربه بالسياط ولم يترك رواية الحديث وقال مالك: ما كان رجل صادقًا في حديثه ولا يكذب إلا متع بعقله ولم تصبه مع الهرم آفة ولا خرف.

نسب المرء داره:

وأما زهده في الدنيا فيدل عليه ما روي أن المهدي أمير المؤمنين سألته فقال له هل لك من دار؟ فقال: لا ولكن أحدثك فيه حديثًا سمعت ربيعة بن عبد الرحمن يقول نسب المرء داره.

فلا أوثر الدنيا على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم :

(1) الحطة في ذكر الصحاح الستة، 1 / 230.

وسأله الرشيد هل لك دار؟ فقال: لا فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال: اشتري بها داراً فأخذها ولم ينفقها فلما أراد الرشيد الشخوص قال لمالك: ينبغي أن تخرج معنا قال: عزمت أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان الناس على القرآن فقال أما حمل الناس على الموطأ فليس إليه سبيل لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا فعند كل أهل مصر علم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **اختلاف أمتي رحمة—** وأما الخروج معك فلا سبيل إليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون—** وقال عليه الصلاة والسلام: **المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد—** وهذه دنائيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها يعني إنك إنما كلفتني مفارقة المدينة لما اصطنعتة إلي فلا أؤثر الدنيا على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فهكذا كان زهد مالك في الدنيا (1).

إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيه نبي الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة:

ولما حملت إليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لانتشار علمه وأصحابه كان يفرقها في وجوه الخير ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا وليس الزهد فقد المال وإنما الزهد فراغ القلب عنه ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد ويدل على احتقاره للدنيا ما روي عن الشافعي أنه قال: رأيت على باب مالك كراعاً من أفراس خراسان وبغال مصر ما رأيت أحسن منه فقلت لمالك: ما أحسنه فقال: هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله فقلت: دع لنفسك منها دابة تركبها فقال: إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيه نبي الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة.

(1) الحطة في ذكر الصحاح الستة، 1 / 232.

والعلم يؤتى ولا يأتي:

وروي عنه أنه قال: دخلت على هارون الرشيد فقال لي: يا أبا عبدالله ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ قال: فقلت أعز الله مولانا الأمير إن هذا العلم منكم خرج فإن أنتم أعزتموه عز وإن أنتم أذلتموه ذل والعلم يؤتى ولا يأتي فقال: صدقت أخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس.

عسى أن يعلموا أي عمل وقع لوجه الله تعالى:

ومن كلامه لا ينبغي للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيقه فإنه ذل وإهانة للعلم ولما صنف كتاب الموطأ في الحديث عمل علماء المدينة الموطآت على منواله فقليل لمالك قد شاركه الناس في مثل هذا التصنيف فلم تكلف هذا القدر نفسك قال: انتوني بها أنظرها فلما نظر فيها قال عسى أن يعلموا أي عمل وقع لوجه الله تعالى فكان كذلك ولم يبق لموطآت الآخرين اسم ولا رسم إلا ما يذكر من موطأ ابن أبي ذئب وأما موطأ مالك فهو مخدم طوائف الأنام وبضاعة الاجتهاد لعلماء الإسلام والقبول بقدر النية.

ما أشكل عليك فاسأله عن مالك بن أنس:

وكان من عباد وقته وأصحاب عبدالله بن المبارك أنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وقلت: يا رسول الله قد مضى عصرك وانقضى فإن وقع لي شك وشبهة في خاطر في أمر من أمور الدين فممن أتحمقه قال: ما أشكل عليك فاسأله عن مالك بن أنس.

ورأيت مالكا قائما بين يديه:

وروي أيضا عن مطرف أن أبا عبدالله من موالي الليثيين قال: تشرفت بزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم أي في النوم فرأيته جالسا في المسجد وحوله رجال كالحلقة ورأيت مالكا قائما بين يديه وعنده صلى الله

عليه وسلم مسك يعطيه مالكا قبضة قبضة ومالك ينثره على الناس فعبرت هذه الرؤيا بظهور العلم النبوي أولاً في مالك ثم بواسطته في الآخرين.

مالك وارث سريري:

وروي أيضاً عن محمد بن ربح التجيبي المصري أستاذ مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح أنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وقلت: نحن مختلفون في مالك وليث أيهما أعلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مالك وارث سريري ففهمت حينئذ المراد به أنه وارث علمي (1).

اقتلوا هذا الزنديق:

وروي عن يحيى بن خلف بن الربيع الطرطوسي وكان من صلحاء عصره وعباد دهره أنه قال: حضرت يوماً عند مالك فأتى رجل وقال: ما نقول في القرآن أهو مخلوق أم لا؟ فقال الإمام: اقتلوا هذا الزنديق فإنه سيتولد في كلامه فتن كثيرة وقد عمت البلوى بعد مالك في هذه المسألة وقتلت جماعات كثيرة من أهل السنة على عدم القول بها.

وكذا روي عن جعفر بن عبد الله أنه قال: كنا عند مالك فسأله رجل عن تفسير قوله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥] كيف هذا الاستواء فأظهر مالك الملل الكثير من هذا السؤال وأطرق ملياً وتفكر كثيراً حتى عرق جبينه ثم قال: كيف منه معقول والاستواء منه مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ثم أمر بإخراجه.

فافهم:

وروي عن أبي عروبة وهو من أولاد الزبير رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند مالك يوماً فإذا رجل أتى وذكر نقائص الصحابة ومساوئهم فقال مالك: اسمع ثم تلا هذه الآية {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ

(1) الحطة في ذكر الصحاح الستة، 1 / 236.

يَتَنَهُمْ } [الفتح: ٢٩] حتى بلغ إلى {لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} [الفتح: ٢٩] ثم قال من كان في باطنه سيء الظن بالصحابة ويعيش عدوا لهم فهو داخل في هذا اللفظ فافهم.

أفلا ينبغي لي أن أعزه وأجله!

وذكر أن هارون الرشيد لما قدم المدينة المنورة لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك في بعض حجاته، وجه يحيى بن خالد البرمكي إلى الإمام مالك بن أنس - رضي الله تعالى عنه: احمل إلي كتابك الذي صنعت - يعني الموطأ - أسمعك عليك، فقال مالك ليحيى: أقرئه السلام، وقل له؛ العلم يزار، ولا يزور، ويؤتى ولا يأتي، فرجع إلى هارون الرشيد وأخبره، ثم قال يحيى: يا أمير المؤمنين، يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك بأمر فخالفك، اعزم عليه حتى يأتيك، فبينما هم كذلك إذا بمالك قد دخل وليس معه الكتاب، جاء مسلماً على الخليفة، فسلم وجلس، فقال له هارون: يبلغ أهل العراق أنني سألتك أمراً من الأمور سهلاً فأبيت علي، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعلك في هذا الموضع، فلا تكن أول من ضيع العلم؛ فيضيعك الله تعالى، ولقد رأيت من ليس هو في حسبك ونسبك يعز هذا العلم ويجله، فأنت أحرى أن تجله، ولم يزل يعظه ويعدد عليه حتى بكى، ثم قال مالك: أخبرني الزهري، عن خارجة، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب الوحي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ} [النساء: ٩٥]، وابن أم مكتوم عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أنا رجل ضرير، فهل لي رخصة - يعني في ترك الجهاد - فقال - عليه الصلاة والسلام - : لا أدري - قال زيد: وقلمي رطب ما جف، حتى غشي النبي صلى الله عليه وسلم الوحي، ثم سرى عنه، فقال: " اكتب يا زيد: {غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ} [النساء: ٩٥]، قال: فحرف واحد يا أمير المؤمنين بعث فيه الملك جبريل من مسيرة خمسين ألف عام، حتى نزل على النبي صلى الله

عليه وسلم أفلا ينبغي لي أن أعزه وأجله؟ قال: بلى، ثم إن هارون أتى إلى منزل الإمام مالك، فسمع منه الكتاب، ووفقه الله للصواب.

ما ظننت أن أهل العلم يتكلمون بمثل هذا:

واجتمع القاضي أبو يوسف بالإمام مالك عند الرشيد، فقال له القاضي أبو يوسف: ما تقول فيمن سها بزيادة في الصلاة؟ فقال الإمام مالك: يسجد للسهو بعد السلام، فقال: فإن سها بهما، فقال: يسجد قبل السلام، فقال أبو يوسف ملتفتاً إلى الرشيد: الشيخ تارة يخطئ وتارة لا يصيب، فظن الإمام مالك أنه يقول: تارة يخطئ، وتارة يصيب، فقال: على هذا أدركنا مشايخنا من السلف الصالح، ثم نبه الإمام مالك لقول أبي يوسف ومراده، فقال: ما ظننت أن أهل العلم يتكلمون بمثل هذا، قلت: رحم الله الإمام مالكا، ورضي عنه، فما أغفله عن مظان السوء، وما أسلم فطرته، وأخلص نيته، وأصدق طويته حيث لم يخطر بباله ذلك، ولا خطر بباله أن يخطر ببال أهل العلم (1).

خذ بيد سيدك إليك:

قال الشافعي رضي الله عنه فقلت: حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر وأشرت بيدي إلى القبر كإشارته حتى أعدت عليه خمسة وعشرين حديثاً حدث بها من حين جلس إلى وقت قطع المجلس وسقط القرص فصلى مالك المغرب وأقبل على عبده وقال: خذ بيد سيدك إليك وسألني النهوض معه.

قال الشافعي رحمه الله: فقمتم غير ممتنع إلى ما دعا من كرمه فلما أتيت الدار أدخلني الغلام إلى خلوة في الدار وقال لي: القبلة في البيت هكذا وهذا إناء فيه ماء وهذا بيت الخلاء. قال الشافعي رضي الله عنه: فما لبث مالك رضي الله عنه حتى أقبل هو والغلام حاملاً طبقاً فوضعه من يده وسلم الإمام علياً ثم قال للعبد: اغسل علينا ثم وثب الغلام إلى الإناء وأراد

(1) العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، 204/2 - 205.

أن يغسل عليّ أولاً فصاح عليه مالك قال: الغسل في أول الطعام لرب البيت وفي آخر الطعام للضيف.

قال الشافعي رضي الله عنه: فاستحسننت ذلك من الإمام مالك رضي الله عنه وسألته عن شرحه فقال أنه يدعو الناس إلى كرمه فحكمه أن يبتدىء بالغسل وفي آخر الطعام ينتظر من يدخل فيأكل معه.

قال الشافعي رضي الله عنه: فكشف الإمام رضي الله عنه الطبق فكان فيه صفحتان في إحداهما لبن والأخرى تمر فسمى الله تعالى وسميت فأتييت أنا ومالك على جميع الطعام وعلم مالك أنا لم نأخذ من الطعام الكفاية فقال لي: يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل إلى فقير معدم فقلت: لا عذر على من أحسن إنما العذر على من أساء.

قال الشافعي رضي الله عنه: فأقبل مالك يسألني عن أهل مكة حتى دنت العشاء الآخرة ثم قام عني وقال: حكم المسافر أن يقل تعبته بالاضطجاع فنمت ليلتي فلما كان في الثلث الأخير من الليل قرع عليّ مالك الباب فقال لي: الصلاة يرحمك الله فرأيتته حاملاً إناء فيه ماء فتبشع عليّ ذلك فقال لي: لا يرعك ما رأيته فخدمة الضيف فرض.

قال الشافعي رضي الله عنه: فتجهزت للصلاة وصليت الفجر مع الإمام مالك في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس لا يعرف بعضهم بعضاً من شدة الغلس وجلس كل واحد منا في مصلاه يسبح الله تعالى إلى أن طلعت الشمس على رؤوس الجبال فجلس مالك في مجلسه بالأمس وناولني الموطأ أُمليه وأقرؤه على الناس وهم يكتبونه.

قال الشافعي رضي الله عنه: فأتييت على حفظه من أوله إلى آخره وأقمت ضيف مالك ثمانية أشهر فما علم أحد من الأنس الذي كان بيننا أيّنا الضيف ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجهم للزيارة واستماع الموطأ. قال الشافعي فأُمليت عليهم حفظاً منهم عبد الله بن عبد الحكم

وأشهب وابن القاسم قال الربيع: وأحسب أنه ذكر الليث بن سعد ثم قدم بعد ذلك أهل العراق لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الشافعي رضي الله عنه: فرأيت بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه نظيف الثوب حسن الصلاة فتوسمت فيه خيراً فسألته عن اسمه فأخبرني وسألته عن بلده فقال: العراق فقلت: أي العراق فقال: لي الكوفة فقلت من العالم بها والمتكلم في نص الكتاب والمفتي بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحباً أبي حنيفة رضي الله عنه.

وقال الشافعي رضي الله عنه: فقلت ومتى عزمتم تظعنون؟ فقال لي: في غداة غد وقت الفجر فعدت إلى مالك فقلت له خرجت من مكة في طلب العلم بغير استئذان العجوز أفأعود إليها أو أرحل في طلب العلم فقال لي: العلم فائدة يرجع منها إلى فائدة ألم تعلم أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلبه (1).

قال الشافعي رضي الله عنه: فلما أزمعت على السفر زودني الإمام مالك رضي الله عنه فلما كان في السحر سار معي مشياً إلى البقيع ثم صاح بعلو صوته من يكري راحلته إلى الكوفة فأقبلت عليه وقلت: بم تكتري وليس معك ولا معي شيء؟ فقال لي: انصرفت البارحة بعد صلاة العشاء الآخرة إذ قرع عليّ قارع الباب فخرجت إليه فأصبت ابن القاسم فسألني قبول هديته فقبلتها فدفع لي صرة فيها مائة دينار وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالي فاكتري لي بأربعة دنانير ودفع إليّ باقي الدنانير وودعني وانصرف وسرت في جملة الحاج حتى وصلت إلى الكوفة يوم رابع عشرين من المدينة فدخلت المسجد بعد صلاة العصر وصليت فبينما أنا كذلك إذ رأيت غلاماً قد دخل المسجد وصلى العصر فما أحسن الصلاة

(1) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، 1 / 86.

فقلت إليه ناصحاً فقلت له: أحسن صلاتك لئلا يعذب الله هذا الوجه الجميل بالنار فقال لي: أنا أظن أنك من أهل الحجاز لأن فيكم الغلظة والجفاء وليس فيكم رقة أهل العراق وأنا أصلي هذه الصلاة خمس عشرة سنة بين يدي محمد بن الحسن وأبي يوسف فما عابا عليَّ صلاتي قط وخرج معجباً ينفذ رداءه في وجهي فلقي للتوفيق محمد بن الحسن وأبا يوسف بباب المسجد فقال: أعلمتما في صلاتي من عيب فقالا: اللهم لا قال: ففي مسجدنا هذا من عاب صلاتي فقالا: اذهب إليه فقل له بم تدخل في الصلاة؟

قال الشافعي رضي الله عنه فقال لي يا من عاب صلاتي بم تدخل في الصلاة؟ فقلت: بفرضين وسنة فعاد إليهما وأعلمهما بالجواب فعلما أنه جواب من نظر في العلم فقالا: اذهب إليه فقل له ما الفرضان؟ وما السنة؟ فأتى إليَّ فقال: ما الفرضان وما السنة فقلت له: أما الفرض الأول فالنية والثاني تكبيرة الإحرام والسنة رفع اليدين فعاد إليهما فأعلمهما بذلك فدخلا إلى المسجد فلما نظرا إليَّ أظنهما ازدريانى فجلسا ناحية وقالا: اذهب إليه وقل له أجب الشيخين.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى فلما أتاني علمت إني مسؤول عن شيء من العلم فقلت: من حكم العلم أن يؤتى إليه وما علمت لي إليهما حاجة قال الشافعي رضي الله عنه فقاما من مجلسهما إليَّ فلما سلما عليَّ قمت إليهما وأظهرت البشاشة لهما وجلست بين أيديهما فأقبل علي محمد بن الحسن وقال أحرمني أنت؟ فقلت: نعم، فقال: أعربي أم مولى؟ فقلت: عربي، فقال: من أي العرب؟ فقلت: من ولد المطلب قال: من ولد من قلت من ولد شافع قال: رأيت مالكا قلت من عنده أتيت قال لي: نظرت في الموطأ قلت أتيت على حفظه فعظم ذلك عليه ودعا بدواة وبياض وكتب مسألة في الطهارة ومسألة في الزكاة ومسألة في البيوع والفرائض والرهان والحج والإيلاء ومن كل باب في الفقه مسألة وجعل بين كل مسألتين بياضاً ودفع إليَّ

الدرج وقال أجب عن هذه المسائل كلها من الموطأ.

قال الشافعي رضي الله عنه: فأجبت بنص كتاب الله وبسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإجماع المسلمين في المسائل كلها ثم دفعت إليه الدرج فتأمله ونظر فيه ثم قال لعبده خذ سيدي إليك. قال الشافعي رضي الله تعالى عنه ثم سألتني النهوض مع العبد فنهضت غير ممتنع فلما صرت إلى الباب قال لي العبد: إن سيدي أمرني أن لا تسير إلى المنزل إلا راكباً. قال الشافعي رضي الله تعالى عنه فقلت له: قدم فقدم إلي بغلة بسرج محلى فلما علوت على ظهرها رأيت نفسي بأطمار رثة فطاف بي أزقة الكوفة إلى منزل محمد بن الحسن وما هم فيه فبكيت وقلت أهل العراق ينقشون سقوفهم بالذهب والفضة وأهل الحجاز يأكلون القديد ويمصون النوى ثم أقبل عليّ محمد بن الحسن وأنا في بكائي فقال: لا يروحك يا عبد الله ما رأيت فما هو إلا من حقيقة حلال ومكتسب وما يطالبني الله فيها بفرض وإني أخرج زكاتها في كل عام فأسرّ بها الصديق وأكبت بها العدو (1).

أطع أباك ولا تعص أمك:

قال للإمام الليثي بن سعد أن أبي ببلاد السودان وقد كتب إلي أن أذهب إليه فمنعني أمي قال: أطع أباك ولا تعص أمك فسأل الإمام مالك عن ذلك فقال: أطع أباك ولا تعص أمك قال مؤلفه رحمه الله تعالى الذي فهمته من قول الإمام عنه أن طاعة الأم أمر لازم وأولى لأن قوله أطع أباك مصلحة، وقوله لا تعص أمك أمر بترك المفسدة وترك المفسد أولى من جلب المصالح إلا في مسألة: جلب المصلحة أولى من دفع المفسدة وذلك فيما لو ماتت في جوفها ولد يرحى حياته فشق جوفها مفسدة وإخراج الولد مصلحة فإخراج الولد هنا واجب قال في الروضة في باب الهبة يسن للولد أن يعدل في هبته لأبويه كما يسن للوالد أن يعمل في هبته لأولاده أي البارين فإن أراد الولد أن يزيد أحد أبويه على الآخر فالأم أولى.

(1) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، 1 / 87.

حضر أبو حنيفة درس الإمام مالك ولم يعرفه فألقى الإمام مالك سؤالاً على أصحابه فأجابه أبو حنيفة فقال: من أين الرجل؟ قال: من أهل العراق، قال: من أهل بلد النفاق والشقاق فقال: تأذن لي أن أقول شيئاً من القرآن قال: نعم فقرأ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق فقال الإمام مالك ما قال الله هكذا فقال أبو حنيفة كيف قال الله قال ومن أهل المدينة فقال الحمد لله الذي حكمت على نفسك ووُثب من مجلسه فلما عرفه أكرمه (1).

يا غلام من أين لك هذا؟!

كان الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه جالساً بين يدي الإمام مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه، فجاء رجل فقال لمالك: إني رجل أبيع القماري (2)، وإني بعت في يومي هذا قمرياً فردّه علي المشتري، وقال: قمريك لا يصيح، فحلفت له بالطلاق أنه لا يهدأ من الصياح، فقال له الإمام مالك: طلقت زوجتك ولا سبيل لك عليها وكان الإمام الشافعي يومئذ ابن أربع عشرة سنة، فقال لذلك الرجل: أيما أكثر: صياح قمريك أم سكوته؟ فقال: لا بل صياحه، فقال: لا طلاق عليك. فعلم بذلك الإمام مالك، فقال: يا غلام من أين لك هذا؟ فقال: لأنك حدثتني عن الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أم سلمة أن فاطمة بنت قيس قالت: يا رسول الله إن أبا جهم ومعاوية خطباني، فقال صلى الله عليه وسلم: أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه—. وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبا جهم كان يأكل وينام ويستريح، وقد قال صلى الله عليه وسلم: لا يضع عصاه— على المجاز، والعرب تجعل أغلب الفعلين كمدأومته، ولما كان صياح قمري هذا أكثر من سكوته، جعلته كصياحه دائماً. فتعجب الإمام رضي الله تعالى عنه من

(1) الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، 1 / 221، 2 / 315.

(2) والفُمرّي: ضرب من الطير، الذكر فُمرّي والأنثى فُمرّيّة، والجمع القُماريّ.

احتجاجه، وقال له: أفنت فقد آن لك أن تفتي فأفتى من ذلك السن(1).

من كلام الإمام مالك:

وقال الإمام مالك رضى الله عنه: ما ظهر من هذا الدين فهو حق، وما بطن منه باطل لقوله تعالى: {يُظْهِرُ عَلَى الدِّينِ كُفْلَهُ} [التوبة: ٣٣] فهو لاء إن اعتقدوا بأن الخلوة بالأحداث والنظر إليهم مباح فقد كفروا، ويجب على ولاية الأمور - أيدهم الله - قتلهم، وتطهير الأرض منهم إن لم يتوبوا. وإن اعتقدوا أنه حرام فقد فسقوا وتسقط عدالتهم فيجب على ولاية الأمور - أيدهم الله تعالى - تعزيزهم التعزيز البالغ، وزجرهم وردعهم عن ذلك فإن لم يرجعوا عن هذا قاتلوهم. وأما الذي حلفوه أنه لا يعاشر أهل السنة فإنه لا يجب بمعاشرة أهل السنة كفارة عليه فإنه مكره على اليمين انتهى. ثم أجاب بجواب آخر فقال: لاشك أن أهل السنة صفوة هذه الأمة فمن تابعهم، واقتدى بهم فقد سلك طريق الحق، وسبيل الناجحين ومن ضل عن طريقهم فقد ضل عن الهدى، وسلك طريق الهالكين. وهؤلاء قوم ارتكبوا بدعاً، ومحرّمات وأموراً منكرات لم يردعن أحد من أئمة السلف بجواز ما يفعلونه إن أصروا على ذلك، فهي من الكبائر الموبقات، وإن اعتقدوا بإباحة؛ فربما يؤدي إلى الكفر؛ لأنه من القواعد أنه من اعتقد بإباحة محرم فقد كفر؛ فيجب عليهم التوبة من ذلك، والرجوع إلى الحق، واتباع الهدى، فإن لم يفعلوا وجب على ولاية الأمور - أيدهم الله تعالى - تعزيزهم التعزيز البالغ، وزجرهم عن ذلك ورجوعهم إلى طريق الحق. وأما من أكره الحلف فلا كفارة عليه إذا رجع وتابع أهل السنة (2).

وقال الإمام مالك رحمه الله: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

خرج أهل الدنيا ولم يذوقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما هو يا أبا يحيى؟

(1) كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 2 / 352.

(2) المشتولي، سلوة الأحران للاجتنب عن مجالسة الأحداث والنسوان، 1 / 62.

قال: معرفة الله.

ما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله - عز وجل.

إن الصديقين إذا قرىء عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة.

ما من أعمال البر شيء إلا دونه عقبه؛ فإن صبر صاحبها أفضت به إلى رَوْح، وإن جزع رجع.

كم من رجل يحب أن يلقي أخاه ويزوره فيمنعه من ذلك الشغل، والأمر يعرض له، عسى الله أن يجمع بينهما في دار لا فرقة فيها.

ثم قال: وأنا أسأل الله أن يجمع بيننا وبينكم في ظل طوبى ومستراح العابدين.

قيل له: ادع لنا ربك، قال: إنكم تستبطنون المطر، وأنا أستبطن الحجارة.

إن الله - تعالى - عقوبات في القلب، والأبدان: ضنكاً في المعيشة، ووهناً في العبادة، ومسخطة في الرزق.

سمع مالك رجلاً يقول: لو أعطاني الله - تعالى - بيتاً صغيراً لرضيت به.

فقال له مالك: ليتك يا ابن أخي زهدت في الدنيا كما زهدت في الجنة.

الخوف من العمل ألا يتقبل أشد من العمل.

كفى بالمرء شراً ألا يكون صالحاً، ويقع في الصالحين.

وجد في بعض الكتب: سبحوا الله - أيها الصديقون - بأصوات حزينة.

قال لقمان لابنه: يا بني اتخذ طاعة الله تجارة تأتلك الأرباح من غير بضاعة.

ليس بحليم من نفذ غضبه في حمار، أو هرة.

أشد ما على السفیه الإعراض عن جوابه، وإظهار عدم التأثير له.

مثل الدنيا مثل الحية، مسُّها لَيِّنٌ، وفي جوفها السم القاتل، يحذرُها ذوو العقول، ويهوي إليها الصبيان.

قال موسى - عليه السلام -: يا رب أين أبغيك! قال: أبغني عند المنكسرة قلوبهم.
ما أشد فطام الكبير.

لو استطعت أن لا أنام لم أنم؛ مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعواناً لفرقتهم في سائر الدنيا كلها: يا أيها الناس! النارُ النارُ.

ما عاقب الله - تعالى - قلباً بأشد من أن يسلب منه الحياء.
لم يبق لي من رَوْح الدنيا إلا ثلاثة: لقاء الإخوان، وتهجد بالقرآن، وبيتٌ خالٍ يُذكرُ الله فيه.

الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وبعضه أفضل من بعض.
وسئل عن الإيمان فقال: قول وعمل. قيل: أيزيد وينقص؟ قال: قد ذكر الله سبحانه في غير آي من القرآن أن الإيمان يزيد، فقيل: أينقص؟ قال: دع الكلام في نقصانه وكُفِّ عنه، فقيل: فبعضه أفضل من بعض؟ قال: نعم.

وكان يقول: القرآن كلام الله، وكلام الله من الله، وليس من الله شيء مخلوق، ومن قال: القرآن مخلوق، فهو كافر، والذي يقف، أشد منه، يُسْتَنَاب وإلا ضُربت عنقه.

وسأله أبو السَّمَح قال: أيرى الله يوم القيامة؟ فقال: نعم، يقول الله عز وجل: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۖ (٢٣)} [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، وقال لقوم آخرين: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ ۖ (١٥)} [المطففين: ١٥].

وسأله الوليد بن مسلم عن هذه الأحاديث التي فيها ذكر الرؤية فقال: أمرّوها كما جاءت بلا كيف (1).

(1) (ترتيب المدارك): (1 / 170 - 171)، و(شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة): (1 /

وكان يقول: الله في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو منه شيء.

وسُئِلَ الإمام مالك: مَنْ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال: أبو بكر، ف قيل: ثُمَّ مَنْ؟ قال: عمر، قيل: ثُمَّ مَنْ؟ قال: عثمان، قيل: ثُمَّ؟ فقال: هاهنا وقف الناس، رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ أَبَا بَكْرٍ عَلَى الصَّلَاةِ، وَاخْتَارَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ، وَجَعَلَهَا عُمَرُ إِلَى سِتَّةٍ فَاخْتَارُوا، فَوَقَفَ النَّاسُ هَاهُنَا (1).

وكان يقول: إن أهل السنة، الذين ليس لهم لقب يعرفون به؛ لا جهمي ولا قَدْرِي ولا رافضي.

- وليس لمن سبَّ أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الفياء حق، قد قسم الله الفياء على ثلاثة أصناف، فقال: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ} [الحشر: ٨]، وقال: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [الحشر: ٩]، وقال: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} [الحشر: ١٠] وإنما الفياء لهؤلاء الثلاثة الأصناف.

وقال: أهل الأهواء ببئس القوم، لا يُسَلِّمُ عليهم واعتزالهم أحب إلي.

وكان رحمه الله كثيرًا ما يتمثل بقول الشاعر:

وخيّر أمور الدين ما كان سُنَّةً :: وشرُّ الأمور المحدثات البدائع (2)

رسالة الليث بن سعد إلى الإمام مالك:

ولعل من أفضل وأحسن أمثلة أدب الاختلاف تلك الرسالة العلمية الرائعة التي بعث بها فقيه مصر وإمامها وعالمها الليث بن سعد إلى الإمام مالك، يعرض عليه فيها وجهة نظره في أدب جم

(398). وانظر بعض أحاديث الرؤية في (حادي الأرواح) لابن القيم: (296 - 330)، و(شرح العقيدة الطحاوية) لابن أبي العز تحقيق د عبد الله التركي، والشيخ شعيب الأرنؤوط: (1 / 215 - 218).

(1) (ترتيب المدارك): (1 / 175).

(2) (أدب الاختلاف في الإسلام، 1 / 29).

رفيع حول كثير مما كان الإمام مالك يذهب إليه ويخالفه فيه الليث بن سعد، ونظراً لطول الرسالة نقطف منها ما يشير إلى ذلك الأدب الرفيع الذي اختلف فيه ظله سلف هذه الأمة، وكرام علمائها، يقول الليث بن سعد:

سلامٌ عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو.

أما بعد: عافانا الله وإياك، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة.

قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني، فأدام الله ذلك لكم، وأتمه بالعون على شكره، والزيادة من إحسانه، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك، وإقامتك إياها، وختمك عليها بخاتمك وقد أتننا، فجزاك الله عما قدمت منها خيراً، فإنها كتب انتهت إلينا عنك، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها.

وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة، ورجوت أن يكون لها عندي موضع وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيت فينا جميلاً، إلا أنني لم أذكرك مثل هذا، وأنه بلغك أنني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وإنني يحق علي الخوف على نفسي لا اعتماد من قبلي على ما أفتيتهم به، وأن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن.

وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى، ووقع مني بالموقع الذي تحب، وما أجد أحداً يُنسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا، ولا أشد تفضيلاً لعلماء أهل المدينة الذين مضوا، ولا أخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه مني، والحمد لله رب العالمين لا شريك له.

وأما ما ذكرت من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، ونزول القرآن بها عليه بين ظهرائي أصحابه، وما علمهم الله منه، وأن

الناس صاروا به تبعاً لهم فيه، فكما ذكرت.

وأما ما ذكرت من قول الله تعالى: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. فإن كثيراً من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، فجددوا الأجناد، واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كآب

الله وسنة نبيه، ولم يكتموا شياً علموه وكان من خلاف ربيعة لبعض ما مضى ما قد عرفت، وحضرت وسمعت قولك فيه، وقول ذوي الرأي من أهل المدينة: يحيى بن سعيد، وعبيد الله بن عمر، وكثير بن فرقد، وغير كثير ممن هو أسنُّ منه، حتى اضطررت ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه.

وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نقيب على ربيعة من ذلك، فكنتما من الموافقين فيما أنكرت؛ تکرهان منه ما أكرهه، ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير، وعقل أصيل، ولسان بليغ، وفضل مستبين، وطريقة حسنة في الإسلام، ومودة صادقة لإخوانه عامة، ولنا خاصة، رحمه الله، وغفر له، وجزاه بأحسن ما عمله إلى أن قال في ختام رسالته. وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وما أخاف من الضيعة إذا ذهبَ مثلك مع استئناسي بمكانك، وإن نأت الدار، فهذه منزلتك عندي، ورأيت فيك فاستيقن، ولا تترك الكتاب إليّ بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك، وحاجة إن كانت لك، أو لأحدٍ يُوصَلُ بك، فأني أسرُّ بذلك.

كتبت إليك، ونحن صالحون، معافون، والحمد لله.

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولينا، وتما ما أنعم به علينا،

والسلام عليك، ورحمة الله (1).

إن الإمام مالكا عليه رحمة الله يقول: (لا يؤخذ هذا العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا من رجل له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل ويحدث به).

وقال أيضا: (إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الأساطين (وأشار إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم) فما أخذت عنهم شيئا، وإن أحدهم لو أؤتمن على بيت مال كان أميئا، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، وقدم علينا ابن شهاب فكنا نزدحم على بابه) (2).

العلم ينقص ولا يزيد ولم يزل العلم ينقص بعد الأنبياء والكتب. والله ما دخلت على ملك من هؤلاء الملوك حتى أصل إليه إلا نزع الله هيبته من صدري.

اعلم أنه فساد عظيم أن يتكلم الإنسان بكل ما يسمع. ما تعلمت العلم إلا لنفسي وما تعلمت ليجتاح الناس إلي وكذلك كان الناس.

ليس هذا الجدل من الدين بشيء. لا يؤخذ العلم عن أربعة سفيه يعلن السفه وإن كان أروى

(1) محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين دراسة وتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة، 1388هـ/1968م، 103/3.

(2) طه جابر فياض العلواني، أدب الاختلاف في الاسلام، 1 / 29.

الناس وصاحب بدعة يدعو إلى هواه ومن يكذب في حديث الناس وإن كنت لا أتهمه في الحديث وصالح عابد فاضل إذا كان لا يحفظ

يحدث به (1).

* * *

(1) المصدر: جماع العلم للشافعي: (242)، تاريخ خليفة بن خياط: 1 / 432، 2 / 719، طبقات خليفة: 275، المعارف لابن قتيبة: 498 - 499، المنتخب من كتاب ذيل المذيل للطبري: 106، 107، مشاهير علماء الأمصار: ت (1110)، الحلية: 6 / 316، الفهرست لابن النديم مع تراجم أصحابه: 280 - 284، أنساب العرب لابن حزم: 1 / 435، 436، الفهرست للطوسي: ت (740)، الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء: 9 - 63، طبقات الشيرازي: 67، ترتيب المدارك: 1 / 102 - 254، المبهمات في الحديث للنووي: 34 / 2، جزء فيه الأحاديث التي خولف فيها مالك بن أنس: تخريج الدارقطني 255 / 1 / 269، 2، تذكرة الحفاظ لابن عبد الهادي: 49 / 2، صفة الصفوة: 2 / 177 - 180، الكامل لابن الأثير، 6 / 147، تهذيب الأسماء واللغات للنووي: 2 / 75 - 79، وفيات الأعيان 4 / 135 - 139، تهذيب الكمال: 1297، تذكرة الحفاظ: 1 / 207 - 213، العبر للذهبي: 1 / 272، مرآة الجنان للياقعي: 1 / 373 - 377، البداية والنهاية: 10 / 174 - 175، الديباج المذهب: 1 / 55 - 139، تهذيب التهذيب:

10 / 5، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 2 / 96 - 97، شرح البخاري للقسطلاني: 1 / 6، مفتاح السعادة طاش كبري زاده: 2 / 12، 84 - 88، التاريخ الكبير: 7 / 310، التاريخ الصغير 2 / 220، الطبقات الكبرى للشعراني: 45، شذرات الذهب: 2 / 12 - 15، تهذيب التهذيب: 4 / 14 - 2 / 1، الكاشف: 3 / 112، تاريخ ابن معين: 2 / 543 - 546، الأنساب: 1 / 287، الباب: 1 / 69، الرسالة المستطرفة: 13، مروج الذهب: 3 / 350، طبقات الحفاظ: 89، تاريخ الخميس: 2 / 333، طبقات القراء: 2 / 35. كتاب جامع الأصول - (1 / 180).

الفقيه القاضي شريك بن عبد الله

شريك بن عبد الله

أعلام الفقهاء

الفقيه القاضي شريك بن عبد الله

في مدينة (بُخارى) بجمهورية أوزبكستان الإسلامية الآن، وُلِدَ شريك بن عبد الله النخعي سنة خمس وتسعين للهجرة، ولمَّا بلغ من العمر تسع سنوات أتم حفظ القرآن الكريم، ثم درس الفقه والحديث، وأصبح من حفاظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي مدينة الكوفة اشتهر بعلمه وفضله، فأخذ يعلم الناس ويفتيهم في أمور دينهم، وكان لا يبخل بعلمه على أحد، ولا يُفَرِّقُ في مجلس علمه بين فقير وغني.

وقد عُرِضَ عليه أن يتولى القضاء لكنه امتنع وأراد أن يهرب من هذه المسؤولية العظيمة، خوفاً من أن يظلم صاحب حق، فعندما دعاه الخليفة المنصور، وقال له: إني أريد أن أوليك القضاء، قال شريك: اعفني يا أمير المؤمنين، قال: لست أعفيك.. فقبل تولي القضاء، وأخذ شريك ينظر في المظالم ويحكم فيها بالعدل، ولا يخشى في الله لومة لائم.

وقد أثني عليه العلماء والفقهاء فعن عباد بن عمار قال: قدم علينا مَعْمَر وشريك فتركنا مَعْمَرًا وكتبنا عن شريك قلت له: لم ؟ قال: كان أرجح عندنا منه.

عن ابن المبارك قال: بقي بالعراق رجلان: شريك وشعبة؛ فلما بلغ سُفْيَان أن شريكاً استقضى قال: أي رجل أفسدوا.

وخُفِّ شريكٌ ثلثمائة ألف درهم، وما فيها دينار واحد.

قال معاوية بن صالح الأشعري: سألت أحمد بن حنبل عن شريك، فقال:

كان عاقلاً، صدوقاً، محدثاً، وكان شديداً على أهل الريب والبدع، قديم

السماع من أبي إسحاق قبل زهير، وقبل إسرائيل.

فقلت له: إسرائيل أثبت منه؟ قال: نعم. قلت له: يحتج به؟ قال: لا تسألني عن رأيي في هذا. قلت: فإسرائيل يحتج به؟ قال: إي لعمرى. مات بالكوفة، في أول شهر ذي القعدة، سنة سبع. وعاش: اثنتين وثمانين سنة.

وقال خليفة بن خياط: مات سنة سبع أو ثمان وسبعين ومائة، رحمه الله تعالى. وكان هارون الرشيد بالحيرة، فقصده ليصلي عليه فوجدهم قد صلوا عليه، فرجع.

[أدرك عمر بن عبد العزيز وسمع أبا إسحاق السبيعي ومنصور بن المعتمر وعبد الملك بن عمير وسماك بن حرب وغيرهم، وروى عند عبد الله بن المبارك وعباد بن العوام ووکیع بن الجراح وغيرهم. وكان عالماً فهماً كيساً فظناً، وكان عادلاً في قضائه كثير الصواب حاضر الجواب.

مواقف من حياته:

هكذا يطلب العلم:

يحكى أن أحد أبناء الخليفة المهدي دخل عليه، فجلس يستمع إلى دروس العلم التي يلقيها شريك، وأراد أن يسأل سؤالاً؛ فسأله وهو مستند على الحائط، وكأنه لا يحترم مجلس العلم، فلم يلتفت إليه شريك، فأعاد الأمير السؤال مرة أخرى، لكنه لم يلتفت إليه وأعرض عنه؛ فقال له الحاضرون: كأنك تستخف بأولاد الخليفة، ولا تقدرهم حق قدرهم؟ فقال شريك: لا، ولكن العلم أزين عند أهله من أن تضيّعه، فما كان من ابن الخليفة إلا أن جلس على ركبتيه ثم سأله، فقال شريك: هكذا يطلب العلم.

اقض علي وعلى ولدي:

أخبرني محمد بن زكريا بن دينار، قال: حَدَّثَنَا علي بن الحسن الشبرمي ابن

أخت شريك لما دعا المهدي شريكاً ليوليه القضاء قَالَ لَهُ شَرِيكَ: لا أصلح لذلك. قال: ولم ؟ قَالَ: إن بي ننتأ، قال: عليك بمضغ اللبان قال: إني حديد قَالَ: قد فرض لك أمير المؤمنين فالوذجة توفرك، قال: إني أمرؤ أقضي على الوارد والصادر، قَالَ: اقض علي وعلى ولدي؛ قال: فاكفني حاشيتك، قال: قد فعلت.

تشدد شريك بن عبد الله في إحقاق الحق:

عن عمر بن الهيام بن سعيد، قال: أنته امرأة يوماً - يعني شريكاً - من ولد جرير بن عبد الله البجلي صاحب النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مجلس الحكم، فقالت: أنا بالله ثم بالقاضي، امرأة من ولد جرير بن عبد الله صاحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ورددت الكلام، فقال: إيهأ عنك، الآن من ظلمك؟ قالت: الأمير عيسى بن موسى، كان لي بستانٌ على شاطئ الفرات، لي فيه نخلٌ، ورثته عن آبائي، وقاسمت إخوتي، وبنيت بيني وبينهم حائطاً، وجعلت فيه رجلاً فارسياً في بيتٍ يحفظ لي النخل ويقوم ببستاني، فاشترى الأمير عيسى من إخوتي جميعاً وسامني فأرغبني فلم أبعه، فلما كان في هذه الليلة بعث خمسمائة فاعلٍ فاقتلوا الحائط، فأصبحت لا أعرف من نخلي شيئاً واختلط بنخل إخوتي. قال: يا غلام! طينة، فختم لها خاتماً، ثم قال لها: امضي به إلى بابه حتى يحضر معك.

فجاءت المرأة بالطينة فأخذها الحاجب ودخل على عيسى، فقال له: أعدي شريكٌ عليك، قال له: ادع لي صاحب الشرطة، فدعا به، فقال: امض إلى شريك فقل له: يا سبحان الله! ما رأيت أعجب من أمرك، امرأة ادعت دعوى لم تصح، أعديتها علي؟ فقال: إن رأى الأمير أن يعفني فليفعل، فقال: امض ويليكَ.

فخرج فأمر غلمانه أن يتقدموا إلى الحبس بفراشٍ وغير ذلك من آلة الحبس، فلما جاء وقف بين يدي شريك القاضي فأدى الرسالة، فقال لصاحبه: خذ بيده فضعه في الحبس، قال: قد - والله يا أبا عبد الله - عرفت

أنك تفعل بي هذا، فقدمت ما يصلحني إلى الحبس.

قال: وبلغ عيسى بن موسى ذلك فوجه بحاجبه إليه، فقال: هذا من ذاك، رسول أي شيء أنت؟ فأدى الرسالة، فألقه بصاحبه فحبس.

فلما صلى الأمير العصر بعث إلى إسحاق بن صباح الأشعثي وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء شريك، فقال: امضوا إليه وأبلغوه السلام وأعلموه أنه قد استخف بي، فإني لست كالعامّة.

فمضوا وهو جالس في مسجده بعد العصر، فدخلوا إليه فأبلغوه الرسالة، فلما انقضى كلامهم، قال لهم: مالي لا أراكم جئتم في غيره من الناس؟! من هاهنا من فتیان الحي؟ فابتدروه، فقال: يأخذ كل واحد منكم بيد رجل من هؤلاء فيذهب به إلى الحبس، لا بتم - والله - إلا فيه، قالوا: أجاد أنت؟ قال: حقا، حتى لا تعودوا تحملوا رسالة ظالم، فحبسهم.

فركب عيسى بن موسى في الليل إلى باب الحبس ففتح الباب وأخذهم جميعاً، فلما كان من الغد وجلس شريك للقضاء، جاء السجان وأخبره، فدعا بالقمطر فختمها ووجه بها إلى منزله، وقال لغلّامه: الحقني بثقلي إلى بغداد، والله ما طلبنا هذا الأمر منهم، ولكن أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا الإعزاز فيه.

ومضى نحو قنطرة الكوفة يريد بغداد، وبلغ عيسى بن موسى الخبر، فركب في موكبه فلحقه وجعل يناشده الله ويقول: يا أبا عبد الله! تثبت، انظر إخوانك تحبسهم؟ دع أعواني، قال: نعم، لأنهم مشوا لك في أمر لم يجب عليهم المشي فيه، ولست ببأرح أو يردوا جميعاً إلى الحبس، وإلا مضيت من فوري إلى أمير المؤمنين فاستعفيته فيما قلدني.

فأمر بردهم جميعاً إلى الحبس، وهو - والله - واقف مكانه حتى جاء السجان، فقال: قد رجعوا إلى الحبس، فقال لأعوانه: خذوا بلجامه قودوه بين يدي إلى مجلس الحكم، فمروا به بين يديه حتى دخل المسجد، وجلس

مجلس القضاء، ثم قال: الجريرية المتظلمة من هذا؟ فجاءت، فقال: هذا خصمك قد حضر، فلما جلس معها بين يديه قال: يخرج أولئك من الحبس قبل كل شيء، ثم قال: ما تقول فيما تدعيه هذه؟ قال: صدقت، فقال: ترد جميع ما أخذ منها إليها وتبني حائطها في أسرع وقت، كما هدم، قال: أفعل، أبقى لك شيء؟ قال: تقول المرأة: نعم، وببيت الفارسي ومتاعه، قال: وبيت الفارسي ومتاعه، فقال شريك: أبقى شيء تدعيه عليه؟ قالت: لا، وجزاك الله خيراً، قال: قومي، وزبرها، ثم وثب من مجلسه فأخذ بيد عيسى بن موسى فأجلسه في مجلسه، ثم قال: السلام عليك أيها الأمير، تأمر بشيء؟ قال: بأي شيء أمر؟ وضحك (1).

لا بد للناس من قاضي:

عن زيد بن أبي خدّاش قال: لقي سفيان شريكاً بعد ما ولي قضاء الكوفة، فقال: يا أبا عبد الله بعد الإسلام والفقّه والخير تلي القضاء وصرت قاضياً؟! فقال له شريك: يا أبا عبد الله لا بد للناس من قاضي؛ فقال له سفيان: يا أبا عبد الله لا بد للناس من شرطي (2).

إِذَا شئتَ فَعَد:

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ حَمْزَةَ الْعُلُوِي، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو عُثْمَانَ الْمَازَنِي، قَالَ: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِي عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي شَرِيكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: سَعَى ابْنُ الرَّبِيعِ إِلَى الْمَهْدِيِّ وَزَعَمَ أَنِّي رَافِضِي، قَالَ: فَأَرْسَلُ إِلَيَّ فَأَخَذْتُ أَخْذًا عَنِيفًا وَعَلَى كُمِّهِ لَاطِنَةٌ وَكَسَاءٌ أَبْيَضٌ وَخِفَانٌ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَسَلَمْتُ، فَقَالَ: لَا سَلَامَ اللَّهُ عَلَيْكَ! قَالَ: قُلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِنَحِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا} [النساء: ٨٦]، فَوَ اللَّهِ مَا حَبِيتَنِي بِأَحْسَنَ مِنْ تَحِيَّتِي وَلَا رَدَدْتَهَا عَلَيَّ، قَالَ: أَلَمْ أُوَطِّ الرِّجَالَ عَقْبِيكَ وَأَنْتَ رَافِضِي مُلْعُونٌ! قَالَ: قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِثْلَكَ لَا يَمُنُ بِمَعْرُوفِهِ،

(1) المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح، 1 / 139 - 140.

(2) أبو نعيم، الحلية، 47/7.

وأما قولك: إني رافضي، فإن كان الرافضي مَنْ أَحَبَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفاطمة وعلياً والحَسَنَ والحسينَ صلوات الله عليهم أجمعين، فأنا أشهد الله وأشهدك أنني رافضي أتبعهم يا أمير المؤمنين. قال: معاذ الله، ثم قال: ما أحسبنا إلا وقد روعناك، هاتوا بدرة، فأتوا ببدره فدفعت إلي فحملها على عنقي، فلما خرجت قال لي الربيع: كيف رأيت؟ قال: قلت: إذا شئت فعد.

مثل هذا يطاء بساط أمير المؤمنين؟!

أخبرني طلحة بن عبد الله بن مُحَمَّد بن إسماعيل النيمي قال: حَدَّثَنِي أَحْمَد ابن إبراهيم بن إسماعيل بن داود، قال: تناظر عبد الله بن مصعب وشريك بين يدي المهدي فلم يدرك عبد الله شريكاً لتبحره، فقال عبد الله: مثل هذا يطاء بساط أمير المؤمنين؟ قال شريك: فمن يطاء بساط أمير المؤمنين؟ والله إني لقارئ للقرآن عالم به وبالتعبير، راوية للحديث والفقه، وإني لرجل من العرب متوسط في قوس. فقال عبد الله: إنك تشتم أبا بكر وعمر، فقال شريك: والله ما استحللت ذلك من الزبير، فكيف أستحلته من أبي بكر وعمر.

لا بأس به:

قال منصور بن أبي بكر بن أبي مزاحم: اجتمع عند أبي عبد الله الحسين ابن يزيد، الحسن وناس من أهل المدينة فتذاكروا النبيذ فأجمعوا على تحريمه، ودخل شريك فجلس فقال أبو عبيد الله لشريك: يا أبا عبد الله ما تقول في النبيذ؟ فقال: لا بأس به.

أهل الحديث أشد صيانة للحديث من أن يعرضوه للتكذيب:

عن عمرو بن ميمون قال: قال عمر: نأكل هذا اللحم الغليظ ونشرب عليه النبيذ نقطعه في بطوننا، فقال: الحسن بن زيد: ما سمعنا بهذا، فقال له شريك: أجل والله، شغلك الجلوس على الطنافس في صدور المجالس أن تسمع بهذا، قال: ثم سكت وسكتوا. قال أبو عبد الله لشريك: تحدث يا أبا عبيد الله! قال شريك: أهل الحديث أشد صيانة للحديث من أن يعرضوه

ما ظننت أنني أبقي حتى أرى في الدنيا مثلك:

عَنْ الْحَسَنِ بْنِ قحطبة قال: غدوت على المهدي بغلس (1) فدخلت عليه فسلمت فرد السلام وما قال لي: اقعد، ثم قال للخادم: انظر من الباب؟ قال: شريك، قال: علي بجراب السيوف، قال الحسن: فاشتملتني رعدة ثم قال: انذن له فدخل شريك فسلم فلم يرد عليه السلام، ثم قال: قتلني الله إن لم أقتلك، قال: ولم ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت في النوم أني مقبل عليك أكلمك وأنت تجيني من قفاك، فأرسلت إلى المعبر فقال: هذا رجل يطا بساطك مخالفاً لك. فقال له شريك: إن رؤياك ليست رؤيا يوسف بن يعقوب، وإن الدماء لا تستحل بالأحلام، قال: فنكس المهدي ساعة ثم قال: بيده هكذا: أي اخرج، ثم أقبل عليّ المهدي فكلمني ثم خرجت، فإذا شريك واقف فقال لي: أما رأيت ما أراد أن يصنع هذا بنا؟ فقلت: لله درك، ما ظننت أنني أبقي حتى أرى في الدنيا مثلك.

يا غلام اضمن ثمن العود:

حَدَّثَ أَبُو الْعِينَاء مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ قال: سمعت علي بن صالح صاحب المصلى يقول: دخل شريك على المهدي فأراد أن يعجزه فقال: يا غلام أعطني عوداً، قال: فجاء بالعود الذي يغني به، فلما رآه المهدي استحيى من شريك، ثم قال: هذا أخذه صاحب العسس البارحة فأحببت أن يكون كسره بحضرتك، ثم قال: يا أبا عبد الله، ما تقول فيمن أمر بأمر فخالف إلى غيره، فتلّف الشيء؟ قال: يضمن، قال: فقال: يا غلام اضمن ثمن العود.

ولو أخذوا بالحزم ما سمنوا الكلبا:

(1) الغلس: بفتح الحاء: ظلام آخر الليل، و " غلس " القوم " تغليسا " خرجوا " بغلس "، و " غلس " في الصلاة صلاها " بغلس " ..

قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ هِشَامِ الْمَهْدِيِّ، : حَدَّثَ الْحَارِثُ بْنُ إِدْرِيسَ أَنَّ شَرِيكَاً دَخَلَ عَلَى هَارُونَ فِي أَوَّلِ وَلَايَتِهِ وَعِنْدَهُ أَبُو يُوسُفَ يَتَحَاوَرُ الْكَلَامَ، فَدَخَلَ أَبُو يُوسُفَ فِي كَلَامِهِمَا يَرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ شَرِيكَاً، فَقَالَ شَرِيكَ: يَا يَعْقُوبُ: هُمْ سَمَنُوا كَلْباً لِأَكُلَ لَحْمَهُمْ :: وَلَوْ أَخَذُوا بِالْحَزْمِ مَا سَمَنُوا الْكَلْبَ

اذهب فلا حاجة لنا في معونتك:

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ دَاوُدَ: وَلِيَ الْمَهْدِيُّ شَرِيكََ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسَمَ بِالْكُوفَةِ وَهُوَ يَوْمُئِذٍ قَاضٍ عَلَيْهَا يَقْسِمُ فَأَعْطَى الْعَرَبِي اثْنِي عَشَرَ، وَأَعْطَى الْمَوْلَى ثَمَانِيَةَ، وَأَعْطَى مِنْ حَسَنِ إِسْلَامِهِ أَرْبَعَةَ فَضَجَ الْمَوَالِي وَالْعَجَمُ مِنْ ذَلِكَ، فَجَعَلَ يَسْأَمُ الْعَجَمَ وَيَسْأَمُونَهُ وَيَغِيظُهُمْ وَيَتَقَوْنَهُ، ثُمَّ كَلِمَهُ الْمَوَالِي، فَقَالَ لَهُمْ: أَرَأَيْتُمْ أَنْتُمْ مَا حَجَّتْكُمْ عَلَيَّ؟ قَالُوا: فَضَلْتَ الْعَرَبَ عَلَيْنَا بِأَرْبَعَةٍ، قَالَ: هَذِهِ أَرْبَعَةٌ أَخَذْتُهَا مِنَ النَّبْطِ فَأَعْطَيْتُهَا الْعَرَبَ وَلَمْ أَنْقُصْكُمْ أَنْتُمْ شَيْئاً.

وَكَانَ شَرِيكَ دَعَا عَيِّنَةَ الْقَارِئِ لِيَقْسِمَ مَعَهُ فَقَالَ لَهُ: هَذَا ظَلَمَ وَلَسْتُ أَدْخُلُ فِيهِ، قَالَ: لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَاؤَدِبُنْكَ، فَقَالَ: حَدَّثَنَا شَرِيكَ بِإِسْنَادٍ لَمْ يَحْفَظْهُ أَحْمَدُ قَالَ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ وَلَّى تَوْزِيعَ الْقَسَمِ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْمَصْرِ رَجُلَ فَغَضِبَ بَيْنَ الْمَوَالِي وَالْعَجَمِ وَالْعَرَبِ لِغَيْرِ وَشَدَّةٍ، قَالَ: اذْهَبْ فَلَا حَاجَةَ لَنَا فِي مَعُونَتِكَ.

زعموا أنك فاطمي:

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ: كَانَ أَبُو سَيْفٍ وَعَافِيَةُ الْأَوْدِيِّ يَحْسُدَانِ شَرِيكَاً وَيَقْعَانِ بِهِ وَيُعَيِّبَانِهِ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ، وَإِذَا حَضَرَ لَمْ يَشْقَا غِبَارَهُ وَلَمْ يَتَكَلَّمَا مَعَهُ، فَقَالَا لَهُ: إِنَّهُ فَاطِمِي يَرَى شِقَ عَصَا الْمُسْلِمِينَ وَالْخُرُوجَ عَلَى الْأُئِمَّةِ، وَدَخَلَ شَرِيكَ عَلَى نَفِيهِ، ذَلِكَ، قَالَ لَهُ هَارُونُ: زَعَمُوا أَنَّكَ فَاطِمِي، فَقَالَ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ فَاطِمَةَ وَأَبَا فَاطِمَةَ وَزَوْجَ فَاطِمَةَ وَابْنِي فَاطِمَةَ أَتُبْغِضُهُمْ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَا ذَكَرَ الْعَزْمَ فِي مَجْلِسِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ هَارُونُ: صَدَقَ مَا

ذكركم العزم. فَقَالَ شريك: ما هَذَا وَهَذَا المجلس؟ أما هَذَا فرأينا أباه فلاسًا يعني أبا يوسف، وأما هَذَا فرأيتُه رائضًا بالأمس، فحدثت علي بن حكيم بهَذَا الحديث فقال: إنما كان عاملاً على رستاق في حادثته.

ليس لي بأخ:

عَنْ عَبْدِ السَّلامِ بْنِ حَارِثٍ قَالَ: قُلْتُ لَشَرِيكِ: هَلْ لَكَ فِي أَخٍ لَكَ تَعُودُهُ؟ قَالَ: مَنْ هُوَ؟ قُلْتُ: مَالِكُ بْنُ مَغُولٍ، قَالَ: لَيْسَ لِي بِأَخٍ مِنْ أَزْرَى عَلَى عَلِي وَعَمَارٍ.

صاحبك الهم:

حَدَّثَ مُوسَى بْنُ طَالِبٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ لَشَرِيكِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنِّي فِي نَاحِيَةٍ مَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَذْكَرَ فَضْلَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، قَالَ: صَاحِبُكَ الِّهْمُ، مَا أَدْرَكَتُ أَحَدًا يُفْضِلُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ عَلِيًّا إِلَّا أَصْلَبْتَهُ مَفْتَضَحًا، قُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنِّي لِي قَرَابَةٌ مِنَ الرَّافِضَةِ أُعْطِيهِمْ مِنَ الزَّكَاةِ؟ قَالَ: لَا.

هم الملوك يعزلون ويخلعون:

قَالَ سَلِيمَانُ بْنُ أَبِي شَيْخٍ: قَالَ مُوسَى بْنُ عِيسَى لَشَرِيكِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَزَلُوكَ عَنِ الْقَضَاءِ. فَقَالَ: مَا رَأَيْنَا قَاضِيًا عَزَلَ قَالَ: هُمُ الْمُلُوكُ يَعْزِلُونَ وَيُخْلَعُونَ. يَعْرِضُ أَنْ أَبَاهُ خَلَعَ.

يا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا مِيدَانُ لَا نَجَارِيكَ فِيهِ:

حَدَّثَ إِسْحَاقُ بْنُ الْقِصَارِ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِ أَنَّ الْقَاسِمَ ابْنَ مَعْنٍ حَضَرَ شَرِيكَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ عِنْدَ مُوسَى بْنِ عِيسَى، فَقَالَ الْقَاسِمُ لَشَرِيكِ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ رَمَى رَجُلًا بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ: يَرْمِي بِسَهْمٍ فَيَقْتُلُ؛ قَالَ لَهُ الْقَاسِمُ: فَإِنْ لَمْ يَقْتُلْهُ أَيْرْمَى بِآخِرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَفَتَتَّخِذُهُ غَرَضًا؟ فَقَالَ لَهُ شَرِيكَ: لَمْ تَمُوقْ (1) فَقَالَ الْقَاسِمُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا مِيدَانُ لَا نَجَارِيكَ فِيهِ، أَنْتَ فِيهِ سَابِقٌ يَعْنِي الْبِذَاءَ.

(1) الْمُؤَقُّ: حُمُقٌ فِي غَبَاوَةٍ.

وما يضر عالماً إن جهل جاهل:

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمَوْصِلِيُّ: حَدَّثَ شَرِيكَ يَوْمًا عِنْدَ أَبِي عُبَيْدِ اللَّهِ بِحَدِيثٍ فَقَالَ عَافِيَةُ الْقَاضِي: مَا سَمِعْنَا هَذَا الْحَدِيثَ، فَقَالَ شَرِيكَ: وَمَا يَضُرُّ عَالِمًا إِنْ جَهِلَ جَاهِلٌ.

لقد صدقت ولكن بئسما ولدوا:

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ إِدْرِيسَ: كُنَّا عِنْدَ شَرِيكَ وَعِنْدَهُ عَصَابَةٌ، فَجَاءَ غُلَامٌ عَلَيْهِ صُوفٌ فَتَخَطَّى حَتَّى جَلَسَ إِلَى جَانِبِ شَرِيكَ، فَقَالَ شَرِيكَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ فَانْتَهَى إِلَى الْأَنْصَارِ، فَقَالَ شَرِيكَ: لَنْ فُخِرْتُ بِآبَاءٍ مَضَوْا سَلَفًا :: لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بئسما ولدوا

إني لأظنك زنديقاً:

حَدَّثَ أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ دَاوُدَ، قَالَ مُوسَى بْنُ عِيسَى لَشَرِيكَ: بَلَّغْنِي أَنْكَ تَوَرَّثَ بَنِي الْبَنَاتِ، قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: إني لأظنك زنديقاً! قَالَ: الزنديق يشرب الخمر وينكح حرم أبيه ولم أفعل أنا ذاك قط، فكيف أكون زنديقاً؟ قَالَ: غَضِبْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: إِنَّكَ لَمْ تَعْنُ غَيْرِي.

ارجع فلا شهادة لك عندي:

وَذَكَرَ مُسْلِمٌ بْنُ جُنَادَةَ عَنْ أَبِي نَعِيمٍ قَالَ: كَانَ شَرِيكَ لَا يُجِيزُ شَهَادَةَ الرَّافِضَةِ وَلَا الْمَرْجُئَةِ، قَالَ أَبُو نَعِيمٍ: وَنَظَرَ شَرِيكَ إِلَى رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ زَكْرِيَّا ابْنُ يَحْيَى فَقَالَ لَهُ شَرِيكَ: أَلَسْتَ الَّذِي يَقُولُ: الصَّلَاةُ لَيْسَتْ مِنَ الْإِيمَانِ فِي شَيْءٍ، ارجع فلا شهادة لك عندي.

فقد خون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم :

عَنْ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ، قَالَ: كَانَ شَرِيكَ يَقُولُ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ كَانَ فِي الشُّوْرَى خَيْرٌ مِنْ عُثْمَانَ فَقَدْ خُونُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ الطَّلْحِيُّ: فَحَدَّثْتُ بِهِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ دَاوُدَ الْجَرْمِيَّ فَقَالَ: رَحِمَ اللَّهُ عُثْمَانَ وَرَحِمَ اللَّهُ شَرِيكَ أَنَا أَقُولُ كَمَا قَالَ.

ضع قلمنا والحق بأهلك:

قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْخٍ: كَانَ لَشَرِيكَ كَاتِبٌ يُقَالُ لَهُ: أَبُو إِسْرَائِيلَ وَهُوَ أَسْنَمٌ مِنْ شَرِيكَ، فَجَاءَ شَرِيكَ يَوْمًا إِلَى مَجْلِسِ الْقَضَاءِ. وَقَامَ يَرْكَعُ فَدَنَا رَجُلٌ مِنَ الْكَاتِبِ فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْقَاضِي، قَالَ: مَتَى يَجْلِسُ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فَاَنْتَقَلَ شَرِيكَ، فَقَالَ: ضَعْ قَلَمَنَا وَالْحَقَّ بِأَهْلِكَ، فَغَضِبَ أَبُو إِسْرَائِيلَ وَقَالَ: مَا شَيْءٌ أَغِيظُ إِلَيَّ مِنْ قَوْلِهِ ضَعْ قَلَمَنَا، لَيْتَ ذَلِكَ الْقَلَمُ فِي عَيْنِيهِ.

إنما كان يغضب مما يرد عليه مما لا يعرف الجواب فيه:

قَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ حَمَادٍ بْنُ الْقَاسِمِ بْنُ مَعْنٍ كُنْتُ أَرَى شَرِيكَاً يَغْضَبُ عَلَى الْخَصْمِ، فَأَعْجَبَ مِنْ غَضَبِهِ وَأَقُولُ: أَمْرُهُ نَافِذٌ وَقَوْلُهُ جَائِزٌ فَفِيمَ الْغَضَبِ؟ فَلَمَّا وَلِيَتِ الْقَضَاءَ جَعَلَتْ أَكْلَمَ الْخَصُومِ فَلَا أَغْضَبَ إِذَا وَرَدَ عَلَيَّ الْأَمْرُ لَا أَعْرِفُهُ غَضِبْتَ إِذَا شَرِيكَ إِنَّمَا كَانَ يَغْضَبُ مِمَّا يَرُدُّ عَلَيْهِ مِمَّا لَا يَعْرِفُ الْجَوَابَ فِيهِ.

فكلمه يحبسني:

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي شَيْخٍ، قَالَ: دَخَلْتُ سَكَّةَ الْبَرِيدِ بِوَاسِطَةٍ فِي حَاجَةٍ لِي فَلَمَّا خَرَجْتُ تَلَقَانِي شَرِيكَ عَلَى دَابَّةٍ مِنْ دَوَابِّ الْبَرِيدِ مَعَهُ حَرْسِي عَلَى دَابَّةٍ أُخْرَى فَدَخَلَ السَّكَّةَ، فَارْجَعْتُ فَسَلِمْتُ عَلَيْهِ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ الْحَاجَةَ فَقَالَ: إِنْ كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ صَاحِبِ الْبَرِيدِ مَعْرِفَةٌ فَكَلِمَةٌ يَحْبِسُنِي مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ، فَإِنْ هَذَا الْحَرْسِي قَدْ أَتَعَبَنِي، فَكَلِمَةٌ فَحْبَسَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَالْحَرْسِي يَعْجَلُهُ حَتَّى حَمَلَهُ بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَمَضَى بِهِ إِلَى الْأَهْوَازِ فَأَجْلَسَهُ عَلَى الْقَضَاءِ، فَجَلَسَ فَجَعَلَ لَا يَتَكَلَّمُ حَتَّى قَامَ فَهَرَبَ وَاخْتَفَى، وَيُقَالُ: إِنَّهُ اخْتَفَى عِنْدَ الْوَالِي وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَبْدِيِّ.

أفت بهذا أهل دار بلال:

قَالَ يَزِيدُ بْنُ نُوحٍ النَّخْعِيُّ وَكَانَ مِنْ أَعْوَانِ شَرِيكَ: قَدِمَ ابْنُ إِدْرِيسَ إِلَى شَرِيكَ فِي وَصِيَّةٍ. فَأَمَرَ بِهِ إِلَى الْحَبْسِ وَالْحَبْسُ يَوْمئِذٍ فِي دَارِ بَلَالٍ، فَالْتَقَتْ

إلى شريك وهو يذهب به إلى الحبس يقول: الحكم في كذا وكذا يفتيه، فقال له شريك: أفت بهذا أهل دار بلال.

ما تقول في التعزية عند القبر:

قال رجل لشريك: يا أبا عبد الله، ما تقول في التعزية عند القبر وقد عزى الرجل قبل ذلك؟ فضحك شريك وقال: هذا ينبغي أن يشهد بالموافاة يعني بمجيئه.

بلغك أني مأوى الضالة!

قال ابن أبي شريح: جاء رجل إلى شريك وهو على القضاء بكيس فقال: إن رجلاً من أهل خراسان خلف عندي هذا وأول عبيه وخرج للحج فلم يرجع قال: فتريد ماذا؟ قال: تصيره عند بعض أصحابك إلى أن يجيء صاحبه، فقال له شريك: بلغك أني مأوى الضالة! وأبى أن يقبله.

بأي شيء تستحل رد شهادتنا!

عن النميري قال: تقدم إلى شريك محمد بن الصباح وحماد بن أبي حنيفة فشهدوا عنده بشهادة، فلما نظر إليهما قد أقبلًا قال: ها هنا ها هنا إلي يرفعهما في المجلس، فعلم أنه قد رد شهادتهما فانثنى محمد منصرفاً وجلس حماد بين يديه فقال: بأي شيء تستحل رد شهادتنا؟ قال: بتصدرك وتصدر أبيك في هذا المسجد تدعوان إلى البدع وخلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أراد أن يخطئ فأصاب:

عن ابن أبي شريح، قال: حدّثني بعض الكوفيين قال: قال رجل لشريك: رجل لا يرى القنوت في الفجر، فأراد ألا يقنت فيها فقنت، فقال شريك: أراد أن يخطئ فأصاب.

من أعز الله أعزه:

عن عمير بن هياج بن سعيد الهمداني ابن أخي مجالد قال: كنت في

صحابه شريك فأنته يوماً وهو في منزله فخرج في فرو ليس تحته قميص عليه كساء فقلت: قد أضحيت عن مجلس الحكم، فقال: غسلت ثيابي أنتظر جفوفها، فجلسنا نتذاكر باب العبد يتزوج بغير إذن سيده، وكانت الخيزران قد وجهت رجلاً من النصارى على الطراز بالكوفة وكتبت إلى عيسى بن موسى لا تعص له أمراً، فخرج من زقاق النخع عليه خز وطيلسان على برذون فاراه ورجل بين يديه مكتوف وهو يقول: واغوثة بالله ثم بالقاضي، وإذا آثار السياط في ظهره فسلم على القاضي فقال له: أنا رجل أعمل الوشي وأجرة مثلي مائة في الشهر، أخذني هذا منذ أربعة أشهر فأجلسني في طراز يجري علي القوت وعلي عيال قد ضاعوا فأقلت اليوم منه فلحقني ففعل بظهري ما ترى، فقال: يا نصراني اجلس مع خصمك قال: أصلحك الله هذا من خدم السيدة فمر به إلى الحبس، قال: قم ويلك فاجلس معه، فقام فجلس معه، فقال: هذه الآثار التي بظهره من أثرها؟ قال: أصلحك الله إنما ضربته أصواتاً بيدي وهو يستحق أكثر من ذلك، فدخل شريك داره وأخرج سوطه، ثم ضرب بيده إلى مجامع ثوب النصراني، ثم قال للرجل: انطلق إلى أهلك، ثم رفع السوط فجعل يقول: يا طبعي قدمن فاجمل والله لا تضرب المسلمين أبداً فهم أعوانه أن يخلصوه من يده، فقال: من هنا من فتیان الحي خلا هؤلاء فاذهبوا بهم إلى الحبس، فهربوا وجعل النصراني يبكي ويقول: ستعلم من ألقى السوط من يده؟ وقال: يا أبا حفص، ما تقول في العبد يتزوج بغير إذن مواليه وأخذ فيما كنا فيه، وقام النصراني فقال له: أخاف عاقبة هذا الأمر، قال: اسكت من أعز أمر الله أعزه، فذهب النصراني إلى عيسى بن موسى فشكا إليه فقال: لا والله ما أتعرض لشريك، ومضى النصراني إلى بغداد فلم يعد.

قال محمد بن عيسى الوابصي: سمعت شريكاً يقول: ما سألتهم درهماً قط حتى نبذوني.

وليس لنا أن نتقدمك:

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ: دَخَلَ شَرِيكَ عَلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ فِي يَوْمِ الشُّكِّ، وَالْفَقْهَاءُ عِنْدَهُ، فَلَمْ يَزَالُوا جُلُوسًا إِلَى أَنْ زَالَتِ الشَّمْسُ فَرَفَعَ الْخَبَرَ إِلَى هَارُونَ أَنَّ الْهَلَالَ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ وَبَيْنَ يَدَيْهِ تَفَاحٌ فَطَرَحَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ تَفَاحَةً فَأَكَلُوا، وَطَرَحَ إِلَى شَرِيكَ فَلَمْ يَأْكُلْ، فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهُ يَخَالِفُكَ وَقَدْ أَبَى أَنْ يَأْكُلَ، قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ وَاللَّهِ خَالِفُكَ وَأَصْحَابُهُ، إِنَّمَا أَنْتَ إِمَامٌ وَنَحْنُ رَعِيَّةٌ، وَإِذَا أَفْطَرْتَ أَنْتَ أَفْطَرْنَا، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَكَ، قَالَ: صَدَقَ شَرِيكَ ثُمَّ أَكَلَ هَارُونَ وَأَكَلَ شَرِيكَ (1).

تلقى من يحج من النساء!:

كان شريك على قضاء الكوفة، فخرج يتلقى الخيزران، فبلغ شاهي، وأبطأت الخيزران، فأقام ينتظرها ثلاثاً، ويبس خبزها، فجعل يبله بالماء ويأكله، فقال العلاء بن المنهال الغنوي:

فإن كان الذي قد قلت حقاً :: بأن قد أكرهوك على القضاء
فما لك موضعاً في كل يوم :: تلقى من يحج من النساء؟
مقيماً في قرى شاهي ثلاثاً :: بلا زاد سوى كسر وماء

هكذا يطلب العلم:

قال محمد بن يزيد الرفاعي: كنت عند شريك، فأتاه بعض ولد المهدي، فاستند، فسأله عن حديث، فلم يلتفت إليه، وأقبل علينا، ثم أعاد، فعاد بمثل ذلك، فقال: كأنك تستخف بأولاد الخليفة. قال: لا، ولكن العلم أزين عند أهله من أن تضيعوه. قال: فجئنا على ركبتيه، ثم سأله، فقال شريك: هكذا يطلب العلم.

وكان شريك يشاحن الربيع صاحب شرطة المهدي، فكان يحمل

(1) أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ خَلْفِ بْنِ حَيَّانَ بْنِ صَدَقَةَ الضَّبِّيِّ البَغْدَادِيِّ، الْمُلقَّبُ بِـ "وَكَيْعٍ" (المتوفى سنة 306هـ)، أخبار القضاة، حققه وصححه وعلق عليه وخرَّج أحاديثه: عبد العزيز مصطفى المراغي، نشر المكتبة التجارية الكبرى، بشارع محمد علي بمصر لصاحبها: مصطفى محمد، الطبعة: الطبعة الأولى عام 1366هـ، 1947م، 3 / 155 - 175.

المهدي عليه، فدخل شريك يوماً على المهدي فقال له المهدي: بلغني أنك ولدت في قوصرة، قال: يا أمير المؤمنين، ولدت بخراسان والقواصر هناك عزيزة، قال: إني لأراك فاطمياً خبيثاً، قال: والله إني لأحب فاطمة، وأبا فاطمة صلى الله عليه وسلم، قال: وأنا والله أحبهما، ولكني رأيتك في منامي مصروفاً وجهك عني، وما ذاك إلا لبغضك لنا، وما أراني إلا قاتلك لأنك زنديق، قال: يا أمير المؤمنين إن الدماء لا تسفك بالأحلام، وليست رؤياك رؤيا يوسف عليه السلام؛ وأما قولك: إني زنديق فإن للزنداقة علامة يعرفون بها، قال: وما هي قال: شرب الخمر والضرب بالطنبور، قال: صدقت أبا عبد الله، وأنت خير من الذي حملني عليك (1).

ما ينبغي أن تقلد الحكم بين المسلمين:

قال مصعب بن عبد الله الزبيري: حدثني أبي قال: دخل شريك على المهدي فقال له: ما ينبغي أن تقلد الحكم بين المسلمين، قال: ولم؟ قال: لخلافك على الجماعة وقولك بالإمامة، فقال: أما قولك لخلافك على الجماعة، فمن الجماعة أخذت ديني، فكيف أخالفهم وهم أصل ديني، وأما قولك: وقولك بالإمامة، فما أعرف إلا كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وأما قولك: مثلك لا يقلد الحكم بين المسلمين، فهذا شيء أنتم فعلتموه، فإن كان خطأ فلتستغفروا الله منه، وإن كان صواباً فأمسكوا عليه. قال: ما تقول في علي بن أبي طالب رضي الله عنه؟ قال: ما قال فيه جدك العباس وعبد الله، قال: وما قال فيه؟ قال: أما العباس فمات وعلي عنده أفضل الصحابة، وقد كان يرى كبار المهاجرين يسألونه عما ينزل من النوازل وما احتاج إلى أحد حتى لحق بالله. وأما عبد الله فإنه كان يضرب بين يديه بسيفين، وكان في حروبه رأساً متبعاً وقائداً مطاعاً، فلو كانت إمامة علي جوراً لكان أول من يقعد عنها أبوك لعلمه بدين الله وفقهه في أحكام الله. فسكت المهدي وأطرق، ولم يمض بعد

(1) وفيات الأعيان، 2 / 467.

هذا المجلس إلا قليل حتى عزل شريك.

شرب نبيذاً ثم لا يدري أطلق امرأته أم لا، وحكم ذلك:

قال عبد الرحمن بن معري: جاء رجل إلى أبي حنيفة، فقال: إني شربت البارحة نبيذاً فلا أدري طلقت امرأتي أم لا، قال: المرأة امرأتك حتى تستيقن أنك طلقته، ثم أتى سفيان الثوري فقال: يا أبا عبد الله! إني شربت البارحة نبيذاً فلا أدري طلقت امرأتي أم لا، قال: اذهب فراجعها فإن كنت قد طلقته فقد راجعتها وإن لم تك طلقته لم تضرك المراجعة شيئاً، ثم أتى شريك ابن عبد الله، فقال: يا أبا عبد الله! إني شربت البارحة نبيذاً ولا أدري طلقت امرأتي أم لا، قال: اذهب فطلقها ثم راجعها، ثم أتى زفر بن الهذيل، فقال: يا أبا الهذيل! إني شربت البارحة نبيذاً ولا أدري طلقت امرأتي أم لا، قال: سألت غيري؟ قال: أبا حنيفة، قال: فما قال لك؟ قال: المرأة امرأتك حتى تستيقن أنك قد طلقته، قال: الصواب قال، قال: فهل سألت غيره؟ قال: سفيان الثوري، قال: فما قال لك؟ قال: اذهب فراجعها فإن كنت قد طلقته فقد راجعتها وإن لم تك طلقته لم تضرك المراجعة شيئاً، قال: ما أحسن ما قال! قال: فهل سألت غيره؟ قال: شريك بن عبد الله، قال: فما قال لك؟ قال: اذهب فطلقها ثم راجعها، فضحك زفر وقال: لأضربن لك مثلاً، رجل مر بماء يسيل فأصاب ثوبه، قال لك أبو حنيفة: ثوبك طاهر وصلاتك تامة حتى تستيقن أمر الماء، وقال لك سفيان: اغسله فإن يك نجساً فقد طهر، وإن يك نظيفاً زاد نظافة، وقال لك شريك: اذهب فبل عليه ثم اغسله (1).

قل إن شاء الله:

قال الحسن بن علي بن راشد: سمعت القاضي شريك بن عبد الله، يقول: كنت ذات ليلة أصلي في السطح وإلى جنب سطحي امرأة تطلق وقد

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 1 / 120.

عسر عليها ولادها، فكادت تموت فشغلت قلبي، وزوجها في ناحية السطح يسمع صراخها، فسمعتة يقول: والله يا هذه لئن خلصك الله تعالى لا أعود أضاجعك أبداً، فقالت له مسرعة: قل إن شاء الله يا مشوم، فأضحكني قولها، وما ذكرتها وأنا في الصلاة إلا وضحت من قولها (1).

وانطرد معهم:

واجتمع أصحاب الحديث عند شريك بن عبد الله، فتبرم بهم وأضجروه فصاح بهم وفرّقهم فلم يبرحوا. فقال بعضهم: أنا أطردهم عنك. قال: نعم، وانطرد معهم (2).

فعلم شريك أنه قد وجب عليه:

ابتاع شريك بن عبد الله القاضي من رجل مملوكاً عبداً أو أمة، فوجد به عيباً فردّه على البائع بالعيب، فقال له البائع: لا تردده، أنا أربح لك فيه دنانير، وقال: أوتفعل؟ قال: نعم، قال: فبعه. فذهب البائع ولم يعرضه، فلما أبطأ على شريك دعا به، فقال له: ألم تقل إنك تربح؟ قال: بلى، قد قلت ذلك؛ قال: فأين الربح؟ قال: ما عرضته؛ قال: فاردد علينا الثمن، قال: ليس إلى ذلك سبيل، قد رضيت به بعد العيب أمرتني بعرضه. فعلم شريك أنه قد وجب عليه، فأمسك (3).

من كلامه رحمه الله:

عَنْ ظَفَرِ بْنِ سَهْلٍ قَالَ: قَالَ شَرِيكٌ: الْجُوعُ يَمِصُّ الدَّاءَ.
قال شريك: أثر فيه بعض الضعف أحب إلي من رأيهم.
وقال: ليس بحليم من سفه الحق وقاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
قال شريك بن عبد الله: إنما الرجل بإخوانه، فإذا ذهب إخوان الرجل

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 1 / 356.

(2) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، 1 / 249.

(3) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 1 / 173، 3 / 10.

ذهب الرجل.

قال شريك بن عبد الله: خمسة من الكبائر، عمياء مكتحلة، وسوداء مختضبة، وخصي له امرأة، ومخنث يؤم قوماً، وأعرابي أشقر. ومن العجائب: منجم أعمى، وأطروش صاحب خبر، وعطار أخشم، ومناد أخرس، ومؤاجر أصلع، وجندي محفوف الشوارب، وكناس متعزز، وفيج منقرس ولحياني ينتف لحية كوسج، وديدبان أعمش، وحجام قليل الفضول، وإمام أُمي، وكحال أرمـد. وضرب عبد الله بن أبي بكر ملاحاً لم يحسن السباحة وقال: من العجائب ملاح غير سابح!⁽¹⁾.

* * *

(1) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 1 / 208.

القاضي أبو يوسف صاحب أبي حنيفة

القاضي أبو يوسف
صاحب أبي حنيفة

أعلام الفقهاء

القاضي أبو يوسف صاحب أبي حنيفة

كان القاضي أبو يوسف المذكور من أهل الكوفة، وهو صاحب أبي حنيفة رضي الله عنه، كان فقيهاً عالمًا حافظاً، سكن بغداد وتولى القضاء بها لثلاثة من الخلفاء: المهدي وابنه الهادي ثم هارون الرشيد، وكان الرشيد يكرمه ويجله، وكان عنده حظياً مكيناً، وهو أول من دعي بقاضي القضاة، ويقال إنه أول من غير لباس العلماء إلى هذه الهيئة التي هم عليها في هذا الزمان، وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً، لا يتميز أحد عن أحد بلباسه. ولم يختلف يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني في ثقته في النقل.

ولد أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري في مدينة الكوفة سنة 113هـ، وتطلع إلى العلم والدراسة فلم يجد خيراً من مجلس الفقيه الكبير أبي حنيفة فتتلمذ على يديه، ودرس عنده أصول الدين والحديث والفقه.

ولصحبته لأبي حنيفة قصة يرويها لنا أبو يوسف فيقول: كنت أطلب الحديث والفقه عند أبي حنيفة، وأنا مقل (يعني قليل المال) رث الحال والهيئة، فجاءني أبي يوماً فأنصرفت معه، فقال لي: يا بني، لا تمد رجلك مع أبي حنيفة (أي لا تذهب إليه) فإن أبا حنيفة خبزه مشوي (يقصد أنه غني وقادر على أن يعيش عيشة كريمة) وأنت تحتاج إلى معاش (عمل) حتى تنفق على نفسك ولا تنقطع للعلم، فقصرت عن كثير من الطلب (أي طلب العلم) وآثرت طاعة أبي، فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه؛ فقال لي: ما شغلك عنا؟ قلت: الشغل بالناس وطاعة والدي، وجلست حتى انصرف الناس، ثم دفع لي صرة وقال: استمتع بها.

فنظرت فإذا فيها مائة درهم وقال: الزم الحلقة وإذا أفرغت هذه (إذا

أنفقتها) فأعلمني، فلزمت الحلقة، فلما قضيت مدة يسيرة، دفع إليّ مائة أخرى، ثم كان يتعهدني (يرعاني) وما أعلمته بقلّة قط، ولا أخبرته بنفاد شيء، وكأنه يخبر بنفادها وظل كذلك حتى استغنيت (1).

ولم يكن لأبي حنيفة تلميذ في نجابة أبي يوسف وذكائه، فقد استمر في تلقي العلم حتى حفظ التفسير والحديث والمغازي وأيام العرب، وسار أبو يوسف على نهج أستاذه أبي حنيفة في الفقه، إلا أنه كانت له اجتهادات خاصة به، وألف كتباً كثيرة أشهرها كتاب الخراج وهو رسالة في إدارة المال العام والقضاء، وقد قرّبه الخليفة هارون الرشيد إليه، وولاه القضاء، ومنحه لقب قاضي القضاة، وكان يستشيريه في أمور الدين والدنيا.

وفي عام (182هـ) مات أبو يوسف وهو يقول: اللهم إنك تعلم أنني لم أجز في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمدًا، وقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم، وكلما أشكل عليّ أمر جعلت أبا حنيفة بيني وبينك، ومات الفقيه أبو يوسف، فحزن عليه الناس جميعًا؛ وقال صديقه أبو يعقوب الحريمي: اليوم مات الفقيه.. فرحم الله أبا يوسف وأسكنه فسيح جناته (2).

وقد أثني عليه من عاصروه من العلماء والفقهاء فقد قال عمر بن حفص ابن غياث: سمعت أبي يقول: كان الحجاج بن أرطاة لا يملئ علينا،

(1) تاريخ بغداد، 14: 244.

(2) التاريخ لابن معين: 680، التاريخ الكبير: 8 / 397، التاريخ الصغير: 2 / 228، 230، المعارف: 499، المعرفة والتاريخ: 1 / 133، و 3 / 4، الفهرست لابن النديم: 203، الاستيعاب: 584، الانتقاء: 172، تاريخ بغداد، 14 / 242 - 262، تاريخ جرجان للسهمي: 444، طبقات الشيرازي: 134، وفيات الأعيان: 6 / 378 - 390، تذكرة الحفاظ: 1 / 292، ميزان الاعتدال: 4 / 397، العبر: 1 / 284 - 285، مرآة الجنان: 1 / 382 - 388، ألفية العراقي: 2 / 163، النجوم الزاهرة: 2 / 107، مفتاح السعادة: 2 / 100 - 107، الجواهر المضية: 2 / 220، شذرات الذهب: 1 / 298 - 301، أخبار القضاة: 3 / 254، طبقات الحنفية: 12 / 1، الفوائد البهية: 225، هدية العارفين: 2 / 536، تاج التراجم: 60، مناقب الإمام أبي حنيفة: 2 / 143.

وكان يعقوب أبو يوسف يسأله؛ فإذا قام الحجاج قام الناس إلى يعقوب فأملى عليهم عن ظهر قلب قال حفص: وكنت أنا لا أكتب إلا ما وقع في ألواحي.

وذكر أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب "الاستيعاب" في كتابه الذي سماه كتاب "الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء" (1) أن أبا يوسف المذكور كان حافظاً وأنه كان يحضر المحدث ويحفظ خمسين ستين حديثاً، ثم يقوم فيملئها على الناس، وكان كثير الحديث. وقال محمد بن جرير الطبري: وتحامى حديثه قوم من أهل الحديث من أجل غلبة الرأي عليه وتفريعه الفروع والأحكام، مع صحبة السلطان وتقلده القضاء.

وَحَدَّثَ مُحَمَّدُ بْنُ حَمَادٍ بْنُ الْمُبَارَكِ الْمَقْرِي قَالَ: سَأَلْتُ يَحْيَى بْنَ مَعِينٍ عَنْ أَبِي يُوسُفَ فَقَالَ: حَسَنَ الْحَدِيثِ وَلَيْسَ لَهُ بَحْثٌ.

وقال طلحة بن محمد بن جعفر: أبو يوسف مشهور الأمر ظاهر الفضل، وهو صاحب أبي حنيفة، وأفقه أهل عصره، ولم يتقدمه أحد في زمانه، وكان النهاية في العلم والحكم والرياسة والقدر، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وأملى المسائل ونشرها، وبث على أبي حنيفة في أقطار الأرض.

وقال عمار بن أبي مالك: ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف، لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة ولا محمد بن أبي ليلى، ولكنه هو نشر قولهما وبث علمهما.

وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة: مرض أبو يوسف في زمن أبي حنيفة مرضاً خيف عليه منه، فعاده أبو حنيفة ونحن معه، فلما خرج من عنده وضع يده على عتبة بابه وقال: إن يمت هذا الفتى فإنه أعلم من عليها، وأوماً إلى الأرض.

(1) الانتقاء: 172.

وقال أبو يوسف: سألني الأعمش عن مسألة، فأجبتة فيها فقال لي: من أين لك هذا؟ فقلت: من حديثك الذي حدثتنا أنت، ثم ذكرت له الحديث، فقال لي: يا يعقوب إنني لأحفظ هذا الحديث قبل أن يجتمع أبواك وما عرفت تأويله حتى الآن.

وقال هلال بن يحيى: كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب، وكان أقل علومه الفقه، ولم يكن في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف.

قَالَ علي: وما أعلم أحداً بقي اليوم يعلم أن يوسف بن أبي يوسف كان قاضياً أيام المهدي غيري، فلما استخلف موسى وقدم بغداد كان قاضيه أبو يوسف في جميع بغداد وعمر بن حبيب في الشرقية ولم يزل يوسف قاضياً حتى مات، وكان أبو يوسف يسافر مع الرشيد ويوسف يقضي بمدينة السلام. والرشيد ولى أبا يوسف قضاء القضاة.

وسمع أبو يعقوب الخريمي يوم مات أبو يوسف رجلاً يقول: اليوم مات الفقه، فقال:

يا ناعي الفقه إلى أهله :: أن مات يعقوب وما تدري
لم يمست الفقه ولكنه :: حول من صدر إلى صدر
ألقاه يعقوب إلى يوسف :: فزال من طيب إلى طهر
فهو مقيم فإذا ما نوى :: حل وحل الفقه في قبر⁽¹⁾

وكان أبو يوسف شديد الاحترام والتوقير لأستاذه أبي حنيفة ويدعو له يقول في دبر صلواته ويقول: اللهم اغفر لي ولوالدي ولأبي حنيفة.

وقَالَ علي بن الخليل الكوفي، في أبي يوسف قصيدة منها:

دعوت له بشبوط :: يرى بظهوره حادبا
فَقَالَ: أما لجارك من :: طعام يذهب السغبأ

(1) أخبار القضاة، 3 / 258.

أَصْبَ لَأَخِيكَ يَرْبُوعاً :: وَضَبَا وَاتْرَكَ اللَّعْبَا
 وَقَامَ إِلَيْهِ سَاقِينَا :: بِكَأْسٍ يَنْظُمُ الْحَبِيبَا
 مَعْتَقَةً مَرْوَقَةً :: تَسْلَى هُم مِّنْ شَرِبَا
 فَأَمْسَكَهَا بِرَاحَتِهِ :: فَلَمَّا شَمَهَا قَطْبَا
 وَإِلَّا لَا تَسْلُسُلْهَا :: وَقَالَ: أَصْبَ لَنَا حَلْبَا
 وَأَمْسَكَ أَنْفَهُ عَنْهَا :: وَقَامَ مَوْلِيّاً هَرَبَا
 يَرِيدُ الشَّيْخَ وَالْقَيْصُو :: مَ كَيِّ يَسْتَوْجِبُ السَّبَا
 وَقَدْ أَبْصَرْتَهُ زَمْنًا :: يَحِبُّ الظَّرْفَ وَالْأَدْبَا
 فَصَارَ تَشَبَهًا بِالْقَو :: مَ جَلْفًا جَافِيًا خَشْبَا
 إِذَا ذَكَرَ الثَّرِيدَ بَكَا :: وَأَبْدَا الشُّوقَ وَالطَّرْبَا
 وَلَيْسَ ضَمِيرُهُ فِي الْقَلْبِ :: بَ إِلَّا الْـتَيْنِ وَالْعَنْبَا
 يَرْوَحُ بِنَسْبَةِ الْمَوْلَى :: وَشَيْخٌ تَدْعَى الْعَرَبَا
 فَلَا هَذَا وَلَا هَذَا :: كَ يَدْرِكُهُ إِذَا طَلَبَا
 أَيْرَغَبَ عَنْ بَنِي كَسْرَى :: وَمَا عَنْ مِثْلِهِمْ رَغْبَا
 جَحَدْتَ أَبَاكَ نَسْبَتَهُ :: وَتَرَجَوْا أَنْ تَفِيدَ أَبَا

وقال محمد بن سماعة: سمعت أبا يوسف في اليوم الذي مات فيه يقول:

اللهم إنك تعلم أنني لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك
 تعمداً، ولقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه
 وسلم ، وكل ما أشكل علي جعلت أبا حنيفة بيني وبينك، وكان عندي والله
 ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه.

وأخبار أبي يوسف كثيرة، وأكثر الناس من العلماء على تفضيله
 وتعظيمه.

مواقف من حياته:

لو أن فيك موضع أدب لأوقعتك:

قال بشار بن موسى الخفاف جاء بشر بن الوليد الكندي إلى القاضي أبي يوسف فقال له تنهاني عن الكلام وبشر المريسي وعلي الأحول وفلان يتكلمون قال: وما يقولون قال: يقولون الله في كل مكان فقال أبو يوسف: علي بهم فانتهاوا إليهم وقد قام بشر فجاء بعلي الأحول وبالأخر شيخ فقال أبو يوسف: ونظر إلى الشيخ لو أن فيك موضع أدب لأوقعتك فأمر به إلى الحبس وضرب الأحول وطوف به (1).

أبو يوسف القاضي يأكل اللوزينج (2) بالفتق:

وحدثني أبي، قال: بلغني أن أبا يوسف صحب أبا حنيفة، ليتعلم العلم، على فقر وشدة، وكانت أمه تحتال له فيما يتقوته يوماً بيوم، فطلب يوماً ما يأكل، فجاءته بغضارة (3) مغطاة، فكشفها، فإذا فيها دفاتر. فقال: ما هذا؟

ف قالت: هذا الذي أنت مشغل به نهارك أجمع، فكل منه.

فبكى، وبات جائعاً، وتأخر عن المجلس من الغد، حتى احتال فيما أكله، ثم مضى إلى أبي حنيفة، فسأله عن سبب تأخره، فصدقه. فقال له: ألا عرفتني فكنت أمدك؟ ولا يجب أن تغتم، فإنه إن طال عمرك، فستأكل اللوزينج بالفتق.

قال: فلما خدمت الرشيد، واختصصت به، قدم بحضرته يوماً، جام فيه لوزينج بفتق، فدعاني إليه، فحين أكلت منه، ذكرت أبا حنيفة، فبكيت،

(1) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، العلو للعلي الغفار، تحقيق أبو محمد أشرف ابن عبد المقصود، الناشر: مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة الأولى، 1995، ص 51 - 52.

(2) اللوزينج من الحلوى يشبه القطائف يؤدم بدهن اللوز.

(3) (الغضائر) جمع غَضارة وهي القَصعة الكبيرة.

وحمدت الله تعالى، فسألني الرشيد عن قصتي، فأخبرته (1).

فاردد البستان عليه:

عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ الصَّمَدِ قَالَ: خوصم موسى أمير المؤمنين إلى أبي يوسف في بستانه، فكان الحكم في الظاهر لأمير المؤمنين وكان الأمر على خلاف ما يظهر من الحكم. فَقَالَ أمير المؤمنين: ما صنعتَ في الأمر الذي نتنازع إليك فيه؟ قال: خصم أمير المؤمنين يسألني أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على حق، فَقَالَ: موسى. وترى ذاك قال: قد كان ابن أبي ليلى يراه. قال: فاردد البستان عليه. وإنما احتال عليه أبو يوسف (2).

يا بني هذا الأعور سيد:

قَالَ: وكان رجل من الزهاد يأتي مجلس أبي معشر فربما ذكر هذا من قول أبي يوسف فعابه وتكلم فيه. فحضر يوماً مجلس أبي معشر يوسف بن أبي يوسف وتكلم. قَالَ الشيخ قبل أن يجلس أبو معشر للحديث، ثم جلس أبو معشر فأعاد الشيخ ذكر أبي يوسف قَالَ يوسف وكان أعور، وأقبل على الشيخ فَقَالَ: يا هذا أتعرفني؟ قال: لا، فَقَالَ: فأنا ابن الشيخ الذي عبت منذ اليوم ونقصت فغفر الله لنا ولك، فَقَالَ لَهُ الشيخ: لقد كنت أرى أن قولي هذا ديانة والله لا ذكرت أبالك بعد يومي هذا بسوء أبدأ، فأقبل على أبي معشر فَقَالَ لي: يا بني هذا الأعور سيد (3).

والله لأملأن ظهره وبطنه بالسياط :

وقال مُحَمَّدُ بْنُ إِشْكَابٍ: سمعت أبا يوسف وذكر بشر المريسي فقال: جيئوني بشاهدين يشهدان أنه تكلم في القرآن والله لأملأن ظهره وبطنه بالسياط.

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص 161.

(2) أخبار القضاة، 3 / 256.

(3) أخبار القضاة، 3 / 257.

فكنا نأتيه وكان لنا مدرساً:

قال الفضل بن سعيد بن سلم: قلت لأبي يوسف: أكان أبو حنيفة يرى رأي جهم؟ قال: نعم، قلت فأين أنت منه؟ قال: لا أين، قلت: وكيف وأنت من أصحابه؟ قال: كان أبو حنيفة رجلاً قد أوتي فهماً، فكنا نأتيه وكان لنا مدرساً.

إن أفتيته بترك النافلة يفتي الناس بترك الفريضة:

قال حَدَّثَنِي مطرف الأصم: قدم هارون المدينة ومعه أبو يوسف فبعث إلى مالك بن أنس: يأمرك أمير المؤمنين أن تخرج إليه، فكتب إليه مالك: يا أمير المؤمنين إني رجل عليل فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إلي بما أريد فعل، فأراد أن يكتب إليه، فَقَالَ لَهُ أَبُو يُوْسُفَ: ابعث إليه حتى يجيء إليك فبعث إليه فجاءه في دار مروان وقد هيئ لكل إنسان مجلس فتهيئ لمالك مجلسه الذي له فَقَالَ لَهُ أَبُو يُوْسُفَ: ما ترى في رجل حلف ألا يصلي نافلة أبداً؟ قَالَ: يضرب ويحبس حتى يصلي، قَالَ: فجاء هارون فَقَالَ لَهُ أَبُو يُوْسُفَ: يا أمير المؤمنين إني سألت مالكا عن كذا وكذا فَقَالَ كذا فَقَالَ لَهُ هارون: وترى ذلك يا أبا عبد الله؟ قال: لا، قَالَ أَبُو يُوْسُفَ: أليس أفتيتني بذلك؟ قال: بلى ولكن أبا يوسف رجل عراقي إن أفتيته بترك النافلة يفتي الناس بترك الفريضة، وأنت لا أخافك على ذلك، فلما خرج مالك خرج معه أبو يوسف يتوكأ عليه ومالك يقول له: ارجع حتى بلغه منزله (1).

وواحد فيه شك فيشاطرانه:

قال أبو مُحَمَّد الزهري: قدم هارون الرشيد المدينة فقعده في المسجد وقعد معه أبو يوسف، وبعث إلى مالك بن أنس قال: فجعل أولاد أصحاب رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدخلون أربعة أربعة، فيقول هارون: أفيهم

(1) أخبار القضاة، 3 / 260.

هو؟ فيقولون: لم يجئ بعد، حتى دخل مالك متوكئاً على رجل من ولد أبي بكر وآخر من ولد علي، فلما نظر إليه هارون قال: إن الرجل ليعظمه أهل بلده، قال: فسلم وجلس فقال له هارون: يا أبا عبد الله أجب يعقوب فيما يسألك عنه، قال: يا أمير المؤمنين ليس من أهل العلم أنشدك بالله هل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يأخذ منه فيجعله حيث أراد الله، قال هارون: نعم، قال: فأنشدك الله هل لعمر وقف قال: اللهم نعم، قال: فهذا يزعم أن الوقف باطل، فالتفت هارون إلى أبي يوسف مغضباً فقال: ما تقول؟ قال: كان صاحبنا لا يراه وأنا أراه، قال: فقال له مالك: ما تقول في الإمام يجهر بعرفة أو يخافت؟ قال: فقال أبو يوسف: يجهر، قال: أسأل الله ألا

يهديك والله يا أمير المؤمنين إن السقايات بالمدينة يبينون هذا ويلك إنما هي ظهر وعصر فقال له يعقوب: ما تقول في رجل بعث مع رجل دينارين ورجل ديناراً فخلطها فلما قدم فتحها فأصاب دينارين فقال: مالك أما واحد فهو لصاحب الاثنين لا شك فيه، وواحد فيه شك فيشاطرانه (1).

فاشتر سفينة فهي جارية:

قال مالك بن أنس: بلغني أن أبا يوسف جاءه إنسان فقال: إني حلفت بطلاق امرأتي لأشترين جارية وذلك يشد علي لمكان زوجتي ومنزلتها عندي فقال له أبو يوسف: فاشتر سفينة فهي جارية.

فأجازه بجائزة عظيمة وكناه بأبي المخرج:

حدثت عن القاسم بن محمد المروزي عن اليأس بن الكامل عن ابن المبارك قال: لما مات فلان الخليفة خلف جوارى فرهة فأراد ابنه وطء جارية منهن فقالت: إني لا أحل لك إن أباك وطئني، فذهب وهو يقول: أرى ماء وي عطش شديد :: ولكن لا سبيل إلى الورود

(1) أخبار القضاة، 3 / 261.

أما يكفيك أنك تملكيني :: وأن الناس كلهم عبيدي
وأنت لو قطعت يدي ورجلي :: لقلت من الهوى أحسنت زيدي
ثم دعا أبا يوسف فسأله عن ذلك، فقال: ليس كل ما قالت الجارية يقبل
منها فأجازه بجائزة عظيمة وكناه بأبي المفرج (1).

وأبو يوسف مركوب العرب:

قال إبراهيم بن الربيع بن سليمان الكلابي من بني الوحيد: كان عبّدوس
ابن عبيدة بن أبي اليمان العقيلي اختصم هو وابن خالته خنيس بن ساعدة
العقيلي إلى أبي يوسف القاضي ببغداد فذهب عبّدوس فأحضر شهوداً
وسماهم على أسماء أئمة المساجد المعدلين فلما شهدوا عند أبي يوسف
سأل عنهم فعدلوا، وذلك سراً، وكذلك كانوا يعدلون في السر فجاء خنيس
حينئذ إلى أولئك الشهود المشهورين الأئمة فجعل يلقي الرجل فيقول: يا
عبد الله لم شهدت علي فيقول: لا والله ما شهدت عليك ولا أعرفك ولا
أعرف عبّدوساً. فذهب خنيس إلى أبي يوسف فأخبره فقال: أحضروهم،
فتبين أبو يوسف أنهم ليس بأولئك الذين شهدوا، فأمر بعبّدوس فحمل ثم
ضرب خمسين درة، فقال عبّدوس في أبي يوسف قصيدة طويلة أحفظ
منها:

مركب الناس ثانياً قسمت :: وأبو يوسف مركوب العرب
وكذا المركوب من قتلته :: قال: من حالب هذا لا حلب
أشبه الناس وجهاً وقفاً :: ورعينات بشيطان اللعب
ويرى الخزيير في جفنه :: كوز فقاع إذا حل وثب
فإذا أقعى على منبره :: خلته القرد إذا القرد صلب (2)

كانك لا تحسن شيئاً إلا هذا:

قال أحمد بن محمد القاضي: سمعت أبا يوسف يقول: قال لي يحيى بن

(1) أخبار القضاة، 3 / 262.

(2) أخبار القضاة، 3 / 263.

خالد: كل شيء تحسن غير مجالسة الملوك فإنه لا علم لك بأيام الناس،
قَالَ: فجلست في البيت شهراً ونظرت في أيام الناس فحفظت أمراً عظيماً،
ثم أتيت يحيى بن خالد فتذاكرنا فَقَالَ لي: كأنك لا تحسن شيئاً إلاّ هَذَا أَكُنْتَ
تستره؟ (1).

فَإِنْ لَمْ تَغْرِبِ الشَّمْسُ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ!

قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ بن أَحْمَدَ الزَّيْبَرِيُّ: كان رجل يجلس إلى أبي
يوسف القاضي فيطيل الصمت فَقَالَ لَهُ أَبُو يَوْسُفَ: أَلَا تَسْأَلُ أَلَا تَتَحَدَّثُ؟
قال: بلى قَالَ: متى يفطر الصائم؟ قال: إِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، قال: فَإِنْ لَمْ
تَغْرِبِ الشَّمْسُ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ؟ قال: فتبسم أَبُو يَوْسُفَ وتمثل ببיתי
الخطفي جد جرير:

عجبت لإزراء العبي بنفسه :: وصمت الذي قد كان بالعلم أعلما
وفي الصمت ستر للعبي وإنما :: صحيفة لب المرء أن يتكلما

لعمري إن العلم لينفع دنيا وديناً:

ثم قال الخطيب: وحكي أن والد أبي يوسف مات وخلف أبا يوسف
طفلاً صغيراً، وأن أمه هي التي أنكرت عليه حضور حلقة أبي حنيفة، ثم
روى الخطيب أيضاً بإسناد متصل إلى علي بن الجعد قال: أخبرني أبو
يوسف القاضي قال: توفي أبي وخلفني صغيراً في حجر أمي، فأسلمتني
إلى قصار أخدمه، فكننت أدع القصار وأمر إلى حلقة أبي حنيفة فأجلس
أستمع، فكانت أمي تجيء خلفي فتأخذ بيدي فتذهب بي إلى القصار، وكان
أبو حنيفة يعنى بي، لما يرى من حضوري وحرصني على التعلم، فلما كثر
ذلك على أمي وطال عليها هربي قالت لأبي حنيفة: ما لهذا الصبي فساد
غيرك، هذا صبي يتيم لا شيء له وإنما أطعمه من مغزلي، وآمل أن
يكسب دانقاً يعود به على نفسه، فقال لها أبو حنيفة: مري يا رعناء، ها هو

(1) أخبار القضاة، 3 / 264.

ذا يتعلم أكل الفالودج بدهن الفستق، فانصرفت عنه وقالت له: أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك. ثم لزمته فنفعني الله تعالى بالعلم، ورفعني حتى تقلدت القضاء، وكنت أجالس الرشيد وآكل معه على مائدته، فلما كان في بعض الأيام قدم إلى هارون فالودجة، فقال لي: يا يعقوب كل منها فليس في كل يوم يعمل لنا مثلها، فقلت: وما هذه يا أمير المؤمنين فقال: هذه فالودجة بدهن الفستق، فضحكت، فقال لي: مم ضحكك! فقلت: خيراً، أبقي الله أمير المؤمنين، قال: لتخبرني، وألح علي، فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها، فعجب من ذلك وقال: لعمرى إن العلم لينفع دنيا وديناً، وترحم على أبي حنيفة وقال: كان ينظر بعين عقله ما لا يراه بعين رأسه (1).

أبو يوسف وهارون الرشيد:

وحكى علي بن المحسن التنوخي عن أبي عن جده قال: كان سبب اتصال أبي يوسف بالرشيد أنه كان قدم بغداد بعد موت أبي حنيفة رحمه الله تعالى فحنث بعض القواد في يمين، فطلب فقيهاً يستفتيه، فجيء بأبي يوسف فأفتاه أنه لم يحنث، فوهب له دنانير وأخذ له داراً بالقرب منه. ودخل القائد يوماً على الرشيد فوجده مغموماً، فسأله عن سبب غمه فقال: شيء من أمر الدين قد حزنني فاطلب فقيهاً كي أستفتيه، فجاءه بأبي يوسف. قال أبو يوسف: فلما دخلت إلى ممر بين الدور رأيت فتى حسناً عليه أثر الملك، وهو في حجرة محبوس، فأومأ إلي بأصبعه مستغيثاً فلم أفهم منه إرادته، وأدخلت إلى الرشيد، فلما مثلت بين يديه سلمت ووقفت فقال لي: ما اسمك فقلت: يعقوب أصلح الله أمير المؤمنين، قال: ما تقول في إمام شاهد رجلاً يزني هل يحده قلت: لا، فحين قتلها سجد الرشيد، فوقع لي أنه قد رأى بعض أهله على ذلك وأن الذي أشار إلي بالاستغاثة هو الزاني. ثم قال الرشيد: من أين قلت هذا قلت: لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **ادروا الحدود بالشبهات** — وهذه شبهة يسقط الحد معها، قال:

(1) وفيات الأعيان، 6 / 382.

وأي شبهة في المعاينة قلت: ليس توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى، والحدود لا تكون إلا بالعلم، وليس لأحد أخذ حقه بعلمه، فسجد مرة أخرى، وأمر لي بمال جزيل وأن ألزم الدار، فما خرجت حتى جاءتني هدية الفتى وهدية أمه وجماعته، وصار ذلك أصلاً للنعمة، ولزمت الدار، فكان هذا الخادم يستفتيني وهذا يشاورني، ولم يزل حالي يقوى عند الرشيد حتى قلدني القضاء (1).

من كان صاحب راية جالوت!

وذكر أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني في كتاب "الجليس والأنيس" عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: مضى أبو يوسف ليسمع المغازي من محمد بن إسحاق أو من غيره، وأخل بمجلس أبي حنيفة أياماً، فلما أتاه قال له أبو حنيفة: يا أبا يوسف، من كان صاحب راية جالوت؟ فقال له أبو يوسف: إنك إمام وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملائكة أجمعين أولاً وقعة بدر أو أحد؟ فإنك لا تدري أيهما كان قبل الآخر، فأمسك عنه (2).

هل وقفت على شيء من خطأ!

وذكر في الكتاب المذكور أيضاً عن علي بن الجعد أن القاضي أبا يوسف كتب يوماً كتاباً، وعن يمينه إنسان يلاحظ ما يكتبه، ففطن له أبو يوسف، فلما فرغ من الكتابة التفت إليه وقال له: هل وقفت على شيء من خطأ؟ فقال: لا والله ولا حرف واحد، فقال له أبو يوسف: جزييت خيراً حيث كفيتمنا مؤونة قراءته، ثم أنشد:

كانه من سوء تأديبه :: أسلم في كتاب سوء الأدب

لا تطمع في رئاسة ببلده فيها أبو يوسف:

(1) و هذا يخالف ما قيل من قبل من أنه ولي القضاء لثلاثة من الخلفاء. والله أعلم بالصواب.

(2) وفيات الأعيان، 6 / 383.

وقال حماد بن أبي حنيفة: رأيت أبا حنيفة يوماً وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زفر، وهما يتجادلان في مسألة، فلا يقول أبو يوسف قولاً إلا أفسده زفر، ولا يقول زفر قولاً إلا أفسده أبو يوسف، إلى وقت الظهر، فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة يده فضرب بها فخذ زفر، وقال: لا تطمع في رئاسة بلدة فيها أبو يوسف، وقضى لأبي يوسف على زفر، ولم يكن بعد أبي يوسف في أصحاب أبي حنيفة مثل زفر (1).

لم لا تركبه:

وكان أبو يوسف راكباً وعلامة يعدو وراءه، فقال له رجل: أتستحل أن تعدي غلامك وراءك لم لا تركبه؟ فقال له: أيجوز عندك أن أسلم غلامي مكارياً قال: نعم، قال أبو يوسف: فيعدو معي كما كان يعدو لو كان مكارياً.

أظننا روعناك:

وقال بشر بن الوليد الكندي: قال لي القاضي أبو يوسف: بينا أنا البارحة قد أويت إلى فراشي فإذا داق يدق الباب دقاً شديداً، فأخذت علي إزارني وخرجت، فإذا هرثمة بن أعين، فسلمت عليه، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت: يا أبا حاتم، لي بك رحمة، وهذا وقت كما ترى، ولست آمن أن يكون أمير المؤمنين قد دعاني لأمر من الأمور، فإن أمكنك أن تدفع بذلك إلى غد فلعله أن يحدث له رأي، فقال: ما لي إلى ذلك سبيل، قلت: كيف كان السبب قال: خرج إلي مسرور فامرني أن آتي بك أمير المؤمنين، فقلت: تأذن لي أن أصب علي ماء وأتحنط فإن كان أمر من الأمور كنت قد أحكمت شأني وإن رزق الله العافية فلن يضرني، فأذن لي، فدخلت فلبست ثياباً جدداً، وتطيبت بما أمكن من الطيب، ثم خرجنا فمضينا حتى أتينا دار أمير المؤمنين هارون الرشيد فإذا مسرور واقف، فقال له هرثمة: قد جئت به، فقلت لمسرور: يا أبا هاشم خدمتي وحرمتي وميلي،

(1) وفيات الأعيان، 6 / 384.

وهذا وقت ضيق، فتدري لم طلبني أمير المؤمنين قال: لا، فقلت: فمن عنده قال: عيسى بن جعفر، قلت: ومن؟ قال: ما عندهما ثالث، ثم قال لي: مر، فإذا صرت في الصحن فإنه في الرواق، وهو ذاك جالس فحرك رجلك بالأرض، فإنه سيسألك فقل: أنا. قال أبو يوسف: فجئت ففعلت ذلك فقال: من هذا؟ فقلت: يعقوب، فقال: ادخل، فدخلت فإذا هو جالس وعن يمينه عيسى بن جعفر، فسلمت فرد السلام علي وقال: أظننا روعناك فقلت: إي والله وكذلك من خلفي، فقال: اجلس، فجلست حتى سكن روعي، ثم التفت إلي وقال: يا يعقوب، تدري لم دعوتك؟ قلت: لا، قال: دعوتك لأشهدك على هذا إن عنده جارية سألته أن يهبها لي فامتنع، وسألته أن يبيعها فأبى، والله لئن لم يفعل لأقتلنه، قال أبو يوسف: فالتفت إلى عيسى فقلت له: وما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك هذه المنزلة قال: فقال لي: عجلت علي في القول قبل أن تعرف ما عندي، قلت: وما في هذا من الجواب قال: إن علي يميناً بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملك أن لا أبيع في هذه الجارية ولا أهبها، فالتفت إلي الرشيد فقال: هل له في ذلك من مخرج قلت: نعم، قال: وما هو قلت: يهب لك نصفها ويبيعك نصفها، فيكون لم يهب ولم يبيع، فقال عيسى: ويجوز ذلك قلت: نعم، قال: فأشهدك أنني قد وهبت له نصفها وبعته نصفها الباقي بمائة ألف دينار، فقال له الرشيد: قبلت الهبة واشتريت نصفها بمائة ألف دينار، ثم طلب منه الجارية، فأتى بالجارية وبالمال، فقال: خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها، فقال الرشيد: يا يعقوب بقيت واحدة، فقلت: وما هي فقال: هي مملوكة ولا بد أن تستبرأ، والله لئن لم أبت معها ليلتي هذه إني لأظن أن نفسي ستخرج، فقلت: يا أمير المؤمنين تعتقها وتتزوجها، فإن الحرية لا تستبرأ، قال: فإني قد أعققتها فمن يزوجنيها فقلت: أنا. فدعا بمسرور وحسين، فخطبت وحمدت الله تعالى ثم زوجته إياها على عشرين ألف دينار، ودعا بالمال فدفعه إليها، ثم قال لي: يا يعقوب انصرف، ورفع رأسه إلى مسرور فقال:

يا مسرور، فقال: لبيك، فقال: احمل إلى يعقوب مائتي ألف درهم وعشرين تختاً ثياباً، فحمل ذلك معي. قال بشر بن الوليد: فالتفت إلي أبو يوسف وقال: هل رأيت بأساً فيما فعلت؟ فقلت: لا، فقال: خذ حقك منها، قلت: وما حقي؟ فقال: العشر، قال بشر: فشكرته ودعوت له وذهبت لأقوم، فإذا بعجوز قد دخلت فقالت: يا أبا يوسف إن بنتك تقرئك السلام وتقول لك: والله ما وصل إلي في ليلتي هذه من أمير المؤمنين إلا المهر الذي قد عرفته، وقد حملت إليك النصف منه وخلفت الباقي لما احتاج إليه، فقال: رديه فوالله لا قبلتها؛ أخرجتها من الرق وزوجتها أمير المؤمنين وترضى لي بهذا! قال بشر: فلم نزل نطلب إليه أنا وعمومتي حتى قبلها، وأمر لي منها بألف دينار (1).

ذاك حين كانت الهدايا اللبن والتمر:

وقال أبو عبد الله اليوسفي: إن أم جعفر زبيدة ابنة جعفر زوجة الرشيد كتبت إلى أبي يوسف: ما ترى في كذا، وأحب الأشياء إلي أن يكون الحق فيه كذا، فأفتاها بما أحببت، فبعثت إليه بطبق فضة فيه حقائق فضة مطبقات، في كل واحد لون من الطيب، وفي جام دراهم وسطها جام فيه دنانير، فقال له جليس له: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها، فقال أبو يوسف: ذاك حين كانت الهدايا اللبن والتمر.

هذا لا يعزل أبداً:

كان عبد الرحمن بن مسهر أخو علي بن مسهر قاضياً على بلدة المبارك (2) قال: فبلغ القاضي خروج الرشيد إلى البصرة ومعه أبو يوسف القاضي في الحراقة، فقال عبد الرحمن القاضي لأهل ذلك البلد، فلبس ثيابه

(1) وفيات الأعيان، 6 / 386.

(2) وهي بضم الميم وبعدها باء موحدة وبعد الألف راء مفتوحة وبعدها كاف، وهي بليدة بين بغداد وواسط على شاطئ دجلة -.

وقلنسوة طويلة وطيلساناً أسود، وجاء إلى الشريعة، فلما صدق، ثم مضى إلى شريعة أخرى فقال مثل مقالته الأولى، فالتقت هارون إلى أبي يوسف وقال: يا يعقوب هذا شر قاض في الأرض، قاض في موضع لا يثني عليه إلا رجل واحد! فقال له أبو يوسف: وأعجب من هذا يا أمير المؤمنين هو القاضي يثني على نفسه، قال: فضحك هارون وقال: هذا أظرف الناس، هذا لا يعزل أبداً، وكان الرشيد إذا ذكره يقول: هذا لا يعزل أبداً. وقيل لأبي يوسف: أتولي مثل هذا القضاء فقال: إنه أقام ببابي مدة وشكا إلي الحاجة فوليته.

صح ستره وخلصت أمانته:

قال الرشيد لأبي يوسف: بلغني أنك تقول: إن هؤلاء الذين يشهدون عندك وتقبل أقوالهم متصنعة، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: وكيف ذاك قال: لأن من صح ستره وخلصت أمانته لم يعرفنا ولم نعرفه، ومن ظهر أمره وانكشف خبره لم يأتنا ولم نقبله، وبقيت هذه الطبقة وهم هؤلاء المتصنعة الذين أظهروا الستر وأبطنوا غيره، فتبسم الرشيد وقال: صدقت (1).

تزيت قبل أن تحصرم:

لما جلس أبو يوسف رحمه الله تعالى للتدريس من غير إعلام أبي حنيفة رحمه الله فأرسل إليه أبو حنيفة رحمه الله رجلاً فسأله عن خمس مسائل: الأولى: قصار جدد الثوب وجاء به مقصوراً هل يستحق الأجرة أم لا؟ فأجاب أبو يوسف رحمه الله: لا يستحق الأجر فقال له الرجل: أخطأت فقال: لا يستحق فقال: أخطأت ثم قال له الرجل: إن كانت القصار قبل الجحود استحق وإلا لا، الثانية: هل الدخول في الصلاة بالفرض أم بالسنة فقال: بالفرض فقال: أخطأت فقال: بالسنة فقال: لا أخطأت لا فتحير

أبو يوسف رحمه الله فقال الرجل: بهما لأن التكبير فرض ورفع اليدين سنة الثالثة: طير سقط في قدر على النار فيه لحم ومرق: هل يأكلان؟ أم لا؟ فقال: يؤكل فخطأه فقال: لا يؤكل فخطأه ثم قال: إن كان اللحم مطبوخاً قبل سقوط الطير يغسل ثلاثاً ويؤكل وترمى المرقعة وإلا يرمى الكل له الرابعة: مسلم له زوجة ذمية ماتت وهي حامل منه تدفن في أي المقابر فقال أبو يوسف رحمه الله: في مقابر المسلمين فخطأه فقال: في مقابر أهل الذمة فخطأه فتحير أبو يوسف فقال الرجل: تدفن في مقابر اليهود ولكن يحول وجهها عن القبلة حتى يكون وجه الولد إلى القبلة لأن الولد في البطن يكون وجهه إلى ظهر أمه، الخامسة: أم ولد لرجل تزوجت بغير إذن مولاهما فمات المولى هل تجب العدة من المولى فقال: تجب فخطأه ثم قال: لا تجب فخطأه ثم قال الرجل: إن كان الزوج دخل بها: لا تجب وإلا: وجبت فعلم أبو يوسف تقصيره فعاد إلى أبي حنيفة رحمه الله فقال: تزبيت قبل أن تحصرم (1).

من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه:

وفي مناقب الكردي: أن سبب انفراده أنه مرض مرضاً شديداً فعاده الإمام وقال: لقد كنت أملك بعدي للمسلمين ولئن أصبت ليموتن علم كثير فلما برأ أعجب بنفسه وعقد له مجلس الأمالي وقال له حين جاء: ما جاء بك إلا مسألة القصار سبحان الله من رجل يتكلم في دين الله ويعقد مجلساً لا يحسن مسألة في الإجارة: ثم قال: من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه.

ستصير قمراً:

قال أبو بكرة بن قتبية سمعت هلالاً يقول لما قدم علينا أبو يوسف اجتمع على بابهِ أصحاب الحديث وأصحاب الرأي جميعاً وتولاه كل فريق وزعم أنه أولى به وبالدخول عليه من الفريق الآخر فأشرف على الناس

فقال لهم أنا والله من الفريقين جميعاً ولست أقدم فرقة على الأخرى إلا بمعنى يتبين به تقدمها وها أنا ذا أسأل عن مسألة فأبي الفريقين أصابها دخل فأخرج خاتماً كان في يده فقال: رجل أخذ خاتمي فمضغه حتى هشمه فقام أصحاب الحديث من كل ناحية فاختلفوا فمنهم من قال عليه أن يعيده مصوغاً كما كان ومنهم قال عليه ما نقصه فلما رأيت أنا ذلك قمت من بين أصحابي فقلت أصلحك الله هو لهذا الهاشم وعليه لصاحبه قيمته مصوغاً من الذهب إلا أن يشاء صاحبه أن يمسه ولا يكون على هاشمه شيء فصوبني أبو يوسف وأدناي وأدخلني وأدخل أصحابي فقال: ما اسمك قلت: هلال قال: ستصير قمراً وأملى علينا مسألة من المكاتب قد تقدم من قوله في كتاب الصرف خلاف ذلك فلما فرغ منها قمت إليه فقلت له: أصلحك الله هذا خلاف قولكم في كتاب الصرف أفنمحو ذلك ونثبت هذا أم نمحو هذا ونثبت ذلك فقال: دعوهما فسيأتي من يميز بينهما قال هلال: وشاهدي على ذلك كله قتيبة البكر اوي يعني أبا بكره وكان حاضراً ذلك كله (1).

يضرب بأصحابه الأمثال:

قال محمد بن شجاع: قال: سمعت الحسن بن أبي مالك يقول: كان أبو يوسف يضرب بأصحابه الأمثال فيقول في محمد بن الحسن أي سيف هو لولا أن فيه صداً وأنه يحتاج إلى جلاء ويقول في الحسن اللؤلؤي هو عندي كالصيدلاني إذا طلب رجل ما يمسه بطنه أعطاه ما يسهله فإذا طلب ما يسهل بطنه أعطاه ما يمسه وكان يقول المريسي هو عندي كإبرة الرفاء طرفها دقيق ومدخلها ضيق وهي سريعة الانكسار وكان يقول لإبراهيم بن الجراح هو عندي كرجل عنده دراهم مكحلة فكلما مسها نقصت وكان يقول للحسن ابن أبي مالك هو عندي كجمل حمل متاعاً ثقيلاً

في يوم مطير فتذهب يده مرة هكذا ومرة هكذا ثم يسلم (1)

يا قاتل المسلم بالكافر:

قال علي بن عمرو: رفع إلى أبي يوسف رجل مسلم قتل ذميًا عمدًا وقامت البينة عليه فأمر بحبسه ليقاد منه فلما كان في يوم مجلس القضاء رفعت إليه رقاع الخصوم فإذا فيها رقعة مكتوب فيها

يا قاتل المسلم بالكافر :: جرت وما العادل كالجائر
يا من بيغداد وأقطارها :: من فقهاء الناس أو شاعر
جار على الدين أبو يوسف :: بقتله المسلم بالكافر
فاسترجعوا وابكوا جميعًا معا :: واصطبروا فالأجر للصابر

قال فأخذ أبو يوسف الرقعة ودخل بها على الرشيد فأعلمه فقال له: فاذهب فاحتل فجلس أبو يوسف وحضر ولي الدم والمدعى عليه فقامت البينة فقال أبو يوسف: لولى الدم أقم عندي البينة إن صاحبك كان يؤدي الجزية فلم يقم له البينة فمنع النقود (2).

ولم أسو بينه وبين الخصم في المجلس:

قال أبو زيد حماد بن دليل: قال أبو يوسف: قعد أمير المؤمنين للمظالم فكنت السفير بينه وبين المتظلمين أخذ قصصهم وأوصلها إليه فجاءني رجل كبير من أهل السواد ومعه قصة فيها دعوى بستان محدود يزعم أن ذلك له في يد أمير المؤمنين وأنه غصبه عليه فقلت في يد من هو فقال: في يد أمير المؤمنين قلت: من أكاره قال: هو في يد أمير المؤمنين غصبني عليه فجعلت أديره بكل وجه على أن ينصرف عن مطالبة أمير المؤمنين إلى مطالبة غيره فيأبى أن ينصرف عن دعواه أن المطلوب به أمير المؤمنين فدخلت بالقصص وأمير المؤمنين قاعد على كرسي ويحيى بن خالد قعد معه فجعلت أخرج القصص فخرجت قصته بالقرب مني فلم

(1) أخبار أبي حنيفة، 1 / 105.

(2) أخبار أبي حنيفة، 1 / 106.

استجز تأخيرها فقلت: يا أمير المؤمنين حضر شيخ كبير من أهل السواد فادعى بستان كذا فجهدت به أن يطالب بدعواه رجلاً من الرعية فأبى فقال: مطالبتي لأمر المؤمنين فقال: هذا البستان أعرفه وهبه لي أبي وهو لي في ملكي قلت: أفيحضر الرجل؟ قال: نعم فاحضرته قلت: ما تدعي؟ قال: ادعي بستان كذا وحدده على أمير المؤمنين هذا وأشار إليه قلت: من يقوم به وفي يد من هو؟ قال: في يد أمير المؤمنين هذا قلت لأمر المؤمنين: ما تقول في دعوى هذا الرجل قال: ما له في يدي هذا الحق الذي يدعيه وما هذا البستان له قلت له: ألك بينة؟ قال: يمينه قلت له يا أمير المؤمنين: عليك اليمين قال: استحللني فاستحلفتة فحلف فوثب الشيخ منصرفاً فسمعتة وقد أدبر يقول: استغه كشرية سويق وتربد وجه أمير المؤمنين حين حلف وأطرق يفكر فقلت: هلكت وهلك الرجل فقال يحيى بن خالد:

يا يعقوب رأيت مثل أمير المؤمنين في عدله وإنصافه لرجل من رعيته أنصف من نفسه حتى فعل ما رأيت فسرى عن أمير المؤمنين وفرح بذلك وقال: سبحان الله وبد من الإنصاف وقال يحيى بن خالد لو جاءت هذه من الفاروق لكانت حسنة أو كما قال: قال أبو زيد: قال لنا أبو يوسف: فما أذكر ذلك المجلس إلا دخلني منه غم شديد وخفت الله من تركي العدل فيه فقلنا وما يكون أكثر مما فعلت قال: ألم تفهموا ما فيها قلنا لا ما رأينا إلا عدلاً وقيامًا بالحق قال: كيف ولم أسو بينه وبين الخصم في المجلس فأقول: يا أمير المؤمنين أنت على كرسي وهو على الأرض فيدعي له بكرسي فيجلس عليه (1).

فندم أبو يوسف على كلامه:

كان الرشيد يجمع العلماء ويسمع كلامهم، فحضر ذات يوم وفيهم أبو يوسف صاحب أبي حنيفة، والكسائي يذكر النحو، فقال له: أحذق الناس به

(1) أخبار أبي حنيفة، 1 / 107.

يكون معلماً، فقال له الكسائي: أسالك عن مسألة في الفقه، قال: سل، قال: ما تقول في غلام لك قتل فاتهمت به رجلين فسألتهما عن أمره فقال أحدهما: أنا قاتل غلامك، وقال الآخر: أنا قاتل غلامك، أيهما القاتل عندك؟ قال أبو يوسف: جميعاً، قال الكسائي: أخطأت، قال: فأيهما القاتل عندك؟ قال: والذي قال: أنا قاتل غلامك، لأن قوله: أنا قاتل غلامك يريد أنا قتلتنه، والذي قال: أنا قاتل - بالتثنيين - غير قاتل، أراد: سأقتل غلامك، فهو تهدد، قال الله تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} [الأنعام: ٩٦] المعنى فلق الإصباح، فندم أبو يوسف على كلامه (1).

فما نلت منكم طائلاً غير أنني :::: تعلمت حال الفقر كيف تكون

حدث أبو عبد الله الفضل بن الحسن الأهوازي، قال: قدم إلى الأهواز رجلاً من ولد الحسن بن سهل، حسن الهيئة والأدب، فأخبرنا جماعة من العراقيين أنه كان في نعمة واسعة فزالت عنه، وكان قصده لأحمد بن دينار، فقبله أحمد وقال: الزمنى ووعدته الإحسان، وأجرى عليه وعلى غلام كان معه نزلاً من خبز ولحم وتوابله مقدار ثلاثة دراهم، وقال له: تمهلني فأني في شغل، فإذا انكشف وجهي بلغت لك ما تحب، فطال مقامه وأخلقت أثوابه، فكتب إليه:

صحبتم عامين في حال عسرة :::: أرجي نداكم والظنون فنون

فما نلت منكم طائلاً غير أنني :::: تعلمت حال الفقر كيف تكون

فوصلت الرقعة إلى أحمد بن دينار، وكان يعقوب بن إسحاق اليزيدي حاضراً، فقال: لمن هذا؟ فقال: لرجل من ولد الحسن بن سهل، قال له: وهو مقيم عندك نحواً من حولين، قال: قريب من ذلك، فانصرف أبو يوسف ووجه إلى الرجل فأحضره ودفع له بمائة دينار، وقسط له على جماعة من الوجوه أربعة آلاف درهم، وكتب له إلى بزاز كان يعامله بكسوة بألف درهم، ووجه من اكرى له زورقاً إلى مدينة السلام، وزوده

زاداً كبيراً حسناً، وقال له: اخرج لا تلق من قصدته، فقال: والله لأضربن جودك على نائل يكون منه، ولأفردن الشكر لك دونه، ولأتجهن إلى الله تعالى في صيانتك عن كل دناءةٍ ومعرفةٍ كما صنتني عنها، وانصرف. وبلغ الخبر ابن دينار، وكان ذلك سبب وحشةٍ عظيمةٍ صارت بينهما (1).

تدري من خلف هذا الستر!

أرسل أمير المؤمنين الرشيد إلى قاضي القضاة أبو يوسف، في ساعةٍ لم يكن يرسل إليه في مثلها، قال أبو يوسف: فتحنطت وتكفنت ولبست فوق ذلك ثيابي، ودخلت على أمير المؤمنين، فألفيته جالساً على طرف المصلى، وإذا بين يديه سيف مسلول، فسلمت فرد علي السلام وأدناني، فشم مني رائحة الحنوط، فقال: ما هذه الرائحة فأخبرته الخبر فاسترجع، ثم أمر بذلك فنزع عني، وجاءني بثياب فلبستها، ثم قال لي: تدري من خلف هذا الستر؟ قلت: لا، يا أمير المؤمنين، قال: إن خلفه أعز خلق الله تعالى علي، قال: فظننت أنها الخيزران، ثم قال: إني أودعتها عقوداً لها مقدار، وجوهرأ له خطر، وإني فقدت منها عقداً، فحلفت بأيمان البيعة وأكدتها على نفسي أنها تصدقني عن خبره، فإن لم تصدقني ضربتها بسيفي هذا حتى أبضعها قطعاً، قال أبو يوسف: يا أمير المؤمنين! قد أخرجك الله تعالى من يمينك، فمر بالسيف يرد إلى غمده، فأمر به فرد إلى غمده، فقلت: يا أمير المؤمنين! سلها وعرفها يمينك، فسألها وغلظ عليها الأمر، قال: قل لها: لا تجيبك حتى أقول لها، ثم قال لها أبو يوسف: أمسكي، ثم قال: يا أمير المؤمنين! فسألها ثانية، فسألها وغلظ عليها ما حلف به، فقال لها أبو يوسف: قولي إني لم أخذه، فقالت: لم أخذه.

ثم التفت إلى أمير المؤمنين، فقال: قد صدقتك في أحد القولين إن كانت أخذته فقد صدقت، وإن كانت لم تأخذه فقد صدقتك.

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص 137.

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقاما وخرجا من البيت الذي كانا فيه إلى خزانة، فأمر بها ففتحت وأخرج إليه أسفاطاً فأمر بها فحلت، فإذا فيها جوهر له خطر، فقال أبو يوسف: يا أمير المؤمنين! ما رأيت أحسن من هذا، فإن رأيت أن تهبه لي؟ فقال: لا والله ما نفسي بذلك طيبة، فقال: فهبه لأم جعفر، فقال: لا والله، ولا نفسي به طيبة، قال: يا أمير المؤمنين! فإن لم تفعل لا هذا ولا ذا فتعلم أم جعفر أنني سألتك أن تهب لها هذه العقود فأبيت، قال: أما ذا فنعم، فأعلم أم جعفر بذاك فأنفذت إلى أبي يوسف بمائة ألف درهم (1).

هذا نذير الكلاب!

قال الإمام أبو يوسف القاضي رحمه الله كنت ماراً في طرقات الكوفة وإذا أنا بعليان المجنون فلما بصر بي سلم علي وقال لي: أيها القاضي مسألة قلت: هات، قال: أليس قال الله تعالى في كتابه العزيز: {وَمَنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ} [الأنعام: ٣٨]. قلت: بلى، قال: أليس قال الله

عز وجل: {وَأِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر: ٢٤]، قلت بلى، قال فما نذير الكلاب، قلت: لا أدري فأخبرني، قال لا والله لا أقول إلا بمن رفاق من شواء ونصف من فالودج، فأمرت من جاء بها، ودخلت معه مسجداً فأكلها حتى أتى على آخرها، فقلت: هات الجواب فأخرج من كفه حجراً وقال هذا نذير الكلاب! (2).

أبشريا أمير المؤمنين بالثواب الجزيل:

عن إبراهيم بن المهدي أنه كان يتغدى مع الرشيد في يوم شاتٍ، وإن الرشيد سأل صاحب المطبخ: هل عنده برمة من لحم الجزور؟ فأعلمه أن عنده عدة ألوان منه، فأمر بإحضار ما عنده منه، فقدمت إليه صحفة ومد

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص 216.

(2) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، عقلاء المجانين، ص 28.

يده إلى لقمة منها فأدخلها في فيه، فلما حرك لحييه عليها مرتين ضحك جعفر بن يحيى، فسأله الرشيد عن سبب ضحكه، وأمسك عن المضغ، فقال: ذكرت كلاماً دار بيني وبين جاريتي البارحة فضحكت منه، فقال له الرشيد: هذا محال، فأخبرني عن السبب بحقي عليك، فقال له جعفر: إذا ابتلع أمير المؤمنين لقمته حدثته السبب، فأخرج لقمته من فيه وألقاها تحت المائدة، فلما فعل ذلك قال له جعفر: بكم يتوهم أمير المؤمنين أن هذا اللون يقوم عليه؟ فقال له الرشيد: أتوهمه يقوم علي بأربعة آلاف درهم، فقال له جعفر: والله إن هذا اللون ليقوم عليك بأربع مائة ألف درهم، فقال: وكيف ويحك؟ فقال جعفر: سأل أمير المؤمنين صاحب المطبخ منذ أكثر من أربع سنين عن برمةٍ من لحم الجزور فأخبره أنه لم يتخذها، فأنكر ذلك علي أمير المؤمنين وقال: لا يفت مطبخي لون يتخذ من لحم الجزور في كل يوم، فأنا منذ ذلك اليوم أنحر جزوراً في كل يومٍ لأن الخلفاء لا يبتاع لهم لحم الجزور من السوق، ولم يدع أمير المؤمنين بشيءٍ من لحمها إلى يومه هذا. قال إبراهيم: وكان الرشيد في أول طعامه ولم يكن أكل إلا ملهوجة واحدة، وكان أشد خلق الله تقززاً، فصعق حين قال له جعفر ما قال، وضرب بيده اليمنى وفيها الغمر وجهه ومد بها لحيته ثم قال: هلكت ويلك يا هارون، واندفع يبكي، وأمر برفع المائدة وطفق يبكي حتى أذنه المؤذنون بصلاة الظهر، وأمر أن يفرق ألف ألف درهم وأن يفرق في كل جانب من جانبي بغداد خمسمائة ألف درهم وأن يفرق في كل مدينة من الكوفة والبصرة خمسمائة ألف درهم، وقال: لعل الله تعالى أن يغفر لي هذا الذنب. وقام يصلي الظهر، ثم عاد في مكانه فلم يزل باكياً حتى أذنه المؤذنون بصلاة العصر وقام فصلى: وعاد لمكانه إلى أن قرب ما بين صلاة العصر والمغرب، فأخبره القاسم بن الربيع مولاه أن أباه يوسف القاضي بالباب فأمره بإدخاله، فدخل وسلم فلم يرد عليه وأقبل يقول: يا يعقوب هلك هارون، فسأله يعقوب عن القصة فقال: يخبرك جعفر بها،

وعاد لبكائه. وحضر جعفر فسأله أبو يوسف عن القصة فقال: يخبرك جعفر بها، وعاد لبكائه. وحضر جعفر فسأله أبو يوسف عن القصة والسبب المخرج للرشد إلى ما خرج إليه، فحدثه جعفر عن الجزور التي كانت تنحر في كل يوم طول تلك المدة ومبلغ ما أنفق في أثمانها من الأموال، فقال له أبو يوسف: أخبرني عن هذه الإبل التي كانت تبتاع بهذه الدراهم هل كانت تترك إذا نحرت حتى تفسد، ولا تؤكل لحومها حتى تنتن فيرمى بها؟ قال جعفر: اللهم لا، قال أبو يوسف: فكان يصنع بها ماذا؟ قال: يأكلها الحشم والموالي وعيال أمير المؤمنين، فقال أبو يوسف: الله أكبر الله أكبر، أبشر يا أمير المؤمنين بالثواب الجزيل من الله عز وجل على نفقتك، وأبشر بثواب الله تعالى على ما فتح لك من الصدقة في يومك هذا، ومن البكاء للتقية من ربك، فإني لأرجو يا أمير المؤمنين أن لا يرضى الله تعالى من ثوابه على ما قد داخلك من الخوف من سخطه عليك إلا الجنة، فإنه يقول تعالى: {وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ} [الرحمن: ٤٦] وأنا أشهد بالله تعالى أنك خفت مقام ربك، فسري عن الرشد وطابت نفسه ووصل أبا يوسف بأربعمائة ألف درهم، ثم صلى المغرب ودعا بطعامه فأكل، فكان غداؤه في اليوم عشاءه (1).

هذا لم يكن في الصلاة إنما كان في الصيد:

استأذن القاضي أبو يوسف على المتوكل فقال لعبادة: اخرج نشاركه على أن يلزم الحائط ساكتاً، وتوعده إن نطق بحرف أن يقبله، فأقبل على القاضي يسأله عن مسائل من الفقه، إلى أن سأله عن رجل يصلي فرمى بطرفه إلى ثوبه فرأى دابة، فقال: يردّها إلى سبعين، فإن رأى أخرى؟ قال يفعل بها مثل ذلك، قال: فإن رأى أخرى؟ فابتدر عبادة فقال: هذا لم يكن في الصلاة إنما كان في الصيد (2).

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص 283.

(2) الزمخشري، ربيع الأبرار، 1 / 109، 156، 311.

أنا لا أحكم على غائب:

أبو يوسف القاضي رحمه الله تعالى، تحاكم إليه الرشيد وزبيدة في الفالودج واللوزينج أيهما أطيب، فقال أبو يوسف: أنا لا أحكم على غائب. فأمر باتخاذهما وتقديمهما إليه، فجعل يأكل من هذا مرة ومن ذلك أخرى حتى نظف الجانبين ثم قال: يا أمير المؤمنين، ما رأيت أجدل منهما، إن أردت أن أسجل لأحدهما أدلى الآخر بحجة (1).

وقد كنت في بيتي والدروب مغلقة، فحين دعاني فتحت:

دعا الرشيد أبا يوسف ليلاً فسأله عن مسألة فأفتاه، فأمر له بمائة ألف درهم، فقال: إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بتعجيلها قبل الصبح، فقال: عجلوها له، فقبل إن الخازن في بيته والأبواب مغلقة، فقال أبو يوسف: وقد كنت في بيتي والدروب مغلقة، فحين دعاني فتحت (2).

أنت طالق أن دخلت الدار:

دخل أبو يوسف الفقيه على الرشيد وعنده الكسائي يحدثه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد سعد هذا الكوفي بك وشغلك. فقال الرشيد: النحو أستعين به على القرآن والشعر. فقال الكسائي: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن له بجوابي عن مسألة من الفقه؟ فضحك الرشيد وقال: أبلغت - يا كسائي - إلى هذا، قل! فقال الكسائي: ما تقول في رجل قال لامرأته: أنت طالق أن دخلت الدار؟ قال أبو يوسف: إذا دخلت طلقت. فقال الكسائي: أخطأت! إذا فتحت " أن " فقد وجب الأمر لأن " أن " بالفتح لما قد كان، وإذا كسرت فلم يقع بعد. فنظر أبو يوسف بعد ذلك في النحو (3).

نعم القاضي قاضي جبل:

حدث عبد الرحمن بن مسهر قال: ولاني القاضي أبو يوسف القضاء

(1) الثعالبي، اللطف والطائف، ص 10.

(2) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 2 / 356.

(3) المرزباني، نور القبس، ص 107.

بجبل وبلغني أن الرشيد منحدر إلى البصرة فسألت أهل جبل أن يثنوا علي فوعدوني أن يفعلوا ذلك وتفرقوا فلما آيسوني من أنفسهم سرحت لحيتي وخرجت فوقفت له فوافى وأبو يوسف في الحراقة فقلت: يا أمير المؤمنين، نعم القاضي قاضي جبل قد عدل فينا وفعل وصنع وجعلت أثنى على نفسي فرآني أبو يوسف فطأطأ رأسه وضحك فقال هارون مم تضحك؟ فقال: إن المثني على نفسه هو القاضي فضحك هارون حتى فحس برجليه وقال: هذا شيخ سخيّف سفلّة فاعزله، فعزلني (1).

لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكي:

وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبي يوسف بن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل فقال أبو يوسف: قم أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتّع يا غلام ائتني بعمر بن أبي عمرو النحاس فإنه إن قدم على الساعة أمرته ببيع هذا العبد وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين ثم إن الحاجب أخذ بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة فقال له: لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكي فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم فإن ذلك عمود السلطان وقوام الأديان والله تعالى أعلم (2).

لو كنت فقيهاً لما تكلمت في الصلاة:

ومثله قول أبي يوسف بعرفة وقد صلى خلف الرشيد فلما سلّم في الرّكعتين قال: يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإنما قوم سفر. فقال بعض أهل مكة: من عندنا خرج العلم إليكم. فقال أبو يوسف: لو كنت فقيهاً لما تكلمت

(1) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، الناشر: المكتب التجاري - بيروت، ص 102.

(2) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبهسي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، 1986، 1 / 221.

في الصلاة (1).

لله دركم يا أصحاب أبي حنيفة، من ذا يقاومكم!

وحدّثني الحسن بن محمد الوليدي الفقيه عن مشايخه أنّ أبا يوسف القاضي كان عند الرشيد ذات يوم وبين يدي الرشيد غلام مختطّ حسن الوجه من أبناء عمّه قائم على رسم الخدمة، وكان الرشيد يحدث أبا يوسف وأبو يوسف يحدّد النّظر إلى الغلام، فقال له الرشيد: هو ذا أحدثك وأنت مقبل ببصرك على هذا القائم، فقال أبو يوسف: نعم يا أمير المؤمنين، حدّثني ابن أبي ذئب عن الزهري عن أنس عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: **ثلاثة تجلو البصر: الاكتحال بالإثمد، والنّظر إلى الماء الجاري، والنّظر إلى الوجه الحسن**—، وأنا شيخ ضعيف البصر أحببت أن أجلو بصري، فتبسّم الرشيد وأوماً بيده فقامت جارية من وراء الخدر ونقرت العود نقرأ أعجب السّامعين جودة فصبر أبو يوسف حتّى فرغت، ثمّ قال: أحسنت، فقال الرشيد: لم تقتصر على حسن السماع حتّى قلت أحسنت، فقال: إنّما قلت أحسنت حين أمسكت، فقال الرشيد: لله دركم يا أصحاب أبي حنيفة، من ذا يقاومكم (2).

من كلامه:

عن أبي يوسف رحمه الله أنّه قال من طلب الدين بالكلام تزندق ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ومن تتبع غريب الحديث كذب.

قال أبو يوسف: ناظرت أبا حنيفة ستة أشهر فاتفق رأينا على أن من قال القرآن مخلوق فهو كافر.

وقال بشار الخفاف: سمعت أبا يوسف يقول: من قال القرآن مخلوق ففرض منا بذته (3).

(1) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 6.

(2) العبدلكاني الزوزني، حماسة الظرفاء، ص 23.

(3) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، العلو للعلي الغفار، تحقيق أبو محمد

قال أبو يوسف: بخراسان صنفان ما على الأرض شر منهما المقاتلية والجهمية.

قال أبو يوسف: العلم بالكلام جهل.

قَالَ عَلِي بْنُ إِشْكَابٍ: سَمِعْتُ أَبَا يُوسُفَ يَقُولُ: يَا قَوْمَ أَرِيدُوا بِفَعْلِكُمُ اللَّهَ، فَإِنِّي لَمْ أَجْلِسْ مَجْلِسًا قَطُّ أَنْوِي فِيهِ أَنْ أَتَوَاضَعَ إِلَّا لَمْ أَقُمْ حَتَّى أَعْلُوهُمْ وَلَمْ أَجْلِسْ مَجْلِسًا قَطُّ أَنْوِي فِيهِ أَنْ أَعْلُوهُمْ إِلَّا لَمْ أَقُمْ حَتَّى أَفْتَضَحَ (1).

صحبة من لا يخشى العار عار يوم القيامة.

وكان يقول: رؤوس النعم ثلاثة: فأولها نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها، والثانية: نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها، والثالثة نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها.

وقال علي بن الجعد: سمعت أبا يوسف يقول: العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كذلك، وأنت إذا أعطيته كذلك من إعطائه البعض كنت على غرر.

عن أبي يوسف قال: ثلاث، صدق باثنين ولا تصدق بواحدة، إن قيل لك إن رجلاً كان معك فتواري خلف حائط فمات فصدق، وإن قيل لك إن رجلاً فقيراً خرج إلى بلد فاستفاد مالا فصدق، وإن قيل لك إن أحرق خرج إلى بلد فاستفاد عقلاً فلا تصدق (2).

قال أبو يوسف القاضي: إثبات الحجّة على الجاهل سهل، ولكن إقراره بها صعب (3).

أشرف بن عبد المقصود، الناشر: مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة الأولى، 1995، ص 51 - 52.

(1) أخبار القضاة، 3 / 259.

(2) جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)، أخبار الحمقى والمغفلين، ص 3.

(3) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، ط دار صادر - بيروت /

وقال له بعض الناس يوماً يا مجنون، فقال: مهلاً إنما المجنون من عرفه ثم عصاه (1).

وقال أبو يوسف: الكفاء على الحقيقة المساوي في النسب والمال والدين (2).

وقال أبو يوسف الناس ثلاثة مجنون ونصف مجنون وعاقل فأما المجنون فأنت منه في راحة لتركك الاختلاط به وأما نصف المجنون فأنت معه في تعب لضرورتك إليه وأما العاقل فقد كفيت مؤنته (3).

وقال أبو يوسف: إثبات الحجة على الجاهل سهل، ولكن إقراره بها صعب.

وقد رضي قوم بالجهل فقالوا: ضعف العقل أمان من الغم؛ وقالوا: ما سر عاقل قط (4).

وقال أبو يوسف: خوف مالا دفع له من أخلاق من لا عقل له. من حسن خلقه وجب حقه.

من عجل وجل.

صغر القدر يحمل على ادعاء الفخر.

من لم يكن فخره بفعله فلا فخر له (5).

ما كتب به أبو يوسف رحمه الله إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد

بسم الله الرحمن الرحيم

لبنان - 1419 هـ - 999 م، 8 / 23.

(1) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، عقلاء المجانين، ص 28.

(2) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 1 / 413.

(3) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ص 61.

(4) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 1 / 357.

(5) أسامة بن منقذ، لباب الأداب، ص 118.

(هذا ما كتب به أبو يوسف رحمه الله إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد)

أطال الله بقاء أمير المؤمنين، وأدام له العز في تمام من النعمة، ودوام من الكرامة، وجعل ما أنعم به عليه موصولاً بنعيم الآخرة الذي لا ينفذ ولا يزول، ومرافقة النبي صلى الله عليه وسلم .

إن أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألني أن أضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج، والعشور والصدقات والجواري، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته، والصالح لأمرهم. وفق الله تعالى أمير المؤمنين، وسدده وأعانه على ما تولى من ذلك، وسلمه مما يخاف ويحذر، وطلب أن أبين له ما سألني عنه مما يريد العمل به، وأفسره وأشرحه. وقد فسرته ذلك وشرحته.

يا أمير المؤمنين، إن الله وله الحمد قد قلدك أمراً عظيماً: ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب. قلدك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمسيته وأنت تبني لخلق كثير قد استترعاهم الله وانتمنك عليهم، وابتلاك بهم وولاك أمرهم، وليس يلبث البنيان - إذا أسس على غير التقوى - أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعانه عليه. فلا تضيعين ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية، فإن القوة في العمل بإذن الله.

لا تؤخر عمل اليوم إلى غد، فإنك إذا فعلت ذلك أضعت، إن الأجل دون الأمل، فبادر الأجل بالعمل، فإنه لا عمل بعد الأجل. إن الرعاية مؤدون إلى ربهم ما يؤدي الراعي إلى ربه. فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار، فإن أسعد الرعاية عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته، ولا تزغ فتزيغ رعيته. وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب. وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا، فإن الآخرة تبقى والدنيا تقنى. وكن من خشية الله على حذر، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد، ولا

تخف في الله لومة لائم. واحذر فإن الحذر بالقلب وليس باللسان، واثق الله فإنما التقوى بالتوقي، ومن يتق الله يقه. واعمل لأجل مفضوض، وسبيل مسلوك، وطريق مأخوذ، وعمل محفوظ، ومنهل مورود؛ فإن ذلك المورد الحق والموقف الأعظم الذي تطير فيه القلوب، وتنقطع فيه الحجج لعزة ملك قهرهم جبروته، والخلق له داخرون بين يديه ينتظرون قضاءه، ويخافون عقوبته وكأن ذلك قد كان. فكفى بالحسرة والندامة يومئذ في ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل، يوم تزل فيه الأقدام، وتتغير فيه الألوان، ويطول فيه القيام، ويشتد فيه الحساب. يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: {وَأَبَیْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [الحج: ٤٧] وقال تعالى: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ} [المرسلات: ٣٨] وقال تعالى: {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ} [الدخان: ٤٠] وقال تعالى: {كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ} [الأحقاف: ٣٥] وقال: {كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى} [النازعات: ٤٦]، فيالها من عثرة لا تُقال، ويالها من ندامة لا تنفع، وإنما هو اختلاف الليل والنهار: بيليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود، ويجزي الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب. فالله الله فإن البقاء قليل والخطب خطير والدنيا هالكة وهالك من فيها، والآخرة هي دار القرار. فلا تلق الله غداً وأنت سالك سبيل المعتدين، فإن ديان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم ولا يدينهم بمنازلهم. وقد حذرك الله فاحذر، فإنك لم تخلق عبثاً، ولن تترك سدى. وإن الله سائلك عما أنت فيه وعما عملت به، فانظر ما الجواب؟! واعلم أنه لن تزول غداً قدما عبد بين يدي الله تبارك وتعالى إلا من بعد المسألة فقد قال صلى الله عليه وسلم: ﷻ لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن علمه ما عمل فيه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسده فيما أبلاه—، فأعدد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها، فإن ما عملت فأثبت فهو عليك غدا يقرأ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله في مجمع

الأشهاد. وإني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله، ورعاية ما استرعاك، وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله. فإنك إن لا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى، وتعمى في عينك وتتغفى رسومه ويضيق عليك رحبه، وتترك منه ما تعرف، وتعرف منه ما تنكر، فخاصم نفسك خصومة من يريد الفلج لها لا عليها، فإن الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة بإذن الله، وأورده أماكن الحياة والنجاة، فإذا ترك ذلك أضاعه وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه أضر، وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك، ووفاه الله أضعاف ما وفى له. فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربها حقها منك ويضيعك بما أضعت أجرك، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم. وإنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره، وعليك ما ضيعت منه، فلا تنس القيام بأمر من ولاك الله أمره فلست تُنسى. ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يُغفل عنك. ولا يضيع حظك، من الدنيا في هذه الأيام والليالي، من كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبيحاً وتهليلاً وتحميداً، والصلاة على رسوله نبي الرحمة وإمام الهدى صلى الله عليه وسلم. وإن الله بمنه ورحمته جعل ولادة الأمر خلفاء في أرضه، وجعل لهم نوراً يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم وبين ما اشتبه من الحقوق عليهم. وإضاءة نور ولادة الأمر إقامة الحدود، ورد الحقوق إلى أهلها بالثبوت والأمر البين. وإحياء السنن التي سننها القوم الصالحون أعظم موقعاً، فإن إحياء السنن من الخير الذي يحيا ولا يموت. وجور الراعي هلاك الرعية، واستعانت به بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة. فاستتم ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن مجاورتها، والتمس الزيادة بالشكر عليها، فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧]. وليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح، ولا أبغض إليه من الفساد، والعمل بالمعاصي كفر النعم. وقل من كفر قوم قط النعمة ثم لم يفرعوا إلى

التوبة إلا سلبوا عزهم، وسلط الله عليهم عدوهم. وإنني أسأل الله يا أمير المؤمنين الذي منَّ عليك بمعرفته فيما أولاك أن لا يكلك في شيء من أمرك إلى نفسك، وأن يتولى منك ما تولى من أوليائه وأحبائه؛ فإنه وليُّ ذلك والمرغوب إليه فيه.

وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحته وبينته، فتفقهه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه، فإني قد اجتهدت لك في ذلك ولم ألك والمسلمين نصحاً ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه. وإنني لأرجو - إن عملتَ بما فيه من البيان - أن يوفر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد، ويصلح لك رعيته فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم، ورفع الظلم عنهم والتظام فيما اشتبه من الحقوق عليهم، وكتبت لك أحاديث حسنة، فيها ترغيب وتحضيض على ما سألت عنه، مما تريد العمل به إن شاء الله. فوفقك الله لما يرضيه عنك، وأصلح بك، وعلى يدك.

أخبر عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثنا أبي قال: سمعت أبا يوسف القاضي يقول: إن للعيون خبايا بالغدوات ما ليس لها بالعشيات، فقلت له: يا أبت، أليس ذكرت أنك لا تروي عن أبي يوسف؟ فقال: هذه حكمة يأخذها العبد عن كل من وجدها عنده (1).

* * *

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص 118، 356.

العلامة ابن حزم الأندلسي

ابن حزم الأندلسي

أعلام الفقهاء

العلامة ابن حزم الأندلسي

في (مدينة) قرطبة الساحرة، إحدى مدن الأندلس وفي قصر أحد الوزراء، في أواخر شهر رمضان في عام 384هـ، كان ميلاد طفل مبارك أصبح له بعد ذلك شأن كبير، فرح به والده فرحاً شديداً، وشكر الله سبحانه وتعالى على نعمته وعطائه.

نشأ الغلام في قصر أبيه نشأة كريمة، فقد كان أبوه وزيراً في الدولة العامرية وتعلم القرآن الكريم، والحديث النبوي، والشعر العربي، وفنون الخط والكتابة، وتمر الأيام ويكبر الغلام، فيجعله أبوه في صحبة رجل صالح يشرف عليه، ويشغل وقت فراغه، ويصاحبه إلى مجالس العلماء.. إنه: (علي ابن أحمد بن سعيد الأندلسي) الشهير بابن حزم الأندلسي.

كانت أسرته لها مكانة مرموقة وعراقة في النسب، (بنو حزم) كانوا من أهل العلم والأدب، ومن ذوي المجد والحسب، تولى أكثر من واحد منهم الوزارة، ونالوا بقرطبة جاهاً عريضاً.

وكان والد (ابن حزم) من عقلاء الرجال، الذين نالوا حظاً وافراً من الثقافة والعلم، ولذلك كان يعجب ممن يلحن في الكلام، ويقول: (إني لأعجب ممن يلحن في مخاطبة أو يجيء بلفظة قلقة في مكاتبة، لأنه ينبغي له إذا شك في شيء أن يتركه، ويطلب غيره، فالكلام أوسع من هذا).

وكانت هذه الثقافة الواسعة، والشخصية المتزنة العاقلة هي التي أهلت والد ابن حزم لتولي منصب الوزارة للحاجب المنصور بن أبي عامر في أواخر خلافة بني أمية في الأندلس، وفي القصر عاش ابن حزم عيشة هادئة رغدة، ونشأ نشأة مترفة، تحوط بها النعمة، وتلازمها الراحة والترف، فلا ضيق في رزق ولا حاجة إلى مال، وحوله الجواري الحسان ورغم هذه المغريات عاش ابن حزم عفيفاً لم يقرب معصية.. يقول في

ذلك: (يعلم الله وكفي به عليمًا، أني بريء الساحة، سليم الإدام (أي: أكل حلالاً) صحيح البشرية، نقي الحجرة، وأنني أقسم بالله أجل الأقسام، أني ما حلت متزري على فرج حرام قط، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنى منذ عقلت إلى يومي هذا).

وتغيرت الأحوال؛ فقد مات الخليفة، وجاء خليفة آخر، فانتقل ابن حزم مع والده إلى غرب قرطبة بعيداً عن الفتنة، ومن يومها والمحن تلاحق ابن حزم، فالحياة لا تستقرُّ على حال، فقد كشرت له عن أنيابها، وأذاقته من مرارة كأسها، بعدما كانت له نعم الصديق، واضطر (ابن حزم) إلى الخروج من قرطبة إلى (المريّة) سنة 404هـ وبعدها عاش في ترحال مستمر بسبب السياسة واضطهاد الحكام له، وكان ابن حزم واسع الاطلاع، يقرأ الكثير من الكتب في كافة المجالات، ساعده على ذلك ازدهار مكتبات قرطبة بالكتب المتنوعة، واهتمام أهل الأندلس بالعلوم والآداب، واشتهر ابن حزم بعلمه الغزير، وثقافته الواسعة، فكان بحق موسوعة علمية أحاطت بالكثير من المعارف التي كانت في عصره في تمكن وإحاطة.

قال عنه أحد العلماء (أبو عبد الله الحميدي): كان ابن حزم حافظاً للحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متفناً في علوم جمّة عاملاً بعلمه، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء، وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين..

وبعد أن بلغ ابن حزم رتبة الاجتهاد في الأحكام الشرعية، طالب بضرورة الأخذ بظاهر النصوص في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وكان ابن حزم متنوع الكتابات، كتب في علوم القرآن والحديث، والفقه والأديان، والرد على اليهود والنصارى، والمنطق.. وغيرها من العلوم، قال عنه أحد المؤرخين: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان (أي علوم اللغة)

وزيادة حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار.. وقد بلغ ما كتبه ابن حزم أربعمائة مجلد، تشتمل على ثمانين ألف ورقة تقريباً، كما قال ابنه الفضل.. يقول عنه الإمام (أبو حامد الغزالي): وجدت في أسماء الله تعالى كتاباً ألفه (ابن حزم الأندلسي) يدل على عظيم حفظه وسيلان ذهنه.

شغل ابن حزم منصب الوزارة ثلاث مرات، وكان وفياً للبيت الأموي الحاكم في الأندلس، وموالياً لهم، يعمل على إعادة الخلافة للدولة الأموية، ويرى أحقيتها في الخلافة، وبسبب ذلك كان يعرض نفسه للأسر أو السجن أو النفي، وقد دبر له خصومه المكائد، وأوقعوا بينه وبين السلطان حسداً وحقداً عليه، حتى أحرقت كتبه في عهد (المعتضد بن عباد) فقال ابن حزم في ذلك:

فَإِنْ تَحْرِقُوا الْقُرْطَاسَ لَا تَحْرِقُوا :: الذي تَضَمَّنَهُ الْقُرْطَاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي
يَسِيرُ مَعِيَ حَيْثُ اسْتَقَلْتُ رَكَائِي :: وَيَنْزِلُ إِنْ أَنْزَلَ وَيُذْفَنُ فِي قَبْرِي

وقد منح الله ابن حزم ذاكرة قوية وبديهة حاضرة، فكان متواضعاً لله، شاكراً له، يقول في ذلك: (وإن أعجبت بعلمك فاعلم أنه لا خصلة لك فيه، وأنه موهبة من الله مجردة، وَهَبَكَ إِيَّاهَا رَبُّكَ تَعَالَى، فلا تقابلها بما يسخطه، فلعله ينسيك ذلك بعله يمتحنك بها، تولد عليك نسيان ما علمت وحفظت).

وكان عزيز النفس، واثق الكلمة أمام خصومه وأعدائه، لا ينافق الحكام، ويرفض قبول هداياهم حتى لو سبب له ذلك الكثير من المتاعب، وكانت صفة الوفاء ملازمة له، فكان وفياً لدينه وإخوانه وشيوخه، ولكل من اتصل به.

وتفرغ ابن حزم للتأليف؛ فأخرج كتباً كثيرة، مثل: (المحلى) في الفقه و(الفصل بين أهل الآراء والنحل) و(الإحكام في أصول الأحكام) و(جمهرة أنساب العرب) و(جوامع السير) و(الرد على من قال بالتقليد)

و(شرح أحاديث الموطأ) كما يعد كتاب (طوق الحمامة) من أشهر كتبه، وفيه الكثير من الشعر الذي قاله في مختلف المناسبات. وعاش هذا الفقيه في محراب العلم، يتصدى للظلم والجهل، ويجاهد مع ذلك هوى نفسه، وبعد حياة حافلة بالكفاح والعلم والصبر على الإيذاء، لقي ابن حزم ربه في الثامن والعشرين من شعبان سنة 564 هـ عن عمر يقارب إحدى وسبعين سنة، ويقف (أبو يوسف يعقوب المنصور) ثالث خلفاء دولة الموحدين أمام قبره خاشعاً ولم يتمالك نفسه، فيقول: كل الناس عيال على ابن حزم.

وقد أثني عليه كثير من العلماء والأئمة فقد قال عنه أبو حامد الغزالي: وجدت في أسماء الله تعالى كتاباً ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه.

وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر، والمعرفة بالسير والأخبار؛ أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد من تواليفه أربع مائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة.

قال أبو عبد الله الحميدي: كان ابن حزم حافظاً للحديث وفقهه، مستنبطاً لأحكام من الكتاب والسنة، متفنناً في علوم جمة، عاملاً بعلمه، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء، وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين، وكان له في الأدب والشعر نفس واسع، وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه، وشعره كثير جمعته على حروف المعجم.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام - وكان أحد المجتهدين -:

ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل: (المحلى) لابن حزم (1).

وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد: كان ابن حزم أجمع أهل

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 18 / 194.

الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر، والمعرفة بالسير والأخبار؛ أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد من تواليه أربع مائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة.

ولابن حزم مصنفات جليلة منها:

أكبرها (الإيصال إلى فهم كتاب الخصال).

و(الخصال الحافظ لجمل شرائع الإسلام).

و(المحلى).

و(المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار).

(حجة الوداع).

(قسمة الخمس في الرد على إسماعيل القاضي).

(الآثار التي ظاهرها التعارض ونفي التناقض عنها).

(الجامع في صحيح الحديث).

(التلخيص والتخليص في المسائل النظرية)

(ما انفرد به مالك وأبو حنيفة والشافعي)

(مختصر الموضح) لأبي الحسن بن المغلس الظاهري.

(اختلاف الفقهاء الخمسة مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد،

وداود)

(التصفح في الفقه).

(التبيين في هل علم المصطفى أعيان المنافقين).

(الإملاء في شرح الموطأ).

(الإملاء في قواعد الفقه).

(در القواعد في فقه الظاهرية).

(الإجماع).

(الفرائض).

(الرسالة البلقاء في الرد على عبد الحق بن محمد الصقلي).

(الإحكام لأصول الأحكام).

(الفصل في الملل والنحل).

(الرد على من اعترض على الفصل).

(اليقين في نقض تمويه المعتذرين عن إبليس وسائر المشركين).

(الرد على ابن زكريا الرازي).

(الترشيد في الرد على كتاب الفريد) لابن الراوندي في اعتراضه على

النبوات.

(الرد على من كفر المتأولين من المسلمين).

(مختصر في علل الحديث).

(التقريب لحد المنطق بالألفاظ العامية).

(الاستجلاب) مجلد، كتاب (نسب البربر).

(نقط العروس).

(مراقبة أحوال الإمام).

(من ترك الصلاة عمدا).

(رسالة المعارضة).

(قصر الصلاة).

(رسالة التأكيد).

(ما وقع بين الظاهرية وأصحاب القياس).

- (فضائل الأندلس).
(العتاب على أبي مروان الخولاني).
(رسالة في معنى الفقه والزهد).
(مراتب العلماء وتواليهم).
(التلخيص في أعمال العباد).
(الإظهار لما شنع به على الظاهرية).
(زجر الغاوي).
(النبذ الكافية).
(النكت الموجزة في نفي الرأي والقياس والتعليل والتقليد).
(الرسالة اللازمة لأولي الأمر).
(مختصر الملل والنحل).
(الدرة فيما يلزم المسلم) جزآن.
(مسألة في الروح).
(الرد على إسماعيل اليهودي، الذي ألف في تناقض آيات).
(النصائح المنجية).
(الرسالة الصمادحية في الوعد والوعيد).
(مسألة الإيمان).
(مراتب العلوم).
(بيان غلط عثمان بن سعيد الأعور في المسند والمرسل).
(ترتيب سؤالات عثمان الدارمي لابن معين).
(عدد ما لكل صاحب في مسند بقي)، (تسمية شيوخ مالك).

(السير والأخلاق).

(بيان الفصاحة والبلاغة) رسالة في ذلك إلى ابن حفصون

(مسألة هل السواد لون أو لا).

(الحد والرسم).

(تسمية الشعراء الوافدين على ابن أبي عامر).

(شيء في العروض).

(مؤلف في الظاء والضاد).

(التعقب على الأفليلي في شرحه لديوان المتنبي).

(غزوات المنصور بن أبي عامر).

(تأليف في الرد على أناجيل النصارى).

مؤلفاته في الطب:

ولابن حزم: (رسالة في الطب النبوي) وذكر فيها أسماء كتب له في

الطب منها:

(مقالة العادة).

و(مقالة في شفاء الضد بال ضد).

و(شرح فصول بقراط).

وكتاب(بلغة الحكيم).

وكتاب(حد الطب).

وكتاب(اختصار كلام جالينوس في الأمراض الحادة).

وكتاب في(الأدوية المفردة).

و(مقالة في المحاكمة بين التمر والزبيب).

و(مقالة في النخل).

(تبدیل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل).

وأشياء سوى ذلك (1).

وقد امتحن لتطويل لسانه في العلماء، وشرّد عن وطنه، فنزل بقريّة له، وجرت له أمور، وقام عليه جماعة من المالكية، وجرت بينه وبين أبي الوليد الباجي مناظرات ومناقرات، ونفروا منه ملوك الناحية، فأقصته الدولة، وأحرقت مجلدات من كتبه، وتحول إلى بادية لبلة في قرية.

قال أبو الخطاب ابن دحية: كان ابن حزم قد برص من أكل اللبان، وأصابه زمانة، وعاش ثنتين وسبعين سنة غير شهر.

قال الذهبي: وكذلك كان الشافعي - رحمه الله - يستعمل اللبان لقوة الحفظ، فولد له رمي الدم (2).

مواقف من حياته:

منابر الذهب والفضة:

ذكر أن ابن حزم اجتمع يوماً مع الفقيه أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب الباجي صاحب كتابي المنتقى والاستغناء وغيرهما من التواليف وجرت بينهما مناظرة فلما انقضت قال الفقيه أبو الوليد: تعذرني فإن أكثر مطالعتي كانت على سرج الحراس.

قال ابن حزم: وتعذرني أيضاً فإن أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب والفضة.

أراد أن الغنى أضيع لطلب العلم من الفقر (3).

من كلامه:

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 198/18، الأخلاق والسير لابن حزم الأندلسي، 1 / 13.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 199/18، الأخلاق والسير لابن حزم الأندلسي، 1 / 14.

(3) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، نشر دار الكتب العلمية، مكان النشر بيروت، 1411 هـ - 1991م، 3 / 548.

لذة العاقل بتمييزه، ولذة العالم بعلمه، ولذة الحكيم بحكمته، ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده، أعظم من لذة الأكل بأكله، والشارب بشربه، والواطيء بوطئه، والكاسب بكسبه، واللاعب بلعبه، والأمر بأمره، وبرهان ذلك، أن الحكيم العاقل والعالم والعامل واجدون لسائر اللذات التي سمينا، كما يجدها المنهمك فيها، ويحسونها كما يحسها المقبل عليها، وقد تركوها وأعرضوا عنها، وآثروا طلب الفضائل عليها، وإنما يحكم في الشئيين من عرفهما لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر.

ثم قال: إذا تعقبت الأمور كلها فسدت عليك، وانتهيت في آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا، إلى أن الحقيقة إنما هي العمل للأخرة فقط، لأن كل أمل ظفرت به فعقباه حزن، إما بذهابه عنك، وإما بذهابك عنه، ولا بد من أحد هذين الشئيين، إلا العمل لله عز وجل؛ فعقباه على كل حال سرور في عاجل وآجل، أما العاجل فقلة الهم بما يهتم به الناس، وإنك به معظم من الصديق والعدو، وأما في الآجل فالجنة.

وقال: لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل في دعاء إلى حق، وفي حماية الحريم، وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى، وفي نصر مظلوم. وباذل نفسه في عرض دنيا، كبائع الياقوت بالحصى.

لا مروءة لمن لا دين له.

العاقل لا يرى لنفسه ثمناً إلا الجنة.

لإبليس في ذم الرياء حباله، وذلك أنه رب ممتنع من فعل خير خوف أن يظن به الرياء.

العقل والراحة هو إطاراح المبالاة بكلام الناس، واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل بل هذا باب العقل، والراحة كلها. من قدر أنه يسلم من طعن الناس وعيبيهم فهو مجنون.

من حقق النظر، وراض نفسه على السكون إلى الحقائق وإن ألتمها في أول صدمة كان اغتباطه بزم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه، لأن مدحهم إياه، إن كان بحق وبلغه مدحهم له، أسرى ذلك فيه العجب، فأفسد بذلك فضائله، وإن كان بباطل فبلغه فسره، فقد صار مسروراً بالكذب، وهذا نقص شديد. وأما ذم الناس إياه، فإن كان بحق فبلغه، فربما كان ذلك سبباً إلى تجنبه ما يعاب عليه، وهذا حظ عظيم، لا يزهّد فيه إلا ناقص، وإن كان بباطل وبلغه فصبر، اكتسب فضلاً زائداً بالحلم والصبر، وكان مع ذلك غانماً، لأنه يأخذ حسنات من ذمه بالباطل، فيحظى بها في دار الجزاء، أحوج ما يكون إلى النجاة بأعمال لم يتعب فيها، ولا تكلفها، وهذا حظ عظيم لا يزهّد فيه إلا مجنون. وأما إن لم يبلغه مدح الناس إياه، فكلامهم وسكوتهم سواء، وليس كذلك ذمهم إياه، لأنه غانم للأجر على كل حال، بلغه ذمهم أو لم يبلغه. ولولا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الثناء الحسن ذلك عاجل بشرى المؤمن لوجب أن يرغب العاقل في الذم بالباطل، أكثر من رغبته في المدح بالحق، ولكن إذا جاء هذا القول، فإنما تكون البشرى بالحق لا بالباطل، فإنما تجب البشرى بما في الممدوح لا بنفس المدح.

ليس بين الفضائل والرذائل، ولا بين الطاعات والمعاصي إلا نفار النفس وأنسها فقط. فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات، ونفرد من الرذائل والمعاصي، والشقي من أنست نفسه بالرذائل والمعاصي، ونفرت من الفضائل والطاعات، وليس هاهنا إلا صنع الله تعالى وحفظه.

طالب الآخرة ليفوز في الآخرة متشبه بالملائكة، وطالب الشر متشبه بالشياطين، وطالب الصوت والغلبة متشبه بالسباع، وطالب اللذات متشبه بالبهائم، وطالب المال لعين المال لا لينفقه في الواجبات والنوافل المحمودة أسقط وأرذل من أن يكون له في شيء من الحيوان شبهة! ولكنه يشبه الغدران التي في الكهوف، في المواضع الوعرة، لا ينتفع بها شيء من

الحيوان.

فالعاقل لا يغبط بصفة يفوقه فيها سبع أو بهيمة أو جماد، وإنما يغبط بتقدمه في الفضيلة التي أبانه الله تعالى بها عن السباع والبهائم والجمادات، وهي: التمييز الذي يشارك فيه الملائكة.

فمن سر بشجاعته التي يضعها في غير موضعها الله عز وجل فليعلم أن النمر أجزأ منه وأن الأسد والذئب والفيل أشجع منه، ومن سر بقوة جسمه، فليعلم أن البغل والثور والفيل أقوى منه جسمًا، ومن سر بحمله الأثقال، فليعلم أن الحمار أحمل منه، ومن سر بسرعة عدوه، فليعلم أن الكلب والأرنب أسرع عدوًا منه، ومن سر بحسن صوته، فليعلم أن كثيرًا من الطير أحسن صوتًا منه، وأن أصوات المزامير ألد وأطرب من صوته، فأى فخر وأي سرور في ما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه.

رأيت أكثر الناس إلا من عصم الله تعالى - وقليل ما هم - يتعجلون الشقاء والهم والتعب لأنفسهم في الدنيا، ويحتقبون عظيم الإثم الموجب للنار في الآخرة بما لا يحظون معه بنفع أصلاً! من نيات خبيثة يضربون عليها من تمنى الغلاء المهلك للناس وللصغار، ومن لا ذنب له، وتمنى أشد البلاء لمن يكرهونه، وقد علموا يقيناً أن تلك النيات الفاسدة لا تعجل لهم شيئاً مما يتمنونه أو يوجب كونه.

وإنهم لو صفوا نياتهم وحسنوها، لتعجلوا الراحة لأنفسهم، وتفرغوا بذلك لمصالح أمورهم، ولا قتنوا بذلك عظيم الأجر في المعاد، من غير أن يؤخر ذلك شيئاً مما يريدونه، أو يمنع كونه. فأى غبن أعظم من هذه الحال التي نبهنا عليها، وأي سعد أعظم من التي دعونا إليها؟

لو لم يكن من فضل العلم إلا أن الجهال يهابونك ويجلونك، وأن العلماء يحبونك ويكرمونك، لكان ذلك سبباً إلى وجوب طلبه، فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة!

ولو لم يكن من نقص الجهل، إلا أن صاحبه يحسد العلماء ويغبط نظراءه من الجهال، لكان ذلك سبباً إلى وجوب الفرار عنه، فكيف بسائر رذائله في الدنيا والآخرة!

لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به، إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوسوس المضمنية، ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهم، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس، لكان ذلك أعظم داع إليه، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره! ومن أقلها ما ذكرنا مما يحصل عليه طالب العلم، وفي مثله أتعب ضعفاء الملوك أنفسهم، فتشاغلوا عما ذكرنا بالشطرنج، والنرد، والخمر، والأغاني، وركض الدواب في طلب الصيد، وسائر الفضول التي تعود بالمضرة في الدنيا والآخرة، وأما فائدة، فلا فائدة.

من شغل نفسه بأدنى العلوم وترك أعلاها وهو قادر عليه، كان كزارع الذرة في الأرض التي يجود فيها البر، وكغارس الشعراء حيث يزكو النخل والزيتون.

نشر العلم عند من ليس من أهله مفسد لهم، كإطعامك العسل والحلواء من به احتراق وحمى، أو كتشميمك المسك والعنبر لمن به صداع من احتدام الصفراء.

الباخل بالعلم، الأم من الباخل بالمال، لأن الباخل بالمال أشفق من فناء ما بيده، والباخل بالعلم بخل بما لا يفنى على النفقة، ولا يفارقه مع البذل. من مال بطبعه إلى علم ما وإن كان أدنى من غيره فلا يشغلها بسواه، فيكون كغارس النارجيل بالأندلس، وكغارس الزيتون بالهند، وكل ذلك لا ينجب.

أجل العلوم ما قربك من خالقك تعالى، وما أعانك على الوصول إلى رضاه.

انظر في المال والحال والصحة إلى من دونك، وانظر في الدين والعلم

والفضائل إلى من فوقك.

العلوم الغامضة كالدواء القوي، يصلح الأجساد القوية، ويهلك الأجساد الضعيفة. وكذلك العلوم الغامضة. تزيد العقل القوي جودة وتصفية من كل آفة، وتهلك ذا العقل الضعيف.

لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها، وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون، ويظنون أنهم يعلمون، ويفسدون، ويقدرّون أنهم يصلحون.

من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها، فليقتد بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه، أعاننا الله على الاتساء به، بمئه آمين.

غاضني أهل الجهل مرتين من عمري: أحدهما: بكلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلي، والثاني: بسكوتهن عن الكلام بحضرتي، فهم أبدأ ساكتون عما ينفعهم، ناطقون فيما يضرهم.

وسرني أهل العلم مرتين من عمري: أحدهما: بتعليمي أيام جهلي، والثاني بمذاكرتي أيام عملي.

من فضل العلم والزهد في الدنيا، أنهما لا يؤتيهما الله عز وجل إلا أهلهما ومستحقهما،

ومن نقص علو أحوال الدنيا من المال والصوت، أن أكثر ما يقعان في غير أهلها وفيمن لا يستحقهما.

من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة، والبر، والصدق، وكرم العشيرة، والصبر، والوفاء، والأمانة، والحلم، وصفاء الضمائر، وصحة المودة.

ومن طلب الجاه والمال واللذات، لم يساير إلا أمثال الكلاب الكلبة، والثعالب الخلبة، ولم يرافق في تلك الطريق إلا كل عدو المعتقد، خبيث

منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة، وهو أنه يعلم حسن الفضائل فيأتيها ولو في الندرة، ويعلم قبح الرذائل فيجتنبها ولو في الندرة، ويسمع الثناء الحسن فيرغب في مثله، والثناء الرديء فينفر منه، فعلى هذه المقدمات يجب أن يكون للعلم حصة في كل فضيلة، وللجهل حصة في كل رذيلة، ولا يأتي الفضائل ممن لم يتعلم العلم إلا صافي الطبع جداً، فاضل التركيب، وهذه منزلة خص بها النبيون عليهم الصلاة والسلام لأن الله تعالى علمهم الخير كله، دون أن يتعلموه من الناس.

وقد رأيت من غمار العامة من يجري من الاعتدال، وحמיד الأخلاق إلى ما لا يتقدمه فيه حكيم عالم راض لنفسه، ولكنه قليل جداً.

ورأيت ممن طالع العلوم، وعرف عهود الأنبياء عليهم السلام، ووصايا الحكماء، وهو لا يتقدمه في خبث السيرة، وفساد العلانية والسريرة شرار الخلق، وهذا كثير جداً، فعلمت أنهما مواهب، وحرمان من الله تعالى.

أحرص على أن توصف بسلامة الجانب، وتحفظ من أن توصف بالدهاء فيكثر المتحفظون منك، حتى ربما أضر ذلك بك، وربما قتلك.

وطئن نفسك على ما تكره، يقل همك إذا أتاك، ويعظم سرورك، ويتضاعف إذا أتاك ما تحب مما لم تكن قدرته.

إذا تكاثرت الهموم سقطت كلها.

الغادر يفي للمجدود (المحظوظ)، والوفي يغدر بالمحدود (عديم الحظ)، والسعيد كل السعيد في دنياه من لم يضطره الزمان إلى اختبار الإخوان.

طوبى لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها.

الصبر على الجفاء ينقسم ثلاثة أقسام: فصبر عمن يقدر عليك ولا تقدر

عليه، وصبر عمن تقدر عليه ولا يقدر عليك، وصبر عمن لا تقدر عليه ولا يقدر عليك. فالأول ذل ومهانة وليس من الفضائل.

والرأي لمن خشي ما هو أشد مما يصبر عليه: المتاركة والمباعدة. والثاني فضل وبر: وهو الحلم على الحقيقة، وهو الذي يوصف به الفضلاء.

والثالث ينقسم قسمين: إما أن يكون الجفاء ممن لم يقع منه إلا على سبيل الغلط ويعلم قبح ما أتى به ويندم عليه، فالصبر عليه فضل وفرض، وهو حلم على الحقيقة.

وأما من كان لا يدري مقدار نفسه ويظن أن لها حقاً يستطيل به، فلا يندم على ما سلف منه، فالصبر عليه ذل للصابر، وإفساد للمصبور عليه، لأنه يزيد استشراء، والمقارضة له سخف، والصواب إعلامه بأنه كان ممكناً أن ينتصر منه، وإنه إنما ترك ذلك استرذاً له فقط، وصيانة عن مراجعته ولا يزداد على ذلك.

وأما جفاء السفلة فليس جزاؤه إلا النكال وحده.

من جالس الناس لم يعدم همّاً يؤلم نفسه، وإنما يندم عليه في معاده، وغيظاً ينضج كبده، وذلاً ينكس همته، فما الظن بعد بمن خالطهم وداخلهم؟ والعز والراحة والسرور والسلامة في الانفراد عنهم، ولكن أجعلهم كالنار تدفأ بها، ولا تخالطها.

لو لم يكن في مجالسة الناس إلا عيبان لكفيا، أحدهما الاسترسال عند الأنس، وبالأسرار المهلكة القاتلة، التي لولا المجالسة لم يبح بها البائح، والثاني: مواقف الغلبة المهلكة في الآخرة، فلا سبيل إلى السلامة من هاتين البليتين إلا بالانفراد عن المجالسة جملة.

لا تحقر شيئاً من عمل غد أن تحققه بأن تعجله اليوم وإن قل، فإن من قليل الأعمال يجتمع كثيرها، وربما أعجز أمرها عند ذلك فيبطل الكل.

لا تحقر شيئاً مما ترجو به تثقيل ميزانك يوم البعث إن تعجله الآن وإن قل، فإنه يحط عنك كثيراً، لو اجتمع لقذف بك في النار.

الوجع والفقر والنكبة والخوف، لا يحسن أذاها إلا من كان فيها، ولا يعلمه من كان خارجاً عنها.

وفساد الرأي، والعار، والإثم لا يعلم قبحها إلا من كان خارجاً عنها، وليس يراه من كان داخلها فيها.

الأمن والصحة والغنى، لا يعرف حقها إلا من كان خارجاً عنها، وليس يعرف حقها من كان فيها.

وجودة الرأي والفضائل وعمل الآخرة، لا يعرف فضلها إلا من كان من أهلها، ولا يعرفه من لم يكن من أهلها.

أول من يزهّد في الغادر، من غدر له الغادر، وأول من يمقت شاهد الزور من شهد له به، وأول من تهون الزانية في عينه، الذي يزني بها. كثرة المال ترغب، وقلته تقنع.

كثرة وقوع العين على الشخص يسهل أمره ويهونه.

لا يغتر العاقل بصداقة حادثة له أيام دولته؛ فكل أحد صديقه يومئذ.

لا تجب عن كلام نقل إليك عن قائل حتى توقن أنه قاله، فإن من نقل إليك كذباً رجع من عندك بحق.

ثق بالمتدين وإن كان على غير دينك، ولا تثق بالمستخف وإن أظهر أنه على دينك.

من استخف بحرّمات الله تعالى فلا تأمنه على شيء مما تشفق عليه.

من قبيح الظلم الإنكار على من أكثر الإساءة إذا أحسن في الندرة.

لم أر لإبليس أصيد، ولا أقبح ولا أحمق من كلمتين ألقيهما على السنة دعائهما: إحداهما: اعتذار من أساء بأن فلاناً أساء قبله، والثانية، استسهال

الإنسان أن يسيء اليوم لأنه قد أساء أمس، أو أن يسيء في وجه ما، لأنه قد أساء في غيره، فقد صارت هاتان الكلمتان عذراً مسهلتين للشر ومدخلتين له.

استعمل سوء الظن حيث تقدر على توفيته حقه في التحفظ والتأهب، واستعمل حسن الظن حيث لا طاقة بك على التحفظ، فتربح راحة النفس.

حد الجود وغايته أن يبذل الفضل كله في وجوه البر، وأفضل ذلك في الجار المحتاج، وذو الرحم الفقير، وذو النعمة الذاهبة، والأحضر فاقة.

ومنع الفضل من هذه الوجوه داخل في البخل، وعلى قدر التقصير والتوسع في ذلك يكون المدح والذم، وما وضع في غير هذه الوجوه فهو تبذير، وهو مذموم.

وما بذلت من قوتك لمن هو أمس حاجة منك فهو فضل وإيثار، وهو خير من الجود، وما منع من هذا فهو لا حمد ولا ذم، وهو انتصاف.

بذل الواجبات فرض، وبذل ما فضل عن القوت جود، والإيثار على النفس من القوت بما لا تهلك على عدمه فضل، ومنع الواجبات حرام، ومنع ما فضل عن القوت بخل وشح، والمنع من الإيثار ببعض القوت عذر، ومنع النفس أو الأهل القوت أو بعضه نتن ورذالة ومعصية.

والسخاء بما ظلمت فيه، أو أخذته بغير حقه ظلم مكرر، والذم جزاء ذلك لا الحمد، لأنك إنما تبذل مال غيرك على الحقيقة لا مالك.

حد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين، والحريم، وعن الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم، وعن الهزيمة ظملاً في المال والعرض، وفي سائر سبل الحق، سواء قل من يعارض أو أكثر.

والتقصير عما ذكرنا جبن وخور، وبذلها في عرض الدنيا تهور وحمق.

حد العفة أن تغض بصرك، وجميع جوارحك عن الأجسام التي لا تحل

لك، فما عدا هذا فهو عهر.

حد العدل أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه. وحد الجور أن تأخذه ولا تعطيه.

وحد الكرم أن تعطي من نفسك الحق طائعاً، وتتجافى عن حقك لغيرك قادراً، وهو فضل أيضاً، وكل جود كرم، وفضل وليس كل كرم، وفضل جوداً. فالفضل أعم، والجود أخص، إذ الحلم فضل وليس جوداً، والفضل فرض زدت عليه نافلة.

كانت في عيوب، فلم أزال بالرياضة، وإطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم والأفاضل من الحكماء المتأخرين، والمتقدمين في الأخلاق، وفي آداب النفس، أعاني مداواتها، حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه، وتمام العدل ورياضة النفس والتصرف بأزمة الحقائق، هو الإقرار بها ليتعظ بذلك متعظ يوماً، إن شاء الله.

فمنها: كلف في الرضاء، وإفراط في الغضب، فلم أزل أداوي ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة، بالكلام والفعل والتخبط، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار، وتحملت من ذلك ثقلاً شديداً، وصبرت على مضض مؤلم، كان ربما أمرضني وأعجزني ذلك في الرضاء، وكأني سامحت نفسي في ذلك لأنها تمثلت أن ترك ذلك لؤم.

ومنها دعابة غالية، فالذي قدرت عليه فيها إمساكي عما يغضب الممازح، وسامحت نفسي فيها، إذ رأيت تركها من الانغلاق ومضاهياً للكبر.

ومنها عجب شديد، فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها، حتى ذهب كله، ولم يبق له والحمد لله أثر، بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة، واستعمال التواضع.

ومنها محبة في بعد الصيت والغلبة، فالذي وقفت عليه من معاناة هذا

الداء الإمساك فيه عما لا يحل في الديانة، والله المستعان على الباقي.

ومنها إفراط في الأنفة بغضت إلي إنكاح الحرم جملة بكل وجه، وصعبت ذلك في طبيعتي، وكأني توقفت عن مغالبة هذا الإفراط الذي أعرف قبحه لعوارض اعترضت علي، والله المستعان.

ومنها حقد مفرط، قدرت بعون الله تعالى على طيه وستره، وغلبته على إظهار جميع نتائجه، وأما قطعه ألبتة فلم أقدر عليه، وأعجزني معه أن أصادق من عاداني عداوة صحيحة أبداً.

وأما سوء الظن فيعهده قوم عيباً على الإطلاق وليس كذلك، إلا إذا أدى صاحبه إلى ما لا يحل في الديانة، أو إلى ما يقبح في المعاملة، وإلا فهو حزم، والحزم فضيلة.

النائل مني لا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما، إما أن يكون كاذباً، وإما أن يكون صادقاً. فإن كان كاذباً فلقد عجل الله لي الانتصار منه على لسان نفسه، بأن حصل في جملة أهل الكذب، وبأن نبه على فضلي بأن نسب إلي ما أنا منه بريء العرض، وما يعلم أكثر السامعين له كذبه، إما في وقته ذلك، وإما بعد بحثهم عما قال.

وإن كان صادقاً فإنه لا يخلو من أحد ثلاثة أوجه:

إما أن أكون شاركتة في أمر استرحت إليه استراحة المرء إلى من يقدر فيه ثقة، وأمانة، فهذا أسوأ الناس حالة، وكفى به سقوطاً وضعة.

وإما أن يكون عابني بما يظن أنه عيب وليس عيباً، فقد كفاني جهله شأنه، وهو المعيب لا من عاب، وأما أن يكون عابني بعيب هو فيّ على الحقيقة وعلم مني نقصاً أطلق به لسانه، فإن كان صادقاً: فنفسى أحق بأن ألوم منه، وأنا حينئذ أجدر بالغضب على نفسي مني على من عابني بالحق.

وأما أمر إخواني (من نال منهم بحضرته) فإنني لست أمسك عن

الامتعاظ لهم، لكنني أمتعض امتعاضاً رقيقاً لا أزيد فيه أن أندم القائل منهم بحضرتي، وأجعله يتذمم ويعتذر ويخجل ويتنصل، وذلك بأن أسلك به طريق ذم من نال من الناس، وأن نظر المرء في أمر نفسه والتهمم بإصلاحها أولى به من تتبع عثرات الناس، وبأن أذكر فضل صديقي فأبكته على اقتصاره على ذكر العيب دون ذكر الفضيلة، وأن أقول: إنه لا يرضى بذلك فيك، فهو أولى بالكرم منك، فلا ترض لنفسك بهذا، أو نحو هذا من القول.

وأما أن أهارش القائل فأحميه وأهيج طباعه وأستثير غضبه، فينبعث منه في صديقي أضعاف ما أكره، فأنا الجاني حينئذ على صديقي، والمعرض له بقبيح السب، وتكراره فيه، وإسماعه من لم يسمعه، والإغراء به، وربما كنت أيضاً في ذلك جانياً على نفسي ما لا ينبغي لصديقي أن يرضاه لي، من إسماعي الجفاء والمكروه، وأنا لا أريد من صديقي أن يذب عني بأكثر من الوجه الذي حددت، فإن تعدى ذلك إلى أن يساب النائل مني حتى يولد بذلك أن يتضاعف النيل، وأن يتعدى أيضاً إليه بقبيح المواجهة وربما إلى أبويّ وأبويه على قدر سفه النائل، ومنزلته من البذاءة وربما كانت منازعة بالأيدي، فأنا مستنقص لفعله في ذلك زار عليه، متظلم منه، غير شاكر له.

لكنني ألومه على ذلك أشد اللوم وبالله تعالى التوفيق.

وجدت أفضل نعم الله تعالى على المرء، أن يطبعه على العدل وحبه، وعلى الحق وإيثاره.

وأما من طبع على الجور واستسهاله، وعلى الظلم واستخفافه، فليبأس من أن يصلح نفسه أو يُقَوِّم طباعه أبداً، وليعلم أنه لا يفلح في دين، ولا في خلق محمود.

وأما الزهو، والحسد، والكذب، والخيانة، فلم أعرفها بطبعي قط،

وكأنني لا حمد لي في تركها، لمنافرة جبلتي إياها، والحمد لله رب العالمين.

من عَيَّب حب الذكر، أنه يحبط الأعمال إذا أحب عاملها أن يذكر بها، فكاد يكون شركاً، لأنه يعمل لغير الله تعالى، وهو يطمس الفضائل، لأن صاحبه لا يكاد يفعل الخير حباً للخير، لكن ليذكر به.

أبلغ في ذمك من مدحك بما ليس فيك، لأنه نبه على نقصك، وأبلغ في مدحك من ذمك بما ليس فيك، لأنه نبه على فضلك، ولقد انتصر لك من نفسه بذلك، وباستهدافه إلى الإنكار واللائمة.

لو علم الناقص نقصه لكان كاملاً.

لا يخلو مخلوق من عيب، فالسعيد من قلت عيوبه ودقت.

الإخوان والنصيحة والصدقة

إستبqاك من عاتبك، وزهد فيك من استهان بسيئاتك.

العتاب للصديق كالسبك للسبيكة، فأما تصفو وإما تطير.

من طوى من إخوانك سره الذي يعينك دونك، أخون لك ممن أفشى سرك، لأن من أفشى سرك فإنما خانك فقط، ومن طوى سره دونك منهم، فقد خانك واستخونك.

لا ترغب فيمن يزهد فيك، فتحصل على الخيبة والخزي.

لا تزهد فيمن يرغب فيك، فإنه باب من أبواب الظلم، وترك مقارضة الإحسان، وهذا قبيح.

أكتم سر كل من وثق بك، ولا تفشي إلى أحد من إخوانك ولا من غيرهم، من سرك ما يمكنك طيه بوجه ما من الوجوه، وإن كان أخص الناس بك.

وابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك، ولكل من احتاج

إليك وأمكنك نفعه، وإن لم يعتمدك بالرغبة، ولا تشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عز وجل، ولا تبني إلا على أن من أحسنت إليه أول مضر بك، وساع عليك، فإن ذوي التراكمب الخبيثة، ييغضون لشدة الحسد كل من أحسن إليهم إذا رأوه في أعلى من أحوالهم.

لا تنصح على شرط القبول، ولا تشفع على شرط الإجابة، ولا تهب على شرط الإثابة، لكن على سبيل استعمال الفضل، وتأدية ما عليك من النصيحة والشفاعة، وبذل المعروف.

حد الصداقة الذي يدور على طرفي محدوده هو: أن يكون المرء يسوءه ما يسوء الآخر، ويسره ما يسره، فما سفل عن هذا فليس صديقاً، ومن حمل هذه الصفة فهو صديق، وقد يكون المرء صديقاً لمن ليس صديقه.

وليس كل صديق ناصحاً، لكن كل ناصح صديق فيما نصح فيه.

وحد النصيحة هو أن يسوء المرء ما ضر الآخر، ساء ذلك الآخر أو لم يسوءه، وإن يسره ما نفعه، سر الآخر أو ساءه، فهذا شرط في النصيحة زائد على شروط الصداقة.

وأقصى غايات الصداقة التي لا مزيد عليها من شاركك بنفسه، وبماله لغير علة توجب ذلك، وأترك على من سواك.

ليس شيء من الفضائل أشبه بالردائل من الاستكثار من الإخوان والأصدقاء، فإن ذلك فضيلة تامة متركبة، لأنهم لا يكتسبون إلا بالحلم، والجود، والصبر، والوفاء.. والعفة.. وتعليم العلم، وبكل حالة محمودة.

ولسنا نعني الشاكرية والأتباع أيام الحرمة، فأولئك لصوص الإخوان وخبت الأصدقاء، والذين يظن أنهم أولياء وليسوا كذلك. ودليل ذلك انحرافهم عند انحراف الدنيا. ولا نعني أيضاً المصادقين لبعض الأطماع.. والمتآلفين على النيل من أعراض الناس، والأخذ في الفضول، وما لا فائدة

فيه، فليس هؤلاء أصدقاء. ودليل ذلك أن بعضهم ينال من بعض، وينحرف عنه عند فقد تلك الرذائل التي جمعتهم، وإنما نعني إخوان الصفاء لغير معنى إلا الله عز وجل، إما للتناصر على بعض الفضائل الجدية، وإما لنفس المحبة المجردة فقط.

ولكن إذا أحصيت عيوب الاستكثار منهم، وصعوبة الحال في إرضائهم، والغرر في مشاركتهم، وما يلزمك من الحق لهم عند نكبة تعرض لهم، فإن غدرت بهم أو أسلمتهم، لؤمت وذهمت، وإن وفيت، أضرت بنفسك، وربما هلكت، وهذا لا يرضى الفاضل بسواه، إذا تنشب في الصداقة، وإذا تفكرت في الهم بما يعرض لهم وفيهم من موت أو فراق أو غدر من يغدر منهم، كاد السرور بهم لا يفي بالحزن الممض من أجلهم. وليس في الرذائل أشبه بالفضائل من محبة المدح، ودليل ذلك أنه في الوجه سخف ممن يرضى به، وقد جاء في الأثر في المداحين ما جاء، إلا أنه قد ينتفع به في الإقصار عن الشر والتزيد من الخير، وفي أن يرغب في ذلك الخلق الممدوح من سمعه.

بعض أنواع النصيحة يشكل تمييزه من النميمة، لأن من سمع إنساناً يذم آخر ظالماً له، أو يكيد ظالماً له، فكتم ذلك عن المقول فيه والمكيد، كان الكاتم لذلك ظالماً مذموماً، ثم إن أعلمه بذلك على وجهه كان ربما قد ولد على الذام والكائد ما لم يبلغه استحقاقه بعد من الأذى، فيكون ظالماً له، وليس من الحق أن يقتص من الظالم بأكثر من قدر ظلمه، فالتخلص من هذا الباب صعب إلا على ذوي العقول. والرأي للعاقل في مثل هذا، إن يحفظ المقول فيه من القائل فقط، دون أن يبلغه ما قال، لئلا يقع في الاسترسال زائد فيهلك. وأما في الكيد فالواجب أن يحفظه من الوجه الذي يكاد منه بالطف ما يقدر في الكتمان على الكائد، وأبلغ ما يقدر في تحفيظ المكيد، ولا يزد على هذا شيئاً.

وأما النميمة فهي التبليغ لما سمع مما لا ضرر فيه على المبلغ إليه،

وبالله التوفيق.

النصيحة مرتان: فالأولى: فرض وديانة، والثانية: تنبيه وتذكير، وأما الثالثة: فتوبيخ وتقريع، وليس وراء ذلك إلا التركل واللطم، اللهم إلا في معاني الديانة، فواجب على المرء تزداد النصح فيها رضي المنصوح أو سخط، تأذى الناصح بذلك أو لم يتأذى.

وإذا نصحت فانصح سراً لا جهراً، وبتعريض لا تصريح، إلا أن لا يفهم المنصوح تعريضك، فلا بد من التصريح. ولا تنصح على شرط القبول منك، فإذا تعديت هذه الوجوه فأنت ظالم لا ناصح، وطالب طاعة، وملك لا مؤدي حق أمانة وأخوة.

وليس هذا حكم العقل، ولا حكم الصداقة، لكن حكم الأمير مع رعيته، والسيد مع عبيده.

لا تكلف صديقك إلا مثل ما تبذل له من نفسك، فإن طلبت أكثر، فأنت ظالم.

ولا تكسب إلا على شرط الفقد. ولا تتول إلا على شرط العزل، وإلا فأنت مضر بنفسك خبيث السيرة.

من أردت قضاء حاجته بعد أن سألك إياها، أو أردت ابتداءه بقضائها، فلا تعمل له إلا ما يريد هو لا ما تريد أنت، وإلا فأمسك، فإن تعديت هذا كنت مسيئاً لا محسناً، ومستحقاً للوم منه ومن غيره لا للشكر، ومقتضياً للعداوة لا للصداقة.

لا تنقل إلى صديقك ما يؤلم نفسه، ولا ينتفع بمعرفته، فهذا فعل الأرذال.

ولا تكتمه ما يستضر بجهله، فهذا فعل أهل الشر، ولا يسرك أن تمدح بما ليس فيك، بل ليعظم غمك بذلك، لأنه نقصك ينبه الناس عليه، ويسمعهم إياه، وسخرية منك وهزؤ بك، ولا يرضى بهذا إلا أحمق ضعيف العقل.

ولا تأس إن ذممت بما ليس فيك، بل افرح به، فإنه فضلك ينبه الناس عليه، ولكن افرح إذا كان فيك ما تستحق به المدح، وسواء مدحت به أو لم تمدح، واحزن إذا كان فيك ما تستحق به الذم، وسواء ذممت به أو لم تذم.

من سمع قائلاً يقول في امرأة صديقه قول سوء، فلا يخبره بذلك أصلاً، لا سيما إذا كان القائل عيابة، وقاعاً في الناس، سليط اللسان، أو دافع معرة عن نفسه، يريد أن يكثر أمثاله في الناس، وهذا كثير موجود. وبالجملّة فلا يحدث الإنسان إلا بالحق، وقول هذا القائل لا يدري أحق هو أم باطل، إلا أنه في الديانة عظيم.

فإن سمع القول مستفيضاً من جماعة، وعلم أن أصل ذلك القول شائع وليس راجعاً إلى قول إنسان واحد، أو اطلع على حقيقته إلا أنه لا يقدر أن يوقف صديقه على ما وقف هو عليه، فليخبره بذلك بينه وبينه في رفق، وليقل له: النساء كثير، أو حصن منزلك، وثقف أهلك، أو اجتنب أمراً كذا، وتحفظ من وجه كذا. فإن قبل المنصوح وتحرز فحظ نفسه أصاب، وإن رآه لا يتحفظ ولا يبالي أمسك ولم يعاوده بكلمة، وتمادى على صداقته إياه، فليس في أن لا يصدقه في قوله ما يوجب قطيعته، فإن اطلع على حقيقة وقدر أن يوقف صديقه على مثل ما وقف عليه هو من الحقيقة، ففرض عليه أن يخبره بذلك، وأن يوقفه على الجلية. فإن غير فذلك، وإن رآه لا يغير اجتنب صحبته؛ فإنه رذل لا خير فيه ولا نقيّة.

ودخول رجل متستر في منزل المرء، دليل سوء لا يحتاج إلى غيره، ودخول المرأة في منزل رجل على سبيل التستر مثل ذلك أيضاً. وطلب دليل أكثر من هذين سخف.

وواجب أن يجتنب مثل هذه المرأة وفراقها على كل حال، وممسكها لا يبعد عن الديانة.

الناس في أخلاقهم على سبع مراتب، فطائفة تمدح في الوجه وتذم في

المغيب، وهذه صفة أهل النفاق من العيابين، وهذا خلق فاش في الناس غالب عليهم، وطائفة تدم في المشهد والمغيب، وهذه صفة أهل السلاطة والوقاحة من العيابين، وطائفة تمدح في الوجه والمغيب، وهذه صفة أهل الملق والطمع، وطائفة تدم في المشهد وتمدح في المغيب، وهذه صفة أهل السخف والنواكة. وأما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم في المشاهدة، ويثنون بالخير في المغيب، أو يمسكون عن الذم. وأما العيابون البراء من النفاق والقحة، فيمسكون في المشهد، ويذمون في المغيب، وأما أهل السلامة فيمسكون عن المدح وعن الذم في المشهد والمغيب ومن كل من أهل هذه الصفات قد شاهدنا وبلونا.

إذا نصحت ففي الخلاء وبكلام لين، ولا تسند سب من تحدثه إلى غيرك فتكون ناماً، فإن خشنت كلامك في النصيحة فذلك إغراء وتنفير، وقد قال الله تعالى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا} [طه: ٤٤] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لا تنفروا—**، وإن نصحت بشرط القبول منك فأنت ظالم، ولعلك مخطئ في وجه نصحك، فتكون مطالباً بقبول خطئك وبترك الصواب.

لكل شيء فائدة، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة، وهي أنه توقد طبعي، واحتدم خاطري، وحمي فكري، وتهيج نشاطي، فكان ذلك سبباً إلى تواليف لي عظيمة المنفعة، ولولا استئثارهم ساكني، واقتداحهم كامني، ما انبعثت لتلك التواليف.

لا تصاهر إلى صديق ولا تبايعه، فما رأينا هذين العاملين إلا سبباً للقطيعة، وإن ظن أهل الجهل أن فيهما تأكيداً للصلة فليس كذلك، لأن هذين العقدين داعيان كل واحد إلى طلب حظ نفسه. والمؤثرون على أنفسهم قليل جداً، فإذا اجتمع طلب كل امرئ حظ نفسه، وقعت المنازعة، ومع وقوعها فساد المروءة.

الطمع أصل لكل ذل، ولكل هم، وهو خلق سوء ذميم. وضده نزاهة النفس، وهذه صفة فاضلة مركبة من النجدة والجود والعدل والفهم، لأنه

رأى قلة الفائدة في استعمال ضدها فاستعملها، وكانت فيه نجدة انتجت له عزة نفسه فتنزهه، وكانت فيه طبيعة سخاوة نفس فلم يهتم لما فاتته، وكانت فيه طبيعة عدل حبيت إليه القناعة وقلة الطمع.

فإذن، نراه النفس متركة من هذه الصفات. فالطمع الذي هو ضدها متركب من الصفات المضادة لهذه الصفات الأربع، وهي الجبن والشح والجور والجهل. والرغبة طمع مستوفى متزايد مستعمل، ولولا الطمع ما ذل أحد لأحد. وأخبرني أبو بكر بن أبي الفياض قال: كتب عثمان بن محاس على باب داره بأستجة يا عثمان لا تطمع.

من امتحن بقرب من يكره، كمن امتحن ببعد من يحب ولا فرق.

اقنع بمن عندك، يقنع بك من عندك.

السعيد في المحبة هو من ابتلي بمن يقدر أن يلقي عليه قفله، ولا تلحقه في مواصلته تبعة من الله عز وجل ولا ملامة من الناس.

إذا ارتفعت الغيرة فأيقن بارتفاع المحبة.

الغيرة خلق فاضل متركب من النجدة والعدل، لأن من عدل كره أن يتعدى إلى حرمة غيره، وإن يتعدى غيره إلى حرمة؛ ومن كانت النجدة طبعاً له، حدثت فيه عزة، ومن العزة تحدث الأنفة من الاهتضام.

أخبرني بعض من صحبناه في الدهر عن نفسه، أنه ما عرف الغيرة قط، حتى ابتلي بالمحبة فغار. وكان هذا المخبر فاسد الطبع، خبيث التركيب، إلا أنه كان من أهل الفهم والجود.

كنا نظن أن العشق في ذوات الحركة والحدة من النساء أكثر، فوجدنا الأمر بخلاف ذلك، وهو في الساكنة الحركات أكثر، ما لم يكن ذلك السكون بلهاً.

رب مخوف كان التحفظ منه سبب وقوعه، ورب سر كانت المبالغة في طيه علة انتشاره، ورب إعراض أبلغ في الاسترابة من إدامة النظر،

وأصل ذلك كله الإفراط الخارج عن حد الاعتدال.

الخطأ في الحزم خير من التضييع.

من أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه، فإنه يلوح له وجه تعسفه.

إذا حضرت مجلس علم فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علمًا وأجرًا لا حضور مستغن بما عندك طالب عثرة تشنعها أو غريبة تشيعها، فهذه أفعال الأرزال الذين لا يفلحون في العالم أبدا؛ فإذا حضرتها على هذه النية فقد حصّلت خيرا على كل حال، فإن لم تحضرها على هذه النية فجلوسك في منزلك أروح لبدنك وأكرم لخلقك وأسلم لدينك.

الناس في أخلاقهم على سبع مراتب: فطائفة تمدح في الوجه، وتذم في المغيب، وهذه صفة أهل النفاق من العيَّابين، وهذا خلق فاش في الناس، غالبٌ عليهم، وطائفة تذم في المشهد والمغيب، وهذه صفة أهل السَّلاطة والوقاحة من العيَّابين، وطائفة تمدح في الوجه والمغيب؛ وهذه صفة أهل الملق والطمع.

وطائفة تذم في المشهد وتمدح في المغيب؛ وهذه صفة أهل السَّخف والتواكئة (1).

وأما أهل الفضل فيمسيكون عن المدح والذم في المشاهدة، ويثنون بالخير في المغيب، أو يمسكون عن الذم.

وأما العيَّابون البراء من النفاق والقحة؛ فيمسيكون في المشهد، ويذمون في المغيب.

وأما أهل السَّلامة فيمسيكون عن المدح، وعن الذم في المشهد والمغيب. ومن كل هذه الصفات قد شاهدنا وبلوينا.

(1) التوك: بالضم والفتح: الحمق.

وقال أبو بكر ابن حزم: إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله، فلا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره (1).

شعر ابن حزم:

لما أحرق له المعتضد بن عباد بعض الكتب قال:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي :: تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائي :: ويتزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رق وكاغد وقولوا :: بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة :: فكم دون ما تبغون لله من ستر
كذلك النصارى يحرقون إذا :: علت أكفهم القرآن في مدن الثغر
ولابن حزم أيضاً:

أشهد الله والملائك أي لا :: أرى الرأي والمقاييس ديناً
حاش لله أن أقول سوى :: ما جاء في النص والهدى مستيناً
كيف يخفى على البصائر هذا :: وهو كالشمس شهرة ويقينا
ومن شعره:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدر :: كنا فجائعه تبقى ولذاته تفي
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة :: تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات في المعاد وموقف :: نود لديه أننا لم نكن كنا
حين لما ولى وشغل بما أتى :: وهم لما نخشى فعيشك لا يهنا
حصلنا على هم وإثم وحسرة :: وفات الذي كنا نلذ به عنا
كأن الذي كنا نسر بكونه إذا :: حققته النفس لفظ بلا معنى

وله على سبيل الدعابة - وهو يماشى أبا عمر بن عبد البر - وقد رأى شاباً مليحاً، فأعجب ابن حزم، فقال أبو عمر: لعل ما تحت الثياب ليس هناك، فقال:

(1) الطرطوشي، سراج الملوك، ص 84.

وذي عدل فيمن سباني حسنه :: يطيل ملامي في الهوى ويقول
أمن حسن وجه لاح لم تر غيره :: ولم تدر كيف الجسم أنت قتيل
فقلت له: أسرفت في اللوم فأتد :: فعندي رد لو أشاء طويل
ألم تر أي ظاهري وأناي :: على ما بدا حتى يقوم دليل
ومن شعره أيضاً:

لا تشمتن حاسدي إن نكبة عرضت :: فالدهر ليس على حال بترك
ذو الفضل كالتمر طوراً تحت ميفعة :: وتارة في ذرى تاج على ملك
ومن شعره:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة :: ولكن عيي أن مطلعني الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع :: لجد على ما ضاع من ذكرني النهب
ولي نحو أكناف العراق صباية :: ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن يتزل الرحمن رحلي بينهم :: فحينئذ يبدو التأسف والكرب
هنالك يدري أن للبعد قصة :: وأن كساد العلم آفته القرب
وله:

أنائم أنت عن كتب الحديث وما :: أتى عن المصطفى فيها من الدين
كمسلم والبخاري اللذين هما :: شدا عرى الدين في نقل وتبين
أولى بأجر وتعظيم ومحمدة من :: كل قول أتى من رأي سحنون
يا من هدى بهما اجعلني كمثلهما :: في نصر دينك محضاً غير مفتون
وله أيضاً:

لم أشك صدا ولم أذعن بهجران :: ولا شعرت مدى دهري بسلوان
أسماء لم أدر معناها ولا خطرت :: يوماً علي ولا جالت بميداني
لكنما دائي الأدوا الذي عصفت :: علي أرواحه قدماً فأعياني
تفرق لم تزل تسري طوارقه :: لي مجامع أحبابي وخلاي
كأنما البين بي يأتني حيث رأى :: لي مذهباً فهو يتلوني ويغشاني
وكنتم أحسب عندي للنوى جلدا :: داء عنا في فؤادي شجوها العاني

فقابلتني بألوان غدوت بها :: مقابلاً من صباباتي بألوان
ولابن حزم:

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت :: أقوالهم وأقاويل الورى محن
فقلت: هل عيهم لي غير أي :: لا أقول بالرأي إذ في رأيهم فتن
وأني مولع بالنص لست إلى :: سواه أنحو ولا في نصره أهـن
لا أنثني لمقاييس يقال بها في :: الدين بل حسبي القرآن والسنن
يا برد ذا القول في قلبي وفي :: كبدي ويا سروري به لو أنهم فطنوا
دعهم يعضوا على صم الحصى :: كمداً من مات من قوله عندي له كفن

ومن روائع شعر الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى:

كانك بالزوار لي قد تبادروا :: وقيل لهم أودى علي بن أحمد
فيا رب محزون هناك وضاحك :: وكم أدمع تُذرى وخد مُخَدِّد
عفا الله عني يوم أرحل ظاعناً :: عن الأهل محمولاً إلى بطن مَلْحَدِ
وأترك ما قد كنت مغبطاً به :: وألقى الذي آنست دهرًا مِنْهُ بِمَرَصِدِ
فوا راحتي إن كان زادي مقدماً :: ويا نصبي إن كنت لم أتزود
ومن أجمل قصائده قوله:

مناي من الدنيا علوم أبثها :: وأنشرها في كل باد وحاضر
دعاء إلى القرآن والسنن التي :: تناسى رجال ذكرها في المحاضر
وألزم أطراف الثغور مجاهدًا :: إذا هיעة ثارت فأول نافر
لألقى حمامي مقبلاً غير مدبر :: بسمر العوالي والرقاق البواتر
كفاحًا مع الكفار في حومة الوغى :: وأكرم موت للتفى قتل كافر
فيا رب لا تجعل حمامي بغيرها :: ولا تجعلني من قطين المقابر
ومن روائع شعره أيضًا:

إِنَّمَا الْعَقْلُ أَسَاسٌ :: فَوَقَّعْهُ الْأَخْلَاقَ سَوَر
فَحَلَّيْ الْعَقْلَ بِالْعِلْمِ :: سَمِّهِ وَإِلَّا فَهُوَ بَوَر

جاهل الأشياء أعمى :: لا يرى حيث يدور
 وتقام العلم بالعد :: ل وإلا فهو زور
 وزمام العدل بالجو :: د وإلا فيجـور
 وملاك الجود بالتجـ :: دة والجبن غرور
 عفو إن كنت غيورا :: ما زنى قط غيور
 وكمال الكل بالتقـ :: سوى وقول الحق نور
 ذي أصول الفضل عنها :: حدثت بعد البذور
 ويقول ابن حزم:

مسهد القلب في خديه أدمعه :: قد طالما شرقت بالوجد أضلعه
 يأوي إلى زفرات لو يباشرها :: قاسي الحديد فواقا ذاب أجمعه
 يشكو إلى القيد ما يلقاه من :: ألم فبالأنين لدى شكواه يرجعه
 يا هاجعا والرزايا لا تؤرقه قل :: كيف يهجع من في الكبل مهجه⁽¹⁾

* * *

(1) ذوة المقتبس: 308 - 311، مطمح الأنفس، القسم الثاني المنشور في مجلة المورد.
 العراقية، المجلد العاشر، العدد، 3 - 4 / 1981 بتحقيق هدى شوكة بهنام ص: 354 - 357،
 الذخيرة المجلد الاول، القسم الاول: 167 - 175، تاريخ الحكماء، 232 - 233 الصلة 2 /
 415 - 417، بغية الملتبس: 415 - 418، معجم الأدباء 12 / 235، المطرب: 92، المعجب:
 32 - 35، المغرب 1 / 354 - 357، وفيات الاعيان، 3 / 325 - 330، تذكرة الحفاظ 3 /
 1146 - 1155، العبر 3 / 239، دول الإسلام: 1 / 268، مسالك الإبصار: انظر الجزء
 الثامن، الوافي بالوفيات: المجلد الثاني من الجزء الاول الورقة: 374، مرآة الجنان 3 / 79 -
 81، البداية والنهاية 12 / 91 - 92، الإحاطة 4 / 111 - 116، لسان الميزان 4 / 198 -
 202، النجوم الزاهرة 5 / 75، طبقات الحفاظ: 436 - 437، طبقات الأمم لصاعد: 86،
 الإعلام بتاريخ الإسلام: حوادث عام 456، أخبار العلماء: 156، نفح الطيب 2 / 77 - 84،
 كشف الظنون: 21، 118، 466، شذرات الذهب 3 / 299 - 300، هدية العارفين 1 / 690 -
 691، إيضاح المكنون 1 / 319، دائرة المعارف الإسلامية 1 / 136 - 144، ابن حزم فقهه
 وأراؤه لمحمد أبي زهرة، مقدمة جمهرة أنساب العرب: 5 - 12، ابن حزم الأندلسي: بقلم
 الدكتور زكريا إبراهيم سلسلة أعلام العرب " 56 "، وانظر الدراسة القيمة التي كتبها الدكتور
 عبد الحليم عويس: " ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري " نشر دار
 الاعتصام بالقاهرة.

الفقيه المجاهد أسد بن الفرات

أسد بن الفرات

أعلام الفقهاء

الفقيه المجاهد أسد بن الفرات

في (حرّان) من ديار بكر، ولد أبو عبد الله الحراني، أسد بن الفرات سنة 144هـ/ 761م، ثم قدم القيروان وهو ابن سنتين مع أبيه الذي كان من أعيان الجند في جيش (محمد بن الأشعث الخزاعي) والي إفريقية من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور.

تلقى (أسد) دراسته الأولى بالقيروان، ثم رحل مع أبيه إلى تونس فأقام بها تسع سنين لزم خلالها الفقيه المعروف (علي بن زياد) وتعلم منه وتفقّه عليه، ولم يكتفِ بذلك، بل أراد أن يستزيد من العلم فقرر الرحيل إلى المدينة المنورة سنة 172هـ/ 788م، لينهل من علم الإمام مالك عدة سنين تعلم فيها الكثير، وبعدها قرر الرحيل إلى العراق، فدخل على الإمام مالك مودعاً وشاكراً، وسأله أن يوصيه، فقال له: (أوصيك بتقوى الله، والقرآن، والنصيحة للناس).

ورحل (أسد) إلى العراق حيث الإمام محمد بن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة، فلزمه، فكان يحضر دروسه العامة، ثم أحب أن يكون له درس خاص يغرف فيه ما استطاع من علم الإمام محمد ليحمله إلى بلاده، فأخذه الإمام محمد إلى بيته، وأعطاه غرفة كان يسهر معه فيها الليل كله، ويضع أمام التلميذ قدح ماء، فإذا نعس نضح وجهه ليصحو، فكان (أسد) أول من جمع بين مذهب الإمام مالك ومذهب أبي حنيفة، ولم يكتفِ أسد بن الفرات بذلك العلم، بل رحل إلى مصر حيث يوجد بها عالمان من تلاميذ الإمام مالك هما (أشهب بن عبد العزيز) و(ابن القاسم) وهناك جمع ما أخذه من ابن القاسم من مسائل، وأفاض عليها من ذهنه وجعلها في رسالة مدونة سُميت بـ (الأسديّة).

ثم قدم ابن الفرات إلى (القيروان) عاصمة المغرب سنة 181هـ بعد

غيبة امتدت نحو عشرين سنة صام نهارها وأحيا ليلها بالعلم والدرس فيها، ولم ينفق لحظة في راحة ولا لعب، ولم يصحب فيها إلا الأئمة والعلماء، حتى قارب الخمسين، فجلس للتدريس والإفتاء، وكان من تلاميذه (سحنون بن سعيد) و(معمر بن منصور) و(سليمان بن عمر) ثم تقلد القضاء مع (أبي محرز) فكان أبو محرز فيه لينًا، وأما أسد فكان شديدًا في الحق، ومتمكنًا من علمي الحديث والفقه.

وكان مع توسعه في علمه فارسًا شجاعًا مقدامًا، فقد طلب أسد بن الفرات أن يكون مع المجاهدين في الحرب ضد الروم في جزيرة صقلية فأبى الأمير خوفًا عليه، فألح أسد في طلبه وقال: (وجدتم من يسير لكم المراكب من النوتية (الملاحين) وما أحوجكم إلى من يسيرها لكم بالكتاب والسنة).

وكان يريد أن يكون جنديًا متطوعًا لا يريد الإمارة، فلما أعطوها تألم وقال للأمير: أبعد القضاء والنظر في الحلال والحرام تعزلني وتولياني الإمارة؟! فقال: ما عزلتك عن القضاء، ولكن أضفت إليك الإمارة فأنت قاض وأمير، وكان أول من جمع له المنصبان، واجتمع الناس لوداع الجيش والأمير أسد بن الفرات، فقال أسد للناس في وداعهم: (والله يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا جد ولاية قط، وما رأى أحد من أسلافي مثل هذا قط، وما بلغته إلا بالعلم، فعليكم بالعلم، أتعبوا فيه أذهانكم، وكدوا به أجسادكم تبلغوا به الدنيا والآخرة).

وزحف الجيش إلى جزيرة صقلية سنة 212هـ/827م، وخرج لهم صاحب صقلية في مائة ألف وخمسين ألفًا، قال رجل: رأيت أسدًا وببده اللواء يقرأ سورة (يس) ثم حمل بالجيش حملة عنيفة على صاحب صقلية، حتى سقط أسد بن الفرات شهيدًا سنة 213هـ/828م، وهو يحمل راية

النصر ولم يَعْرِفْ له قبر (1).

مواقف من حياته:

فندخل عليه إخواناً ونخرج أعداء:

وأرسل أسد بن الفرات وهو قاض إلى سحنون، وعون وابن رشيد وموسى الصمادحي، فسألهم عن مسألة في الأحكام، فأجاب فيها ابن رشيد وعون، وأبى فيها سحنون عن الجواب. فلما أخرجوا عدلاً في تركه. فقال لهما: منعني إنكما بدرتما بالجواب فأخطأتما، وكرهت أن أخالفكما فندخل عليه إخواناً ونخرج أعداء، وبيّن لهما وجه خطأهما. فجزياه خيراً، واعترفا. ورجعا إلى أسد، فأخبراه برجوعهما. قال القاضي: لعل سحنون عدل على ما عرف من فضلها، من أنهما إذا بين لهما وجه خطأهما رجعا، فأعلم أسداً برجوعهما كما فعلا. وإن الحكم، كان بعد لم يحن وقت نفوذه. وإلا فهو في فضله وورعه كان لا يسكت على مثل هذا، إلا رجاء أن يستبين الحق بلا تعلقة، ولا مخالفة.

وروي عن أسد بن الفرات أنه قال: أتيت ابن القاسم لأسمع منه، فقال لي: أنا رجل مشغول بنفسي، وقد جعلت الآخرة أمامي، ولكن عليك بابن وهب، فأتيت، فقال لي: إنما أنا صاحب آثار، ولكن عليك بأشهب. قال أسد: فكنت إذا ناظرت أشهب يقول: يا أبا عبد الله جئتنا في العراق وقد ملحوا رأسك (2).

ما أعطاك الله من إنصافك الناس:

(1) رياض النفوس 1 / 172 - 189، الاكمال لابن ماکولا 4 / 454، 455، ترتيب المدارك 2 / 465، وفيات الاعيان 3 / 182، معالم الايمان 2 / 3 - 26، العبر 1 / 364، الإحاطة في أخبار غرناطة 1 / 422، الديباج المذهب 1 / 305، 306، قضاة الأندلس: 54، شذرات الذهب 2 / 28، 29، شجرة النور الزكية 1 / 62.

(2) الحافظ علاء الدين مغطاي بن قليج الحنفي، إكمال تهذيب الكمال الجزء الأول والثاني، تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن محمد و أبو محمد أسامة بن إبراهيم، نشر دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 1422 هـ - 2001 م، 2 / 246.

وحكى ابن وضاح عن غير واحد أن أسد بن موسى كتب إلى أسد بن الفرات اعلم يا أخي أن ما حملني على الكتب إليك ما أنكر أهل بلادك من صالح ما أعطاك الله من إنصافك الناس وحسن حالك مما أظهرت من السنه وعيبك لأهل البدع وكثرة ذكرك لهم وطعنك عليهم فقمعهم الله بك وشد بك ظهر أهل السنة وقواك عليهم بإظهار عيبهم والطعن عليهم وأذلهم الله بذلك وصاروا ببدعتهم مستترين فأبشر يا أخي بثواب الله واعتد به من أفضل حسناتك من الصلاه والصيام والحج والجهاد

وأين تقع هذه الأعمال من إقامة كتاب الله وإحياء سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **من أحيا شيئاً من سنتي كنت أنا وهو في الجنة كهاتين وضم بين إصبعيه** — وقال: **أيما داع دعا إلى هذه فاتبع عليه كان له مثل أجر من تبعه إلى يوم القيامة** — فمن يدرك يا أخي هذا بشيء من عمله وذكر أيضاً أن الله عند كل بدعة كيد بها الإسلام ولما الله يذب عنها وينطق بعلامتها فاغتنم يا أخي هذا الفضل وكن من أهله فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن فأوصاه وقال: **لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من كذا وكذا وأعظم القول فيه** — فاغتنم ذلك وادع إلى السنة حتى يكون لك في ذلك ألفة وجماعة يقومون مقامك إن حدث بك حدث فيكونون أئمة بعدك فيكون لك ثواب ذلك إلى يوم القيامة كما جاء الأثر فاعمل على بصيرة ونية حسنة فيرد الله بك المبتدع والمفتنون الزائغ الحائر فتكون خلقاً من نبيك صلى الله عليه وسلم فأحي كتاب الله وسنة نبيه فإنك لن تلقى الله بعمل يشبهه (1).

إنما أخذنا بعض حقوقنا:

وأمر إبراهيم بن الأغلب المعروف بزيادة الله بمال يقسم على الفقهاء فكان منهم من قبل ومنهم من لم يقبل.

(1) الدينوري، الأخبار الطوال، ص 7 - 8.

فكان أسد بن الفرات فيمن قبل فجعل زيادة الله يغمص على كل من قبل منهم: فبلغ ذلك أسد بن الفرات فقال: لا عليه إنما أخذنا بعض حقوقنا والله سائله عما بقي (1).

* * *

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، 1 / 191 - 192.

الفقيه سحنون بن سعيد

سحنون بن سعيد

أعلام الفقهاء

الفقيه سحنون بن سعيد

الإمام العلامة، فقيه المغرب، أبو سعيد، عبد السلام بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة بن عبد الله التتوخي، الحمصي الأصل، المغربي القيرواني المالكي، قاضي القيروان وصاحب "المدونة"، ويلقب بسحنون ارتحل وحج.

سمع من: سفيان بن عيينة، والوليد بن مسلم، وعبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم، ووكيع بن الجراح، وأشهب، وطائفة.

ولم يتوسع في الحديث كما توسع في الفروع.

لازم ابن وهب، وابن القاسم، وأشهب، حتى صار من نظرانهم. وساد أهل المغرب في تحرير المذهب، وانتهت إليه رئاسة العلم. وكان موصوفاً بالعقل والديانة التامة والورع، مشهوراً بالجود والبذل، وافر الحرمة، عديم النظير.

أخذ عنه الكثير من العلماء والفقهاء منهم: ولده محمد فقيه القيروان، وأصبع بن خليل القرطبي، وبقي بن مخلد، وسعيد بن نمر الغافقي الإلبيري الفقيه، وعبد الله بن غافق التونسي، ومحمد بن عبد الله بن عبدوس المغربي، وغيرهم الكثير.

وقد أثني عليه العلماء والفقهاء ممن عاصروه أو جاؤوا بعده فقد روي عن ابن عجلان الأندلسي قال: ما بورك لأحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه ما بورك لسحنون في أصحابه. فإنهم كانوا في كل بلد أئمة.

وقال الحافظ أحمد بن خالد: كان محمد بن وضاح لا يفضل أحداً ممن لقي على سحنون في الفقه وبدقيق المسائل.

وعن إسماعيل بن إبراهيم قال: دخلت على سحنون، وهو يومئذ قاض، وفي عنقه تسبيح يسبح به.

وقيل: كان إذا قرئت عليه "مغازي" ابن وهب تسيل دموعه، وإذا قرئ عليه "الزهد" لابن وهب يبكي.

قال أبو العرب عمن حدثه: كان الذين يحضرون مجلس سحنون من العباد أكثر من الطلبة، كانوا يأتون إليه من أقطار الأرض.

ومعنى كلمة سحنون اسم طائر بالمغرب، يوصف بالفتنة والتحرز، وتوفي الإمام سحنون في شهر رجب سنة أربعين ومائتين. وله ثمانون سنة.

قال أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي: اجتمعت في سحنون خلال قلما اجتمعت في غيره: الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهادة في الدنيا، والتخشن في الملبس والمطعم، والسماحة. كان ربما وصل إخوانه بالثلاثين ديناراً، وكان لا يقبل من أحد شيئاً. ولم يكن يهاب سلطاناً في حق، شديداً على أهل البدع، انتشرت إمامته، وأجمعوا على فضله.

وقال عيسى بن مسكين: سحنون راهب هذه الأمة، ولم يكن بين مالك وسحنون أحد أفقه من سحنون.

وعن سحنون قال: إني حفظت هذه الكتب، حتى صارت في صدري كأم القرآن. وعنه قال: إني لأخرج من الدنيا، ولا يسألني الله عن مسألة قلت فيها برأيي، وما أكثر ما لا أعرف.

وقال مرة لرجل: اقرأ علي: ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة.. فقرأها. فلما بلغ: فستذكرون ما أقول لكم.. قال: حسبك. وهو يبكي.

قال بعضهم: دخلت على سحنون وفي عنقه تسبيح يسبح به. قال حبيب: قال سحنون يتمثل بهذه الأبيات:

كل شيء قد أراه نكراً :: غير وكزا الرمح في ظل الفرس
وقيام في حناديس الدجا :: حارساً للقوم في أقصى الحرس⁽¹⁾

أما عن سبب تولية سحنون القضاء فقد نقل عنه أنه قال: إذا كان الرجل أهلاً لخطة القضاء، فاستغنى منها، عوفى منها إن وجد لها عوض منه؛ وإن لم يوجد، أجبر عليها؛ فإن أبي، سجن؛ فإن أبي، ضرب. ثم ذكر عن أبي العرب أنه قال: لما عزل القاضي ابن أبي الجواد، قال سحنون: اللهم ولّ هذه الأمة خيراً وأعدلها فكان هو الذي ولي بعده. وقال: لم أكد أرى قبول هذا الأمر حتى كان من الأمير معنيان، أحدهما: أعطاني كل ما طلبت، وأطلق يدي في كل ما رغبت، حتى أني قلت: ابدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعوانك؛ فإن قبلهم ظلمات للناس وأموالاً منذ زمان طويل فقال لي: نعم لا تبدأ إلا بهم، وأجر الحق على مفرق رأسي. وجارني من عز منه مع هذا ما يخاف منه المرء على نفسه، وفكرت؛ فلم أجد لنفسي سعة في رده. ولما تمت ولايته، سار حتى دخل على ابنته خديجة؛ وكانت من خيار النساء. فقال لها: اليوم ذبح أبوك بغير سكين فعلم الناس قبوله للقضاء؛ ويومئذ كتب له عبد الرحمن الزاهد بما نصه: أما بعد، فإنني عهدتك وشأن نفسك إليك مهما تعلم الخير وتؤدب عليه. وأصبحت، وقد وليت أمر هذه الأمة، تؤدبهم على دنياهم، يذل الشريف بين يديك والوضيع؛ وقد اشتراك فيك العدو والصديق. ولكل خطة من العدل: فأني حالتك أفضل؟ الحالة الأولى أم الثانية؟ والسلام. فراجع سحنون بأن قال له: أما بعد، فإنه جاءني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه؛ وإنني أجيبك إنه لا حول ولا قوة في شيء من الأمور إلا بالله تعالى عليه توكلت وإليه أنيب وما كتبت إنك عهدتني وشأن نفسي إلي مهما أعلم الخير وأودب عليه، وقد أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة وأود بهم على دنياهم. ولعمري إنه من

(1) أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1418 هـ - 1998 م، 1 / 357 - 358، 372.

لم تصلح دنياه، فسدت أخراه. وفي صلاح الدنيا إذا صح المطعم والمشرب، صلاح الآخرة.

وقد حدثني ابن وهب ورفع سحنون سنده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: نعم المطية الدنيا فارتحلوها فإنها تبلغكم الآخرة ولن تبلغ الدنيا الآخرة من عمل في الدنيا بغير الواجب من حق الله وأما قولك وليت أمر هذه الأمة، فإني لم أزل مبتلى، ينفذ قلبي منذ أربعين سنة في أبشار المسلمين وأشعارهم. ومن كلام عبد الله بن أبي جعفر: لن تزالوا بخير ما تعلمتم. فإذا احتيج إليكم، فانظروا كيف تكونون. وإنما المفتي قاض يجوز قوله في أبشار المسلمين وأموالهم. فعليك بالدعاء فألزم ذلك نفسك والسلام.

وذكر القاضي عيسى بن مسكين من طريق آخر كيفية ولايته القضاء بأن الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب كان قد اضطر يحيى بن عمر إلى ولاية القضاء. فقال له: إن دلتك على من هو أفضل مني، في الوجه الذي تحب، تعفيني فقال له: نعم فدلته عيسى ابن مسكين. وكان بالحضرة حمديس؛ فقال: إنه، والله أيها الأمير، صاحبنا عند سحنون. جمع الله فيه خلال الخير بأسرها فأرسل فيه إبراهيم إلى كورة الساحل، وأوصله إلى نفسه، وقال: تدري لم بعثت لك؟ قال: لا. قال: لأشاورك في رجل قد جمع الله فيه خلال الخير. أردت أن أوليه القضاء، وألم به شعث هذه الأمة؛ فامتنع. قال: يلزمه أن يلي. قال: تمتع. قال: يجبر على ذلك قال: تمتع. قال: يجلد قال: قم فأنت هو قال: ما أنا الذي وصفت وتمنع. فأخذ الأمير بمجامع ثيابه، وقرب السيف من نحره؛ فتقدم إليه بخنجره. قال حمديس: وكنت في المجلس؛ فقامت من مكاني، لئلا يصيبني من دمه. فلم يزل به حتى ولى على شروط، منها قال له: أستعفيك في كل شهر قال: نعم قال: وأجعلك، وبني عمك، وجندك، وفقراء الناس، وأغنياءهم في درجة واحدة. قال: نعم قال: ولم توجه ورائي، وكذا وكذا. فمتى لم تف لي بشرط، عزلت نفسي. قال: نعم وعرض عليه عند ذلك الكسوة والصلة. فامتنع وقال له:

أنا رجل طويل الصمت، قليل الكلام، غير نشيط في أمور، ولا أعرف أهل البلد. فقال له الأمير: عندي مولى نشيط، قد تدرب في الأحكام. أنا أضمه إليك: يكون عنك كتاباً يصدر عنك في القول. فما رضيت منه، أمضيت؛ وما سخطت، رددت. فضم إليه عبد الله بن محمد بن مفرج. قال المخبر: فكثيراً ما كنت آتي مجلسه وهو صامت لا يتكلم؛ وابن مفرج يقضى. وسئل عن فرط انقباضه في قضائه. فقال: ابتليت بجبار عنيد، خفت أن يبعث إلي من طعامه، أو يدعوني إليه. ولا آتيه؛ فحملت نفسي على ذلك، ليقطع طمعه مني.

وكان سحنون يؤدب الناس على الأيمان التي لا تجوز، من الطلاق والعقاق، حتى لا يحلفوا بغير الله؛ ويؤدبهم على سوء الحال في لباسهم وما نهى عنه، ويأمرهم بحسن السيرة والقصد. وتخاصم إليه رجلان صالحان من أصحابه؛ فأقامهما، وأبى أن يسمع منهما، وقال: استر عني ما ستر الله عليكما وهو أول من نظر في الحسبة من القضاة، وأمر بتغيير المنكر؛ وأول من فرق حلق البدع من الجامع، وشرّد أهل الأهواء منه؛ وأول من جعل الودائع عند الأمناء؛ وكانت قبل في بيوت القضاة. قال عيسى بن مسكين: فحصل الناس بولايته على شريعته من الحق؛ ولم يل قضاء إفريقية مثله ويقال إنه ما بورك لأحد، بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بورك لسحنون في أصحابه؛ فإنهم كانوا أئمة بكل بلدة. وكان الذين يحضرون مجلسه من العباد أكثر من طلاب العلم.

وتوفي سحنون رحمه الله صدر شهر رجب سنة 240 ودفن من يومه. وصلى عليه الأمير محمد بن الأغلب. ولم يأخذ لنفسه، مدة قضائه، من السلطان شيئاً (1).

(1) تاريخ قضاة الأندلس (المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الأفاق الجديدة، دار الأفاق الجديدة - بيروت / لبنان - 1403 هـ - 1983 م، ص 28 - 32.

مواقف من حياته:

لا أدري فيما يدري:

وسئل سحنون: أيسع العالم أن يقول: لا أدري فيما يدري؟ قال: أما ما فيه كتاب أو سنة ثابتة فلا، وأما ما كان من هذا الرأي ولو كان شيئاً يقصد به الدين لأجبت.

وقيل: إن زيادة الله الأمير بعث يسأل سحنوناً عن مسألة، فلم يجبه، فقال له محمد بن عبدوس: اخرج من بلد القوم، أمس ترجع عن الصلاة خلف قاضيهم، واليوم لا تجيبهم؟! قال: أفأجيب من يريد أن يتفكه، يريد أن يأخذ قولي وقول غيري، ولو كان شيئاً يقصد به الدين لأجبت، فإنه يسعه ذلك، لأنه لا يدري أمصيب هو أم مخطئ.

حم الغلام البارحة:

وعن عبد الجبار بن خالد قال: كنا نسمع من سحنون بقريته، فصلى الصبح، وخرج، وعلى كتفه محراث، وبين يديه زوج بقر. فقال لنا: حم الغلام البارحة، فأنا أحرث اليوم عنه، وأجيئكم. فقلت: أنا أحرث عنك، فقرب إلي غداً، خبز شعير وزيتاً.

مت إذا شئت:

وعن يحيى بن عون: قال: دخلت مع سحنون على ابن القصار وهو مريض، فقال: ما هذا القلق؟ قال له: الموت والقدر على الله. قال له سحنون: أأست مصداً بالرسول والبعث والحساب، والجنة والنار، وأن أفضل هذه الأمة أبو بكر، ثم عمر، والقرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله يرى يوم القيامة، وأنه على العرش استوى، ولا تخرج على الأئمة بالسيف، وإن جاروا. قال: إي والله، فقال: مت إذا شئت، مت إذا شئت.

كبرنا وساءت أخلاقنا:

وعن سحنون قال: كبرنا وساءت أخلاقنا، ويعلم الله ما أصبح عليكم إلا لأؤدبكم. وعن سحنون قال: ما عميت علي مسألة إلا وجدت فرجها في كتب ابن وهب.

كأن سحنوناً يبني الكعبة:

وقيل: إن طالباً قال: رأيت في النوم كأن سحنوناً يبني الكعبة، قال: فغدوت إليه، فوجدته يقرأ للناس "مناسك الحج" الذي جمعه.

هل الفتيا إلا القضاء!:

ولما ولي سحنون القضاء بأخرة عوتب، فقال: ما زلت في القضاء منذ أربعين سنة، هل الفتيا إلا القضاء؟! .. ! قيل: إن الرواة عن سحنون بلغوا تسعمائة.

جئت اليوم ولم أسمع منك شيئاً:

قال رجل من الطلبة لسحنون: جئت اليوم ولم أسمع منك شيئاً. فقال له: إن كنت في وقت خروجك ممن شيعته الملائكة، فقد سمعت، وإن لم تسمع. وإن كنت ممن لم تشيعه، فلم تسمع، وإن كنت سمعت.

بحراً لا تكدره الدلاء:

قال عيسى: قلت لسحنون تأتيك المسائل مشهورة مفهومة، فتأبى الجواب فيها. فقال سحنون: سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من فتنة المال. قال يحيى بن عمر: لما قدمت إلى سحنون فسألت عنه، فقيل لي خرج إلى البادية، فجئته، فرأيت رجلاً أشعر عليه جبة صوف ومنديل، وهو متول حرثه وشأنه، فاستصغرتي وندمت على تركي من تركت بالمشرق، ومجيئي إليه. وقلت ما أراه يحفظ شيئاً من العلم. فرحب بي. فلما جالسته في العلم رأيت بحراً لا تكدره الدلاء، والله العظيم، ما رأيت مثله قط. كأنما جمع العلم عينيه في صدره.

الحمد لله. الذي لم يجمع حبي وبغض أبي بكر وعمر في قلب

واحد:

وقيل له: إن يعقوب بن المضار لا يحبك فقال: الحمد لله، الذي لم يجمع حبي وبغض أبي بكر وعمر في قلب واحد.

ليس هم سكانها:

عن سحنون، أنه قال في الحديث: فيمن أخاف أهل المدينة، قال: ليس هم سكانها، بل كان من قال بقولهم، حيث كان.

فرايت أن أصبر:

قال ابن وضاح: وكان إنسان يشرب قريباً من سحنون ويغني، ولم يغير عليه، فلما قدمت الأندلس، ابتليت بمثله، فأردت رفع أمره، ثم تذكرت أمر سحنون، فاقتديت به، وصبرت. ثم لقيت سحنون بعد ذلك، فلم أسمع جاره ذلك بعد، فسألته عنه، فقال لي: ماذا حملت منه، ولقد كفانيه الفقر، وها هو مؤذن في المسجد. وكنت أقدر أن أغير عليه، وأكلم السلطان فيه، فخشيت أن يحملني في ديني ما هو أضر مني، فرايت أن أصبر حتى لا يكون للسلطان علي منة.

من جرأك علي:

قال إبراهيم بن محمد بن باز: كنت أقرأ كتاب الهبات، من النذور على سحنون. فمرت مسألة في الكتاب كان في جانب كتابي فيها كلام لأصبغ، فقرأته على سحنون. فقال: إيه. فظننت أنه استفادني. فقلت له: قال: أصبغ. فقال: إيه. فأعدت، فنظر إليّ، وقال: من جرأك علي؟ قلت: أصلحك الله، كذا هو في حاشية كتابي.

فقال لي: تكذب. سعيد بن حسان أعلم الله. يا أهل الأندلس، ما تبالوا عن تأخذون دينكم. قم والله لا قرأت لكم حرفاً منها. فلما كان بعد أيام، لم نشعر إلا وسحنون واقف على بيتي، عليه فروة وبيده عصا، فقال: السلام عليكم، أي شيء تكتب؟ فرددت عليه السلام وقلت له: أكتب كتاباً من

المدونة. فقال لي يا أهل الأندلس: أنا أحبكم لأنكم قوم سنة، وخير. ثم مضى، فجنّاه يوماً ثانياً، وكنت أنا القارىء عليه، وأخذتني زكمة فربطت رأسي، وجلست ناحية، فلما اجتمعنا قال: أين ذا؟ قال: اقرأ. فقلت: عرض لي شيء، قال: اقرأ كما أقول لك.

قال: واستأذنه رجل أن يبني قنطرة، يجوز عليها الناس إلى دار سحنون، فأبى سحنون، لأن كسبه كان من بلدان السودان. وكان لا يشرب من المواجل (1) التي يبينها السلاطين تورعاً. ويفتي بجواز ذلك. ويقول: إنما هي حجارة جمعوها، ساق الله إليها الماء (2).

هيهات يا ابن أخي:

وجاء رجل إلى سحنون يسأله عن مسألة فأقام يتردد إليه ثلاثة أيام، فقال: مسألتني أصلحك الله؛ اليوم ثلاثة أيام! فقال له: وما أصنع بمسألتك؟ مسألتك معضلة، وفيها أقاويل، وأنا متحير في ذلك؛ فقال: وأنت أصلحك الله لكل معضلة؛ فقال سحنون: هيهات يا ابن أخي، ليس بقولك هذا أبذل لحمي ودمي للنار؛ وما أكثر ما لا أعرف؛ إن صبرت رجوت أن تتقلب بمسألتك؛ وإن أردت أن تمضي إلى غيري فامض تجاب في مسألتك في ساعة؛ فقال: إنما جئت إليك ولا أستفتي غيرك؛ قال: فاصبر؛ ثم أجابه بعد ذلك.

وقيل له: إنك تسأل عن المسألة لو سئل عنها أحد من أصحابك لأجاب فيها، فتتوقف فيها؛ فقال: إن فتنه الجواب بالصواب أشد من فتنه المال.

من كلامه رحمه الله:

وروي عن سحنون قال: من لم يعمل بعلمه، لم ينفعه علمه، بل يضره.

(1) المواجل صهاريج تخزن فيها مياه الأمطار.

(2) أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1418 هـ - 1998 م، 1 / 357 - 358، 372.

وقال سحنون: إذا أتى الرجل مجلس القاضي ثلاثة أيام متوالية بلا حاجة، فينبغي أن لا تقبل شهادته.

وعن سحنون قال: أكل بالمسكنة، ولا أكل بالعلم. محب الدنيا أعمى، لم ينوره العلم. ما أقبح بالعالم أن يأتي الأمراء، والله ما دخلت على السلطان إلا وإذا خرجت حاسبت نفسي، فوجدت عليها الدرك، وأنتم ترون مخالفتي لهواه، وما ألقاه به من الغلظة، والله ما أخذت، ولا لبست لهم ثوباً.

وعن سحنون قال: كان بعض من مضى يريد أن يتكلم بالكلمة، ولو تكلم بها لانتفع بها خلق كثير، فيحبسها، ولا يتكلم بها مخافة المباهاة. وكان إذا أعجبه الصمت تكلم، ويقول: أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علماً.

وعنه قال: ما وجدت من باع آخرته بدنياه غيره إلا المفتي.

وعنه: سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من فتنة المال.

قال سحنون: ما أقبح بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيه. فيسأل عنه، فيقال: هو عند الأمير، هو عند الوزير، هو عند القاضي، فإن هذا وشبهه شرٌّ من علماء بني إسرائيل. وبلغني إنهم يحدثونهم من الرخص ما يحبون، مما ليس عليه العمل، ويتركون ما عليه العمل، وفيه النجاة لهم، كراهة أن يشتغلواهم. ولعمري لو فعلوا ذلك لنجوا، ووجب أجرهم على الله، فوالله لقد ابتليت بهذا القضاء، وبهم. ووالله ما أكلت لهم القمة، ولا شربت لهم شربة، ولا لبست لهم ثوباً، ولا ركبت لهم دابة، وما أخذت لهم صلة. وإني لأدخل عليه، فأكلهم بالتشديد، وما عليه العمل وفيه النجاة. ثم أخرج عنهم، فأحاسب نفسي، فأجد عليّ الدرك مع ما ألقاهم به في الشدة والغلظة، وكثرة مخالفتي هواهم، ووعظي لهم. فوددت أن أنجو ما دخلت فيه كفافاً.

ومن كلام هذا القاضي رحمه الله: من قاس الأمور، علم المستور. من حصن شهوته، صان قدره. في تقلب الأحوال، علم جواهر الرجال. الحسن

النية، يصحبه التوفيق. المعاش مذل لأهل العلم. كفاك أدباً لنفسك ما كرهته لغيرك. قارب الناس في عقولهم، تسلم من غوائلهم (1).

وقال سحنون: لا يجوز التوضؤ بصلح المسجد لقول الله تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ} [النور: ٣٦] فوجب أن ترفع وتنزه عن أن يتوضأ فيها لما يسقط فيها من غسالة الأعضاء من الأوساخ والتمضمض والاستنشاق وقد يحتاج للصلاة بذلك الموضع آخر. فيتأذى بالماء المهرق فيه، وقد روي أن رسول الله قال: **اجعلوا مطهركم على أبواب مساجدكم**—.

عن سحنون قال: “كان بعض من مضى يريد أن يتكلم بالكلمة ولو تكلم بها لانتفع بها خلق كثير فيحبسها، ولا يتكلم مخافة المباهاة”.

وقال فقيه المغرب محمد بن سحنون المالكي: أجمع العلماء أن شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم المنتقص له كافر، والوعيد جارٍ عليه بعذاب الله، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر.

وقال سحنون: من كفر أحداً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم علي أو عثمان أو غيرهما يوجع ضرباً.

وحكى أبو محمد بن أبي يزيد، عن سحنون: من قال في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي: إنهم كانوا على ضلالة وكفر وقتل، ومن شتم غيرهم من الصحابة بمثل ذلك نكل النكال الشديد.

وقال سحنون: فتنة الجواب بالصواب أعظم من فتنة المال.

وقال سحنون: أشقى الناس من باع آخرته بدنياه غيره.

وقال سحنون: أشقى الناس من باع آخرته بدنياه؛ وأشقى منه من باع آخرته بدنياه غيره؛ فقال: تفكرت فيه، وجدته المفتي، يأتيه الرجل قد حنث في امرأته ورقيقته، فيقول له: لا شيء عليك، فيذهب الحانث فيستمتع بامرأته ورقيقته، وقد باع المفتي دينه بدنياه هذا.

(1) تاريخ قضاة الأندلس، ص 28 - 32.

قال سحنون: أجرأ للناس على الفتيا، أقلهم علماً. يكون عند الرجل باب واحد من العلم، فيظن أن الحق كله فيه. قال سحنون: إني لأسأل عن المسألة، فأعرف في أي كتاب وورقة وصفحة وسطر، فما يمنعني عن الجواب فيها إلا كراهة الجرأة بعدي على الفتيا.

وقال سحنون: وأنا أحفظ مسائل ما فيه ثمانية أقاويل من ثمان أئمة. فكيف يسعني أن أعجل بالجواب، حتى أتخير، وهو الأمر في حبس الجواب، أو كما قال، عبد الجبار بن خالد

وكان يقول: ما أحب أن يكون عيش الرجل إلا على قدر ذات يده. ولا يتكلف ما في وسعه؛ وأكل أموال الناس بالمسكنة والصدقة خير من أكله بالعلم والقرآن.

وهو القائل: من لم يعمل بعلمه، لم ينفعه العلم، بل يضره وإنما العلم نور يضعه الله في القلوب، فإذا عمل به، نور الله قلبه؛ وإن لم يعمل به، وأحب الدنيا، أعمى حب الدنيا قلبه، ولم ينوره العلم.

وكان يقول: ترك الحلال أعظم من جميع عبادة الله؛ وترك الحلال لله أفضل من أخذه وإنفاقه في طاعة الله وقال: ترك دانق مما حرم الله أكثر من سبعين ألف حجة، يتبعها سبعون ألف عمرة مبرورة متقبلة، وأفضل من سبعين فرساً في سبيل الله بزادها وسلاحها، ومن سبعين ألف بدنة يهديها إلى بيت العتيق، وأفضل من عتق سبعين ألف رقبة مؤمنة من ولد إسماعيل قال صاحب المدارك: فبلغ كلامه هذا لعبد الجبار بن خالد؛ فقال: نعم وأفضل من ملء الأرض إلى عنان السماء ذهباً وفضة كسبت وأنفقت في سبيل لا يراد بها إلا وجه الله وهذا القول بناء على أن التروك لا توازيها الأفعال. وكذلك القول في مسألة ترك الحلال لله إنه أفضل من أخذه وإنفاقه في طاعة الله مما وقع فيه الاختلاف بين العلماء. قال عز الدين أبو محمد بن عبد السلام السلمي: فقالت طائفة تركها أفضل. وقال آخرون: بل فعله مع السلامة أولى. قال صاحب الرعاية: لأنه قد اكتسب

من العمل ما لم يكتسب غيره وإنما يسأل عن ذلك كما يسأل عن الصلاة والصيام ليثاب عليه وإنما أمر بالترك خوفاً أن لا يسلم.

* * *

أقضى القضاة الموردي

أقضى القضاة الموردي

أعلام الفقهاء

أقضى القضاء الماوردي

في شوارع البصرة وفي زمن العباسيين، كان هناك طفل صغير لم يتجاوز الرابعة من عمره، ورث عن أبيه صناعة (ماء الورد) يقضي النهار كله أمام أبواب المساجد، يبيع ماء الورد لطلاب العلم ورواد المدارس مقابل دراهم معدودة، يتقوى بها على متاعب الحياة.

وقد أصبح هذا الصبي من قادة الفكر وحملة مشاعل العلم ومن أبرز رجال السياسة، وقاضياً من أعدل القضاة، وأديباً ناضجاً ومؤلفاً عظيماً في شتى فروع ثقافة أمته.. إنه (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي) الشهير بالماوردي.. ولد عام 364هـ - 974م في مدينة البصرة، ونشأ فيها يسقي طلاب العلم ماء الورد، ويرتوي من علم العلماء المشهورين في زمانه، وظل في البصرة حتى سمع أن عالماً ببغداد يقصده الطلاب من كافة الأنحاء هو (أبو حامد الإسفراييني) فتعلم على يديه الفقه والعلوم الشرعية، وأصبح من مريديه، ومازال يرحل ويتنقل في بلاد المسلمين طلباً للمعرفة حتى عاد إلى بغداد، ليبدأ فيها رحلة الدرس والتأليف، يتلقى عنه الطلاب القادمون من بلاد كثيرة. وتولى الماوردي القضاء في البلاد التي رحل إليها، كما تولى وظيفة قاضي القضاء في نيسابور، وذاعت شهرته، ولقب بأقضى القضاء سنة 429هـ، وكان أول من لقب بذلك في تاريخ الإسلام، وعلم الماوردي أن توليه القضاء ليس تشريعاً له، ولكنها رسالة وأمانة في عنقه؛ فكان يتمهل قبل أن يصدر أحكامه، ويقرأ كتاب الله وأحاديث رسوله، حتى لا يضل الطريق؛ فيقضي بحكم فيه ظلم لأحد، كما كان جريئاً عادلاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، يحكم بالحق حتى على أولي القربى وأصحاب السلطان. فقد أمر الخليفة العباسي أن يلقب جلال الدين بن بويه بلقب شاهنشاه الأعظم ملك الملوك،

واختلف الفقهاء ما بين موافق، وغير موافق لأن هذا اللقب لا يجوز إلا في حق الله، وانحاز عوام الناس إلى رأي الفقهاء المانعين، وانتظر الجميع رأي القاضي الماوردي الذي كانت تربطه بجلال الدين البويهى صلة ود وصداقة؛ وظهرت شجاعة الماوردي، فانحاز إلى جانب الحق، وضرب مثلاً فريداً في الثبات على الحق، فأفتى بالمنع، وأعجب جلال الدين بصدقه وشجاعته فقال له: (أنا أعلم أنك لو حابيت أحداً لحابيتني، لما بيني وبينك من أواصر المحبة، وما حملك إلا الدين، فزاد بذلك محلك عندي). ولما ذاعت شهرة الماوردي أثناء فترة إقامته ببغداد لما عُرفَ عنه من فضل وعلم، وحسن رأي، وجلالة قدر؛ اختير ليكون سفيراً بين رجال الدولة في بغداد، وبني بويه في أصبهان من سنة 381هـ/ 991م إلى 422هـ/ 1030م، وكان لقربه من الحياة السياسية في عصره، واختلاطه بالأمرأ والوزراء أثر كبير، فقام بكتابة العديد من المؤلفات السياسية الرائعة التي صدرت عن خبرة كبيرة ودراسة واسعة مثل (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) وكانت له مكانة ممتازة عند الأمراء والملوك في عصره، فكان يتصدر المراسم والاحتفالات الرسمية، وأسندوا إليه عقد قران الخليفة القائم بأمر الله على خديجة بنت داود أخي السلطان (طغرلبيك) سنة 448هـ. واشتهر الماوردي بالحلم والوقار والأدب والتعفف عن سؤال غيره، كما عرف عنه التدين والتنزه عن اللهو والهزل، وشهد المعاصرون للماوردي بالصلاح والتقوى، وهم محقون في ذلك، فقد أخفى مؤلفاته عن الناس في عصره خوفاً من أن يكون قد خالطها الرياء وهو يؤلفها، وعهد إلى صديق له ألا يظهرها إلا بعد وفاته، وترك الماوردي العديد من المؤلفات منها: كتاب في التفسير و(الحاوي) في الفقه الشافعي و(قانون الوزارة وسياسة الملك) و(أدب الدنيا والدين). والماوردي مفكر سياسي إسلامي يعد من أوائل من اهتموا بعلم السياسة وأصول الحكم الإسلامي، يأخذ أفكاره وآراءه من وحي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وظل

الماوردي في خدمة العلم إلى أن فاضت روحه إلى بارئها في يوم الثلاثاء آخر شهر ربيع الأول سنة 450هـ، وحضر جنازته جمع من الخطباء والعلماء والقضاة يودعون به إلى مثواه الأخير (1).

قال محمد بن عبد الملك الهمذاني: حكى أبي قال: حضرت مع قاضي القضاة أبي الحسن الماوردي عزاء، فتكلم الشيخ أبو إسحاق واجلاً، فلما خرجنا، قال الماوردي: ما رأيت كأبي إسحاق! لو رآه الشافعي لتجمل به (2).

الماوردي وآثاره:

كان الماوردي ذا خلق ودين وله علاقة وطيدة مع الخليفة ورجال الدولة في زمانه. وكان الخليفة يثق فيه وجعله سفيراً بينه وبين بني بويه وبينه وبين السلاجقة، وكانت بيد هؤلاء مراكز القوة في الدولة، ولقد أهله ثقافته العالية ووظائفه المتعددة واتصاله برجال السلطة عن قرب وخبراته السياسية للكتابة في الفقه السياسي. وله مؤلفات في كثير من العلوم وله من الكتب السياسية أربعة كتب:

1 - الأحكام السلطانية.

(1) تاريخ بغداد 12 / 102 - 103، طبقات الفقهاء للشيرازي: 131، الأنساب: ورقة 504 أ، المنتظم 8 / 199 - 200، معجم الأدباء 15 - 52 - 55، الكامل لابن الأثير 9 / 651، اللباب 156 / مختصر تاريخ دولة آل سلجوق: 24، طبقات ابن الصلاح: الورقة 70 ب، وفيات الأعيان 3 / 282 - 284، المختصر في أخبار البشر، دول الإسلام 1 / 265، العبر 3 / 223، ميزان الاعتدال 3 / 155، تنمة المختصر 1 / 549، مرآة الجنان 3 / 72 - 73، طبقات السبكي 5 / 267 - 285، طبقات الأسنوي 2 / 387 - 388، البداية والنهاية 12 / 80، طبقات ابن قاضي شهبة: ورقة 23 / أ، لسان الميزان 4 / 260 - 261، النجوم الزاهرة 5 / 64، طبقات المفسرين للسيوطي: 25، طبقات المفسرين للداودي 1 / 423 - 425، مفتاح السعادة 1 / 322، طبقات ابن هداية الله: 151 - 152، كشف الظنون 1 / 19، 45، 140، 168، 408، 628 و 2 / 1101، 1315، 1978، شذرات الذهب 3 / 285 - 287، روضات الجنات: 483، هدية العارفين 1 / 689.

(2) السبكي، طبقات الشافعية، 4 / 227.

2 - قوانين الوزارة.

3 - نصيحة الملوك.

4 - تسهيل النظر وتعجيل الظفر (في سياسة الملك).

وقد نال كتاب الأحكام السلطانية شهرة واسعة وهو يعد بحق أول من جمع مسائل الفقه السياسي المنتثرة في مواضع متفرقة في كتاب واحد. ويقول عن ذلك في مقدمة كتابه:

(لما كانت الأحكام السلطانية بولاة الأمور أحق، وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير أفردت لها كتاباً⁽¹⁾).

وقد ألف الكتاب بأمر من خليفة العصر فالكتاب بذلك ليس كتاب فقه نظري بل هو موجه للسلطة الحاكمة للعمل به وتنفيذه.

يبدأ الكتاب بإعطاء تعريف للإمامة والمؤهلات المطلوبة لتقلد هذا المنصب الهام، والطرق الصحيحة لانعقاد الإمامة، ثم يبين واجبات الدولة وواجبات الشعب نحوها والأمر التي تؤدي إلى عزل الإمام. وبعد أن يعطي تعريفاً لكل من الوزارة والإمارة يتحدث عن أنواع الوزارة والإمارة وسلطات كل نوع والمؤهلات المطلوبة لتوليها، ثم ينتقل لمناقشة المهام التفصيلية لأجهزة الدولة المالية والقضائية والعسكرية.

والكتاب الثاني من كتب الماوردي السياسية هو كتابه (قوانين الوزارة) وهذه رسالة هامة تبحث في موضوع متخصص من موضوعات الفقه السياسي. فقد بحث المؤلف فيها كل ما يتصل بالوزارة من فقه، ابتداء من تعريف الوزارة وأنواعها، ومؤهلات الوزراء إلى علاقتهم برئيسهم ووظائفهم وما يعينهم من سياسة للقيام بهذه الوظائف. وانتهى في هذه الرسالة إلى أن أهم غايات الوزارة تحقيق الأهداف التالية: (دين متبع،

(1) الأحكام السلطانية ص 3.

سلطان قاهر، عدل شامل، أمن عام، وخصب دائم).

أما كتابا الماوردي الآخرين (نصيحة الملوك) و(تسهيل الظفر) فهما كتب الآداب والأخلاق السياسية ولا تدخل في نطاق الفقه (1).

الماوردي والجواري يلبسن الشعر:

قال الماوردي: رأيتُ جاريةً، ونحن عند محمد بن عمرو بن مسعدة، لم أشك أنه عاشقٌ لها، وإليها مائلٌ، لما رأيتُ من حركاته إذا نظرت، وسُروره إذا نطقت، وتهلُّله إذا غنَّت. وكانت فوق وصف الواصف من الحُسن والجَمال، وعليها قميصٌ موشَّحٌ، ورداءٌ معيَّنٌ، مكتوبٌ في وشاح القميص:

أغيب عنك بوْدٌ لا يغيِّرهُ :: نأي المحلِّ ولا صَرفٌ من الزمنِ
تعتلُّ بالشُّغل عنا ما تُكلِّمنا :: الشغل للقلب ليس الشغل للبدنِ
وعلى طراز الرداء:

أقلَّ الناس في الدنيا سُروراً :: محبٌّ قد نأى عنه الحبيبُ
قال: ورأيتُ جاريةً لبعض الهاشميين يُقال لها عَريب، عليها قميصٌ ملحمٌ، موشَّحٌ بالذهب، مكتوبٌ في وشاحه:

وإني لأهواه مسيئاً ومحسناً :: وأقضي على قلبي له بالذي يقضي
فحتى متى رَوْحُ الرضى لا ينالني :: وحتى متى أيام سُخْطِكَ لا تمضي
وعلى طراز كُمّه:

إذا صدَّ من أهوى وأسلمني العَري :: ففرقة من أهوى أحرُّ من الجمرِ
ورأيتُ على ماجنٍ جاريةً مكاتم المغنِّية قميصاً في وشاحه بالذهب:
زَفَرَاتِي لَيْسَ تَفْنِي :: وفؤادي بك مُضْنِي
أترضاك وأبـدي :: لك... سننا

(1) القاضي أبو يعلى الفراء، د. محمد عبد القادر أبو فارس، ص 516 وما بعدها.

بأيكم أتمنى :: وإلى كـم أتمنى
 بعدما أصبح قلبي :: في يد الأحرار رهنا
 قال: ورأيتُ في صدر قميص جارية تباريح الكوفية مكتوباً بالفضة
 والذهب سطرّاً وسطراً:

يا فتى! قلتُ إذ دعاني هواه :: مستجيباً لصوته ليكـا
 ما بكت مُقلتي لفقدك إلا :: جزعاً أن أموت شوقاً إليـكا
 قال: ورأيتُ مرة أخرى عليها دُرّاعة ملحم بترانين إبريسَم ولبنة
 سوسجُرد وفي دور اللبنة مكتوبٌ:

يا رامياً ليس يدري ما الذي فعلا! :: أمسك عليك فإن السهم قد قتلا
 أصبت أسود قلبي إذ رميت فلا :: شئت يمينك أن صيرتني مثلاً
 وكتبت بنان جارية الخيزران على ترانين دُرّاعة لها بذهب:

لم تقل قولاً ولكن حلفت :: أنها أحسن عين أطرفت
 زعمت أي قد لاحظتها :: أي عين لحظت فاعترفت
 أظهرت حجة من يعشقها :: واستباح غفلة وانصرفت
 وعلى طراز كمها:

ليس بي صبر ولا بي جلد :: قد نفى حُبك عني جلدي
 وقال الماوردي: رأيتُ جارية لبعض ولد المأمون، وعليها قلنسوة
 عليها مكتوبٌ:

يا تارك الجسم بلا قلب :: إن كان يهواك فما ذنبي؟
 يا مفرداً بالحسن أفردتني :: منك بطول الشوق والكرب
 وعلى كرزَن لها:

أنا العبد المقرّ بطول رقّ :: وليس عليك من عبدٍ خلافُ
 قال: ورأيتُ على جارية لا هي كرزناً مكتوباً عليه:
 عذّبـه بالهجر مولاه :: وزاده شوقاً وأضـنناه

فدمعه يجري على خده :: ولم تنم للوجد عيناه
قد كتب الحب على قلبه :: مُتَ كَمَدًا يَرْحُكُ اللَّهُ

مكتوباً على النعال والخفاف:

ما وجد للمتظرفات والظراف مكتوباً على النعال والخفاف قال
الماوردي: كتبت جارية للمارقي على نعلها بالذهب:

لم ألقَ ذا شَجَنٍ ييُوحِ بحبه :: إلاَّ حَسْبُكَ ذلِكَ المَحبُوبَا
حَذراً عَلَيْكَ وَإِنِّي بِكَ وَاثِقٌ :: أَنْ لَا يَنَالِ سِوَايَ مِنْكَ نَصِيحاً⁽¹⁾

كتاب المنصور:

ذكر أبو الحسن الماوردي: أن أبا جعفر المنصور بلغه عن جماعة من
كتاب دواوينه أنهم زوروا فيها وغيروا، فأمر بإحضارهم، وتقدم بتأديبهم،
فقال حدث منهم وهو يضرب:

أطال الله عمرك في صلاح :: وعزياً أمير المؤمنين
بعفوك نستجير فإن تجرنا :: فإِنَّكَ عصمة للعالمينا
ونحن الكاتبون وقد أسأنا :: فهينا للكرام الكاتبينا
فأمر بتخليتهم، ووصل الفتى وأحسن إليه (2).

خطوط العلماء في الأغلب رديئة:

وقال الإمام الماوردي: خطوط العلماء في الأغلب رديئة لاشتغالهم
بالعلم حتى قال الفضل ابن سهل: من سعادة المرء رداءة خطه أي لئلا
يشغله تعلم الخط عن تعلم العلم. قيل: والأسباب المخلة بالخط ثمانية:
إسقاط ألفاظ منه أو زيادة ألفاظ فيه أو إسقاط بعض حروف الكلم أو زيادة
حروف أثناءها

أو وصل المفصول أو فصل الموصول أو تغيير الحرف حتى يشتبه حرف

(1) الوشاء، الموشى، ص 76، 77، 81.

(2) ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص 6.

بغية
أو ضعف الخط جملة أو إهمال النقط أو الشكل.

لا يسأل عنهما إلا علماء الدين:

عن الإمام الماوردي، رحمه الله، قال: كنت بمجلس درسي بالبصرة، فدخل علي شيخ مسن قد ناهز الثمانين أو جاوزها، قال: قصدتك بمسألة اخترتك لها. فقلت: ما هي؟ وظننت إنه يسأل عن حادثة نزلت به. فقال عن طالع إبليس وطالع آدم من النجوم ما هو؟ فإن هذين لعظيم شأنهما، لا يسأل عنهما إلا علماء الدين. قال: فعجبت وعجب من في المجلس من سؤاله. وبادر إليه قوم منهم بالإنكار والاستخفاف، فكففتهم وقلت: هذا لا يقنع مع ما ظهر من حاله، إلا بجواب مثله! فأقبلت عليه وقلت: يا هذا، إن المنجمين يزعمون إن نجوم الناس لا تعرف إلا بمعرفة مواليدهم. فإن ظفرنا بمن يعرف وقت ميلادهما أخبرك بالطالع. فقال: جزاك الله خيراً! وانصرف مسروراً. فلما كان بعد أيام عاد وقال: ما وجدت إلى وقتي هذا من يعرف مولدهما (1).

من كلامه رحمه الله:

قال الماوردي - رحمه الله -: ينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه، ليعطيه ما يتحمله بذكائه أو يضعف عنه ببلاذته فإنه أروح للعالم وأنجح للمتعلم.

قال الماوردي - رحمه الله -:

وإذا كانت النفوس كباراً :: تعبت في مرادها الأجسام
وقال: والداعي إلى استسهال المصاعب وتحمل المشاق أمور منها علو الهمة وشرف النفس أما علو الهمة فلأنه باعث على التقدم وداع إلى الهمة وشرف النفس التخصيص، أنفة من خمول الضعة واستنكاراً لمهانة

(1) اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، ص 299، 303.

قال الماوردي - في بيان ما يلزم الإمام من أعمال -: والذي يلزمه من الأمور العامة عشرة أشياء:

أحدها: حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع أو زاع ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروساً من خلل والأمة ممنوعة من زلل.

والثاني: تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين؛ حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم.

والثالث: حماية البيضة والذب عن الحريم؛ ليتصرف الناس في المعاش وينتثروا في الأسفار، آمنين من تغرير بنفس أو حال.

والرابع: إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

والخامس: تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة؛ حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرماً، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دماً.

والسادس: جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة إليه حتى يسلم أو يدخل الذمة، ليقام بحق الله تعالى في إظهاره (الإسلام) على الدين كله.

والسابع: جباية الفياء والصدقات على ما أوجبه نصاً واجتهاداً من غير خوف ولا عسف.

والثامن: تقدير العطايا وما يستحق من بيت المال من غير سرف ولا تقدير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

والتاسع: استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال، ويكله إليهم من الأموال؛ لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة.

والعاشر: أن يباشر بنفسه مشاركة الأمور وتصفح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة⁽¹⁾.

قال الماوردي: قيل: إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد، فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين⁽²⁾.

قال الماوردي: “ والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يقتنع بالبلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه؛ وهذا أعلى منازل أهل القناعة، ثم ذكر قول مالك بن دينار: أزهّد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بلغته.

الوجه الثاني: أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية، ويحذف الفضول والزيادة، وهذا أوسط حال المقتنع، وذكر فيه قول بعضهم: من رضي بالمقدور قنع بالميسور.

الوجه الثالث: أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف على ما سُنح، فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيراً، ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيراً، وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة؛ لأنها مشتركة بين رغبة ورهبة، فأما الرغبة: فلأنه لا يكره الزيادة على الكفاية إذا سنحت، وأما الرهبة: فلأنه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة إذا تعذرت.

قال الماوردي: “ فينبغي لطالب العلم ألا يني في طلبه، وينتهاز الفرصة به، فربما شخّ الزمان بما سمع، وضنّ بما منح، ويبتدئ من العلم بأوله، ويأتيه من مدخله، ولا يتشاغل بطلب ما لا يضرّ الجهل به فيمنعه ذلك من إدراك ما لا يسعه جهله، فإن لكلّ علم فضولاً مذهلة وشروراً مشغلة، متى صرف إليها نفسه قطعته عما هو أهم منها “.

(1) أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص 17، 16.

(2) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 16 / 209.

قال الماوردي: "واعلم أن لكلّ مطلوب باعثاً، والباعث على المطلوب شيئان: رغبة أو رهبة، فليكن طالب العلم راغباً وراهباً، أما الرغبة ففي ثواب الله تعالى لطالبي مرضاته وحافظي مفترضاته، وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركي أوامره ومهملي زواجره، فإذا اجتمعت الرغبة والرهبة أدّتا إلى كنه العلم" (1).

* * *

(1) أدب الدنيا والدين، ص54.

رجاء بن حيوة

رجاء بن حيوة

أعلام الفقهاء

رجاء بن حيوة

كثير من الفقهاء والعلماء الذين صحبوا الخلفاء وعاشوا في ركبهم ولكن ما أقل من حافظ على دينه ولم يبيع دينه بدنياه، وما أكثر العلماء الذين دخلوا على السلطان وما أقل من نصح لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، كان من هؤلاء القلة الفقيه الزاهد رجاء بن حيوة الذي يدين له التاريخ بالفضل لمشورته على الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك باستخلاف عمر بن عبد العزيز، وبتدبير وتخطيط ذهاب الخلافة لعمر بن عبد العزيز على الرغم من المعارضة الشديدة من جانب أمراء البيت الأموي.

رجاء بن حيوة: أبو نصر الكندي، والإمام القدوة، الوزير العادل، الفقيه، من جلة التابعين، حدث عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء، وعبادة بن الصامت وطائفة.

قال عنه مسلمة بن عبد الملك أمير السرايا: برجاه بن حيوة وبأمثاله ننصر. وهو من العلماء الذين كان لهم قرب وحظوة عند خلفاء بني أمية قال عنه صاحب الحلية: مشير الخلفاء والأمراء، وقد بدأ اتصاله بهم منذ عهد عبد الملك وقد بلغت مشاركة رجاء وتأثيره السياسي في عهد سليمان بن عبد الملك الذروة، فقد اتخذ سليمان وزير صدق له يستشير به في كثير من الأمور والقضايا المتعلقة بسياسة الدولة وإدارتها فقال عنه سعيد بن صفوان: وكانت له من الخاصة والمنزلة عند سليمان بن عبد الملك ما ليس لأحد يثق به ويستريح إليه، وقد كان رجاء ملازماً لسليمان بن عبد الملك حتى في سفره بدليل أنه كان مع سليمان حين خرج إلى دابق، وكان يخلو معه في مجلسه وأشرف بنفسه على تريضه حتى مات، على أن أكبر تأثير سياسي لرجاء في عهد سليمان يظهر في إشارته عليه باستخلاف

عمر بن عبد العزيز من بعده والتخطيط الدقيق لتنفيذ ذلك بحكمة وحنكة، وسيأتي الحديث عن ذلك في محله بإذن الله لقد كان لموقف رجاء في استخلاف عمر أثر سياسي كبير غير مجرى التاريخ الأموي بصفة خاصة والإسلامي بصفة عامة وفي عهد عمر بن عبد العزيز ظل رجاء يتبوأ مكانة كبيرة ومنزلة عالية من خلال قربيه من عمر وملازمته له، حيث جعله عمر من خواصه وسماره يستشيريه ويستنصحه في أمور العامة والخاصة، وبعد وفاة عمر بن عبد العزيز أقبل على شأنه وترك القرب من الخلفاء وذلك حين رأى أنه لم يعد لقربه من الخليفة ما كان يهدف إليه من تحقيق المصالح وبذل الخير لعامة الأمة⁽¹⁾.

يقول أبو الحسن الندوي على موقف رجاء بن حيوة من تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة الأموية: وكان لرجاء مآثرة لا ينساها الإسلام، ولا أعرف رجلاً من ندماء الملوك ورجالهم انتفع بقربه ومنزلته عند الملوك مثل انتفاعه، وانتهز الفرصة مثل انتهازه وأسدى للإسلام خدمة مثله، فرحم الله رجاء بن حيوة فقد رسم منهجاً لمن يجلس مع الملوك من العلماء كيف يعز الإسلام ويذكر الخلفاء بالله وينتهز الفرص المناسبة لخدمة دين الله⁽²⁾.

وقد كان رجاء له مكانة كبيرة لدى الخلفاء سليمان بن عبد الملك ومن بعده عمر بن عبد العزيز، ولكن تراجعت مكانته في عصر من جاء بعدهما من الخلفاء. فلما مات عمر بن عبد العزيز انقطع عن صحبتهم. فسأله يزيد ابن عبد الملك أن يصحبه فأبى واستعفاه. ف قيل له: نخاف عليك من هؤلاء. فقال: يكفينهم الذي تركتهم له.

وقد أثني عليه العلماء والفقهاء وذكروه بالخير فقد قال ابن سعد عنه

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 557/4، 561، أبو نعيم، الحلية 170/5، أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ص 146.

(2) الندوي، رجال الفكر والدعوة، 40/1.

أنه كان ثقة، عالماً، فاضلاً، كثير العلم.

وقال النسائي وغيره: ثقة.

و قال مطر الوراق: ما رأيت شامياً أفضل من رجاء بن حيوة.

وقال ضمرة: ما من رجل من أهل الشام أحب إلي أن أقتدي به من رجاء ابن حيوة.

و كان يزيد بن عبد الملك بن مروان قد أجري عطاء من بيت مال المسلمين على رجاء بن حيوة ثلاثين ديناراً في كل شهر، فلما ولي هشام الخلافة غير ذلك وقال: ما هذا برأي. فقطعها، فرأى هشام أباه في النوم، فعاتبه في ذلك، فأجراها.

ولعل السبب وراء ذلك موقف رجاء من صرف الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وتمكينه منها على خلاف رغبة البيت الأموي.

وظل رجاء على ثباته من النصح لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولعامة الناس وخاصتهم حتى توفاه الله سنة اثنتي عشرة ومائة (1).

مواقف من حياته:

هذا زمانك:

عن عوانة بن الحك، قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد الشعراء إليه فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم، الرحيل، إذ مر بهم رجاء بن

(1) طبقات ابن سعد 7 / 454، طبقات خليفة ت 2924، تاريخ البخاري 3 / 312، المعارف 472، المعرفة والتاريخ 2 / 329 و 368، الجرح والتعديل القسم الثاني من المجلد الأول 501، الحلية

5 / 170، طبقات الفقهاء للشيرازي 75، تاريخ ابن عساكر 6 / 116، تهذيب الأسماء. واللغات القسم الأول من الجزء الأول 190، وفيات الأعيان 2 / 301، تهذيب الكمال 411، تاريخ الإسلام 4 / 249، تذكرة الحفاظ 1 / 111، العبر 1 / 138، تهذيب التهذيب 1 / 223، البداية والنهاية 9 / 304 تهذيب التهذيب 3 / 265، النجوم الزاهرة 1 / 271، طبقات الحفاظ للسيوطي ص 45، خلاصة تهذيب التهذيب 117، شذرات الذهب 1 / 145، تهذيب ابن عساكر 5 / 315.

حياة. وكان من خطباء أهل الشام فلما رآه جرير داخلاً على عمر أنشأ يقول:

يا أيها الرجل المرخي عمامته :: هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا
قال: فدخل ولم يذكر من أمرهم شيئاً، ثم مر بهم عدي بن أرطأة، فقال له جرير:

يا أيها الراكب المزجي مطيته :: هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه :: أي لدى الباب كالمصفود في قرن
لا تنس حاجتنا لقيت مغفرةً :: قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني
قال: فدخل عدي على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين! الشعراء ببابك
وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة، قال: ويحك يا عدي! ما لي وللشعر،
قال: أعز الله أمير المؤمنين، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح
فأعطى، ولك في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فقال:
كيف؟ قال: امتدحه العباس بن مرداس السلمي فأعطاه حلة قطع بها لسانه،
قال: أو تروي من قوله شيئاً؟ قال: نعم، وأنشد:

رأيتك يا خير البرية كلها :: نشرت كتاباً جاء بالحق معلماً
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا :: عن الحق لما أصبح الحق مظلماً
ونورت بالبرهان أمراً مدنساً :: وأطفأت بالبرهان ناراً تضرماً
فمن مبلغ عني النبي محمداً :: وكل امرئ يجزى بما كان قدماً
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه :: وكان قديماً ركنه قد تهاهما
تعالى علواً فوق عرش إلهنا :: وكان مكان الله أعلى وأعظماً
قال ويحك يا عدي! من بالباب منهم؟ قال: عمر بن عبد الله بن أبي
ربيعه، قال: أليس هو الذي يقول:

ثم نهتها فهبت كعاباً :: طفلة ما تبين رجوع الكلام
ساعة ثم إنها بعد قالت :: ويلتا قد عجلت يا ابن الكرام
أعلى غير موعدٍ جئت تسري :: تنخطى إلى روس النيام

ما تجشمت ما يزين من الأمـــــ :: رولا جئت طارقاً لخصام
 فلو كان عدو الله إذ فجر كتم نفسه، لا يدخل علي والله أبدأ، فمن بالباب
 سواه؟ قال: همام بن غالب، يعني الفرزدق، قال: أوليس هو الذي يقول:
 هما دلتاني من ثمانين قامَةً :: كما انقض باز أقتم الريش كاسرُهُ
 فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا :: أحي يرجي أم قتيل نحاذره
 لا يبطأ والله بساطي، فمن سواه بالباب منهم؟ قال: الأخطل، قال: أدي!
 هو الذي يقول:

ولست بصائم رمضان طوعاً :: ولسب بأكل لحم الأضاحي
 ولست بزاجر عنساً بكور :: إلى بطحاء مكة للنجاح
 ولست بقائم كالعير يدعو :: قبيل الصبح حي على الفلاح
 ولكني سأشرها شمولاً :: وأسجد عند منبلج الصباح
 والله لا يدخل علي وهو وكافر أبدأ، فهل بالباب سوى من ذكرت؟ قال:
 نعم الأحوص، قال: أليس هو الذي يقول:

الله بيني وبين سيدها :: يفر مني بها وأتبعه
 غرب عنه، فما هو بدون من ذكرت، فمن هاهنا أيضاً؟ قال: جميل بن
 معمر قال: يا عدي هو الذي يقول:

ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن تمت :: يوافق في موتي ضريحي ضريحها
 فما أنا في طول الحياة براغب :: إذا قيل قد سوي عليها صفيحها
 فلو كان عدو الله تمنى لقائها في الدنيا ليعمل بعد ذلك صالحاً، والله لا
 يدخل علي أبدأ، هل سوى من ذكرت أحد؟ قال: جرير بن عطية، قال: أما
 إنه الذي يقول:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا :: حين الزيارة فارجلي بسلام

فإن كان لا بد فهو، قال فأذن لجرير، فدخل وهو يقول:

إن الذي بعث النبي محمداً :: جعل الخلافة في الإمام العادل

وسع الخلائق عدله ووفاءؤه :: حتى ارعوى وأقام ميل المائل
إني لأرجو منك خيراً عاجلاً :: والنفس مولعة بحب العاجل
فلما مثل بين يديه قال: ويحك يا جرير، اتق الله ولا تقولن إلا حقاً،
فأنشأ جرير يقول:

أذكر الجهد والبلوى التي نزلت :: أم قد كفاني ما بلغت من خبري
كم باليمامة من شعثناء أرملة :: ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
ممن يعدك تكفي فقد والده :: كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعة ملهوف كأن به :: خبلاً من الجن أو مساً من النسر
خليفة الله ماذا تأمرون بنا :: لسنا إليكم ولا في دار منتظر
ما زلت بعدك في هم يؤرقني :: قد طال في الحى إصعادي ومنحدري
لا ينفع الحاضر المجهود بادينا :: ولا يعود لنا بادٍ على حضر
إننا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا :: من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قدراً :: كما أتى ربه موسى على قدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها :: فمن حاجة هذا الأرملة الذكر
الخير ما دمت حياً لا يفارقنا :: بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال: يا جرير! ما أرى لك هاهنا حقاً، فقال: بلى يا أمير المؤمنين، أنا
ابن سبيل ومنقطع بي، فأعطاه من صلب ماله مائة درهم، وقد ذكر أنه قال
له: ويحك يا جرير! لقد ولينا هذا الأمر وما نملك إلا ثلثمائة درهم، فمائة
أخذها عبد الله ومائة أخذتها أم عبد الله، يا غلام أعطه المائة الباقية، قال:
فأخذها وقال: والله لهي أحب مما اكتسبته إلي، قال: ثم خرج فقال له
الشعراء: ما وراءك؟ قال: ما يسوءكم، خرجت من عند أمير المؤمنين
وهو يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء، وإنني لراض، وأنشأ يقول:

رأيت رقي الشيطان لا تستفزه :: وقد كان شيطاني من الجن راقياً⁽¹⁾

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 1 / 24 - 25.

إنك قد ابتليت بهذا وابتلي بك:

عن رجاء بن حيوة، قال: كنت واقفاً على باب سليمان إذ أتاني آت لم أره قبل ولا بعد، فقال: يا رجاء، إنك قد ابتليت بهذا وابتلي بك، وفي قربه الوتغ (1) فعليك بالمعروف وعون الضعيف، يا رجاء، من كانت له منزلة من سلطان، فرفع حاجة ضعيف لا يستطيع رفعها، لقي الله وقد شد قدميه للحساب بين يديه. واعلم يا رجاء أنه من كان في حاجة أخيه المسلم كان الله في حاجته واعلم يا رجاء أن من أحب الأعمال إلى الله فرحاً أدخلته على مسلم ثم فقده فكان يرى أنه الخضر عليه السلام.

فإننا نكره أن نسمع الخير إلا من أهله:

وروى ضمرة، عن إبراهيم بن أبي عبلة، قال: كنا نجلس إلى عطاء الخراساني، فكان يدعو بعد الصبح بدعوات، فغاب فتكلم رجل من المؤذنين، فأنكر رجاء بن حيوة صوته، فقال: من هذا؟ قال: أنا يا أبا المقدام. قال: اسكت ؛ فإننا نكره أن نسمع الخير إلا من أهله.

احذروا صاحب الكساء:

قال صفوان بن صالح: حدثنا عبد الله بن كثير الدمشقي القاري، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، قال: كنا مع رجاء بن حيوة، فتذاكرنا شكر النعم، فقال: ما أحد يقوم بشكر نعمة، وخلفنا رجل على رأسه كساء، فقال: ولا أمير المؤمنين؟ فقلنا: وما ذكر أمير المؤمنين هنا! وإنما هو رجل من الناس. قال: فغفلنا عنه، فالتفت رجاء فلم يره، فقال: أتيتم من صاحب الكساء، فإن دعيتم فاستحلفتم فاحلفوا. قال: فما شعرنا إلا بالخليفة ومعه الحرس قد أقبل ووقف على رجاء ومن معه فقال: هيه يا رجاء، يذكر أمير المؤمنين، فلا تحتج له؟! قال: فقلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: ذكرتم شكر النعم، فقلتم: ما أحد يقوم بشكر نعمة، قيل لكم: ولا أمير

(1) الوتغ: الهلاك.

المؤمنين، فقلت: أمير المؤمنين رجل من الناس! فقلت: لم يكن ذلك. قال: الله؟ قلت: الله.

قال: فأمر بذلك الرجل الساعي، فضرب سبعين سوطاً، فخرجت وهو متلوث بدمه فقال: هذا وأنت رجاء بن حيوة. قلت: سبعين سوطاً في ظهر ك خير من دم مؤمن. قال ابن جابر: فكان رجاء بن حيوة بعد ذلك إذا جلس في مجلس يقول ويتلفت: احذروا صاحب الكساء.

إن أولئك الذين تريد قد ذهبوا:

عن رجاء بن أبي سلمة قال قدم يزيد بن عبد الملك بيت المقدس فسأل رجاء بن حيوة أن يصحبه فأبى واستعفاه فقال له عقبة بن وساج: إن الله ينفع بمكانك فقال: إن أولئك الذين تريد قد ذهبوا فقال له عقبة: إن هؤلاء القوم قل ما باعدهم رجل بعد مقاربة إلا ركبه قال: إني أرجو أن يكفيهم الذي أدعهم له.

لأنني نظرت للعامة ولم أنظر له:

عن المعلى بن روبة؛ قال: قال لي رجاء بن حيوة: ولي الأمير اليوم عبد الله بن موهب القضاء، ولو اخترت بين أن أحمل إلى حفرتي وبين ما ولي ابن موهب لاخترت أن أحمل إلى حفرتي؛ فقلت له: فإن الناس يتحدثون أنك أنت أشرت به؛ قال: صدقوا لأنني نظرت للعامة ولم أنظر له (1).

استخلاف عمر بن عبد العزيز:

عن عبد الرحمن بن حسان الكناني قال: لما مرض سليمان بدابق قال لرجاء بن حيوة: من لهذا الأمر بعدي، أستخلف ابني قال: ابنك غائب، قال: فابني الآخر، قال: صغير، قال: فمن ترى قال: أرى أن تستخلف عمر

(1) أبو بكر محمد بن خلف بن حيّان بن صدقة الضبيّ البغداديّ، أخبار القضاء، حققه وصححه وعلق عليه وخرّج أحاديثه: عبد العزيز مصطفى المراغي، نشر المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الأولى عام 1366هـ - 1947م، 1 / 24.

بن عبد العزيز، قال: أتخوف إخوتي لا يرضون، قال: فول عمر، ومن بعده يزيد ابن عبد الملك، وتكتب كتاباً وتختتم عليه وتدعوهم إلى بيعته مختوماً، قال: لقد رأيت أئنتي بقرطاس، فدعا بقرطاس، فكتب فيه العهد، ودفعه إلى رجاء، وقال: اخرج إلى الناس فليبايعوا على ما فيه مختوماً، فخرج، فقال: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا لمن في هذا الكتاب، قالوا: ومن فيه قال: هو مختوم لا تخبرون بمن فيه حتى يموت. قالوا: لا نبايع. فرجع إليه فأخبره، فقال: انطلق إلى صاحب الشرطة والحرس، فاجمع الناس ومرهم بالبيعة، فمن أبى فاضرب عنقه، قال: فبايعوه على ما فيه. قال رجاء بن حيوة: فبينما أنا راجع إذ سمعت جلبة موكب، فإذا هشام، فقال لي: يا رجاء قد علمت موقعك منا، وإن أمير المؤمنين صنع شيئاً ما أدري ما هو، وأنا أتخوف أن يكون قد أزالها عني، فإن يكن قد عدلها عني فأعلمني ما دام في الأمر نفس حتى ينظر، فقلت: سبحان الله، يستكتمني أمير المؤمنين أمراً أطلعك عليه، لا يكون ذا أبدأ، قال: فأدارني ولاحاني، فأبيت عليه، فانصرف، فبينما أنا أسير إذ سمعت جلبة خلفي، فإذا عمر بن عبد العزيز وقال لي: يا رجاء إنه قد وقع في نفسي أمر كبير من هذا الرجل، أتخوف أن يكون قد جعلها إلي ولست أقوم بهذا الشأن، فأعلمني ما دام في الأمر نفس لعلني أتخلص منه ما دام حياً، قلت: سبحان الله يستكتمني أمير المؤمنين أمراً أطلعك عليه، قال: وثقل سليمان، فلما مات أجلسه مجلسه وأسندته وهياته وخرجت إلى الناس، فقالوا: كيف أصبح أمير المؤمنين قلت: أصبح ساكناً، وقد أحب أن تسلموا عليه وتبايعوا بين يديه على ما في الكتاب، فدخلوا وأنا قائم عنده، فلما دنوا قلت: إنه يأمركم بالوقوف، ثم أخذت الكتاب من عنده وتقدمت إليهم وقلت: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا على ما في هذا الكتاب، فبايعوا وبسطوا أيديهم. فلما بايعتهم وفرغت قلت: أجركم الله في أمير المؤمنين، قالوا: فمن ففتحت الكتاب فإذا فيه العهد لعمر بن عبد العزيز، فتغيرت وجوه بني عبد

الملك، فلما سمعوا: وبعده يزيد بن عبد الملك كأنهم تراجعوا فقالوا: أين عمر، فطلبوه فإذا هو في المسجد، فأتوه فسلموا عليه بالخلافة، فعقر به فلم يستطع النهوض حتى أخذوا بضبعيه، فدنوا به إلى المنبر وأصعدوه، فجلس طويلاً لا يتكلم، فقال رجاء: ألا تقومون إلى أمير المؤمنين قنبايعونه، فنهض القوم إليه فبايعوه رجلٌ رجلٌ ومد يده إليهم.

قال: فصعد إليه هشام بن عبد الملك، فلما مد يده إليه قال: يقول هشام إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، حين صار يلي هذا الأمر أنا وأنت. ثم قام: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إني لست بفارض ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع، وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن هم أبوا فلست لكم بوالٍ. ثم نزل فأتاه صاحب المراكب فقال: ما هذا؟ قال: مركب الخليفة. قال: لا حاجة لي فيه، انتوني بدابتي، فأتوه بدابته فانطلق إلى منزله، ثم دعا بدواة فكتب بيده إلى عمال الأمصار. قال رجاء: كنت أظن أنه سيضعف، فلما رأيت صنعه في الكتاب علمت أنه سيقوى. وقال عمرو بن مهاجر: صلى عمر بن عبد العزيز المغرب، ثم صلى على جنازة سليمان بن عبد الملك (1).

لأطلبن بها شرف الآخرة:

وقال سعيد بن صفوان كان بين عبد الملك بن أرطاة ورجاء بن حيوة الكندي وبين عمر بن عبد العزيز صداقة وصحبة في نسكهم وعبادتهم وكان رجاء بن حيوة من أهل الأردن وكان من أعبد أهل زمانه وكان مرضياً حكيماً ذا أناة ووقار وكانت الخلفاء تعرفه بفضلته فيتخذونه وزيراً ومستشاراً وقيماً على عمالهم وأولادهم وكانت له من الخاصة والمنزلة عند سليمان بن عبد الملك ما ليس لأحد يثق به ويستريح إليه قال: وولى سليمان عمر على المدينة وكانت لعمر بن عبد العزيز عند سليمان منزلة

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام، 7 / 190 - 192.

وناحية وخاصة دون بني مروان فأراد سليمان أن يعلم علم عمر وحاله التي هو عليها فبعث إليه رجاء ابن حيوة ليأتي بخبره وطريقته وحاله في سيرته وطعمته للذي كان يحدث به بنفسه فقدم رجاء بن حيوة على عمر بن عبد العزيز فلم يأل عن إلفه وإكرامه وتقريبه وأقام عنده أياماً فكان كلما أصبح دخل على عمر بعد صلاة الصبح فيتحدثان لا يدخل عليهما أحد حتى يخرج رجاء من عنده قال: فبينما رجاء ذات يوم عنده وقد رأي رؤيا فأصبح وقد حفظها قال: فجعل يحدث نفسه وعمر يحدثه فأنكره عمر فقال: يا أبا المقدام إني لأنكر بعض حالك اليوم فما شأنك قال: إن الذي ترى وإنكارك إياي لرؤيا رأيته الليلة فأنا أعجب وأحدث بها نفسي فقال عمر: اقصصها رحمك الله فقال: نعم وإن لك فيها نصيباً رأيته الليلة كأن أبواب السماء فتحت فبينما أنا أرمقها إذ أقبل ملكان يهويان معهما سرير لم أر مثله حسناً حتى وضعاه بالمدينة ثم صعدا وأنا أنظر إليهما حتى دخلا أبواب السماء فلبثا ملياً ثم أقبلا ومعهما ثياب بيض لم أر مثلهما وشممت عبق مسك لم أشم مثله قط فمهداهما على ذلك السرير فدنوت منهما فقلت: ما هذه الثياب؟ قالوا: هذا السندس والإستبرق الذي ذكر في القرآن ثم صعدا فلبثا ملياً ثم أقبلا معهما برجل أدعج العينين ذي وفرة شديد سواد الشعر بعيد ما بين المنكبين مربوع الجسم عليه هيبة ووقار حتى أقعدها على ذلك السرير من فوق تلك الفرش فدنوت منها فقلت: من هذا الرجل فقالوا: هذا محمد صلى الله عليه وسلم قال: فهبطته هيبة شديدة وتأخرت ناكصاً على عقبي حتى كنت منه بمكان منظر ومسمع فبينما أنا كذلك إذ أتني برجل قد نهزه القتير ضرب الجسم حسن اللحم مشدودة يداه على عنقه حتى وقف بين يديه فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يثنى عليه فيما كان منفعاله في الإسلام ويقول: أنت صاحبني في الغار وأنت أبو بكر الصديق والأمر ههنا إلى غيري ولست أملك لك من الله شيئاً فلم يزل قائماً: بين يديه ثم أمر به فأطلق عنه وأجلس عند رأس السرير على الأرض ثم أتني

برجل حسن اللحم نهزه القتير مجموعة يداه إلى عنقه حتى وقف بين يديه فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يثنى عليه بفعاله في الإسلام ويقول أما إنك الفاروق الذي أعز الله عز وجل به الدين وأنت صاحب اليهودي والأمر ههنا إلى غيري ولست أملك لك من الله شيئاً فلم يزل قائماً بين يديه ملياً ثم أطلق عنه وأجلس مع أبي بكر فما زال كذلك يؤتى بخليفة خليفة حتى أفضى الأمر إليك فلما سمع عمر ذلك منه ارتاع فاستوى جالساً ثم قال: يا أبا المقدم فماذا صنع بي؟ قال: أتى بك مجموعة يداك إلى عنقك ثم وقفت بين يديه طويلاً ثم أمر بك فأطلق الغل ثم أجلس مع أبي بكر وعمر بن الخطاب فاشتد عجب عمر بن عبد العزيز لرؤيا رجاء بن حيوة ثم قال: يا أبا المقدم والله لولا ما أثق به من صحبتك وورعك وجدك واجتهادك ووفائك وصدقك لأنبأتك أنني لا ألي شيئاً من أمر الخلافة أبداً ولكني قد سمعت كلامك ورؤياك وما أخلق بي سوف أبتلى بأمر هذه الأمة فوالله لئن ابتليت بذلك وإنها شرف الدنيا لأطلبن بها شرف الآخرة.

وجوهاً كراماً ليست بوجوه إنس ولا جان:

قال رجاء بن حيوة: دخلت على عمر حين احتضر، فقال: يا رجاء إني أرى وجوهاً كراماً ليست بوجوه إنس ولا جان، وهو يقلب طرفه يميناً ويصعده ويحدده، ثم رفع يديه فقال: اللهم ربي، أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، فإن عفوت فقد مننت، وإن عذبت فما ظلمت، إلا أنني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك المصطفى، ورسولك المرتضى، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، فعليه السلام والرحمة. ثم قضى رحمه الله (1).

ما أحب الله من عفوك عنه:

طلب عبد الملك بن مروان رجلاً فأعجزه ثم ظفر به، فقال رجاء بن

(1) الزمخشري، ربيع الأبرار، 1 / 438، 469.

حيوة: ياأمير المؤمنين! قد صنع الله ما أحببت من ظفرك به، فاصنع ماأحبَّ الله من عفوك عنه (1).

مري السبع فليواسين الثامنة:

قال رجاء بن حيوة: رأيت امرأة تسأل عن دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فأرشدناها إلى الدار فرأت داراً متهشمة فقالت لخياط هناك: استأذن لي على فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز. فقال: ادخلي وصوتي لها فإنها تأذن لك. فدخلت فلما أبصرت ما هنالك قالت: جئت أرم فقري من بيت الفقراء وإذا رجل يعمل في الطين وهناك امرأة فسألتها عن أمير المؤمنين فقالت: هو ذاك يعمل في الطين. فقالت له: يا أمير المؤمنين، مات زوجي وترك لي ثماني بنات! فبكى عمر بكاء شديداً ثم قال لها: ما تريدين؟ قالت: تقرض لهن. فقال: نفرض للكبرى ما اسمها؟ قالت: فلانة. فكتبها فقالت: الحمد لله. قال: وما اسم الثانية؟ قالت: فلانة. فكتبها فقالت: الحمد لله حتى كتب السابعة، فقالت: جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين! فطرح القلم من يده وقال لها: لو أنك وليت الحمد أهله لأتممناهن لك مري السبع فليواسين الثامنة (2).

الخير سريع الذهاب:

وسأل عمر بن عبد العزيز رجاء بن حيوة عن حال رعيته مع العمال فقال: رأيت الظالم مقهوراً والمظلوم منصوراً والغني موفوراً والفقير مبروراً فقال: الحمد لله الذي وهب لي من العدل ما تطمئن إليه قلوب رعيتي وتعرض له متظلم في بعض الطرق فوقف له وأزال شكايته فقل له: هلا صرت حتى يستقر بك المنزل؟ فقال: الخير سريع الذهاب وخشيت أن أفوته بنفسي وإنما هي فرصة قدمت فيها العزم واستصحبته الحزم (3).

(1) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ص 80.

(2) الطرطوشي، سراج الملوك، 1 / 110.

(3) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ص 18.

أفضها يا أمير المؤمنين:

وقال سليمان عند موت ابن له لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة: إي لأجد في كبدي جمرة لا يطفئها إلا عبرة، فقال: عمرك اذكر الله يا أمير المؤمنين وعليك بالصبر. فنظر إلى رجاء بن حيوة كالمستريح إلى مشورته فقال رجاء: أفضها يا أمير المؤمنين فما بذاك من بأس، فقد دمت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنه إبراهيم وقال: العين تدمع، والقلب يوجع، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون. فأرسل سليمان عينه فبكى حتى قضى أرباً ثم أقبل عليهما وقال: لو لم أنزف هذه العبرة لا تصدعت كبدي، ثم لم يبك بعدها (1).

السخي لا تؤدبه التجارب:

عن محمد بن إدريس الشافعي أن رجاء بن حيوة عاتب ابن شهاب في الإسراف وكان يدان فقال: لا آمن أن يحبس هؤلاء القوم أيديهم عنك فتكون قد حملت على أمانيك؛ قال: فوعده أن يقتصد، فمر به بعد ذلك وقد وضع الطعام ونصب موائد العسل فوقف به رجاء فقال: يا أبا بكر هذا الذي افترقنا عليه؟! فقال له ابن شهاب: انزل فإن السخي لا تؤدبه التجارب (2).

من كلامه رحمه الله:

ويروى عن رجاء بن حيوة، قال: من لم يؤاخ إلا من لا عيب فيه قل صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بالإخلاص له دام سخطه، ومن عاتب إخوانه على كل ذنب كثر عدوه.

عن عبد الرحمن بن عبد الله أن رجاء بن حيوة الكندي قال لعدي ابن عدي ولمعن بن المنذر يوماً وهو يعظهما انظرا الأمر الذي تحبان أن تلقيا الله عليه فخذاه فيه الساعة وانظرا الأمر الذي تكرهان أن تلقيا الله عليه

(1) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 1 / 488.

(2) بلوغ الأرب بتقريب كتاب الشعب، 2 / 221.

عن رجاء قال: الحلم أرفع من العقل لأن الله تسمى به
عن رجاء بن حيوة قال: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا ترك الحسد
والفرح

عن رجاء بن حيوة قال: ما أحسن الإسلام يزينه الإيمان
عن رجاء بن حيوة قال: يقال ما أحسن الإسلام يزينه الإيمان وما
أحسن الإيمان يزينه التقى وما أحسن التقى يزينه العلم وما أحسن العلم
يزينه الحلم وما أحسن الحلم يزينه الرفق.

قال رجاء بن حيوة: إذا تزوج العبد صرخ إبليس صرخة يجمع إليه
جنوده، فيقولون: ما بك يا سيدنا؟ فيقول: عصم اليوم ابن آدم من فخ كنت
أصيده به (1).

* * *

(1) الزمخشري، ربيع الأبرار، 1 / 438، 469.

الفقيه مكحول الشامي

الفقيه مكحول الشامي

أعلام الفقهاء

الفقيه مكحول الشامي

في إحدى قري مدينة كابل بأفغانستان ولد الفقيه الزاهد التابعي الجليل أبو عبد الله مكحول بن عبد الله الشامي، ولم يطل به المقام في تلك البلد وأراد الله به خيراً فوق في سبي المسلمين الفاتحين بقيادة القائد سعيد بن العاص في أثناء فتح بلاد السند، ثم وهب هذا الطفل لامرأة من هذيل فأعتقته، فأقبل على تعلم الفقه والحديث، ونبغ فيهما، وسمع الحديث والفقه من أنس بن مالك ووائل بن الأسقع وأبا هند الداري وغيرهم، وكان مقامه بدمشق. وأسند عن جلة كبيرة من الصحابة وكبار التابعين منهم أنس ابن مالك ووائل بن الأسقع وأبو أمامة الباهلي وأبو هند الداري وروى عن أبي ثعلبة الخشني وحذيفة بن اليمان وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن عمرو بن العاص وأبي أيوب الأنصاري وأبي الدرداء وشداد بن أوس وأبي هريرة في آخرين (1).

وكان عالماً بالفقه ولم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا، وكان لا يفتي حتى يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هذا رأي والرأي يخطئ ويصيب.

وكان في لسانه عجمة ظاهرة، ويبدل بعض الحروف بغيره. وقد أثنى عليه كثير من العلماء والفقهاء فقال الزهري: العلماء أربعة، سعيد بن المسيب بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام (2).

(1) ترجمته في طبقات ابن سعد 7: 453 والمعارف: 452 وطبقات الشيرازي: 75 وحلية الأولياء 5: 177 والجرح والتعديل 4/1: 407 وتذكرة الحفاظ: 107 وميزان الاعتدال 4: 177 وتهذيب التهذيب 10: 289 وحسن المحاضرة 1: 119 والشذرات 1: 146.
(2) وفيات الأعيان، 5 / 282.

مواقف من حياته رحمه الله:

خير من البقاء مع من لا يؤمن شره:

حدث عبد ربه بن صالح قال: دخل على مكحول في مرضه الذي مات فيه فقيل له: أحسن الله عافيتك أبا عبد الله فقال: ألا لحاق بمن يرجى عفوهِ خير من البقاء مع من لا يؤمن شره شياطين الإنس وإبليس وجنوده.

ومن لا يحب الجنة!

عن ابن ثوبان أنه سمع أبا عبد ربه يقول لمكحول: يا أبا عبد الله أتحب الجنة؟ قال: ومن لا يحب الجنة! قال: فأحب الموت فإنك لن ترى الجنة حتى تموت.

فاطلب بما بطن من علم الإسلام محبة وزلفى:

عن سفیان قال: كتب ابن منبه إلى مكحول إنك امرؤ قد أصبت بما ظهر من علم الإسلام شرقاً فاطلب بما بطن من علم الإسلام محبة وزلفى.

أتراك مرابطاً العام؟!

عن مكحول أنه عاد حكيم بن حزام بن حكيم فقال: أتراك مرابطاً العام؟ قال: كيف تسألني عن هذا وأنا على ذي الحال؟! قال: وما عليك أن تنوي ذاك فإن شفاك الله مضيت لوجهك وإن حال بينك وبينه أجل كتب لك نيتك.

الوضوء بركة:

عن بركة الأزدي قال: وضأت محكولاً فأثيته بالمنديل فأبى أن يمسح به وجهه ومسح وجهه بطرف ثوبه فقال: الوضوء بركة وأنا أحب أن لا تعدو ثوبي.

عمن أخذت هذا؟!

عن مكحول قال: اجتمعت أنا والزهرى فتذاكرنا التيمم فقال الزهرى: المسح إلى الأباط فقلت: عن من أخذت هذا؟ قال: عن كتاب الله إن الله

تعالى يقول: {فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ} [المائدة: ٦] فهي يد كلها. قلت: فإن الله تعالى يقول: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا} [المائدة: ٣٨]، فمن أين تقطع اليد؟ قال: فخصمته.

الآن نعط ويسمع منا:

عن مكحول قال: أتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله قوله عز وجل: {عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة: ١٠٥]، قال: يا ابن أخي لم يأت تأويل هذه بعد إذا هاب الواعظ وأنكر الموعوظ فعليك حينئذ نفسك لا يضررك من ضل إذا اهتديت يا أخي الآن نعط ويسمع منا.

هذا إبليس يرجو رحمة الله:

عن مكحول قال: بينا امرأة من الحي يقال لها الفارعة بنت المستورد قائمة تتعبد إذا هي بإبليس ساجداً على صفاة تسيل دموعه على خديه كسريح الجنين فقالت له: يا إبليس ما يغني عنك طول السجود فقال: أيتها المرأة الصالحة بنت الشيخ الصالح أرجو إذا أبر بي قسمه أن يخرجني من النار قال أبو عمر الدروي: هذا إبليس يرجو رحمة الله فكيف نحن عبيد الله.

فحرمت البكاء سنة:

قال مكحول: رأيت رجلاً يصلي وكلما ركع وسجد بكى فاتهمته أنه يراني ببكائه فحرمت البكاء سنة.

يتعلم التواضع:

عن ابن جابر قال: أقبل يزيد بن عبد الملك بن مروان إلى مكحول وأصحابه فلما رأيناه هممنا بالتوسعة له فقال مكحول: مكانكم دعوه يجلس حيث أدرك يتعلم التواضع.

قال سعيد بن عبد العزيز: كنت جالساً عند مكحول فاستطال عليه رجل فقال مكحول ذل من لا سفيه له.

فتكون تلك النعمة رضا فأحاسبه عليها (1).

من كلامه رحمه الله:

عن مكحول قال: من لم ينفعه علمه ضره جهله. اقرأ القرآن ما نهاك فإذا لم ينهك فلست تقرأه.

عن مكحول قال: لا يؤخذ العلم إلا عن من شهد له بالطلب.

عن مكحول قال: لأن تضرب عنقي أحب إلي من أن ألى القضاء ولأن ألى القضاء أحب إلي من بيت المال.

عن مكحول قال: أرق الناس قلوباً أقلهم ذنباً.

قال مكحول: من أحب رجلاً صالحاً فإنما أحب الله ومن ذهب إلى علم يتعلمه فهو في طريق الجنة حتى يرجع.

عن مكحول قال: من أحيى ليلة في ذكر الله أصبح كيوم ولدته أمه.

عن مكحول قال: من قال استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت له ذنوبه ولو كان فاراً من الزحف.

عن مكحول قال عيان لا يمسهما العذاب عين بكت من خشية الله وعين باتت من وراء المسلمين.

عن مكحول قال: المؤمنون هينون لينون مثل الجمل الأنف إن قدته انقاد وإن أنخته على صخرة استناخ.

عن مكحول قال: إن كان الفضل في الجماعة فإن السلامة في العزلة.

قال مكحول: يقول لا يأتي على الناس ما يوعدون حتى يكون عالمهم فيهم أنتن من جيفة حمار.

عن مكحول قال: أفضل العبادة بعد الفرائض الجوع والظمأ قال بكر: وكان يقال الجائع الظمآن أفهم للموعظة وقلبه إلى الرقة أسرع وكان يقال

(1) حلية الأولياء، 5 / 184 - 188.

كثرة الطعام تدفع كثيراً من الخير.

عن مكحول قال: التقيا يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم عليهما السلام فضحك عيسى في وجه يحيى وصافحه فقال له يحيى: يا ابن خالتي مالي أراك ضاحكاً كأنك قد أمنت فقال له عيسى: يا ابن خالتي مالي أراك عابساً كأنك قد بيئت فأوحى الله عز وجل إليهما عليهما السلام إن أحبكما إلي أبشكما بصاحبه.

عن مكحول قال أربع من كن فيه كن له وثلاث من كن فيه كن عليه فأما الأربع اللاتي له فالشكر والإيمان والدعاء والاستغفار قال الله تعالى: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ} [النساء: ١٤٧] وقال: {وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: ٣٣] وقال: {مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ} [الفرقان: ٧٧] وأما الثلاث اللاتي عليه فالمكر والبغي والنكت قال الله تعالى: {فَمَنْ نَكَتْ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ} [الفتح: ١٠] وقال: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر: ٤٣] وقال: {إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ} [يونس: ٢٣].

عن مكحول في قوله تعالى: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ، وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب: ٥] قال: وضع عنهم الإثم في الخطأ ووضع المغفرة على العمد.

عن مكحول قال: كان من دعاء داود عليه السلام: “يا رازق الغراب في عشه” وذلك أن الغراب إذا فقس عن فراخه فقس عنها بيضاء فإذا رآها كذلك نفر عنها فتفتح أفواهها فيرسل الله عليها ذباباً يدخل أفواهها فيكون ذلك غذاء لها حتى تسود فإذا أسودت انقطع الذباب عنها فعاد الغراب إليها فغذاها.

عن مكحول قال: إذا كان في أمة خمسة عشر رجلاً يستغفرون الله كل يوم خمساً وعشرين مرة لم يؤاخذ الله تلك الأمة بعذاب العامة.

عن مكحول في قوله تعالى: {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ} [الانشقاق: ١٩] قال تكونون في كل عشرين سنة على حال لم تكونوا على مثلها.

عن مكحول قال: من طابت ريحة زاد في عقله ومن نظف ثوبه قل همه.

عن مكحول قال: لا تعاهدوا السفیه ولا المنافق فما نقضوا من عهد الله أكبر من عهدكم.

قال مكحول: بر الوالدين كفارة للكبائر ولا يزال الرجل قادراً على البر ما دام في فصيلته من هو أكبر منه (1).

أن الرجل يعمل في السر، فيطلبه الشيطان حتى يتحدث به، فيمحي من السر ويكتب في العلانية، ثم يطلبه الشيطان حتى يرأي به، فيمحي ويكتب عليه.

من ستر مخزاة على المؤمن ستره الله يوم القيامة.

كان مكحول إذا رأى جنازة قال: اغدوا فإننا رائحون.

من أوى إلى فراشه ثم لم يتفكر فيما صنع في يومه، فإن عمل خيراً حمد الله، وإن أذنب استغفر الله، كان كالتاجر الذي ينفق ولا يحسب حتى يفلس ولا يشعر (2).

روي عن مكحول أنه قال: من زار بيت المقدس شوقاً إليه، دخل الجنة وزاره جميع الأنبياء في الجنة وغبطوه بمنزلته من الله تعالى؛ وأيما رفقة خرجوا يريدون بيت المقدس، شيعهم آلاف من الملائكة: يستغفرون لهم ويصلون عليهم، ولهم مثل أعمالهم إذا انتهوا إلى بيت المقدس، ولهم بكل يرم يقيمون فيه صلاة سبعين ملگاً؛ ومن دخل بيت المقدس طاهراً من الكبائر، تلقاه الله بمائة رحمة إلا ولو قسمت على جميع الخلائق لوسعتهم؛ ومن صلى في بيت المقدس ركعتين يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وكان له بكل شعرة على جسده

(1) حلية الأولياء، 5 / 184 - 188.

(2) الزمخشري، ربيع الأبرار، ص 62، 121، 156، 432، 476.

حسنة؛ ومن صلى في بيت المقدس أربع ركعات، مر على الصراط كالبرق وأعطى أماناً من الفرع الأكبر يوم القيامة؛ ومن صلى في بيت المقدس ست ركعات، أعطى مائة دعوة مستجابة، أدناها براءة من النار، وجبت له الجنة؛ ومن صلى في بيت المقدس ثمان ركعات، كان رفيق إبراهيم خليل الرحمن؛ ومن صلى في بيت المقدس عشر ركعات، كان رفيق داود وسليمان في الجنة؛ ومن استغفر للمؤمنين والمؤمنات في بيت المقدس ثلاث مرات، كان له مثل حسناتهم، ودخل على كل مؤمن ومؤمنة من دعائه سبعون مغفرة، وغفر له ذنوبه كلها.

- عن مكحول رضي الله عنه أنه كان يدعو في الضالة: اللهم هادي وراود الضوال اردد علي ضالتي ولا تعنني بطلبها ولا تفجعني بمصيبتها فإنها من رزقك وعطائك.

وكان يقول في الأبق: اللهم ضيق عليه البلاد واجعله في أضيق من ضرورة الحمل حتى ترده (1).

قال مكحول: يهب على أهل النار ريح كريهة فيقولون يا ربنا ما وجدنا ريحا أنتن من هذا فيقال لهم هذا ريح الزناة.

قال مكحول: ذكر الله تعالى شفاء، وذكر الناس داء.

قال مكحول التابعي رضي الله عنه: إذا تصدق المؤمن استأذنت جهنم أن تسجد له شكراً على خلاص واحد منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من عذابها وقال صلى الله عليه وسلم: ♂ اتقوا النار ولو بشق تمره— (2).

قال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة

(1) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 307/1، 307/5.

(2) عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عثمان الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، تحقيق عبد الرحيم مارديني، نشر دار المحبة - دار آية - بيروت - دمشق - 2001 / 2002، 112/1، 243/2، 253.

من قلبه على لسانه.

قال مكحول: أرق الناس قلوباً أقلهم ذنباً.

قال مكحول: مَنْ نظف ثوبه قلَّ همُّه، ومن طابت ريحه زاد عقله،
ومن جمع بينهما زادت مروءته.

قال مكحول: تفقه الرعاع فساد الدين، وتفقه السفلة فساد الدنيا.

قال مكحول: من مات وعنده مغنية لم يُصلَّ عليه.

قال مكحول: قلت للحسن: إني أريد الخروج إلى مكة، قال: إياك أن
تصحب رجلاً يكرم عليك، فيفسد الذي بينك وبينه.

عن مكحول قال: إذا دعيتك أمك وأنت في الصلاة فأجب.

عن مكحول أنه كان يقول: إياك ورفيق السوء فإن الشر للشر خلق.

* * *

محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله عليه

محمد بن الحسن
الشيباني

أعلام الفقهاء

محمد بن الحسن الشيباني رحمة الله عليه

ولد في الشام ونشأ وتفقّه في الكوفة، لم يكن سبب شهرته درايته بالفقه فقط ولكن زاد عليها التفنن في دروب اللغة العربية، وأهّله علمه بالحديث والفقه وتفرد به علوم اللغة العربية لتولي القضاء للخليفة العباسي هارون الرشيد ونال لدية الحظوة والمكانة الكبرى. ويوم وفاته رثاه الخليفة هارون الرشيد بقوله: “اليوم مات الفقه واللغة“.

إنه الفقيه اللغوي القاضي أبو عبد الله “الشيباني من قرية تسمى حرسية من أعمال دمشق قدم أبوه العراق فولد محمد بواسطة سنة اثنتين وثلاثين ومائة ونشأ بالكوفة وسمع العلم من الإمام الأعظم أبي حنيفة والأوزاعي والإمام مالك والثوري ومسعر بن كدام وروى عنه الإمام الشافعي وغيره من العلماء الكرام والمشايخ العظام. ولعله اشتهر أيضاً بطول ملازمته للإمام مالك وأخذ الحديث عنه.

ولاه الرشيد القضاء حين خرج معه إلى خراسان ومات بالري سنة تسع وثمانين ومائة وهو ابن ثمان وخمسين سنة ومات الكسائي بعده بيومين. وحكي أنهما ماتا في يوم واحد فقال الرشيد: “دفن الفقه واللغة في الري“. وتشاءم به. وقيل في مرثيتهما.

تصرمت الدنيا فليس خلود :: لما قد نرى من بهجة ستيب
ألم تر شبابنا إذا ما ابتلوا البلى :: وأن الشباب الغص ليس يعود
سيأتيك ما أفنى القرون التي مضت :: فكن مستعداً للقاء عتيد
أسبلت على قاضي القضاة محمد :: وأذريت دمعي والفواد عميد
وأوجعني موت الكسائي بعده :: وكادت بي الأرض الفضاء تقيد

“وذكر“ السمعاني عن هشام بن عبد الله الذي توفي الإمام في بيته أنه لما حضرته الوفاة بكى فقيلاً في ذلك فقال: إذا أوقفني الله تعالى بين

يديــــــــــــــــــــه وقـــــــــــــــــــــال:

يا محمد ما أقدمك على الري أمجاهد في سبيلي أم ابتغاء مرضاتي ما أقول؟.

وقد أثني عليه العلماء والأئمة والفقهاء فعن الشافعي قال: جالسته عشر سنين وحملت من كلامه حملي جمل لو كان يكلمنا على قدر عقله ما فهمنا كلامه لكن كان يكلمنا على قدر عقولنا.

قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: قال لي محمد بن الحسن: (أقمت على مالك ثلاث سنين، وسمعت من لفظه سبعمئة حديث). قال ابن حجر: (وكان مالك لا يحدث من لفظه إلا نادراً). أقول: إنما كان مالك في يطلب من أحد تلامذته أن يقرأ عليه. فهذا النص يدل على شدة ملازمة محمد بن الحسن لمالك.

و قال الشافعي: (ما رأيت سميناً أخف روحاً من محمد بن الحسن، وما رأيت أفصح منه. كنت إذا رأيته يقرأ، كأن القرآن نزل بلغته. حمل جمل من العلم).

وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: (حملت عن محمد وقر
بغير كتباً). وقال الشافعي: (لو أشاء أن أقول أن القرآن نزل بلغة محمد بن
الحسن، لقأته، لفصاحته). وقال الشافعي: (ما رأيت أعقل من محمد بن
الحسن). وقال الشافعي: (ما ناظرت أحداً إلا تَمَعَّرَ وجهه، ما خلا محمد
بن الحسن). وهذا يدل على قوته في المناظرة.

قال الشافعي: لو أنصف الناس الفقهاء لعلموا أنهم لم يروا مثل محمد بن الحسن ما جالست فقيهاً قط أفقه منه ولا فتق لسانی بالفقه مثله لقد كان يحسن من الفقه وأسبابه شيئاً يعجز عنه الأكابر..

قال أبو عبيد: (ما رأيت أعلم بكتاب الله من محمد بن الحسن).
قال المعلمي في "التنكيل": (ومن تدبر مناظرات الشافعي لمحمد،

وجدها مناظرة الأكفاء، وعلم منها أن الشافعي كان حينئذ مجتهداً كاملاً، وأن محمداً كان - مع مكانته من الفقه والسن والمنزلة من الدولة وكثرة الأتباع - على غاية من الإنصاف في البحث والنظر. والإنصاف: أنه كان لتلك المناظرات أثرٌ في الرجلين، فاتفقا على مسائل رجع فيها الشافعي عما كان يتابع فيه مالكا، أو رجع محمد عما كان يتابع فيه أبا حنيفة).

والإمام الشافعي على كثرة ترحلاته ولقائه بأهل العلم واللغة لم يلق أفصح من محمد بن الحسن، فأبي منقبة وميزة بعد ذلك؟.

لقد كان الإمام محمد بن الحسن الشيباني من الأئمة المجتهدين والفقهاء الكبار ومن المحدثين.

وأثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية، ووصفه بأنه أعلم أصحاب أبي حنيفة بالحديث.

ولقد كان يتبع الدليل ويعظمه، وقد خالف أبا حنيفة في ثلثي مذهبه كما ذكر ذلك الإمام القاضي ابن أبي العز الحنفي شارح الطحاوية في كتابه القيم "الاتباع".

وما يُحكى من أنه كان جهمياً فمعاذ الله أن يكون كذلك؛ كيف وقد ذكره الإمام الطحاوي في مقدمته للعقيدة الطحاوية.

كتب الشافعي إلى محمد بن الحسن وقد طلب منه كتبه لينسخها فأخبرها عنه فكتب إليه:

قل لمن لم تر عين من رآه مثله :: ومن كأن من رآه قد رأى من قبله
العلم ينهى أهله أن يمنعوه أهله :: لعله يبذله لأهله لعله
قال: فأنفذ الكتب إليه من وقته (1).

مواقف من حياته رحمه الله:

(1) أخبار أبي حنيفة، 1 / 125.

فلا تباع السنة:

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: كنا مع محمد بن الحسن إذ أقبل الرشيد فقام الناس كلهم إلا محمد بن الحسن فإنه لم يقم وكان الحسن بن زياد ثقیل القلب على محمد بن الحسن فقام ودخل ودخل الناس من أصحاب الخليفة فأمهل الرشيد يسيراً ثم خرج الأذن فقام محمد بن الحسن ودخل وجزع أصحابه فأمهل ثم خرج طيب النفس مسروراً فقال: قال لي مالك لم تقم مع الناس قال: قلت كرهت أن أخرج عن الطبقة الذين جعلتني فيهم إنك أهلتني للعلم وكرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه وإن ابن عمك صلى الله عليه وسلم قال: ^١من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار— وإنما أراد بذلك العلماء فمن قام بحق الخدمة وإعزاز الملك فهو هيبة للعدو ومن قعد فلا تباع السنة التي منكم أخذت وهو دين لكم قال: صدقت يا محمد ثم سارني (1).

والله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع الموت علي:

بعث هارون الرشيد إلى محمد بن الحسن فأحضره مجلسه ثم بعث إلى الحسن بن زياد فأحضره وأحضر رجلاً من الطالبين وأحضر كتاب أمان فدفعه إلى محمد بن الحسن فقرأه وقال: ما تقول فيه قال: هذا أمان صحيح ورفع صوته وقال: يا أمير المؤمنين هذا أمان صحيح ودم هذا الرجل الذي كتب له الكتاب حرام فأمر بالكتاب فأخذ من يده ودفع إلى الحسن بن زياد فأخذه فقرأه وقال بصوت ضعيف هذا أمان فغضب هارون ودخل أبو البختري وهب بن وهب القاضي فمد يده فأخذ الكتاب ولم يؤمر بذلك فقرأه ثم أخرج سكيناً من خفه فقطعه نصفين ثم رمى به وقال: هذا كتاب مفسوخ وليس بأمان بل هو أمان فاسد أقتل هذا الرجل ودمه في عنقي فأخذ هارون دواة كانت بين يديه فضرب بها وجه محمد بن الحسن فشجه قال ابن سماعة وكنت حاضراً فخرج وخرجت على إثره وهو يبكي فلما صار إلى

(1) أخبار أبي حنيفة، 1 / 126.

منزله قلت: يا أبا عبد الله لم تبكي من شجة في سبيل الله؟ فقال: والله ما لها بكيت قال قلت: فأني تقصير كان منك قال: كان يجب علي أن أقول لأبي البختری من أين قلت؟ وأقيم عليه الحجة وأتکلم بالحق وإن قتلت ثم قال: وأي حجة لقاظ من قضاة المسلمين يكون في خفه سكين مثل هذه قال: وقال الطالبی يومئذ لهارون: يا هارون اتق الله تقول لفقيهي الأرض لما لم يريا في أمانك سفك الدماء وقال لك دع هذه النسمة تموت بأجلها وتنعم عليها وتقبل قول رجل مشهور أنه ادعى نسباً لم يقر أبوه الذي ادعاه به فأخرج أبو البختری يومئذ من نسبه الذي ادعاه ثم قال له: سل عنه مزبلي أهل المدينة الذين يزلون في الحمامات حتى يخبروك بعلامات في ظهره يصفونها للناس ومثل هذا لا يجوز أن يقول غير هذا والله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع الموت علي ولا أموت إلا بأجلي⁽¹⁾.

لا تسألوني حاجة من حوائج الدنيا:

يقول: قال محمد بن الحسن لأهله: لا تسألوني حاجة من حوائج الدنيا فتشغلوا قلبي خذوا ما تحتاجون إليه من وكيلي فإنه أقل لهمي وأفرغ لقلبي.

وانما كان أبوه طبالا بالمدينة:

قال أبو حازم: لما أشخصني الرشيد ليقلدني القضاء بالشام وردت مدينة السلام فلقيت أبا يوسف وهو الذي سماني وأشار بي فقلت له: من حقي عليك ولزومي لك وتصييري لك أستاذاً وإماماً أن تعفيني عن هذا الأمر فقال لي: أنا راكب معك إلى يحيى بن خالد فأكلمه فركب معي إلى يحيى بن خالد فلما دخلنا عليه زال له يحيى عن مصلاه فقعده معه عليه وقعدت بباب البيت فسمعتة يقول له: هذا محمد بن الحسن ومن حاله كذا ومن حاله كيت وكيت يصفني وذكر امتناعي عليه فقال له يحيى: ما تقول فيه؟ قال: أقول إنكم إن أعفيتموه لم تجدوا مثله فلما سمع يحيى كلامه لم

(1) أخبار أبي حنيفة، 1 / 127.

يلتفت إلى ما أقول وأمضى أمري فلما ورد الرشيد الرقة أحضرت فدخلت إليه أنا والحسن بن زياد اللؤلؤي وأبو البختری وهب بن وهب فأخرج إلينا الأمان الذي كتب ليحيى ابن عبد الله بن الحسن فدفع إلي فقرأته وقد علمت الأمر الذي أحضرنا له فمثلت بين أن أظهر شيئاً إن كان يتعلق به فيه فأوجده السبيل إلى قتل الرجل أو أترك الطعن عليه مع ما أعلم أنه ينالني من مودة الرشيد فأثرت أمر الله والدار الآخرة فقلت هذا أمان مؤكد لا حيلة في نقضه فانتزع الصك من يدي ودفع إلى اللؤلؤي فقرأه وقال كلمة ضعيفة لا أدري سمعت أو لم تسمع هذا أمان فانتزع من يده ودفع إلى أبي البختری فقرأه ثم قال ما أرجيه ولا أرضاه هذا رجل سوء قد شق العصا وسفك دماء المسلمين وفعل وفعل فلا أمان له ثم ضرب بيده إلى خفه وأنا أراه واستخرج سكيناً فشق الكتاب بنصفين ثم دفعه إلى الخادم ثم التفت إلى الرشيد فقال: اقتله ودمه في عنقي قال: فقمنا من المجلس وأتاني رسول الرشيد أن لا أفتي أحداً ولا أحكم فلم أزل على ذلك إلى أن أرادت أم جعفر أن تقف وفقاً فوجهت إلي في ذلك فعرفتها أنني قد نهيت عن الفتيا فكلمت الرشيد فأذن لي قال محمد بن الحسن: فكنت وكل من في دار الرشيد يتعجب من أبي البختری وهو حاكم وفتياه بما أفتى به وتقلده دم رجل من المسلمين ثم من حمله في خفه سكيناً قال: ولم يقتل الرشيد يحيى في ذلك الوقت وإنما مات في الحبس بعد مدة قال محمد بن سماعة في حديثه: ثم قرب الرشيد محمد بن الحسن بعد ذلك وتقدم عنده وولاه قضاء القضاة وحمله معه إلى الري فتوفى هو والكسائي بها في يوم واحد فقال الرشيد: دفنت الفقه والنحو بالري قال بكر العمى في حديثه: إن محمد بن الحسن لما أفتى بصحة الأمان وأفتى أبو البختری بنقضه وأطلق له دمه قال له يحيى: يا أمير المؤمنين يفتيك محمد بن الحسن وموضعه من الفقه موضعه بصحة أمانى وفتيك هذا بنقضه وما لهذا والفتيا وإنما كان أبوه طبالاً بالمدينة.

وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: أنا حاضر هذا كله من هارون ومحمد بن الحسن وزاد فيه فلما خرج محمد جعل يبكي حتى كثر بكاؤه فقلت له: يا أبا عبد الله أتبكي هذا البكاء من أجل هذه الشجة؟ وذلك أن الرشيد رماه بدواة فشجه وسالت الدماء على وجهه ووثابه وقال له: إنما يقوى عزم هذا وأمثاله في الخروج علينا أنت وأمثالك فقال: لا والله ما من أجلها أبكي ولكني أبكي لتقصيري قلت له: وأي تقصير كان منك وقد قمت مقاماً ليس لأحد على وجه الأرض أشرف منه فقال: قد كان ينبغي لما قال أبو البختری ما قال أن أقول له: من أين قلت ذلك؟ حتى أقيم عليه الحجة بفساد ما قاله (1).

بيني وبين النور ستر فارتفع عني:

قال محمد بن سماعة: كان عيسى بن أبان حسن الوجه وكان يصلي معنا وكنت أدعوه إلى أن يأتي محمد بن الحسن فيقول: هؤلاء قوم يخالفون الحديث وكان عيسى حسن الحفظ للحديث فصلى معنا يوماً الصبح فكان يوم مجلس محمد فلم أفارقه حتى جلس في المجلس فلما فرغ محمد أدنيته إليه وقلت له هذا ابن أخيك أبان بن صدقة الكاتب ومعه ذكاء ومعرفة بالحديث وأنا أدعوه إليك فيأبى ويقول: إنا نخالف الحديث فأقبل عليه وقال له: يا بني ما الذي رأيتنا نخالفه من الحديث لا تشهد علينا حتى نسمع منا فسأله يومئذ عن خمسة وعشرين باباً من الحديث فجعل محمد بن الحسن يجيبه عنها ويخبره بما فيها من المنسوخ ويأتي بالشواهد والدلائل فالتفت إلي بعدما خرجنا فقال: كان بيني وبين النور ستر فارتفع عني ما ظننت أن في ملك الله مثل هذا الرجل يظهره للناس ولزم محمد بن الحسن لزوماً شديداً حتى تفقه.

قال ذاك في أعلى عليين:

(1) أخبار أبي حنيفة، 1 / 128.

قال محمد بن أبي رجاء القاضي: سمعت أبي قال: رأيت محمد بن الحسن في المنام فقلت: ما صنع بك ربك؟ قال: أدخلني الجنة وقال لي: لم أصيرك وعاءاً للعمل وأنا أريد أن أعذبك قال: قلت فأبو يوسف قال: ذاك فوقي أو فوقنا بدرجة قال: قلت فأبو حنيفة قال: ذاك في أعلى عليين (1).

* * *

(1) أخبار أبي حنيفة، 1 / 125.

داود الطائي

داود الطائي

أعلام الفقهاء

داود الطائي

إنه من لو وزن بأهل الارض لوزنهم فضلاً وصلاً، من لم يكن في حلقة أبي حنيفة أرفع صوتاً منه، من قال عنه معاصروه لو كان في الصحابة لبرز عليهم ولو كان في الأمم الماضية لقص الله علينا من خبره.

إنه الإمام الرباني داود بن نصير الطائي أبو سليمان أصله من خراسان وانتقل إلى الكوفة ونشأ بها سمع عبد الملك بن عمير وحبيب بن أبي عمرة وسليمان الأعمش ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى؛ روى عنه إسماعيل ابن عيينة ومصعب بن المقدم وأبو نعيم الفضل بن دكين وغيرهم؛ وكان داود ممن شغل نفسه بالعلم ودرس الفقه وغيره من العلوم ثم اختار بعد ذلك العزلة وأثر الانفراد والخلوة فلزم العبادة واجتهد فيها إلى آخر عمره، وقدم بغداد في أيام المهدي ثم عاد إلى الكوفة وفيها كانت وفاته سنة 165 هـ.

وكان بدء توبته أنه دخل المقبرة، فسمع امرأة عند قبر تقول:

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه :: لقاءك لا يرجى وأنت قريب

نريد تلاقى كل يوم وليلة :: وتبلى كما تبلى وأنت حبيب

وقيل: سبب زهده أنه سمع نائحة تندب وتقول:

بأي خديك تبدى البلى :: وأي عينيك إذا سالا؟⁽¹⁾

ولما مات جاء الفقيه ابن السماك ووقف على قبره ثم قال:

أيها الناس إن أهل الزهد في الدنيا تعجلوا الراحة على أبدانهم مع يسير الحساب غداً عليهم، وإن أهل الرغبة فيها تعجلوا التعب على أبدانهم مع ثقل الحساب غداً عليهم، والزهادة راحة لصاحبها في الدنيا والآخرة،

(1) أخبار أبي حنيفة، 123.

والرغبة تعب لصاحبها في الدنيا والآخرة؛ رحمك الله أبا سليمان ما كان أعجب شأنك، ألزمت نفسك الصبر حتى قومتها: أجمعتها وإنما تريد شبعها، وأظلماتها وإنما تريد ريهها، أخشنت المطعم وإنما تريد طيبه، أخشنت الملابس وإنما تريد لينه؛ أبا سليمان: أما كنت تشتهي من الطعام طيبه، ومن الماء بارده، ومن اللباس لينه بلى ولكن أخرت ذلك لما بين يديك، فما أراك إلا قد ظفرت بما طلبت وما إليه رغبت، فما أيسر ما ضيعت، وأحقر ما فعلت في جنب ما أملت، فمن سعى مثلك عزم وعزمك وصبر صبرك، أنس ما يكون إذا كنت بالله خالياً وأوحش ما يكون أنس ما يكون الناس. سمعت الحديث وتركك الناس يحدثون وتفهمت في دين الله وتركهم يفتنون. لا تقبل من السلطان عطية، ولا من الإخوان هدية، سجنك نفسك في بيتك فلا محدث لك، ولا ستر على بابك، فلو رأيت جنازتك وكثرة تابعك علمت أنه قد شرفك وأكرمك وألبسك رداء عملك، فلو لم يرغب عبد في الزهد في الدنيا إلا لمحبة هذا الستر الجميل والتابع الكثير لكان حقيقاً بالاجتهاد، فسبحان من لا يضيع مطيعاً ولا ينسى لأحد صنيعاً.

وقيل: إن ابن السماك لما قام على قبر داود قال: رحمك الله يا داود! كنت تسهر ليلك والناس نائمون، وكنت تربح إذ الناس يخسرون، فقال الناس جميعاً: صدقت؛ وكنت تسلم إذ الناس يخوضون، فقال الناس جميعاً: صدقت؛ حتى عدد فضائله كلها. ولما فرغ قام أبو بكر النهشلي فحمد الله ثم قال: يا رب إن الناس قد قالوا: ما عندهم مبلغ ما علموا، اللهم فاغفر له برحمتك ولا تكله إلى عمله، وفرغ من دفنه وقام الناس (1).

وقيل: إنه صام أربعين سنة ما علم به أحد من أهله، فكان يحمل غذاءه

(1) ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 34، أخبار أبي حنيفة، 123، عبد القادر بن أبي الوفاء محمد ابن أبي الوفاء القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، 1 / 540، تاريخ بغداد، 8: 347، طبقات الشيرازي، ص 40، تهذيب التهذيب، 3: 203، حلية الأولياء 7: 335؛ وفيات الأعيان، 2 / 260.

معه ويتصدق به في الطريق ويرجع إلى أهله يفطر عشاء، ولا يعلمون أنه صائم.

وقال له رجل: ألا تسرح لحيتك قال: إني عنها مشغول.
وقالت أخته: لو تنحيت عن الشمس، فقال: هذه خطي لا أدري كيف تكتب.

مواقف من حياته رحمه الله:

لا ذاق داود تمرًا ما دام في الدنيا:

قال الوليد بن عقبة: كان يخبز لداود الطائي ستون رغيفًا فيعلقها بشريط ويفطر كل ليلة على رغيفين وملح وماء فأثى ليلة بفطره فجعل ينظر إليه ومولاة له تنظر إليه فقامت فجاءته بشيء من تمر فأفطر ثم قام فصلى حتى أصبح ثم أصبح صائمًا فلما جاء وقت الإفطار أخذ الرغيفين وجعل ينظر إليهما قال الوليد بن عقبة فحدثني جار له قال: سمعته يعاتب نفسه ويقول اشتهيت البارحة تمرًا قد أطعمتك واشتهيت الليلة تمرًا لا ذاق داود تمرًا ما دام في الدنيا فما ذاقه حتى مات.

فكان في اعتزالي أكثر العافية:

قال القاسم بن معن: لما اعتزل داود الطائي أتيته فقلت: يا أبا سليمان تركت أخوانك ومجالسة من يذكرك العلم فسكت طويلاً ثم قال: رحمك الله إني رأيت قلوباً لاهية وألسنة مؤتلفة وهمماً مختلفة وأهواء متبعة ودنيا مؤثرة فكان في اعتزالي أكثر العافية.

لقد هان الخلق على داود:

عن حبان بن علي قال: احتاج الحسن بن قحطبة أن يسأل داود الطائي عن مسألة فهابه أن يأتيه وحده فقال لرجل من وجوه طيء وشيوخها: إني احتجت إلى لقاء داود فكن معي فأتياه فدخلنا وسلمنا عليه ورد السلام عليهما فلما عرف ابن قحطبة تقبض وجعل لا ينظر إليهما فابتدأ الحسن

فسأله عن المسألة فلم يجبه ولم يكلمه فأعاد عليه فأعرض بوجهه عنه فلما رأى ذلك ابن قحطبة خرج وتوقف الشيخ عنده فقال له: يا أبا سليمان يجيئك ابن عم لك يسألك من مسألة من أمر دينه فلا تحببه فنظر إليه نظرة منكرة ثم قال { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ } [المؤمنون: ١٠١] فقام الشيخ مبادراً فأصاب ابن قحطبة ينتظره فأخبره فقال ابن قحطبة لقد هان الخلق على داود طوبى له ثم ذهب.

وهي تريد الجنة غداً:

ويروى أنه خرج يوماً إلى السوق، فرأى الرطب، فاشتتهه نفسه، فجاء إلى البائع فقال: “ أعطني بدرهم إلى الغد “. فقال له: “ اذهب إلى عمك “ فرآه بعض من يعرفه، فأخرج له صرة فيها مائة درهم، وقال له: “ اذهب فإن أخذ منك بدرهم رطباً فالمائة لك “. فلحقه البائع، وقال له: “ ارجع خذ حاجتك “ فقال: لا حاجة لي فيه. أنا جربت هذه النفس، فلم أرها تسوى في هذه الدنيا درهماً، وهي تريد الجنة غداً “.

كان لنا عند الله مذخوراً:

عن حماد بن أبي حنيفة أن مولاة لداود الطائي كانت تخدمه فقالت له: لو صنعت لك دسماً قال: وددت فطبخت له شحماً وجاءت به فقال لها: ما فعل أيتام بني فلان قالت: على حالهم قال: اذهبي به إليهم قالت: فديتك إنك لم تأكل أدمًا منذ كذا وكذا قال: إن هذا إذا أكلوه كان لنا عند الله مذخوراً وإذا أكلته كان في الحش (1).

أقل من إتياني:

قال نعيم بن يعقوب: سمعت سفیان بن عيينة يقول كنت ربما أتيت داود الطائي فإذا أتيته تبينت ثقل موضعي عليه وأراه يتململ فقال لي يوماً:

(1) أخبار أبي حنيفة، 1 / 121.

يا سفيان أما لك شغل يا سفيان أقل من إتياني (1).

ولما شبت صرت مرثياً:

ودخل عليه رجل، فقال له: “ما حاجتك؟”، قال: “زيارتك” فقال: “أما أنت فقد فعلت خيراً حين زرت، ولكن انظر ما ينزل بي أنا، إذا قال لي: من أنت لتزار؟ من الزهاد؟ والله. أنت من العباد؟ لا والله. أنت من الصالحين؟ لا والله.” ثم أقبل يوبخ نفسه “كنت في الشبيبة فاسقاً، ولما شبت صرت مرثياً.”

وأنا أستحي من الله:

ودخل عليه بعض أصحابه، فرأى جرة ماء، قد انبسطت عليها الشمس، فقال له: “ألا تحملها إلى الظل؟” فقال: “حين وضعتها لم يكن شمس، وأنا أستحي من الله أن يراني أمشي لما فيه حظ نفسي.”

ادعه حتى أشتهيه:

ودخل عليه رجل، فوجده يأكل ملحاً جريشاً بخبز يابس، فقال له: “كيف يشتهي هذا؟” قال: “ادعه حتى أشتهيه” (2).

تلك ضالة لا توجد:

وأتاه الفضيل بن عياض يعوده فقال له: أقلل من زيارتنا فإني خليت الناس فجاءه يوماً ولم يفتح له الباب فقعد فضيل يبكي في الخارج وداود في الداخل فقال له: دلني على رجل أجلس إليه قال: تلك ضالة لا توجد (3).

كنت أخاصم نفسي:

(1) أخبار أبي حنيفة، 123.

(2) ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 34.

(3) عبد القادر بن أبي الوفاء محمد بن أبي الوفاء القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية،

وقال إسماعيل بن حسان: جئت إلى باب داود الطائي فسمعتة يخاطب نفسه فظننت أن عنده أحداً، فأطلت القيام على الباب ثم استأذنت فدخلت، فقال: ما بدا لك في الاستئذان قلت: سمعتك تتكلم فظننت أن عندك أحداً، قال: لا ولكن كنت أخاصم نفسي؛ اشتهدت البارحة تمرأ فخرجت فاشتريت لها، فلما جئت اشتهدت جزراً، فأعطيت الله عهداً أن لا أكل تمرأ ولا جزراً حتى ألقاه.

إن في قبولهما عتق رقبانا من الرق:

وقدم محمد بن قحطبة الكوفة فقال: أحتاج إلى مؤدب يؤدب أولادي حافظ لكتاب الله تعالى عالم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالأثار والفقه والنحو والشعر وأيام الناس؛ فقل له: ما يجمع هذه إلا داود الطائي، فسير إليه بدرة عشرة آلاف درهم، وقال: استعن بها على دهرك، فردها فوجه إليه بدرتين مع غلامين مملوكين وقال لهما: إن قبل البدرتين فأنتما حران، فمضيا بهما إليه فأبى أن يقبلهما، فقالا: إن في قبولهما عتق رقبانا من الرق، فقال لهما: إني أخاف أن يكون في قبولهما وهق رقبتني في النار، رداهما إليه وقولا له: إن ردهما على أخذهما منه أولى من أن يعطيني أنا.

فما أبقيت لأخرتي:

قال أبو الربيع الأعرج: دخلت على داود الطائي بيته بعد المغرب فقرب لي كسيرات يابسة، فعطشت فقممت إلى دن فيه ماء حار، فقلت: رحمك الله! لو اتخذت دفاً غير هذا يكون فيه الماء بارداً، فقال لي: إذا كنت لا أشرب إلا بارداً ولا أكل إلا طيباً ولا ألبس إلا ليناً، فما أبقيت لأخرتي قال: قلت له: أوصني، قال: صم عن الدنيا، واجعل إفطارك فيها الموت، وفر من الناس فرارك من السبع، وصاحب أهل التقوى إن صحبت فإنهم أخف مؤونة وأحسن معونة، ولا تدع الجماعة، حسبك هذا إن عملت به.

فأني أحب أن أرزق وقتاً من الليل:

وقال داود الطائي: ما حسدت أحداً على شيء إلا أن يكون رجلاً يقوم الليل؛ فإني أحب أن أرزق وقتاً من الليل. قال أبو خالد: وبلغني أنه كان لا ينام الليل، إذا غلبته عيناه احتبى قاعداً؛ ومكث عشرين سنة لا يرفع رأسه إلى السماء.

إنما يفعل هذا بالصبيان:

وقدم هارون الرشيد الكوفة فكتب قوماً من القراء فأمر لكل واحد منهم بألفي درهم فكان داود الطائي ممن كتب فيهم ودعي باسمه أين داود الطائي فقالوا: داود يجيبكم أرسلوا إليه، قال ابن السماك وحماد بن أبي حنيفة: نحن نذهب إليه، قال ابن السماك لحماد في الطريق: إذا نحن دخلنا عليه فأنثرها بين يديه فإن للعين حظها، فقال حماد: رجل ليس عنده شيء يؤمر له بألفي درهم يردها!! فلما دخلوا عليه فنثروها بين يديه قال: سوءة، إنما يفعل هذا بالصبيان، وأبى أن يقبلها (1).

رأيت خيرها كثيراً:

قال جعفر بن نفيل الرهبي: رأيت داود الطائي بعد موته فقلت له: كيف رأيت خير الآخرة قال: رأيت خيرها كثيراً، قلت: فماذا صرت إليه قال: صرت إلى خير الحمد لله، قال فقلت له: هل لك من علم بسفيان بن سعيد فقال: كان يحب الخير وأهله فرقاه الخير إلى درجة أهل الخير.

هذا إن قبلك:

لقي رجلاً داود الطائي فقال: من أين يا داود وإلى أين؟ قال داود: استوحشت من الناس وأنست بالله تعالى، فقال: يا داود، هذا إن قبلك، فصاح صيحة وخر مغشياً عليه ثم أفاق فقال: نبّهك الله إذ نبّهتني (2).

ولكن أحب أن أعيش في عز القناعة:

(1) وفيات الأعيان، 2 / 262.

(2) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والنخائر، 30/3، 46/8.

أصابته داود الطائى ضيقة شديدة، فجاءه حماد بن أبى حنيفة بأربعمائة درهم من تركة أبيه، فقال داود: هي من مال رجل ما أقدم عليه أحداً في زهده وورعه وطيب كسبه، ولو كنت قابلاً من أحد شيئاً لقبلتها إعظاماً للميت وإيجاباً للحى، ولكن أحب أن أعيش في عز القناعة (1).

ثم صاروا يراؤون بما لا يقولون ولا يفعلون:

قال ثابت البناني: دخلت على داود الطائى فقال لي: ما حاجتك؟ قلت: زيارتك قال: ومن أنا حتى أزار؟ ليس من العباد أنا لا والله ولا من الزهاد أنا لا والله ثم ضرب بيده على لحيته وأقبل على نفسه يوبخها وقال: كنت في زمن الشباب فاسقاً ثم تبت فصرت مرئياً والله إن المرأى لشر من الفاسق ويقال: كان الناس يراؤون بما يفعلون لا بما يقولون فصاروا يراؤون بما يقولون ولا يفعلون ثم صاروا يراؤون بما لا يقولون ولا يفعلون (2).

أردت أن تخذعني؟!

وقال عطاء بن مسلم الحلبي: عاش داود عشرين سنة بثلاثمائة درهم ينفقها على نفسه، فأتاه ابن أخيه فقال: عم تكره التجارة؟ قال: لا، قال: فأعطني شيئاً أتعبر به، قال: فأعطاه ستين درهماً وقال: فمكث شهراً ثم جاءه بعشرين ومائة درهم فقال: هذه ربحها، فقال: أنت كل شهر تربح للدرهم درهماً؟ ينبغي أن يكون عندك بيت مال، أردت أن تخذعني؟ قال: فرمى بها عليه وقال: رد علي رأس مالي.

إنما طلقت نفسي من هذه الشهوات:

ودخل رجل على داود الطائى فقال: يا أبا سليمان بعت كل شيء حتى التراب، وبقيت تحت نصف سقف، فلو سويت هذا السقف فكان يذكرك من

(1) الزمخشري، ربيع الأبرار، 1 / 3، 124، 132، 185، 305، 487، 489.

(2) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، 1 / 23.

الحر والبرد والمطر، فقال داود: اللهم غفرأ، كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام، يا عبد الله، اخرج عني، فقد شغلت قلبي، إني أبادر جفوف القلم وطي الصحيفة. قال: يا أبا سليمان، أنا عطشان، قال: اخرج واشرب، فجعل يدور في الدار لا يجد ماء، فرجع إليه فقال: يا أبا سليمان ليس في الدار حب ولا جرة، فقال: اللهم غفرأ، بل هناك ماء، فخرج يلتمس فإذا دن من هذه الأصص الذي ينقل فيه الطين وخزفة أسفل كوز فأخذ تلك الخزفة فغرف بها فإذا ماء حار كأنه قد غلي لم يقدر أن يسيغه، فرجع إليه وقال: يا أبا سليمان: مثل هذا الحر؟ الناس يكادون ينسلخون من شدة الحر، وذن مدفون في الأرض وكوز مكسور فلو كانت جريرة وقلة؟ فقال داود: حب حيري وجرة مذارية وقلال منقشة، وجارية حسناء وأثاث وناض - يعني بالناض الدنانير والدراهم 0 وفضول، لو أردت هذا الذي يشغل القلب لم أسجن نفسي ها هنا، إنما طلقت نفسي من هذه الشهوات، وسجنت نفسي حتى يخرجني مولاي من سجن الدنيا إلى روح الآخرة. فقال: يا أبا سليمان ففي هذا الحر أين تنام وليس لك سطح؟ قال إني أستحي من مولاي أن يراني أخطو خطوة ألتمس راحة نفسي في الدنيا حتى يكون مولاي هو الذي يخرجني من الدنيا (1).

اغتبت رجلاً في هذا الموضع:

مر داود الطائي رحمه الله تعالى يوماً بموضع فوق مغشياً عليه فحمل إلى منزله فلما أفاق سئل عن ذلك فقال: ذكرت أنني اغتبت رجلاً في هذا الموضع فذكرت مطالبته لي بين يدي الله تعالى (2).

ما شعرت بذلك!! :

وقال إسحاق بن خلف: كان داود الطائي - رحمه الله تعالى - على سطح في ليلة قمراء فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى

(1) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 1 / 43.

(2) الصفوري، زهرة المجالس ومنتخب النفائس، 1 / 77، 167.

السماء ويكي حتى وقع في دار جار له، قال: فوثب صاحب الدار من فراشه عرياناً وببده سيف وظن أنه لص، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف، وقال: من ذا الذي طرحك من السطح، قال: ما شعرت بذلك!!.

لعل تركه أن يكون أنجى:

وجاء داود الطائي أحد أصحابه بألفي درهم وقال: هذا شيء جاء الله به لم تطلبه ولم تشره له نفسك. قال داود: إنه لمن أمثل ما يأخذون قال: فما يمنعك منه قال: لعل تركه أن يكون أنجى (1).

ما يوقضك هنا!:

وعن عبد الأعلى بن زياد الأسلمي قال: (رأيت داود الطائي يوماً قائماً على شاطئ الفرات مبهوثاً؛ فقلت: يا أبا سليمان، ما يوقضك هنا؟ قال: انظر إلى الفلك، كيف تجري في البحر مسخرات بأمر الله تعالى؟) (2).

من كلامه رحمه الله:

قال محمد بن عبد العزيز التيمي: قلت لداود الطائي يا أبا سليمان بما أقوى على نفسي قال: بقذعها عما تحب وإخراجها عما لا يعنيه وبفعلها ما لا بد لها منه قلت: يا أبا سليمان فكيف السبيل إلى ذلك قال: بقطعها عن رؤية العالم فهو أول باب تقوى به على ذلك فإذا فقدت رؤيتهم خلت من همومهم قلت: يا أبا سليمان إنها تطالبني بهم كثيراً قال: يا أبا محمد اقذعها اقذعها وإلا أوردتك المهالك (3).

عن داود الطائي قال: ما أخرج الله تعالى عبداً من ذل المعاصي إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال وأعزه بلا عشيرة وأنسه بلا أنيس.

عن بكر بن محمد العابد قال: قال لي داود الطائي فر من الناس كما

(1) بلوغ الأرب بتقريب كتاب الشعب، 1/ 367، 388، 2 / 175.

(2) عبد الله بن محمد أبو بكر القرشي، الهم والحزن، تحقيق: مجدي فتحي السيد، الناشر: دار السلام - القاهرة، الطبعة الأولى، 1412 - 1991، ص 91.

(3) أخبار أبي حنيفة، 1 / 121.

تقر من الأسد.

اترك الدنيا قبل أن تترك واعتر فيها قبل أن يعتبر بك واحمد أيامها
قبل أن تدمك وأعمرها بعمارة آخرتك وخربها بصلاح دينك وتزود منها
ليوم وفاتك.

وكان من دعاء داود الطائي: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا واكفنا
من سعي علينا ولا تشمت بنا عدونا اكفنا كل هول بين أيدينا حتى تبلغنا
من رحمتك ما أنت أهله آمين آمين ثلاثا.

قال الوليد بن عقبة: سمعت داود الطائي يقول: كم من مسرور بأمر فيه
هلكته وكم من كاره لأمر فيه صلاح دينه ودنياه غيبت عنا الخيرة فليس إلا
التسليم والرضا والاستكانة والتضرع (1).

وقال عبد الله بن إدريس قلت لداود: "أوصني" فقال: "أقلل من
معرفة الناس". قلت: "زدني"، قال: "ارض باليسير من الدنيا، عن
سلامة الدين، كما رضى أهل الدنيا بالدنيا، مع فساد الدين". قلت: "زدني"
، قال: "اجعل الدنيا كيوم صمته، ثم أفطر على الموت".
" لا عبادة لمن لا مروءة له ".

ما أخرج الله عبداً من ذل المعاصي إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال،
وأعزه بلا عشيرة، وأنسه بلا بشر ".

من رضى بالدنيا كلها عوضاً عن الآخرة " (2).

العلم العمل فإذا فني العمر في الآلة متى تعمل.

وقال له الحارث بن إدريس عظمي: قال: عسكر الموتى ينتظرونك (3).

(1) أخبار أبي حنيفة، 123.

(2) ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 34.

(3) عبد القادر بن أبي الوفاء محمد بن أبي الوفاء القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية،

قال داود الطائي: يا بن آدم ارتحلك الحرص فأنساك أجلك، ونصب لك أملك ورب حريص محروم، وواجد مذموم.

قال داود الطائي: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله قصر عمله (1).

قال داود الطائي: إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة بعد مرحلة، حتى تنتهي بهم إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب، والأمر أعجل من ذاك، وكأنك قد بغتك. وعنه: لا تمهر الدنيا دينك، فإن من أمهر الدنيا دينه زفت إليه الندم. وسأله رجل أراد أن يتعلم الرمي، فقال: إنَّ الرمي حسن، ولكنها أيامك فانظر بم تقطعها.

كلم فضيل داود الطائي في عزله فقال: أن كان لك بدينك حاجة ففر من الناس فرارك من الأسد، ولقد جالستهم، اللهم غفراً، فأما صغيرهم فلا يوقرك، وأما كبيرهم فيحصى عليك عيوبك.

قال داود الطائي: ما أخرج الله عبداً من ذل المعاصي إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وأنسه بلا أنيس.

قال: وكان داود الطائي يقول: اللهم خلص خلص، ويقول: إنما يسأل السلامة من لم يقع، أما من فإنما يسأل الخلاص.

قال داود الطائي: رأيت المحارب إذا أراد أن يلقي الحرب؟ أليس يجمع آله؟ فإذا أفنى عمره في جمع الآلة فمتى يحارب؟ إن العلم آلة العمل، وإذا أفنى عمره في جمعه فمتى يعمل؟ كان إبراهيم بن أدهم يستقي ويرعى، ويعمل بكراء، ويحفظ البساتين للناس والمزارع، ويحصد بالنهار، ويصلي بالليل (2).

(1) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ص 29، 247.

(2) الزمخشري، ربيع الأبرار، 1 / 3، 124، 132، 185، 305، 487، 489.

قال داود: اليأس سبيل أعمالنا هذه، ولكن القلوب تحن إلى الرجاء (1).

قال داود الطائي: يا بن آدم، فرحت ببلوغ أملك، وإنما بلغته بانقضاء أجلك، ثم سوفت بعملك، كأن منفعتة لغيرك (2).

وذكر داود الطائي عند بعض الأمراء؛ فأتوا عليه فقال: (لو يعلم الناس بعض ما نحن فيه ما ذل لنا لسان بذكر خير أبدا).

قال داود الطائي: رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية وكفاك به خيراً وإن لم تنصب؛ أي حتى وإن لم تتعب فإن ما حصلتته من اجتماع قلبك لله وقوة إرادة رضاه ومثوبته وكثرة الحرص على طاعته وشدة الرغبة فيها: أمر عظيم جداً؛ قال الفضيل: إنما يريد الله عز وجل منك نيتك وإرادتك.

وقال داود الطائي أيضاً: البر همة التقى، ولو تعلقت جميع جوارحه بحب الدنيا لردته يوماً نيته إلى أصلها.

قال داود الطائي: إن للخوف حركات تعرف في الخائفين ومقامات تعرف في المحبين وإزعاجات تعرف في المشتاقين وأين أولئك؟! أولئك هم الفائزون.

عن داود الطائي قال: أبت الدنيا أن تجري إلا بالاختلاط (3).

قالت أم سعيد بن علقمة النخعي وكانت أمه طائية: كان بيننا وبين داود الطائي جدار قصير فكنت أسمع حسه عامة الليل لا يهدأ

قالت: وربما سمعته يقول في جوف الليل: اللهم همك عطل علي الهموم وحالف بيني وبين السهاد وشوقي إلى النظر إليك أوشق من وحال بيني وبينك اللذات فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب.

(1) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 1 / 43.

(2) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 5 / 244.

(3) بلوغ الأرب بتقريب كتاب الشعب، 1 / 367، 388، 2 / 175.

قالت: وربما ترنم في السحر بالشيء في القرآن فأرى أن جميع نعيم الدنيا جمع في ترنمه. وقالت: وكان يطوف في الدار وحده وكأنه لا يصبح فيها (1).

* * *

(1) عبد الله بن محمد أبو بكر القرشي، الهم والحزن، تحقيق: مجدي فتحي السيد، الناشر: دار السلام - القاهرة، الطبعة الأولى، 1412 - 1991، ص 91.

سيد الفقهاء البويطي

سيد الفقهاء البويطي

أعلام الفقهاء

سيد الفقهاء البويطي

الإمام العلامة سيد الفقهاء الزاهد، الذي طلب الشهادة ونالها، طلبوه أن يجيبهم إلى القول بخلق القرآن فأبى، قيدوه بالحديد في يديه ورجليه وأوثقوه بالأغلال في عنقه فما زاده إلا ثباتاً على الحق، ضربوه وعذبوه فما أراح لهم بالاً ولا أجاب لهم سؤالاً. قال له والي مصر: ارفق بنفسك وأجبني بالموافقة فيما بيني وبينك ولا أعلم أحداً بذلك فأبى وقال: “ لا يقتدي بي أحد في باطل “ وقام مقام الصديقين فحملوه في الأغلال إلى العراق فحبس وعذب وقال قولته الشهيرة: “ لأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم “.

كان إماماً جليلاً عابداً زاهداً فقيهاً عظيماً مناظراً جبلاً من جبال العلم والدين غالب أوقاته الذكر والتشاغل بالعلم غالب ليله التهجد والتلاوة سريع الدمعة

تفقه على الشافعي واختص بصحبته.

وله من المؤلفات المختصر المشهور والذي اختصره من كلام الشافعي رضى الله عنه، وكان الشافعي رضى الله عنه يعتمد علي البويطي في الفتيا ويحيل عليه إذا جاءته مسألة واستخلفه على أصحابه بعد موته فتخرجت على يديه أئمة تفرقوا في البلاد ونشروا علم الشافعي في الآفاق وكان من الشافعي بمكان مكين.

وكانت الفتاوى ترد على البويطي من السلطان فمن دونه وهو متنوع في صنائع المعروف كثير التلاوة لا يمر يوم وليلة غالباً حتى يختم فسعى به من يحسده وكتب فيه إلى وزير السوء ابن أبي دؤاد بالعراق فكتب إلى والي مصر أن يمتحنه فامتنحه فلم يجب.

كان إذا سمع المؤذن وهو في السجن يوم الجمعة اغتسل ولبس ثيابه

ومشى حتى يبلغ باب السجن، فيقول له السجان: أين تريد فيقول: أجب داعي الله، فيقول: ارجع عافاك الله، فيقول أبو يعقوب: اللهم إنك تعلم أنني قد أجبته داعيك فمنعوني.

إنه الفقيه شهيد الحق أبو يعقوب يوسف بن يحيى المصري البويطي (1)، صاحب الشافعي رضي الله عنه؛ كان واسطة عقد جماعته وأظهرهم نجابة، اختص به في حياته، وقام مقامه في الدرس والفتوى بعد وفاته، سمع الأحاديث النبوية من عبد الله بن وهب الفقيه المالكي ومن الإمام الشافعي، وروى عنه أبو إسماعيل الترمذي وإبراهيم بن إسحاق الحربي والقاسم بن المغيرة الجوهري وأحمد بن منصور الرمادي وغيرهم. وكان قد حمل في أيام الواثق بالله من مصر إلى بغداد في مدة المحنة وأريد على القول بخلق القرآن.

كان البويطي حين مرض الشافعي بمصر هو وابن عبد الحكم والمزني، فتنازعوا الحلقة، فبلغ ذلك الشافعي، فقال: الحلقة للبويطي. فلهذا اعتزل ابن عبد الحكم الشافعي وأصحابه، وكانت أعظم حلقة في المسجد.

وتوفي يوم الجمعة قبل الصلاة في رجب سنة إحدى وثلاثين ومائتين، في القيد والسجن ببغداد، ونال الشهادة كيفما أراد في قوله: "لأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم" (2).

(1) والبويطي، بضم الباء الموحدة وفتح الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها طاء مهملة، هذه النسبة إلى بويط، وهي قرية من أعمال الصعيد الأدنى من ديار مصر.
(2) الجرح والتعديل 9 / 235، الفهرست: 265، 266، طبقات الشافعية للعبادي: 7، تاريخ بغداد 14، 299، 303، طبقات الفقهاء للشيرازي: 79، اللباب 1 / 189، وفيات الأعيان 7 / 61، 64، تهذيب الكمال: 1562، 1563، تهذيب التهذيب 4 / 192 / 1، العبر 1 / 411، طبقات الشافعية للسبكي 2 / 162، 170، طبقات الشافعية للإسنوي: 208، طبقات الشافعية لابن قاضي شعبة: 45، تهذيب التهذيب 11 / 427، 429، النجوم الزاهرة 2 / 260، 261، حسن

وقد أثني عليه الفقهاء والعلماء المحدثين كثيراً فقالوا عنه بأنه “ كان صالحاً متنسكاً عابداً زاهداً.

وقال أبو حاتم: “ هو صدوق. وكان إماماً في العلم، قدوة في العمل، زاهداً ربانياً، متهجداً، دائم الذكر والعكوف على الفقه.

و قال الشافعي: ليس في أصحابي أحد أعلم من البويطي.

وقال الربيع بن سليمان: كان البويطي أبداً يحرك شفّيته بذكر الله، وما أبصرت أحداً أنزع بحجة من كتاب الله من البويطي.

ولقد رأيت على بغل في عنقه غل، وفي رجليه قيد، وبينه وبين الغل سلسلة فيها لبنة وزنها أربعون رطلاً، وهو يقول: إنما خلق الله الخلق بـ “ كن “، فإذا كانت مخلوقة، فكأن مخلوقاً خلق بمخلوق.

ولئن أدخلت عليه لأصدقته. (يعني بذلك الخليفة العباسي الواثق)، ولأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديد هم (1).

وقال أبو الوليد بن أبي الجارود: كان البويطي جاري فما كنت أنتبه ساعة من الليل إلا سمعته يقرأ ويصلي.

وقال أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم: رأيت أبي في المنام فقال لي: يا بني عليك بكتاب البويطي فليس في الكتب أقل خطأ منه.

وقال الربيع أيضاً: كتب إليّ أبو يعقوب من السجن: إنه ليأتي علي أوقات لا أحس بالحديد أنه على بدني حتى تمسه يدي، فإذا قرأت كتابي هذا فأحسن خلقك مع أهل حلفتك، واستوص بالغرباء خاصة خيراً، فكثيراً

المحاضرة 1 / 123، خلاصة تذهيب الكمال: 440، شذرات الذهب 2 / 71، 72. سير أعلام النبلاء، 12 / 59.

(1) (وفيات الأعيان، 7 / 63.

ما كنت أسمع الشافعي رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت:
أهين لهم نفسي لأكرمها بهم :: ولن تكرم النفس التي لا تهينها
مواقف من حياته رحمه الله:

ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف:

قال ابن خزيمة: كان محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أعلم من رأيت بمذهب مالك، فوقع بينه وبين البويطي خلاف عند موت الشافعي، فتنازع ابن عبد الحكم والبويطي مجلس الشافعي، فقال البويطي: أنا أحق به منك، وقال الآخر كذلك.

فجاء الحميدي، وكان بمصر، فقال: قال الشافعي: ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف، ليس أحد من أصحابي أعلم منه.

فقال ابن عبد الحكم:

كذبت.

قال: بل كذبت أنت وأبوك وأمك.

وغضب ابن عبد الحكم.

فجلس البويطي في مكان الشافعي، وجلس ابن عبد الحكم في الطاق الثالث. وترك طاقاً بين مجلس الشافعي ومجلسه، وجلس البويطي في مجلس الشافعي في الطاق الذي كان يجلس فيه (1).

وقد كان الشافعي عليه السلام أخى محمد بن عبد الحكم المصري وكان يحبه ويقربه، ويقول: ما يقيمني بمصر غيره، واعتل محمد فعاده الشافعي، فحدثني القرشي عن الربيع قال: سمعت الشافعي ينشد وقد عاد محمداً:

مرض الحبيب فعدته :: فمرضت من حذري عليه

(1) سير أعلام النبلاء، 12 / 60.

وأتى الحبيب يعودي :: فبرأت من نظري إليه
وما شك أهل مصر أن الشافعي يفوض أمر حلقة إليه، وأنه يستخلفه
بعد موته ويأمر الناس بالحضور عنده، حتى سئل عن ذلك في علته فقيل
له: يا أبا عبد الله إلى من نجلس بعدك، ومن يكون صاحب الحلقة، وهم
يظنون أنه يشير إلى محمد فاستشرف لذلك محمد وتناول لها، وكان
جالسا عند رأسه فقال: سبحان الله أيشك في هذا أبو يعقوب البويطي،
فانكسر لها محمد ووجد في نفسه ومال أصحابه إلى أبي يعقوب البويطي،
وقد كان محمد حمل علم الشافعي ومذهبه وفارق مذهب مالك، إلا أن
البويطي كان أزهد وأورع، فحمل الشافعي نصحه للدين والنصيحة
للمسلمين، ولم يداهن في ذلك بأن وجه الأمر إلى أبي يعقوب، وأثره لأنه
كان أولى، فلما قبض الشافعي رضي الله عنه انتقل محمد بن عبد الحكم
مذهبه، وفارق أصحابه ورجع إلى مالك، وروى كتب أبيه عن مالك،
وتفقه فيها، فهو اليوم من كبار أصحاب مالك رضي الله عنه.

أنت تموت في الحديد:

وما كان أبو يعقوب ليموت إلا في الحديد كيف وقد قال الربيع: كنت
عند الشافعي أنا والمزني وأبو يعقوب فقال لي: أنت تموت في الحديث
وقال لأبي يعقوب: أنت تموت في الحديد وقال للمزني: هذا لو ناظره
الشيطان لقطعه

قال الربيع: فدخلت على البويطي أيام المحنة فرأيت مقيداً إلى أنصاف
ساقيه مغلوله يداه إلى عنقه

هذا لساني:

وقال الربيع: كان أبو يعقوب أبداً يحرك شفثيه بذكر الله تعالى، وما
رأيت أحداً أنزع بحجة من كتاب الله تعالى من أبي يعقوب البويطي. وقال
الربيع أيضاً: كان لأبي يعقوب منزلة من الشافعي، وكان الرجل ربما
يسأله عن المسألة فيقول له: سل أبا يعقوب، فإذا أجابه أخبره فيقول: هو

كما قال. وقال أيضاً: ربما جاء رسول صاحب الشرطة إلى الشافعي فيوجه أبا يعقوب البويطي ويقول: هذا لساني.

لعل الله يخلصني بدعائهم:

وقال أبو عمرو المستملى: حضرنا مجلس محمد بن يحيى الذهلي فقراً علينا كتاب البويطي إليه وإذا فيه والذي أسألك أن تعرض حالي على إخواننا أهل الحديث لعل الله يخلصني بدعائهم فإنني في الحديد وقد عجزت عن أداء الفرائض من الطهارة والصلاة فضج الناس بالبكاء والدعاء له. انظر إلى هذا الحبر رحمه الله لم يكن أسفه إلا على أداء الفرائض ولم يتأثر بالقيود ولا بالسجن فرضى الله عنه وجزاه عن صبره خيراً

اللهم إنك تعلم أنني قد أجبت داعيك فمنعوني:

كان أبو يعقوب البويطي إذا سمع المؤذن وهو في السجن يوم الجمعة اغتسل ولبس ثيابه ومشى حتى يبلغ باب السجن، فيقول له السجان: أين تريد؟ فيقول: أجيب داعي الله، فيقول: ارجع عافاك الله، فيقول أبو يعقوب: اللهم إنك تعلم أنني قد أجبت داعيك فمنعوني (1).

من كلامه رحمه الله:

قال الربيع: كتب إلي أبو يعقوب البويطي أن اصبر نفسك للغرباء، وحسن خلقك لأهل حلقته، فإنني لم أزل أسمع الشافعي يقول كثيراً ويتمثل: أهين لهم نفسي لكي يكرموها :: ولن تكرم النفس التي لا تهينها

* * *

الإمام المفسر الفقيه مجاهد بن جبر

الفقيه مجاهد بن جبر

أعلام الفقهاء

الإمام المفسر الفقيه مجاهد بن جبر

العالم الحبر ذو الأحلام والصبر أبو الحجاج مجاهد بن جبر صاحب التأويل والتفسير والأقاويل والتذكير.

الإمام التابعي مجاهدا بن جبر القرشي المخزومي مولا هم، المتوفى - رحمه الله تعالى - عام 104 هـ كان من كبار أعلام التابعين، ومن الأئمة الذين اشتهروا بالرواية للحديث والآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة الأخيار، حتى إنه ليعد من أئمة التابعين وفقهائهم، ومن كان لهم فضل كبير في نشر علوم الصحابة - رضوان الله عليهم - خاصة من لازمهم منهم.

وإن من أهم الجوانب التي اشتهر بها الإمام مجاهد، وأكثر السلف رضوان الله عنهم من النقل عنه فيها: جانب التفسير، فلا يكاد يخلو كتاب من كتب التفسير، سواء بالمأثور أو بالرأي أو التفسير الإشاري وغيرها من النقل عنه، أو عرض بعض تفسيراته وتأويلاته.

وباستعراض تفسير الإمام مجاهد، نجده يفسر بالقرآن أحياناً، ويفسر بالحديث أحياناً، ويفسر بفتاوى الصحابة، ويفسر بمعاني اللغة، ويفسر بالإسرائيليات وما رواه من صحف بني إسرائيل. فمادة التفسير عنده - رحمه الله - خصبة، كثيرة الجذور والمستقيات.

هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر، ويقال: ابن جبير. المكي. أبو محمد. القرشي المخزومي، مولا هم، الفارسي أصلاً.

ولد بمكة المكرمة في خلافة أمير المؤمنين عمر الخطاب رضي الله عنه سنة 21 هجرية. وبولادته في هذه الفترة التي هي فترة انتشار الصحابة في البلاد، وبأخذه عن جملة فإنه يعد من طبقة التابعين.

وقد امتد عمره ليشمل حكم جل الخلفاء الراشدين الأربعة، وبني أمية إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، واستوطن بين مكة المكرمة والكوفة، وهو الأمر الذي هياً له الأخذ عن جمع كبير من الصحابة الكرام، وأن يأخذ عنه جمع من التابعين وتابعيهم، من أئمة الأمصار الذين انتشروا في البلاد فيما بعد.

وكانت لمجاهد رغبة خاصة في السفر، فكان لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها، فقد رحل إلى اليمن، وحضرموت التي زار بها بئر برهوت، وبابل. كما زار مصر، وروى بها عن مسلمة بن مخلد، وعنه جمع كبير.

والكوفة استقر بها وقتاً كبيراً حتى عد من أعلام العراق.

كما زار مدينة “توج” في منطقة ما بين النهرين، ومدينة “رودس” التي كان مجاهداً في الفوج الذي فتحها وأقام بها سبع سنين يعلم القرآن، وزار القسطنطينية وشارك في الجيش الذي حاول فتحها كذلك.

أما المدينة المنورة ومكة المكرمة؛ فقد استوطنهما وأخذ بهما عن جملة من الصحابة وغيرهم.

أخذ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، والتزمه، كما سمع من علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وعائشة الصديقة، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وعبد الله بن عمرو، وجابر بن عبد الله، ورافع بن خديج.. وغيرهم.

سكن الكوفة، وسمع منه كثيرون، وكان من الثقات الذين أخذ عنهم وانتشرت روايتهم. كما انتشر ما كان يبيده من رأي في الأحكام الفقهية وفي الفتاوى، وتفسير بعض الآيات، ورد بعض الكلمات إلى أصولها من لغات أخرى: الفارسية، والسريانية، والنبطية.. وغيرها.

فهو محدث مفسر لغوي، باحث عن الأخبار والآثار، وقد

انعكست معارفه هذه على تفسيره الذي اشتهر منذ العصور الأولى، واعتمده كثير من الأئمة ونقلوا عنه منقولات كثيرة، وفي مقدمتهم: سفيان الثوري.

أخذ عن الإمام مجاهد رضي الله عنه جمع من أئمة التابعين وتابعيهم، منهم: عكرمة مولى ابن عباس، والفضيل بن عمرو، وقتادة بن دعامة السدوسي، وعطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، ومحمد بن مسلم، وعمرو بن عبد الله بن عبيد، وأيوب بن كيسان، وفطر بن خليفة، وعبد الله ابن عون البصري وغيرهم.

وتظهر مكانة الإمام مجاهد من شهادات أئمة السلف، وأعلام الجرح والتعديل فيه؛ فقد قال ابن سعد: "ثقة فقيه عالم، كثير الحديث". وقال يحيى ابن معين: "ثقة"، وقال أبو حاتم ابن حبان: "كان فقيهاً ورعاً عابداً، متقناً". وقال يحيى القطان: "أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به". وقال قتادة: "أعلم من بقي بالتفسير: مجاهد". وقال الطبري: "كان قارئاً عالماً".

وقال الحافظ الذهبي: "أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به". وقال الحافظ ابن كثير: "أحد أئمة التابعين والمفسرين، كان من أخصاء أصحاب ابن عباس، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير حتى قيل: إنه لم يكن أحد يريد بالعلم وجه الله إلا مجاهد وطاووس". وقال الحافظ ابن حجر: "ثقة، إمام في التفسير وفي العلم".

توفي الإمام مجاهد بن جبر - رحمه الله تعالى - بمكة المكرمة، وكانت وفاته بين عامي 101 - 104 هـ، على خلاف بين المؤرخين في ذلك، وله من العمر نيف وثمانون عاماً (1).

(1) طبقات ابن سعد 5 / 466، طبقات خليفة ت 2535، تاريخ البخاري 7 / 411، المعارف 444، المعرفة والتاريخ 1 / 711، الحلية 3 / 279، طبقات الفقهاء للشيرازي 69، تاريخ ابن عساكر 16 / 125، تهذيب الكمال ص 1306، تاريخ الإسلام 4 / 190، تذكرة الحفاظ 1 / 86، العبر

مواقف من حياته رحمه الله:

إنك ضيق الخلق:

عن مجاهد قال: كنت أصحاب ابن عمر رضي الله عنهما في السفر فإن أردت أن أركب يأتيني فيمسك ركابي وإذا ركبت سوى ثيابي قال مجاهد: فجاءني مرة فكأنني كرهت ذلك فقال: يا مجاهد إنك ضيق الخلق (1).

أهلكت نفسك وأهلكتنى:

عن الأعمش قال: كان مجاهد لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب ينظر إليها قال: وذهب إلى حضر موت إلى بئر برهوت قال: وذهب إلى بابل قال: وعليها والصديق لمجاهد قال: فقال مجاهد: تعرض على هاروت وماروت قال: فدعا رجلاً من السحرة فقال: اذهب بهذا واعرض عليه هاروت وماروت فقال اليهودي: بشرط أن لا يدعو الله عندهما قال مجاهد: فذهب بي إلى قلعة فقلع منها حجراً قال: ثم قال خذ برجلي فهو بي حتى انتهى إليهما فإذا هما متعلقين منكسين كالجبلىن العظيمين فلما رأيتهما قلت سبحان الله خالقكما فاضطربا قال: فكأن جبال الدنيا قد تدكدكت قال: فغشي علي وعلى اليهودي قال: ثم أفاق اليهودي قبلي فقال: قم قد أهلكت نفسك وأهلكتنى (2).

يؤتى بثلاثة نضر يوم القيامة:

عن مجاهد قال: يؤتى بثلاثة نضر يوم القيامة بالغني وبالمريض والعبد فيقول للغني: ما منعك عن عبادتي؟ فيقول: أكثرت لي من المال فطغيت فيؤتى بسليمان بن داود عليه السلام في ملكه فيقال له: أنت كنت أشد شغلاً

1 / 125، تذهيب التهذيب 4 / 22، البداية والنهاية 9 / 224، العقد الثمين 7 / 132، غاية النهاية 2659، الإصابة 8363، تهذيب التهذيب 10 / 42، طبقات الحفاظ للسيوطي ص 35، خلاصة تذهيب التهذيب 369، شذرات الذهب 1 / 125.

(1) حلية الأولياء، 3 / 284.

(2) حلية الأولياء، 3 / 288.

أم هذا قال: بل هذا قال: فإن هذا لم يمنعه شغله عن عبادتي قال: فيؤتى بالمرريض فيقول: ما منعك عن عبادتي؟ قال: يا رب أشغلت على جسدي قال: فيؤتى بأيوب عليه السلام في ضره فيقول له أنت كنت أشد ضرراً أم هذا قال: فيقول: لا بل هذا قال: فإن هذا لم يمنعه ذلك أن عبدني قال: ثم يؤتى بالمملوك فيقال له: ما منعك عن عبادتي فيقول: جعلت علي أربابا يملكونني قال: فيؤتى ببيوسف الصديق عليه السلام في عبوديته فيقال: أنت أشد عبودية أم هذا قال: لا بل هذا قال: فإن هذا لم يشغله شيء عن عبادتي.

ذهبوا وبقيت أعمالهم:

عن مجاهد قال: مررت مع ابن عمر على خربة فقال: يا مجاهد ناد يا خربة ما فعل أهلك أين أهلك؟ قال: فناديت فقال: ابن عمر ذهبوا وبقيت أعمالهم.

إني لا أحب الظلم:

عن مجاهد قال: مر نوح عليه السلام بالأسد فضربه برجله فخمشه فبات ساهراً فشكى نوح ذلك إلى الله عز وجل فأوحى الله تعالى إليه إني لا أحب الظلم.

وقد أتاك رسول يقطع أثرك من الدنيا:

قال مجاهد: ما من مرض يمرضه العبد إلا رسول ملك الموت عنده حتى إذا كان آخر مرض يمرضه أتاه ملك الموت فقال: أتاك رسول بعد رسول فلم تعبأ به وقد أتاك رسول يقطع أثرك من الدنيا.

خلوا سبيله:

عن مجاهد قال: يؤمر بالعبد إلى النار يوم القيامة فتنزوي عنه فيقول: ما شأنك ما شأنك؟ فتقول: إنه قد كان يستجير مني في الدنيا فيقول خلوا سبيله.

عن مجاهد قال: يؤمر بالعبد إلى النار يوم القيامة فيقول ما كان هذا ظني فيقول: ما كان ظنك فيقول أن تغفر لي فيقول: خلوا سبيله.

الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها:

عن مجاهد قال: ما من يوم ينقضي من الدنيا إلا قال ذلك اليوم: الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها ثم يطوي عليه فيختم إلى يوم القيامة حتى يكون الله هو الذي يفض خاتمه رواه المعافى بن عمران عن طلحة بن عمرو فقال عن قيس بن سعد عن مجاهد وهو الصواب.

أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة:

عن مجاهد في قوله تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ} [النساء: ٧٨] الآية قال: كان فيمن كان قبلكم امرأة وكان لها أجير فولدت جارية وقالت لأجيرها: اقتبس لنا ناراً فخرج فوجد بالباب رجلاً فقال له، الرجل: ما ولدت هذه المرأة؟ قال: جارية فقال: أما أن هذه الجارية لا تموت حتى تبغي بمائة ويتزوجها أجيرها ويكون موتها بالعنكبوت قال فقال الأجير في نفسه فأنا أريد هذه بعد أن تفجر بمائة لأقتلنها فأخذ شفرة فدخل فشق بطن الصبية وخرج على وجهه وركب البحر وخيط بطن الصبية فعولجت وبرأت وشبت فكانت تبغي فأتت ساحلاً من سواحل البحر فأقامت عليه تبغي ولبت الرجل ما شاء الله ثم قدم ذلك الساحل ومعه مال كثير فقال لامرأة من أهل ساحل البحر: ابغيني امرأة من أجمل الناس في القرية أتزوجها فقالت: ها هنا امرأة من أجمل الناس وإنها تبغي قال: انتني بها فأتتها فقالت: قد قدم رجل له مال كثير وقال لي كذا وكذا فقلت: كذا وكذا فقالت إني قد تركت البغاء ولكن إن أراد تزوجته قال: فتزوجها فوقعته منه موقعاً فبينما هو يوم عندها إذ أخبرها بأمره فقالت: أنا تلك الجارية وأرته الشق في بطنها وقد كنت أبغي فما أدري بمائة أو أقل أو أكثر قال: فإنه قال لي يكون موتها بالعنكبوت قال: فبنى لها

برجا في الصحراء وشيده فبينما هما يوماً في ذلك البرج إذا عنكبوت في السقف فقال هذا عنكبوت فقالت: هذا يقتلني لا يقتله أحد غيري فحرّكه فسقط فوضعت إبهام رجلها عليه فشدخته وساخ سمه بين ظفرها واللحم فاسودت رجلها فماتت فنزلت هذه الآية: {أَيِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ} [النساء: ٧٨] (1).

من كلامه رحمه الله:

عن مجاهد قال: من أعز نفسه أذل دينه ومن أذل نفسه أعز دينه.

عن مجاهد قال: ذهبت العلماء فما بقي إلا المتعلمون وما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيمن كان قبلكم.

عن مجاهد قال: إن المسلم لو لم يصب من أخيه إلا أن حياءه منه يمنعه من المعاصي لكفاه.

كان مجاهد يقول: الفقيه من يخاف الله عز وجل.

عن مجاهد قال: إن العبد إذا أقبل على الله تعالى بقلبه أقبل الله عز وجل بقلوب المؤمنين إليه أخبار.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} [المزمل: ٨] قال: أخلص له إخلاصاً.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ} [المدثر: ٤] قال: وعملك فأصلح.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء: ٣٢] قال ليس بعرض الدنيا.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ} [الزمر: ٣٣] قال: هم الذين يجيئون بالقرآن يقولون هذا الذي قد أعطيتمونا قد اتبعنا ما فيه.

- عن مجاهد في قوله تعالى: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ} [الزمر: ٣٣] قال: هم الذين يجيئون بالقرآن قد اتبعوه أو قال قد اتبعوا ما فيه.

عن مجاهد قال: إن القرآن يقول إني معك ما اتبعني فإذا لم تتبعني اتبعتك.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَلَا تَسْكُنْ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} [القصص: ٧٧] قال: خذ من دنياك لآخرتك أن تعمل فيها بطاعته.

عن مجاهد في قوله تعالى: {لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر: ٨] قال: عن كل شيء من لذة الدنيا.

- عن مجاهد في قوله تعالى: {وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ} [الرحمن: ٤٦] قال: للذي يذكر الله عز وجل عند المعاصي.

عن مجاهد في قوله تعالى: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ} [الفتح: ٢٩] قال: الخشوع في الصلاة.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة: ٢٣٨] قال: القنوت الركوع والخشوع وغض البصر وخفض الجناح من رهبة الله تعالى قال: وكانت العلماء إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمن عز وجل أن يشذ نظره أو يلتفت أو يقلب الحصى أو يعبث بشيء أو يحدث نفسه بشيء من الدنيا إلا ناسيًا ما دام في الصلاة.

عن مجاهد قال: كنت إذا رأيت العرب استجفيتها وإن فتشتها وجدتها من وراء دينها وإذا دخلوا في الصلاة فكأنها أجساد ليس فيها أرواح.

عن مجاهد في قوله تعالى: {خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ} [مريم: ٥٩] قال: عند قيام الساعة وذهاب صالح أمة محمد صلى الله عليه وسلم واتبعوا الشهوات قال: ينزوا بعضهم على بعض زناة في الأزقة.

مجاهدًا يقول: القلب بمنزلة الكف فإذا أذنب الرجل ذنبًا انقبض إصبع حتى تنقبض أصابعه كلها إصبعًا إصبعًا قال: ثم يطبع عليه فكانوا يرون أن

ذلك الران قال الله تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾} [المطففين: ١٤] (1).

عن مجاهد في قوله تعالى: {بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَكِينَةً وَأَحْطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} [البقرة: ٨١] قال: الذنوب تحيط بالقلوب كلما عمل ذنبًا ارتفعت حتى تغشى القلب وحتى يكون هكذا ثم قبض يده ثم قال هو الران.

عن مجاهد في قوله تعالى: {يَبْتَئُونَ الْإِنْسَانَ يَوْمَ قَدَمٍ وَآخِرٍ ﴿١٣﴾} [القيامة: ١٣] قال: بأول عمله وآخره.

عن مجاهد في قوله تعالى: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾} [الشرح: ٧ - ٨] قال: إذا فرغت من أمر الدنيا فقامت إلى الصلاة فاجعل رغبتك إليه ونيتك له.

عن مجاهد في قوله تعالى: {يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾} [الفجر: ٢٧ - ٢٨] قال: النفس التي أيقنت أن الله عز وجل ربها وضربت جأشًا لأمره وإطاعته.

عن مجاهد قال: ما من ميت يموت إلا عرض عليه أهل مجلسه إن كان من أهل الذكر فمن أهل الذكر وإن كان من أهل اللهو فمن أهل اللهو. عن مجاهد قال: لا يكون الرجل من الذاكرين الله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا.

عن مجاهد قال: لابن آدم جلساء من الملائكة فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة: ولك مثله وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة: يا ابن آدم المستور عورته أربع على نفسك واحمد الله الذي ستر عليك.

عن مجاهد قال إبليس: إن يعجزني ابن آدم فلن يعجزني من ثلاث خصال أخذ مال بغير حقه وإضاعة إنفاقه في غير حقه ومنعه عن حقه.

عن مجاهد قال: لم ير إبليس ابن آدم ساجدًا قط إلا التطم ودعا بالويل ثم يقول: أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فلم أسجد فلي النار.

عن مجاهد قال: من لم يستحي من الحلال خفت مؤنثته وأراح نفسه.
عن مجاهد قال: ما من يوم يمضي من الدنيا إلا قال الحمد لله الذي أخرجني من الدنيا فلا أعود إليها أبدًا.
عن مجاهد في قوله تعالى: {فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ} [الأنبياء: ٨٧] قال: هو أن يعاقبه بذنبه.

عن مجاهد قال: الرعد ملك يزجر السحاب بصوته.
عن مجاهد قال: إن الله تعالى ليصلح بصلاح العبد ولده وولد ولده.
قال مجاهد: بلغني أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يقول: طوبى للمؤمن ثم طوبى له كيف يخلفه الله تعالى فيمن ترك بخير.
عن مجاهد في قوله تعالى: {وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} [البقرة: ١٦٦] قال: الأوصال التي كانت بينهم في الدنيا.
عن مجاهد في قوله تعالى: {لَا يَرْفُقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً} [التوبة: ١٠] قال: الإل الله عز وجل.

عن مجاهد في قوله تعالى: {بَقِيَتْ أَلَلَةٌ خَيْرٌ لَكُمْ} [هود: ٨٦] قال طاعة الله عز وجل (1).

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ} [لقمان: ٦] قال الغناء.

عن مجاهد قال: كان يقال إن الصبر عند الصدمة الأولى.
عن هلال بن خباب قال: زاملت مجاهدًا إلى مكة فكان إذا مر على

القبور قال: السلام عليكم يا أهل الديار المؤمنين منكم والمسلمين يرحم الله المستقدمين منكم وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.

عن مجاهد قال: جعلت الأرض لملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث شاء وجعلت له أعوان يتوفون الأنفس ثم يقبضها منهم.

عن مجاهد قال: لما أهبط آدم إلى الأرض قال له ربه عز وجل: ابن للخراب ولد للفناء.

- عن مجاهد قال في قوله تعالى: {وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ} [البقرة: ١٥٩] قال: يلعنهم دواب الأرض وما شاء الله تعالى الحيات والعقارب قال: يقولون نمع القطر بذنوبهم.

عن مجاهد في قوله تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} [العاديات: ٦] قال لكفور.

عن مجاهد قال: إن هذا العلم لا يتعلمه مستح ولا متكبر.

عن مجاهد في قوله تعالى: {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} [ق: ١٧] قال: اسم كاتب السيئات قعيد.

عن مجاهد في قوله تعالى: {مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ} [ق: ٢٩] قال: قضيت ما أنا قاض.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا} [يوسف: ٢٦] قال: ليس بإنس ولا جان وهو خلق من خلق الله عز وجل.

عن مجاهد في قوله تعالى: {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ} [الرحمن: ٣٥] قال: لهب منقطع من النار.

- عن مجاهد في قوله تعالى: {زُخْرُفٌ الْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام: ١١٢] قال: تزيين الباطل بالأسنة.

عن مجاهد قال: إن الروح خلق على صورة ابن آدم.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ} [الذاريات: ١٩] قال: سوى الزكاة.

قال قطن بن خليفة: سألت مجاهدًا عن هذه الآية: “ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون” قال: ما بين الموت والبعث وقوله بينهما برزخ لا يبغيان قال: بينهما حاجز من الله تعالى لا يبغي أحدهما على الآخر لا يبغي المالح على العذب ولا العذب على المالح.

عن مجاهد في قوله تعالى: {فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} [البقرة: ١٧٥] قال: ما أعلمهم بأعمال أهل النار.

عن مجاهد قال: لأهل النار جناب يستريحون إليه فإذا أتوه لسعتهم عقارب كأمثال البغال الدهم.

عن مجاهد قال: كان طعام يحيى بن زكريا عليه السلام العشب وإن كان ليبيكي من خشية الله تعالى حتى لو كان القار على عينيه لحرقه.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [الرعد: ١٥] قال الطائع المؤمن والكاره الكافر.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ} [الرعد: ١٣] قال: العداوة.

عن مجاهد في قوله تعالى: {بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً} [الرعد: ٣١] قال: الويه.

عن مجاهد في قوله تعالى ويخلق ما لا تعلمون قال: السوس في النباتات.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي} [مريم: ٤] قال: شكى ذهاب أضراسه.

عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه في قوله تعالى: {سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} [مريم: ٤٧] قال: رحيمًا.

عن مجاهد قال: لو أن رجلاً أنفق مثل أحد في طاعة الله تعالى لم يكن

من المسرفين.

عن مجاهد في قوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ} [البقرة: ٢٦٩] قال: العلم والفقه.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: ٥٩] قال: الفقهاء والعلماء.

عن مجاهد قال: أئته امرأة فقالت: إني أجد في نفسي شيئاً لا أستطيع أن أتكلم به قال: ذاك محض الإيمان فقلت: ما هو يا أبا الحجاج؟ قال: إن المؤمن إذا عصم من الشيطان في الذنوب جاءه فقال: أرأيت الله من خلقه.

عن مجاهد قال: سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل أي عبادك أغنى قال: الذي يقنع بما يؤتى قال: فأني عبادك أحكم قال: الذي يحكم للناس بما يحكم لنفسه قال: فأني عبادك أعلم قال: أخشاهم.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣] قال: البدع والشبهات.

عن مجاهد قال: أفضل العبادة الرأي الحسن يعني اتباع السنة.
عن مجاهد قال: ما أدري أي النعمتين أفضل أن هداني للإسلام أو عافاني من الأهواء.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: ٥٩] قال: أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وربما قال أولوا العقل والفضل في دين الله تعالى.

عن مجاهد في قوله تعالى: {فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} [النساء: ٥٩] قال: إلى كتاب الله وإلى رسوله ما دام حياً فإذا قبض فإلى سنته.

عن مجاهد قال: كانت مريم تقول: كان عيسى إذا كان عندي أحد يتحدث معي سبح في بطني فإذا خلوت فلم يكن عندي أحد حدثني وحدثته وهو في بطني.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَّرَهُ وَبَاطِنَهُ} [لقمان: ٢٠] قال: أما الظاهرة فالإسلام والرزق وأما الباطنة فما ستر من العيوب والذنوب.

عن مجاهد قال: لما قدمت ملكة سبأ على سليمان بن داود عليه السلام ورأت حطباً جزلاً فقالت لغلام سليمان: هل يعرف مولاك كم وزن هذا الدخان؟ فقال: أنا أعلم فكيف مولاي قالت: فكم وزنه فقال: الغلام يوزن الحطب ثم يحرق ثم يوزن رماده فما نقص فهو دخانه.

عن مجاهد في قوله تعالى: {تَوْبَةً نَّصُومًا} [التحريم: ٨] قال: النصوح أن تتوب من الذنب ثم لا تعود.

عن مجاهد قال: من لم يتب إذا أصبح وإذا أمسى فهو من الظالمين.

قال عبيد بن مهران المكنى: سمعت مجاهداً يسأل عن هذه الآية: {قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ} [الجاثية: ١٤]، قال هم الذين لا يدرون أنعم الله عليهم أم لم ينعم ثم قرأ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله فقال موسى: يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم قال: فهي النعم.

عن الحسن بن عبد الله قال: سمعت مجاهداً يقول: إذا خرج الرجل حضره الشيطان فإذا قال: باسم الله قيل: هديت فإذا قال: توكلت على الله قيل: كفيت وإذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله قيل: حفظت فيقال: كيف يكون بمن قد هدى وكفى وحفظ.

عن مجاهد أنه أعطى رجلاً خمسمائة درهم على مصحف يكتب له.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَأَجْعَلَنَّ الْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: ٧٤] قال: مؤتمين لهم مقتدين بهم حتى يأتهم بهم من خلفنا.

عن أبي بكر بن عياش أخبرني أبو يحيى أنه سمع مجاهداً يقول: قال لي ابن عباس: لا تتامن إلا على وضوء فإن الأرواح تبعث على ما قبضت

عليه.

عن مجاهد في قوله تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [المؤمنون: ٩٦] قال: هو السلام عليه إذا لقيته.

عن مجاهد قال: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام اتق لا يأخذنك الله على ذنب لا ينظر فيه إليك فتلقاه حين تلقاه وليست لك حجة.

حدث قيس بن سعد أنه سمع مجاهدًا يقول: ما من يوم إلا يقول: ابن آدم قد دخلت عليك اليوم ولم أرجع بعد اليوم فانظر ما تعمل في ولا ليلة إلا قالت كذلك.

عن مجاهد في قوله تعالى: {سَأَلَ سَائِلٌ} [المعارج: ١] قال: دعا داع.

عن مجاهد في قوله تعالى: {مَاءً عَذَقًا} (١٦) {لَتَفْنِيَنَّهُمْ فِيهِ} [الجن: ١٦ - ١٧] قال: حتى يرجعوا إلى علمي فيه.

عن مجاهد في قوله تعالى: {بَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا} [النور: ٥٥] قال: لا يحبون غيري.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا} (١٢) {وَبَيْنَ شُهُودًا} (١٣) [المدثر: ١٢ - ١٣] قال: الوليد بن المغيرة ماله ألف دينار وبنوه عشرة.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} [فاطر: ١٠] قال: المراءون.

عن مجاهد قال: كان بالمدينة أهل بيت ذو حاجة عندهم رأس شاة فأصابوا شيئًا فقالوا: لو بعثنا بهذا الرأس إلى من هو أحوج إليه منا قال: فبعثوا به فلم يزل يدور بالمدينة حتى رجع إلى أصحابه الذين خرج من عندهم.

عن مجاهد قال: إذا لقي الرجل الرجل فضحك في وجهه ذابت عنهم الذنوب كما ينثر الريح الورق اليابس عن الشجر قال: فقال ويحك إن هذا من العمل يسير فقال: أما سمعت قوله تعالى: {تَوَافَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا}

أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ { [الأنفال: ٦٣].

عن مجاهد قال: ما من مؤمن يموت إلا تبكي عليه الأرض أربعين صباحًا.

عن مجاهد في قوله تعالى: {فَلَا أَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ} [الروم: ٤٤] قال: في القبر.
عن مجاهد وسعيد بن المسيب قالا: يبعث داود عليه السلام وذكر خطيبته ووجهه منها في قلبه منقوشة في كفه فإذا رأى أهوايل الموقف لم يجد منه متعودًا ولا محرزًا إلا برحمة ربه وقربه فيشير إليه أن ها هنا وأشار بيمينه إلى جنبه فذلك قوله عز وجل: {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَّآبٍ} [ص: ٤٠].

عن مجاهد قال: ما التقى مسلمان فتصافحا إلا غفر لهما ذنوبهما قبل أن يتفرقا أو تحاتت عنهما ذنوبهما! قلت: إن ذلك يسير قال: لا تقل ذلك إن الله عز وجل يقول: {لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ} [الأنفال: ٦٣]، قال: فكان مجاهد أفقه مني.

عن مجاهد قال: كان يحج من بني إسرائيل مائة ألف فإذا بلغوا أنصاب الحرم قلعوا نعالهم ثم دخلوا الحرم حفاة.

عن مجاهد في قوله تعالى: {يَمْرِيئُ أَفْتَى لِرَبِّكَ} [آل عمران: ٤٣] قال: أطيلي الركوع.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ} [الإسراء: ٦٤] قال: المزامير.

عن مجاهد في قوله تعالى: {إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمَامًا} [المزمل: ١٢] قال: قيودا.

عن مجاهد في قوله تعالى: {لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} [الشورى: ١٥] قال: لا خصومة بيننا وبينكم.

عن مجاهد في قوله تعالى: {لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر: ٨] قال عن

كل لذه في الدنيا.

عن مجاهد في قوله تعالى: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ} [القمر: ٤٨] قال: هم المكذبون بالقدر.

- عن مجاهد في قوله تعالى: {يَجِبَالٌ أَوِيٍّ مَعَهُ} [سبأ: ١٠] قال: سبجي معه.

عن مجاهد في قوله تعالى: {ادْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ} [المؤمنون: ٩٦] قال: المصافحة.

عن مجاهد قال: رن إبليس أربعاً حين لعن وحين أهبط وحين بعث النبي صلى الله عليه وسلم وقد بعث على فترة من الرسل وحين أنزلت الحمد لله رب العالمين وأنزلت بالمدينة وكان يقال: الرنة والنخرة من الشيطان فلعن من رن أو نخر.

عن مجاهد في قوله تعالى: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً} [الشعراء: ١٢٨] قال: برزخ الحمام.

عن مجاهد في قوله تعالى: {وَأَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِ} [الجمعة: ١٠] قال: اطلبوا التجارة في البحر.

عن مجاهد في قوله تعالى: {أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ} [البقرة: ٢٦٧] قال: من التجارة.

عن خصيف قال: سمعت مجاهدًا يقول: أيما امرأة قامت إلى الصلاة ولم تغط شعرها لم تقبل صلاتها.

عن مجاهد: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا} [فصلت: ٣٠]، قال: فلم يشركوا حتى ماتوا.

- عن مجاهد في قوله تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ٤] قال صاحبة.

عن مجاهد قال: النملة التي كلمت سليمان عليه السلام كانت مثل الذئب العظيم.

عن مجاهد قال: كان الغلام من قوم عاد لا يحتلم حتى يبلغ مائتي سنة.

عن مجاهد قال: ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي صلى الله عليه وسلم .

قال مجاهد بن جبر: قال لقمان لابنه: إياك إذا سئل غيرك أن تكون أنت المجيب، كأنك أصبت غنيمة أو ظفرت بعطية، فإنك إن فعلت ذلك، أزريت بالمسؤول، وعنفت السائل، ودللت السفهاء على سفاهة حلمك، وسوء أدبك.

قال مجاهد بن جبر: خصلتان تفسدان الصيام: الغيبة والكذب (1).

* * *

الإمام الحافظ الليث بن سعد

الليث بن سعد

أعلام الفقهاء

الإمام الحافظ الليث بن سعد

من أشهر الفقهاء في زمانه فاق في علمه وفقهه إمام المدينة الإمام مالك غير أن تلامذته لم يقوموا بتدوين علمه وفقهه ونشره في الآفاق مثلما فعل تلامذة الإمام مالك، وكان الإمام الشافعي يقول: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به. إنه الإمام الليث بن سعد بن عبد الرحمن الإمام الحافظ شيخ الإسلام وعالم الديار المصرية ولد بقرقشدة وهي قرية من أسفل أعمال مصر في سنة أربع وتسعين للهجرة.

طلبه للعلم:

تلقي الليث العلم على عدد من كبار علماء عصره، فسمع من عطاء بن أبي رباح وابن أبي مليكة ونافعًا العمري وسعيد بن أبي سعيد المقبري وابن شهاب الزهري وأبا الزبير المكي وغيرهم كثير.

وفي عدة روايات يصف الليث رحلاته في طلب العلم قال ابن بكير: سمعت الليث يقول: سمعت بمكة سنة ثلاث عشرة ومائة من الزهري وأنا ابن عشرين سنة.

قال يحيى بن بكير: أخبرني من سمع الليث يقول: كتبت من علم ابن شهاب علمًا كثيرًا وطلبت ركوب البريد إليه إلى الرصافة فخفت أن لا يكون ذلك لله فتركته ودخلت على نافع فسألني فقلت: أنا مصري فقال: ممن قلت؟ من قيس قال: ابن كم؟ قلت: ابن عشرين سنة قال: أما لحيتك فلحية ابن أربعين؟ قال أبو صالح: خرجت مع الليث إلى العراق سنة إحدى وستين ومائة خرجنا في شعبان وشهدنا الأضحى ببغداد قال: وقال لي الليث ونحن ببغداد سل عن منزل هشيم الواسطي فقل له: أخوك ليث المصري يقرئك السلام ويسألك أن تبعث إليه شيئًا من كتبك فلقيت هشيمًا فدفع إلي شيئًا فكتبنا منه وسمعتها مع الليث.

مكانته العلمية:

يقول الحافظ أبو نعيم: كان الليث رحمه الله فقيه مصر ومحدثها ومحتشمها ورئيسها ومن يفتخر بوجوده الإقليم بحيث إن متولي مصر وقاضيه وناظرها من تحت أو امره ويرجعون إلى رأيه ومشورته ولقد أراد المنصور على أن ينوب له على الإقليم فاستعفى من ذلك.

ولليث أحاديث كثيرة في كتب الصحاح، ومن الأحاديث التي رويت عن الليث ما رواه الترمذي قال: حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [♂]يكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا—.

قال أبو صالح: كان الليث يقرأ بالعراق من فوق على أصحاب الحديث والكتاب بيدي فإذا فرغ رميت به إليهم فنسخوه.

قال ابن سعد: كان الليث قد استقل بالفتوى في زمانه.

روى عبد الملك بن شعيب عن أبيه قال: قيل لليث أمتع الله بك إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك فقال: أو كل ما في صدري في كتبي لو كتبت ما في صدري ما وسعه هذا المركب.

وقال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي يقول: أصح الناس حديثاً عن سعيد المقبري الليث بن سعد يفصل ما روي عن أبي هريرة وما روي عن أبيه عن أبي هريرة هو ثبت في حديثه جداً.

ومما يروى عنه أيضاً عن الليث بن سعد عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والله ما فيكم أحد على دين إبراهيم غيري وكان يحيى المؤودة يقول الرجل: إذا أراد أن يقتل ابنته مه لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها

إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها

ولليث أسانيد إلى أبي هريرة ومنها: عن الليث عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [♂]إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة—.

مناقبه وفضائله:

قال ابن بكير: كان الليث فقيه البدن عربي اللسان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر حسن المذاكرة.

روي عن شرحبيل بن جميل قال: أدركت الناس أيام هشام الخليفة وكان الليث بن سعد حدث السن وكان بمصر عبيد الله بن أبي جعفر وجعفر بن ربيعة والحارث بن يزيد ويزيد بن أبي حبيب وابن هبيرة وإنهم يعرفون لليث فضله وورعه وحسن إسلامه عن حادثة سنة ثم قال ابن بكير: لم أر مثل الليث، وروى عبد الملك بن يحيى بن بكير عن أبيه قال: ما رأيت أحداً أكمل من الليث.

قال عثمان بن صالح: كان أهل مصر ينتقصون عثمان حتى نشأ فيهم الليث فحدثهم بفضائله فكفوا وكان أهل حمص ينتقصون علياً حتى نشأ فيهم إسماعيل بن عياش فحدثهم بفضائل علي فكفوا عن ذلك، وروي عن حرملة يقول: كان الليث بن سعد يصل مالاً بمائة دينار في السنة فكتب مالك إليه على دين فبعث إليه بخمس مائة دينار فسمعت ابن وهب يقول: كتب مالك إلى الليث إني أريد أن أدخل بنتي على زوجها فأحب أن تبعث لي بشيء من عصف فبعث إليه بثلاثين حملاً عصفراً فباع منه بخمس مائة دينار وبقي عنده فضله، قال أبو داود: قال قتيبة: كان الليث يستغل عشرين ألف دينار في كل سنة وقال: ما وجبت علي زكاة قط وأعطى الليث ابن لهيعة ألف دينار وأعطى مالاً ألف دينار وأعطى منصور بن عمار الواعظ ألف دينار وجارية تساوي ثلاث مائة دينار.

قال صالح بن أحمد الهمداني: قدم منصور بن عمار على الليث فوصله بألف دينار واحتترقت دار ابن لهيعة فوصله بألف دينار ووصل مالكا بألف دينار وكساني قميص سندس فهو عندي.

وروي عن محمد بن رمح يقول كان دخل الليث بن سعد في كل سنة ثمانين ألف دينار ما أوجب الله عليه زكاة درهم قط.

وروي عن أشهب بن عبد العزيز يقول: كان الليث له كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها أما أولها فيجلس للسلطان في نوائبه وحوادثه وكان الليث يغشاه السلطان فإذا أنكر من القاضي أمراً أو من السلطان كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل ويجلس لأصحاب الحديث وكان يقول: نجحوا أصحاب الحوانيت فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم ويجلس للمسائل يغشاه الناس فيسألونه ويجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد فيرده كبرت حاجته أو صغرت وكان يطعم الناس في الشتاء الهرائس بعسل النحل وسمن البقر وفي الصيف سويق اللوز في السكر.

وروي عن يعقوب ابن داود وزير المهدي قال: قال أمير المؤمنين لما قدم الليث العراق الزم هذا الشيخ فقد ثبت عندي أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه.

وكان الليث بن سعد يقول: بلغت الثمانين وما نازعت صاحب هوى قط، ويعلق الحافظ أبو نعيم على قوله فيقول: كانت الأهواء والبدع خاملة في زمن الليث ومالك والأوزاعي والسنن ظاهرة عزيزة فأما في زمن أحمد بن حنبل وإسحاق وأبي عبيد فظهرت البدعة وامتحن أئمة الأثر ورفع أهل الأهواء رؤوسهم بدخول الدولة معهم فاحتاج العلماء إلى مجادلتهم بالكتاب والسنة ثم كثر ذلك واحتج عليهم العلماء أيضاً بالمعقول فطال الجدل واشتد النزاع وتولدت الشبهة نسأل الله العافية.

قال بكر بن مضر: قدم علينا كتاب مروان بن محمد إلى حوثة والى

مصر إني قد بعثت إليكم أعرابيا بدويا فصيحا من حاله ومن حاله فأجمعوا له رجلاً يسدده في القضاء ويصوبه في المنطق فأجمع رأي الناس على الليث بن سعد وفي الناس معلماه يزيد بن أبي حبيب وعمرو بن الحارث، قال أحمد بن صالح: أعضلت الرشيد مسألة فجمع لها فقهاء الأرض حتى أشخص الليث فأخرجه منها.

ثناء العلماء عليه:

كان الإمام الشافعي يقول: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به.

وقال ابن وهب: لولا مالك والليث لضل الناس.

وقال عبد الله بن صالح: صحبت الليث عشرين سنة لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس وكان لا يأكل إلا بلحم إلا أن يمرض.

وقال أحمد بن سعد الزهري: سمعت أحمد بن حنبل يقول: الليث ثقة ثبت، وقال أيضا: الليث كثير العلم صحيح الحديث

وقال عثمان الدارمي: سمعت يحيى بن معين يقول: الليث أحب إلي من يحيى بن أيوب ويحيى ثقة قلت: فكيف حديثه عن نافع؟ فقال: صالح ثقة.

وعن أحمد بن صالح وذكر الليث فقال: إمام قد أوجب الله علينا حقه لم يكن بالبلد بعد عمرو بن الحارث مثله.

قال ابن سعد: استقل الليث بالفتوى وكان ثقة كثير الحديث سرياً من الرجال سخياً له ضيافة

وقال العجلي والنسائي: الليث ثقة.

وقال ابن خراش: صدوق صحيح الحديث.

وروي عن يحيى بن معين قال: هذه رسالة مالك إلى الليث حدثنا بها عبد الله بن صالح يقول فيها: وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلك إليك واعتمادهم على ما جاءهم منك.

وقال يحيى بن بكير: الليث أفقه من مالك ولكن الحظوة لمالك رحمه الله.

قال علي بن المديني: الليث ثبت.

قال العلاء بن كثير: الليث بن سعد سيدنا وإمامنا وعالمنا.

مواقف من حياته:

قال الحسن بن يوسف بن مليح: سمعت أبا الحسن الخادم قال: كنت غلاماً لزبيدة (زوجة الرشيد) وأتي بالليث بن سعد تستفتيه فكنت واقفاً على رأس ستي زبيدة خلف الستارة فسأله الرشيد فقال له: حلفت إن لي جنتين فاستحلفه الليث ثلاثاً إنك تخاف الله فحلف له فقال: قال الله: {وَلَيْمَنِ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ} [الرحمن: ٤٦] فأقطعه الرشيد قطائع كثيرة بمصر.

وروي عن الليث قال: قال لي أبو جعفر المنصور تلي لي مصر قلت: لا يا أمير المؤمنين إني أضعف عن ذلك إني رجل من الموالي فقال: ما بك ضعف معي ولكن ضعفت نيتك في العمل لي.

قال: وجاءت امرأة إلى الليث فقالت: يا أبا الحارث إن ابناً لي عليلاً واشتهد عسلاً فقال: يا غلام أعطها مرطاً من عسل والمرط عشرون ومائة رطل.

وعن الحارث بن مسكين قال: اشترى قوم من الليث ثمرة فاستغلوها فاستقالوا فأقالهم ثم دعا بخريطة فيها أكياس فأمر لهم بخمسين ديناراً فقال له ابنه الحارث في ذلك فقال: اللهم غفرا إنهم قد كانوا أملوا فيها أملاً فأحببت أن أعوضهم من أملهم بهذا.

وروي عن الليث قال: لما ودعت أبا جعفر المنصور ببيت المقدس قال: أعجبنى ما رأيت من شدة عقلك والحمد لله الذي جعل في رعيتي مثلك قال شعيب: كان أبي يقول: لا تخبروا بهذا ما دمت حياً.

قال يحيى بن بكير: قال الليث: قال لي المنصور تلي مصر؛ فاستعفيت

قال: أما إذا أبييت فدلني على رجل أقلده مصر قلت: عثمان بن الحكم الجذامي رجل له صلاح وله عشيرة. قال: فبلغ عثمان ذلك فعاهد الله ألا يكلم الليث.

وروي عن سعيد الآدم قال: مررت بالليث بن سعد ففتحني فرجعت إليه فقال لي: يا سعيد خذ هذا القنداق فاكتب لي فيه من يلزم المسجد ممن لا بضاعة له ولا غلة. فقلت: جزاك الله خيراً يا أبا الحارث. وأخذت منه القنداق ثم صرت إلى المنزل فلما صليت أوقدت السراج وكتبت بسم الله الرحمن الرحيم ثم قلت فلان بن فلان ثم بدرتني نفسي. فقلت: فلان بن فلان. قال: فبينما أنا على ذلك إذا أتاني آت فقال: هالله يا سعيد تأتي إلى قوم عاملوا الله سرّاً فتكشفهم لآدمي ما الليث وما شعيب أليس مرجعهم إلى الله الذي عاملوه. فقامت ولم أكتب شيئاً، فلما أصبحت أتيت الليث فتهلل وجهه فناولته القنداق فنشره فما رأى فيه غير بسم الله الرحمن الرحيم فقال: ما الخبر فأخبرته بصدق عما كان فصاح صيحة فاجتمع عليه الناس من الحلق فسألوه فقال: ليس إلا خير ثم أقبل علي فقال: يا سعيد تبينتها وحرمتها صدقت ما الليث وما شعيب أليس مرجعهم إلى الله.

عن أبي صالح كاتب الليث قال: كنا على باب مالك فامتنع عن الحديث فقلت: ما يشبه هذا صاحبنا فسمعها مالك فأدخلنا وقال: من صاحبكم؟ قلت: الليث قال: تشبهونا برجل كتبت إليه في قليل عصف نصبغ به ثياب صبياننا فأنفذ منه ما بعنا فضلته بألف دينار.

وفاته:

قال يحيى بن بكير وسعيد بن أبي مريم: مات الليث للنصف من شعبان سنة خمس وسبعين ومائة قال يحيى: يوم الجمعة وصلى عليه موسى بن عيسى.

قال خالد بن عبد السلام الصدي: شهدت جنازة الليث بن سعد مع والدي فما رأيت جنازة قط أعظم منها رأيت الناس كلهم عليهم الحزن وهم

يعزي بعضهم بعضاً ويكون فقلت يا أبت كأن كل واحد من الناس صاحب
هذه الجنازة فقال: بابني لا ترى مثله أبدا (1).

* * *

(1) المصدر: طبقات ابن سعد: 517 / 7، التاريخ لابن معين: 501، طبقات خليفة: 296. تاريخ
خليفة: 449، التاريخ الكبير: 246 / 7، التاريخ الصغير: 209 / 2، المعارف لابن قتيبة:
505، 506، الجرح والتعديل: 179 / 7 - 180، مشاهير علماء الأمصار: (1536): 191،
مروج الذهب: 349 / 3، الحلية: 318 / 7، الفهرست: 199 / 1، تاريخ بغداد: 3 / 13،
صفوة الصفوة: 281 / 4، وفيات الأعيان: 127 / 4 - 132، تهذيب الكمال للمزي: 1152،
تذكرة الحفاظ: 224 / 1 - 226، ميزان الاعتدال: 423 / 3، العبر للذهبي: 266 / 1، صبح
الأعشى: 399 / 2، تهذيب التهذيب: 459 / 8، النجوم الزاهرة: 82 / 2، الجواهر المضيئة:
266 / 1، شذرات الذهب: 285 / 1.

الإمام الفقيه الطبري

الإمام الفقيه الطبري

أعلام الفقهاء

الإمام الفقيه الطبري

في بلاد (طبرستان).. بلاد العلم والأدب والفقه، وفي أجمل مدنها.. مدينة (أمل) العريقة عاصمة طبرستان، والتي تقع الآن في دولة أذربيجان، جنوب بحر قزوين، وُلد حَجَّةُ العلوم، وعالم العلماء في عصره، الإمام (محمد ابن جرير الطبري) سنة 224هـ، ولُقب بالطبري لأن أهل طبرستان جميعًا يُنسَبون إليها؛ فيقال لكل واحد منهم طبري، فكان أهل طبرستان كثيري الحروب، فكان كل منهم يحمل سلاحه في يده، وهو نوع من الأشجار يسمى (الطبر).

لم يكد الطبري يبلغ السن التي تؤهله للتعلم حتى عهد به والده إلى علماء (أمل) وسرعان ما تفتح عقله، وبدأت عليه علامات النبوغ، فكان هذا النبوغ المبكر حافزاً لأبيه على إكمال تعليم ابنه، وبخاصة أنه رأى رؤية تفاعل من تأويلها، قال الطبري: (رأى أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعني مخللة مملوءة بالأحجار، وأنا أرمي بين يديه) وقصَّ رؤياه على مفسر للأحلام، فقال له: إن ابنك إن كبر نصح في دينه، ودافع عن شريعته، فحرص أبي على معونتي من أجل طلب العلم وأنا حينئذ صبي صغير.

أخذ ابن جرير الطبري يرحل في طلب العلم، فتعلم الفقه ببغداد، والمغازي والسير في الكوفة، ثم توجه ناحية مصر، وفي طريقه إليها مرَّ بببروت، وقضى بها عدة أيام حتى قرأ القرآن برواية الشاميين، ثم واصل مسيرته، وفي مصر تلقى الطبري العلم، فأخذ من علمائها قراءة (حمزة) (وَوَرُش) ثم عاد إلى بغداد مرة أخرى، وانقطع للعلم والدراسة والتأليف في كثير من الأوقات، وكان يتاجر بقية الوقت ليأتي برزقه.

وكان الطبري عالي الهمة، عظيم الاجتهاد؛ ومما يحكى عنه: أن رجلاً

جاءه يسأله في العَرُوض (وهو علم يعرف به الشعر من النثر) ولم يكن الطبري له إمام كبير بهذا العلم فقال له: علي قولٌ ألا أتكلم اليوم في شيء من العروض، فإذا كان في غد فتعال إلي، ثم طلب أبو جعفر كتاب العروض، فتدارسه في ليلته، وقال: أمسيت غير عَرُوضي، وأصبحت عَرُوضيًا.

وقد تمكن ابن جرير من نواحي العلم، وأدلى بدلوه فيها، حتى أصبح إمام عصره بغير منازع، وقد قيل عنه: كان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو.. وظل الطبري أربعين عامًا يكتب كل يوم أربعين ورقة، قاصدًا بذلك وجه الله، بما ينفع به الإسلام والمسلمين، وكان رحمه الله من العباد الزهاد، يقوم الليل، نظيفًا في ظاهره وباطنه، ظريفًا، حسن العشرة، مهذبًا في جميع أحواله.

مؤلفات الطبري:
كان الطبري من أكثر علماء عصره نشاطًا في التأليف، أشهر مؤلفاته تفسيره المعروف بتفسير الطبري، وكتاب “تاريخ الأمم والملوك” روي عنه أنه قال: استخرت الله وسألته العون على ما نويته من تصنيف التفسير قبل أن أعمله ثلاث سنين فأعانني (1).

قال الحاكم: وسمعت أبا بكر بن بالويه يقول: قال لي أبو بكر بن خزيمة: بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير قلت: بلى كتبت عنه إملاء قال: كله قلت: نعم، قال: في أي سنة قلت: من سنة ثلاث وثمانين ومائتين إلى سنة تسعين ومائتين قال: فاستعاره مني أبو بكر ثم رده بعد سنين ثم قال: لقد نظرت فيه من أوله إلى آخره وما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير (2).

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 295/11.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 294/11.

قال أبو محمد الفرغاني: تم من كتب محمد بن جرير كتاب التفسير الذي لو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب كل كتاب يحتوي على علم مفرد مستقصى لفعل (1).

وتم من كتبه “ كتاب التاريخ “ إلى عصره وتم أيضاً كتاب “ تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين وإلى شيوخه الذين لقيهم “ وتم له كتاب “ لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام “ وهو مذهبه الذي اختاره وجوده واحتج له وهو ثلاثة وثمانون كتاباً وتم له كتاب “ القراءات والتنزيل والعدد “ وتم له كتاب “ اختلاف علماء الأمصار “ وتم له كتاب “ الخفيف في أحكام شرائع الإسلام “ وهو مختصر لطيف وتم له كتاب “ التبصير “ وهو رسالة إلى أهل طبرستان يشرح فيها ما تقلده من أصول الدين وابتدأ بتصنيف كتاب “ تهذيب الآثار “ وهو من عجائب كتبه ابتداء بما أسنده الصديق مما صح عنده عنده وتكلم على كل حديث منه بعلمه وطرقه ثم فقهه واختلاف العلماء وحججهم وما فيه من المعاني والغريب والرد على الملحدين فتم منه مسند العشرة وأهل البيت والموالي وبعض مسند ابن عباس فمات قبل تمامه. قلت: هذا لو تم لكان يجيء في مائة مجلد، قال: وابتدأ بكتابه “ البسيط “ فخرج منه كتاب الطهارة فجاء في نحو من ألف وخمسمائة ورقة لأنه ذكر في كل باب منه اختلاف الصحابة والتابعين وحجة كل قول وخرج منه أيضاً أكثر كتاب الصلاة وخرج منه آداب الحكم وكتاب المحاضر والسجلات و “ كتاب ترتيب العلماء “ وهو من كتبه النفيسة ابتداء بآداب النفوس وأقوال الصوفية ولم يتمه وكتاب “ المناسك “ وكتاب “ شرح السنة “ وهو لطيف بين فيه مذهبه واعتقاده وكتابه “ المسند المخرج “ يأتي فيه على جميع ما رواه الصحابي من صحيح وسقيم ولم يتمه ولما بلغه أن أبا بكر بن أبي داود تكلم في حديث غدير خم عمل كتاب “ الفضائل “ فبدأ بفضل أبي بكر ثم عمر وتكلم على

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 294/11.

تصحيح حديث غدير خم واحتج لتصحيحه ولم يتم الكتاب.

وقال بعض العلماء: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيرًا.

أسلوبه في التأليف:

يقول أحمد بن خلكان: “ لأبي جعفر في تأليفه عبارة وبلاغة فمما قاله في كتاب الآداب النفيسة والأخلاق الحميدة القول في البيان عن الحال الذي يجب على العبد مراعاة حاله فيما يصدر من عمله لله عن نفسه قال: إنه لا حالة من أحوال المؤمن يغفل عدوه الموكل به عن دعائه إلى سبيله والعودة له رصداً بطرق ربه المستقيمة صادًا له عنها كما قال لربه عز ذكره إذ جعل

من المنظرين: {الْأَقْعَدَنَّهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} (١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ { [الأعراف: ١٦، ١٧] طمعاً منه في تصديق ظنه عليه إذ قال لربه {لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ} [الأقيلال: ٦٢] فحق على كل ذي حجي أن يجهد نفسه في تكذيب ظنه وتخيبه منه أمله وسعيه فيما أرغمه ولا شيء من فعل العبد أبلغ في مكروهه من طاعته ربه وعصيانه أمره ولا شيء أسر إليه من عصيانه ربه واتباعه أمره فكلام أبي جعفر من هذا النمط وهو كثير مفيد “.

وروي عن أبي سعيد الدينوري مستملي ابن جرير “ أخبرنا أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري بعقيدته فمن ذلك وحسب امرئ أن يعلم أن ربه هو الذي على العرش استوى فمن تجاوز ذلك فقد خاب وخسر وهذا تفسير هذا الإمام مشحون في آيات الصفات بأقوال السلف على الإثبات لها لا على النفي والتأويل وأنها لا تشبه صفات المخلوقين أبداً “ (1).

ثناء العلماء عليه:

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 295/11.

قال أبو سعيد بن يونس: محمد بن جرير من أهل أمل كتب بمصر ورجع إلى بغداد وصنف تصانيف حسنة تدل على سعة علمه.

وقال الخطيب البغدادي: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب كان أحد أئمة العلماء يُحكم بقوله ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره فكان حافظاً لكتاب الله عارفاً بالقراءات بصيراً بالمعاني فقيهاً في أحكام القرآن عالماً بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين عارفاً بأيام الناس وأخبارهم. وكان من أفراد الدهر علماً وذكاء وكثرة تصانيف قل أن ترى العيون مثله.

مواقف من حياته:

قيل: إن المكتفي أراد أن يحبس وقفًا تجتمع عليه أقاويل العلماء فأحضر له ابن جرير فأملى عليهم كتابًا لذلك فأخرجت له جائزة فامتنع من قبولها فقلل له: لا بد من قضاء حاجة قال: أسأل أمير المؤمنين أن يمنع السؤال يوم الجمعة ففعل ذلك وكذا التمس منه الوزير أن يعمل له كتابًا في الفقه فألف له كتاب الخفيف فوجه إليه بألف دينار فردها.

وروي عن محمد بن أحمد الصحاف السجستاني سمعت أبا العباس البكري يقول: جمعت الرحلة بين ابن جرير وابن خزيمة ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني بمصر فأرملوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم وأضر بهم الجوع فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه فاتفق رأيهم على أن يستهموا ويضربوا القرعة فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام فخرجت القرعة على ابن خزيمة فقال لأصحابه: أمهلوني حتى أصلي صلاة الخيرة قال: فاندفع في الصلاة فإذا هم بالشموع ورجل من قبل والي مصر يدق الباب ففتحوا فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقلل: هو ذا فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه ثم قال: وأيكم محمد ابن جرير؟ فأعطاه خمسين ديناراً وكذلك للرويانى وابن خزيمة ثم قال: إن

الأمير كان قائلاً بالأمس فرأى في المنام أن المحامد جياع قد طووا كشحهم فأنفذ إليكم هذه الصرر وأقسم عليكم إذا نفذت فابعثوا إلي أحدكم.

وقال أبو محمد الفرغاني في ذيل تاريخه على تاريخ الطبري قال: حدثني أبو علي هارون بن عبد العزيز أن أبا جعفر لما دخل بغداد وكانت معه بضاعة يتقوت منها فسرقت فأفضى به الحال إلى بيع ثيابه وكمي قميصه فقال له بعض أصدقائه: تنشط لتأديب بعض ولد الوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان قال: نعم فمضى الرجل فأحكم له أمره وعاد فأوصله إلى الوزير بعد أن أعاره ما يلبسه فقربه الوزير ورفع مجلسه وأجرى عليه عشرة دنانير في الشهر فاشتترط عليه أوقات طلبه للعلم والصلوات والراحة وسأل استلافه رزق شهر ففعل وأدخل في حجرة التأديب وخرج إليه الصبي وهو أبو يحيى فلما كتبه أخذ الخادم اللوح ودخلوا مستبشرين فلم تبق جارية إلا أهدت إليه صينية فيها دراهم ودنانير فرد الجميع وقال: قد شرطت على شيء فلا آخذ سواه فدرى الوزير ذلك فأدخله إليه وسأله فقال: هؤلاء عبيد وهم لا يملكون فعظم ذلك في نفسه.

وكان ربما أهدى إليه بعض أصدقائه الشيء فيقبله ويكافئه أضعافاً لعظم مروءته. وكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم مع عظيم ما يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد فأما أهل الدين والعلم فغير منكرين علمه وزهده في الدنيا ورفضه لها وقناعته رحمه الله بما كان يرد عليه من حصة من ضيعة خلفها له أبوه بطبرستان يسيرة، وكان ينشد لنفسه:

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي :: وأسْتَغني فيسْتَغني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي :: ورفقي في مطالبي رفيقي
ولو أني سمحت بماء وجهي :: لكنت إلى العلى سهل الطريق
وله خلقان لا أرضى فعالمهما :: بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غيت فلا تكن بطرا :: وإذا افتقرت فتت على الدهر

قال أبو القاسم بن عقيل الوراق: إن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا؟ قالوا: كم قدره فذكر نحو ثلاثين ألف ورقة فقالوا: هذا مما تنفي الأعمار قبل تمامه فقال: إنا لله ماتت الهمم فاختصر ذلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة ولما أن أراد أن يملئ التفسير قال لهم نحوا من ذلك ثم أملاه على نحو من قدر التاريخ (1).

وكان الطبري لا يقبل المناصب خوفاً أن تشغله عن العلم من ناحية ولأن من عادة العلماء البعد عن السلطان من ناحية أخرى، فقد روى المراغي قال: لما تقلد الخاقاني الوزارة وجه إلى أبي جعفر الطبري بمال كثير فامتنع من قبوله فعرض عليه القضاء فامتنع فعرض عليه المظالم فأبى فعاتبه أصحابه وقالوا: لك في هذا ثواب وتحية سنة قد درست وطمعوا في قبوله المظالم فذهبوا إليه ليركب معهم لقبول ذلك فانتهرهم وقال: قد كنت أظن أنني لو رغبت في ذلك لتهتموني عنه قال: فانصرفنا خجلين.

وفاته:

قال أبو محمد الفرغاني حدثني أبو بكر الدينوري قال: لما كان وقت صلاة الظهر من يوم الاثنين الذي توفي في آخره ابن جرير طلب ماءً ليجدد وضوءه فقليل له: تؤخر الظهر تجمع بينها وبين العصر فأبى وصلى الظهر مفردة والعصر في وقتها أتم صلاة وأحسنها، وحضر وقت موته جماعة منهم أبو بكر ابن كامل فقليل له قبل خروج روحه: يا أبا جعفر أنت الحجة فيما بيننا وبين الله فيما ندين به فهل من شيء توصينا به من أمر ديننا وبيننا لنا نرجو بها السلامة في معادنا فقال: الذي أدين الله به وأوصيكم هو ما ثبت في كتبي فاعملوا به وعليه وكلاماً هذا معناه وأكثر من التشهد وذكر الله عز وجل ومسح يده على وجهه وغمض بصره بيده

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 294/11 - 297.

وبسطها وقد فارقت روحه الدنيا.

قال أحمد بن كامل: توفي ابن جرير عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاث مئة ودفن في داره برحبة يعقوب يعني ببغداد قال: ولم يغير شيبة وكان السواد فيه كثيراً وكان أسمر أقرب إلى الأدمة (السواد) أعين نحيف الجسم طويلاً فصيحاً وشيعه من لا يحصيهم إلا الله تعالى.

حقيقة تشيع الطبري!!:

نود أن نثبت أن الذي أثار هذه التهمة قديماً هو الحافظ أحمد بن علي السليماني وهو الذي صرح أن الطبري يضع الحديث للروافض وإزاء تلكم المقولة قال الحافظ أبو حيان: إن ابن جرير إمام من أئمة الشيعة الإمامية. وقبل أن نتحدث عن معطيات وأسباب هذا الاتهام أود أن نثبت رأي علماء الجرح والتعديل يدلون بشهادتهم لتستبين حقيقة هذه التهمة:

قال الحافظ أبو الوفاء الحلبي الطرابلسي ت 841 هـ:

“محمد بن جرير الطبري الإمام المفسر أبو جعفر شيخ الإسلام وصاحب التصانيف الباهرة توفي سنة عشر وثلاثمائة ثقة صادق فيه تشيع وموالاته لا تضر أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال كان يضع للروافض “ (1).

وقال الحافظ المؤرخ شمس الدين الذهبي ت 748 هـ:

“محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام الجليل المفسر أبو جعفر صاحب التصانيف الباهرة ثقة صادق فيه تشيع يسير وموالاته لا تضر. أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال: كان يضع للروافض كذا قال السليماني. وهذا رجم بالظن الكاذب بل إن ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين وما ندعي عصمته من الخطأ ولا يحل لنا أن نوذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأني فيه

(1) أبو الفواء الحلبي الطرابلسي، الكشف الحثيث، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 221/1.

ولاسيما في مثل إمام كبير “ (1).

لكن كيف يتهم إمام حافظ مثل السليمانى على جلالة قدره لابن جرير الطبري؟! فما أدلته على هذه التهمة؟!

يجيب على هذه الشبهة أيضاً الحافظ شمس الدين الذهبي:

“ فلعل السليمانى أراد الآتي: محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر الطبري رافضى له توافيف منها كتاب الرواة عن أهل البيت رماه بالرفض عبد العزيز الكتانى “ (2).

أما الحافظ ابن حجر العسقلانى ت852هـ، فيقول عن الطبري: “ محمد ابن جرير بن يزيد الطبري الإمام الجليل المفسر صاحب التصانيف الباهرة مات سنة عشر وثلاث مائة، ثقة صادق فيه تشيع يسير وموالاته لاتضر أقذع أحمد بن علي السليمانى الحافظ فقال: كان يضع للروافض كذا قال السليمانى وهذا رجم بالظن الكاذب بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين وما ندعي عصمته من الخطأ ولا يحل لنا أن نوذيه بالباطل والهوى فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنى فيه ولاسيما في مثل إمام كبير مثل السليمانى فلعل السليمانى أراد (محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر) ولو حلفت أن السليمانى ما أراد إلا (محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر) لبررت والسليمانى حافظ متقن كان يدري ما يخرج من رأسه فلا أعتقد أنه يطعن في مثل هذا الإمام بهذا الباطل والله أعلم.

وقد اغتر شيخ شيوخنا أبو حيان بكلام السليمانى فقال في الكلام على الصراط في أوائل تفسيره وقال أبو جعفر الطبري وهو إمام من أئمة الإمامية. ونبهت عليه لئلا يغتر به فقد ترجمه أئمة النقل في آلاف (3) وبعده

(1) الذهبي، ميزان الاعتدال، دار الكتب العلمية، بيروت، 90/6.

(2) الذهبي، ميزان الاعتدال، دار الكتب العلمية، بيروت، 90/6.

(3) الألاف: بتشديد اللام الذين يؤلفون الكتب.

فلم يصفوه بذلك وإنما ضره الاشتراك في اسمه واسم أبيه ونسبه وكنيته ومعاصرته وكثرة تصانيفه “ (1).

وهذه شهادة الحافظ أحمد بن علي بكر الخطيب البغدادي ت463 هـ يترجم للطبري ترجمة مطولة في تاريخه نختار منها:

قال الشيخ أبو بكر “ استوطن الطبري بغداد وأقام بها إلى حين وفاته وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفة فضله وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل الآلاف وكان حافظاً لكتاب الله عارفاً بالقراءات بصيراً بالمعاني فقيهاً في أحكام القرآن عالماً بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام عارفاً بأيام الناس وأخبارهم وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك وكتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله وكتاب سماه تهذيب الآثار لم أر سواه في معناه إلا أنه لم يتمه وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واختيار من أقاويل الفقهاء وتفرد بمسائل حفظت عنه وسمعت على بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوي المعروف بالسهمسماني يحكى أن محمد بن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة وبلغني عن أبي حامد أحمد بن أبي طاهر الفقيه الإسفرائيني أنه قال لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً أو كلاماً هذا معناه أخبرنا القاضي أبو عبد الله محمد قال: ثنا علي بن أحمد بن الصنائع عبيد الله بن أحمد السمسار وأبي أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أنتشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره فذكر نحواً مما ذكره في التفسير فأجابوه بمثل ذلك فقال: إنا لله

(1) ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي لمطبوعات، بيروت، 100/5.

ماتت الهمم “ (1).

في ضوء ما سبق نستطيع أن نخلص بالتائج التالية:

لا نستطيع أن نجزم اتهام الحافظ العلامة ابن جرير الطبري مما هو منسوب إليه من تهمة الرفض والتشيع ووضع أحاديث لمصلحة أهل البيت.

قد يكون الحافظ السليماني اختلط عليه الأمر حيث ظن أن الشيعي أبا جعفر محمد بن جرير بن رستم هو نفسه أبو جعفر بن جرير الطبري صاحب التاريخ والتفسير.

أما الرجل الآخر الذي يتفق اسمه وكنيته ولقبه مع ابن جرير السني يقول عنه الحافظ ابن حجر: “محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر الطبري رافضي له تواليف منها كتاب الرواة عن أهل البيت رماه بالرفض عبد العزيز الكتاني انتهى وقد ذكره أبو الحسن بن بابويه في تاريخ الري بعد ترجمة محمد بن جرير الإمام فقال: هو الآملي قدم الري وكان من جلة المتكلمين على مذهب المعتزلة وله مصنفات روى عنه الشريف أبو محمد الحسن بن حمزة الرعيني وروى أيضاً عن أبي عثمان المازني وجماعة وعنه أبو الفرج الأصبهاني في أول ترجمة ابن الأسود من كتابه وذكر شيخنا في الذيل بما تقدم أولاً وكأنه سقط من نسخته أراد الآتي بعد لعل السليماني إلى آخره وكأنه لم يعلم بأن في الرفضية من شاركه في اسمه واسم أبيه ونسبه وإنما يفترقان في اسم الجد ولعل ما حكى عن محمد بن جرير الطبري من الاكتفاء في الموضوع بمسح الرجلين إنما هو هذا الرافضي فإنه مذهبه” (2).

(د) الطبري من أئمة علماء أهل السنة بشهادة علماء الجرح والتعديل

(1) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، 162/2 وما بعدها.

(2) لسان الميزان، 103/5.

وصيارفة الإسلام في علم أحوال الرجال كالذهبي وابن حجر والبغدادي والطرابلسي وغيرهم.

(هـ) أما أنه كان فيه تشيع يسير وموالاته لأهل البيت لا تضر.. لا يعني ذلك أن الرجل كان يميل إلى عقيدة الشيعة بالمعنى الانحرافي؛ فالطبري شأنه شأن بعض العلماء الذين يوالون علياً رضي الله عنه في خلافه مع معاوية رضي الله عنه فقط. وهذه النعوت كان يستخدمها بعض علماء أهل السنة كابن قتيبة فكان يقول عن الرجل أو الراوي أنه شيعي بمجرد الموالاته لعلّي بن أبي طالب وآل بيته دون الحط من منزلة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ودون أن يستتبع ذلك غلو أو سب في عموم الصحابة فإذا تجاوز هذا الحد إلى درجة الغلو فهنا يتحول المصطلح من شيعي إلى رافضي وهم خارجون على منهج أهل السنة والجماعة. هذا هو المقصود من مصطلح شيعي قديماً أما بعد تطور هذا المصطلح عقب العصور المختلفة في تاريخ الإسلام فقد تغير مدلوله الآن وصار مصطلحاً يتناقض ومنهج أهل السنة ومن ثم فلا يتصور أن يستخدم هذا المصطلح في وقتنا الحاضر بغية نعت أحد علماء أهل السنة بحجة أنه يوالي علياً رضي الله عنه وآل البيت لأن كلمة شيعي الآن لها دلالة تختلف عن معناها الاصطلاحي قديماً.

حقيقة اتهام الطبري أنه كان يروي عن بعض الرواة الضعفاء المتهمين لدى علماء الجرح والتعديل كأبي مخنف ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وغيرهم.

مما لا شك فيه أن الطبري روى عن أبي مخنف وابن الكلبي؛ ولنا وقفة مع هؤلاء الإخباريين بعد أن نلقي الضوء على أهم المصادر التي استند عليها الطبري في تاريخه:

الأول: تاريخ الطبري يبدأ منذ بدء الخليقة حتى أحداث سنة 302هـ.

الثاني: مصادر الطبري في تاريخ الرسل والأنبياء ابن إسحاق وكتب وهب ابن منبه.

الثالث: في تاريخ العرب قبل الإسلام على مرويات عبيد بن شرية ومحمد ابن كعب القرظي وهشام الكلبي وابن إسحاق أيضاً.

الرابع: وفي السيرة النبوية استند إلى مرويات أبان بن عثمان وعروة بن الزبير وموسى بن عقبة وعاصم بن عمر والزهرري وابن إسحاق وشرحبيل بن سعد.

الخامس: مصادره عن حروب الردة عن مرويات سيف بن عمر والمدائني.

السادس: أما مصادره في معركتي الجمل 36هـ، وصفين 37هـ فعلى مرويات أبي مخنف ومحمد بن السائب وابنه هشام الكلبي وسيف بن عمر.

السابع: ومصادره عن الدولة الأموية من مرويات عوانة بن الحكم وأبي مخنف والواقدي وابن الكلبي وعمر بن شبة.

الثامن: مصادره عن العصر العباسي على مرويان أحمد بن أبي خيثمة وابن زهير والمدائني وعمر بن راشد والهيثم بن عدي والواقدي.

نلاحظ أنه لم يعتمد على مرويات أبي مخنف وابني الكلبي فقط بل إنه قد نوع مصادره كما هو واضح. لكن أخطر مصادره بحق هي مرويات أبي مخنف عن موقعتي الجمل وصفين لأن هناك تزويراً وتلفيقاً وسباً يخلص المرء بعد قراءته لهاتين الموقعتين أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا مجموعة من أصحاب الدنيا الذين يتقاتلون على ملك زائل يشتم بعضهم بعضاً ويسب بعضهم بعضاً وصحابة رسول الله براء من هذه المرويات الكاذبة التي رواها أبو مخنف وابنا الكلبي، ومن ثم لزام علينا أن نلقي الضوء على هؤلاء الإخباريين:

أما أبو مخنف لوط بن يحيى ت157هـ:

يقول عنه ابن حجر العسقلاني: “إخباري تالف لايوثق به تركه أبو حاتم وغيره، وقال الدارقطني: ضعيف. وقال يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال مرة: ليس بشيء. وقال ابن عدي شيعي محترق. وقال أبو عبيد الآجري: سألت أبا حاتم عنه فنض يده وقال: أحد يسأل عن هذا وذكره في الضعفاء “ (1).

وقال فيه الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ت272هـ: “قرئ على العباس بن محمد الدوري قال: سمعت يحيى بن معين يقول: أبو مخنف ليس بثقة نا عبد الرحمن قال: سمعت أبي يقول: متروك “ (2).

وقال الحافظ أبو أحمد عبد الله بن عدي ت265هـ: “معروف بكنيته واسمه حدث بأخبار من تقدم من السلف الصالحين ولا يبعد منه أن يتناولهم وهو شيعي محترق صاحب أخبارهم “ (3).

أما عن محمد بن السائب الكلبي ت146هـ:

يقول الذهبي: “العلامة الأخباري أبو النضر محمد بن السائب بن المفسر وكان أيضاً رأساً في الأنساب إلا أنه شيعي متروك الحديث يروي عنه ولده هشام وطائفة “ (4).

وقال الذهبي أيضاً في ميزان الاعتدال عن محمد بن السائب الكلبي:

وقال يزيد بن زريع وكان سبئياً قال أبو معاوية: قال الأعمش: اتق هذه السبئية فإنني أدركت الناس وإنما يسمونهم الكذابين. وقال ابن حبان (عن ابن الكلبي): سبئياً من أولئك الذين يقولون إن علياً لم يمت وإنه راجع إلى الدنيا ويملؤها عدلاً كما ملئت جوراً وإن رأوا سحابة قالوا: أمير المؤمنين فيها. وقال الجوزجاني وغيره: كذاب وقال الدارقطني وجماعة: متروك.

(1) لسان الميزان، 493/4.

(2) عبد الرحمن بن أبي حاتم، الجرح والتعديل، دار إحياء التراث، بيروت، 182/7.

(3) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، دار الفكر، بيروت، 93/6.

(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 248/6.

وقال ابن حبان: مذهبه في الدين ووضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج إلى الإغراق في وصفه “ (1).

وقال ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب: “ محمد بن السائب أبو النضر الكوفي النسابة المفسر متهم بالكذب ورمي بالرفض “ (2).

أما هشام بن السائب الكلبي ت204هـ:

يقول عنه ابن حجر: “ هشام بن محمد بن أبو المنذر الأخباري النسابة العلامة روى عن أبيه أبي المفسر وعن مجالد وحدث عنه جماعة قال أحمد بن حنبل: إنما كان صاحب سمر ونسب ما ظننت أن أحداً يحدث عنه وقال الدارقطني وغيره: متروك وقال ابن عساكر: رافضي ليس بثقة “ (3).

وذكره الخطيب البغدادي بعد أن ساق بسقده قائلاً: “ حدثنا عبد الله ابن أحمد قال: سمعت أبي يقول هشام بن محمد بن من يحدث عنه إنما هو صاحب نسب وسمر وما ظننت أن أحداً يحدث عنه بلغني أن هشام مات في سنة أربع ومائتين وقيل سنة ست ومائتين “ (4).

وقال ابن عدي في كتابه الكامل في ضعفاء الرجال: “ هشام بن محمد بن السائب ومحمد بن السائب والده صاحب التفسير سمعت ابن حماد يقول: حدثني عبد الله سمعت أبي يقول: هشام من يحدث عنه إنما هو صاحب سمر ونسبة وما ظننت أن أحداً يحدث عنه وهذا كما قال أحمد هشام الغالب عليه الأخبار والأسمار والنسبة ولا أعرف له شيئاً من المسند “ (5).

(1) ميزان الاعتدال، 161/6.

(2) ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، دار الرشيد، سوريا، 479/1.

(3) لسان الميزان، 196/6.

(4) تاريخ بغداد، 45/14.

(5) الكامل في ضعفاء الرجال، 110/7.

صفوة القول أن أبا مخنف إخباري رافضي تالف متهم بالكذب، شيعي محترق. أما محمد بن السائب الكلبي وابنه هشام فهما إخباريان متهمان بالرفض والتشيع وتلفيق المرويات التاريخية.

لكن يبقى السؤال قائماً: لماذا روى الطبري عن هؤلاء الإخباريين رغم تجريح العلماء لهم؟

نجد الإجابة على هذا التساؤل في مقدمة تاريخ الطبري إذ يوضح لنا منهجه بكل صراحة حين يقول:

فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنع سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقله إلينا وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا (1).

هكذا يلقي الطبري تبعة الرواية على عهدة الراوي لأنه يعلم أنه بمجرد ذكر اسم الراوي الذي أخذ عنه الخبر أو الحديث فإنه يكون قد أدى الأمانة لأصحابها لأن الناظر علمه بحال الراوي وخاصة في حالة الرواية المجروحين فإنه لن يقبل هذه الرواية الواهية أو المكذوبة. وهذه كانت طريقة كثير من علماء السلف قديماً الذين لم يكونوا يشترطون على أنفسهم الصحة في كل المرويات التي يكتبونها. وكنا نود أن يعلق الطبري على الأخبار والخرافات والأساطير والأكاذيب التي قيلت في حق الصحابة رضوان الله عليهم وخاصة في موقعتي الجمل وصفين تلك المرويات التي اعتمد عليها كل من أراد النيل من تاريخ الصحابة الأخيار رضوان الله عليهم حتى صار الأمر ببعض البسطاء باعتقادهم أن ما شجر بين الصحابة مسلم به لأنه مروي عن ابن جرير لأنه المصدر الأساسي لكل هذه الكتب التي تناولت الحقبة التاريخية الأولى التي رواها الإخباري الخبيث أبو

(1) ابن جرير الطبري، تاريخ الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 5/1.

مخنف وابن الكلبي (1).

ونريد أن نقول إن اتهام الطبري بالتشيع لم يثبت، وإن كانت كتاباته كانت نقلاً (في أحيان كثيرة) عن اتهم ليس بالتشيع فقط بل بالرفض والوضع والتشيع على الصحابة الأظهر الأخيار وأهل السنة الأبرار، لذا وجب التنويه على القارئ والباحث في كتابات الطبري توخي الحذر من مروياته

لا سيما في الجوانب الخلافية بين الصحابة وأهل السنة والجماعة والشيعة.

* * *

(1) هاني السباعي، مدير مركز المقريزي للدراسات التاريخية بلندن.

الفقيه القاضي شريح الكندي

الفقيه القاضي شريح

أعلام الفقهاء

المفقيه القاضي شريح الكندي

أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم بن معاوية بن عامر بن الرائش بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع الكندي؛ من كبار التابعين، وأدرك الجاهلية والإسلام، واستقضاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكوفة، فأقام قاضياً خمساً وسبعين سنة لم يتعطل فيها إلا ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء في فتنة ابن الزبير، واستعفى الحجاج بن يوسف من القضاء فأعفاه، ولم يقض بين اثنتين حتى مات.

كان أعلم الناس بالقضاء، ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل ورصانة، قال ابن عبد البر: وكان شاعراً محسناً، وهو أحد السادات الطلس (1).

ولما أراد عمر بن الخطاب أن يولي شريح القضاء كتب إليه: إذا أتاك أمر في كتاب الله، فاقض به، فإن لم يكن في كتاب الله وكان في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض به؛ فإن لم يكن فيهما، فاقض بما قضى به أئمة الهدى، فإن لم يكن فأنت بالخيار، إن شئت تجتهد رأيك، وإن شئت تؤامرني، ولا أرى مؤامرتك إياي إلا أسلم لك.

وكان يحب المزاح، فقد دخل عليه عدي بن أرطاة فقال له: أين أنت أصلحك الله فقال: بينك وبين الحائط، قال: استمع مني، قال: قل أسمع، قال: إني رجل من أهل الشام، قال: مكان سحيق، قال: تزوجت عندكم، قال: بالرفاء والبنين، قال: وأردت أن أرحلها، قال: الرجل أحق بأهله، قال: وشرطت لها دارها، قال: الشرط أملك، قال: فاحكم الآن بيننا، قال: قد فعلت، قال: فعلى من حكمت قال: على ابن أمك، قال: بشهادة من قال:

(1) والأطلس: الذي لا شعر في وجهه. والأربعة هم: عبد الله بن الزبير، وقيس بن سعد بن عبادة، والأحنف بن قيس الذي يضرب به المثل في الحلم، والقاضي شريح المذكور.

بشهادة ابن أخت خالتك (1).

وكان سبب تولية شريح القضاء أن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَخَذَ مِنْ رَجُلٍ فَرَساً عَلَى سَوْمٍ يَحْمِلُ عَلَيْهِ رَجُلًا، فَعَطَبَ الْفَرَسَ فَقَالَ عُمَرُ: اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ رَجُلًا فَقَالَ: الرَّجُلُ: اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَرِيحاً عِرَاقِي فَاتَّيَا شَرِيحاً فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخَذْتَهُ صَاحِباً سَلِيماً عَلَى سَوْمٍ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَرُدَّهُ سَلِيماً كَمَا أَخَذْتَهُ قَالَ: فَأَعْجَبَهُ مَا قَالَ: ثُمَّ بَعَثَهُ قَاضِياً، ثُمَّ قَالَ: مَا وَجَدْتَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَالْزِمِ السَّنَةَ فَإِنْ لَمْ يَكْ فِي السَّنَةِ فَاجْتَهِدْ رَأْيَكَ (2).

وكانت وفاة القاضي شريح سنة سبع وثمانين للهجرة وهو ابن مائة سنة (3).

ولما وقعت فتنة ابن الزبير اعتزل شريح القضاء، وقال: لا أقضي فبقني لا يقضي تسع سنين. ولما انصرف يوماً من مجلس قضائه، فاعترضه رجل فقال له: أما حان لك أن تخاف الله؟ كبرت سنك، وفسد ذهنك، فصارت الأمور تجوز عليك. فقال: والله، لا يقولها أحد بعدك. فلزم بيته حتى مات.

وكان شريح يقول للشاهدين: إنما يقضي على هذا الرجل أنتما، وإنني لمتق بكما فاتقيا.

وكان إذا سأل كيف أصبحت؟ قال: أصبحت وشطر الناس علي غضاب.

وكان لشريح بيت يخلو فيه يوم الجمعة، لا يدري الناس ما يصنع فيه. ولبت شريح في فتنة ابن الزبير تسع سنين معتزلاً لها لا يسأل عن أحداثها حتى لا يميل إلي أي طرف، ف قيل له: قد سلمت. قال: كيف

(1) وفيات الأعيان، 2 / 462.

(2) أخبار القضاة، 2 / 191.

(3) وفيات الأعيان، 2 / 464.

بالهوى.

عنه قال: ما تخيرت ولا تخبرت يعني في الفتنة، ولا كلمت مسلماً ولا معاهداً منذ وقعت الفتنة، فقال له رجل: لو كنت مثلك لسرني أن أموت الآن، قال: فما تأمرني بما في قلبي ولم يلتق فئتان إلا سرني أن يغلب إحداهما(1).

وكان شريح شاعراً معجباً(2).

وكان شريح إذا دخل السوق يقوم عند درج المسجد، فيقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ثم ينصرف.

وكان شريح يقبل الهدية ويثيب عليها.

مواقف من حياته رحمه الله:

أذهب فأنت من أفضل الناس:

وروي أن علياً رضي الله عنه قال: اجمعوا لي القراء، فاجتمعوا في رحبة المسجد، فقال: إني أوشك أن أفارقكم، فجعل يسألهم: ما تقولون في كذا ما تقولون في كذا وشريح ساكت، ثم سألته، فلما فرغ منهم قال: اذهب فأنت من أفضل الناس، أو من أفضل العرب.

رأيت رجالاً يضربون نساءهم:

وتزوج شريح امرأة من بني تميم تسمى زينب، فنقم عليها شيئاً فضربها، ثم ندم وقال:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم :: فشلت يميني يوم أضرب زينبا
أضربها من غير ذنب أتت به :: فما العدل مني ضرب من ليس مذنباً
فزنب شمس والنساء كواكب :: إذا طلعت لم تبق منهن كوكبا وهكذا(3)

(1) أخبار القضاة، 2 / 189.

(2) أخبار القضاة، 2 / 201.

(3) وفيات الأعيان، 2 / 462.

ولولا الأمانة في المشورة لوددت أنه قطع يده:

ويروى أن زياد بن أبيه كتب إلى معاوية بن أبي سفيان: يا أمير المؤمنين، قد ضبطت لك العراق بشمالي، وفرغت يميني لطاعتك، فولني الحجاز، فبلغ ذلك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وكان مقيماً بمكة، فقال: اللهم اشغل عنا يمين زياد، فأصابه الطاعون في يمينه، فجمع الأطباء واستشارهم، فأشاروا عليه بقطعها، فاستدعى القاضي شريحاً وعرض عليه ما أشار به الأطباء، فقال: لك رزق معلوم وأجل مقسوم وإنني أكره إن كانت لك مدة أن تعيش في الدنيا بلا يمين، وإن كان قد دنا أجلك أن تلقى ربك مقطوع اليد فإذا سألك: لم قطعتها قلت: بغضاً في لقائك وفراراً من قضائك. فمات زياد من يومه، فلام الناس شريحاً على منعه من القطع، لِبغضهم له، فقال: إنه استشارني والمستشار مؤتمن، ولولا الأمانة في المشورة لوددت أنه قطع يده يوماً ورجله يوماً وسائر جسده يوماً يوماً (1).

وأنتك وإياهم لعلى بساط واحد:

وكتب شريح إلى أخ له هرب من الطاعون: أما بعد فإنك أنت الذي بعين من لا يعجزه من طلب ولا يفوته من هرب، والمكان الذي خلفته لم يعجل امرأ حمامه ولم يظلمه أيامه، وأنتك وإياهم لعلى بساط واحد؛ إن المنتجع من غير ذي قدرة لقريب والسلام (2).

جاؤوا أباهم عشاء يبكون:

وعن الشعبي قال: شهدت شريحاً وجاءته امرأة تخاصم رجلاً فأرسلت عينيها فبكت، فقلت أنا: ما أظن هذه البائسة إلا مظلومة، فقال: يا شعبي أن إخوة يوسف عليه السلام جاؤوا أباهم عشاء يبكون (3).

(1) وفيات الأعيان، 2 / 463.

(2) وفيات الأعيان، 2 / 463.

(3) وفيات الأعيان، 2 / 463.

أكان مؤمناً!

وسئل شريح عن الحجاج: أكان مؤمناً؟ قال: نعم، بالطاغوت، كافراً بالله تعالى.

فأنهن النساء:

عن الشعبي قال: قال لنا شريح: يا شعبي عليكم بنساء بني تميم فإنهن النساء، قلنا: وكيف ذلك يا أبا أمية؟ قال: رجعت يوماً من جنازةٍ مظهراً فمررت بخباءٍ فإذا بعجوز معها جارية روء، فاستسقيت فقالت: اللبن أعجب إليك أم الماء أم النبيذ؟ قال قلت: اللبن أعجب إلي. قالت: يا بنية اسقيه لبناً فإني أظنه غريباً، فسقتني، فلما شربت قلت: من هذه الجارية؟ قالت: هذه بنتي زينب بنت حدير إحدى نساء بني تميم ثم من بني حنظلة ثم من بني طهية، قلت: أتزوجينيها، قالت: نعم إن كنت كفؤنا، قال: فانصرفت إلى منزلي، فامتنعت من القيلولة، فلما صليت الظهر وجهت إلى إخواني الثقات: مسروق بن الأجدع والأسود بن يزيد فصليت العصر ثم رحت إلى عمها وهو في مسجده، فلما رأيته تنحى لي عن مجلسه، فقلت: أنت أحق بمجلسك، ونحن طالبو حاجةٍ، فقال: مرحباً بك يا أبا أمية، ما حاجتك؟ قلت: إني ذكرت زينب بنت أخيك، فقال: والله ما بها عنك رغبة ولا بك عنها مقصر، قال: وتكلمت فزوجني ثم انصرفت فما وصلت إلى منزلي حتى ندمت وقلت: ماذا صنعت بنفسي، فهممت أن أرسل إليها بطلاقها، ثم قلت: لا أجمع بين حمقتين، ولكني أضمرها إلي، فإن رأيت ما أحب حمدت الله تعالى، وإن تكن الأخرى طلقته. فأرسلت إليها بصدقها وكرامتها، فلما أهديت إلي وقام النساء عنها قالت: يا هذا إن من السنة إذا أهديت المرأة إلى زوجها أن تصلي ركعتين خلفه ويسألاً الله عز وجل البركة، فقمت أصلي فإذا هي خلفي، فلما فرغت رجعت إلى مكانها، ومددت يدي فقالت: على رسلك، فقلت: إحداهن ورب الكعبة، فقالت: الحمد لله وصلى الله على محمد وآله، أما بعد، فإني امرأة غريبة، ولا والله ما ركبت مركباً هو

أصعب علي من هذا، وأنت رجل لا أعرف أخلاقك، فخبرني بما تحب آته وبما تكره أزدجر عنه، أقول قولِي هذا، وأستغفر الله لي ولك. قال فقلت: الحمد لله وصلى الله على محمد وآله، أما بعد فقد قدمت خير مقدم، قدمت على أهل دار زوجك سيد رجالهم، وأنت إن شاء الله سيدة نسائهم، أحب كذا وأكره كذا، قالت: فحدثني عن أختانك (1)، أتحب أن يزوروك؟ قال قلت: إني رجل قاض وأكره أن يملوني، وأكره أن ينقطعوا عني، قال: فأقمت معها سنة أنا كل يوم أشد سروراً مني باليوم الذي مضى، فرجعت يوماً من مجلس القضاء فإذا عجوز تأمر وتنهاي في منزلي، فقلت: من هذه يا زينب؟ قالت: هذه خنتك، هذه أُمي، قلت: كيف حالك يا هذه؟ قالت: كيف حالك يا أبا أمية، وكيف رأيت أهلك؟ قال قلت: كل الخير، قالت: إن المرأة لا تكون أسوأ خلقاً منها في حالتين: إذا ولدت غلاماً وإذا حظيت عند زوجها، فإن رابك من أهلك ريب فالسوط السوط، قلت: أشهد أنها ابنتك، قد كفيّتي الرياضة وأحسنّت الأدب. فكانت تجيئني في كل حول مرة فتوصي بهذه الوصية ثم تنصرف، فأقمت معها عشرين سنة ما غضبت عليها يوماً ولا ليلة، إلا يوماً وكنت لها ظالماً وذلك أني ركعت ركعتي الفجر وأبصرت عقرباً فعجلت عن قتلها فكفأت عليها الإناء وبادرت إلى الصلاة وقلت: يا زينب إياك والإناء، فعجلت إليه فحرّكته فضربتها بالعقب، فلو رأيتني يا شعبي وأنا أمص إصبعيها وأقرأ عليهما المعوذتين، وكان لي جار يقال له قيس ابن جرير لا يزال يقرع مريئته، فعند ذلك أقول:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم :: فشلت يميني يوم أضرب زينبا
وأنا الذي أقول:

إذا زينب زارها أهلها :: حشدت وأكرمت زوارها
وإن هي زارهم زرقا :: وإن لم تكن لي هوى دارها

(1) أسهارك.

يا شعبي، فعليك بنساء بني تميم فإنهن النساء (1).

أحسنّت:

عن عامر، قال: جاءت امرأة إلى علي - رضي الله عنه - تخاصم زوجها طلقها فقالت: قد حضت في شهرين ثلاث حيض. فقال علي لشريح: اقض بينهما: قال: يا أمير المؤمنين، وأنت هاهنا؟! قال: اقض بينهما. قال: إن جاءت من بطانة أهلها من يرضى دينه وأمانته يزعم أنها حاضت ثلاث حيض تطهر عند كل قرء، وتصلي، جاز لها، وإلا فلا. قال علي: أحسنّت.

ما الذي أحدثت في القضاء!:

عن أبي هاشم، أن فقيهاً جاء إلى شريح فقال: ما الذي أحدثت في القضاء؟ قال: إن الناس أحدثوا، فأحدثت.

قد علمت من أين أتيت:

عن أبي حصين، قال: قال خصم لشريح: قد علمت من أين أتيت، فقال شريح: لعن الله الراشي والمرتشي والكاذب.

بل سنتكم بينكم:

واختصم إليه غزالون، فقال بعضهم: إنه سنة بيننا، قال: بل سنتكم بينكم.

لا حبس عن فرائض الله:

قال عطاء بن السائب: مر علينا شريح فقلت: رجل جعل داره حبساً على قرابته، قال: فأمر حبيباً، فقال: أسمع الرجل: لا حبس عن فرائض الله.

بل هو ولد هرتي:

عن مجاهد قال: اختصم إلى شريح في ولد هرة، فقالت امرأة: هو ولد

(1) الجليس الصالح والأنيس الناصح، 1 / 371.

هرتي. وقالت الأخرى: بل هو ولد هرتي، فقال شريح: ألقها مع هذه، فإن هي قرت ودارت واسبطرت (1) فهي لها، وإن هي هرت وفرت واقتشعرت، فليس لها.

هو الذي أخرجها:

قال أبو إسحاق السبيعي: خرجت قرحة بإبهام شريح، فقيل: ألا أريتها طبيباً؟ قال: هو الذي أخرجها.

فأحمد الله عليها أربع مرات:

وعن الشعبي، قال شريح: إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها أربع مرات، أحمد إذ لم يكن أعظم منها، وأحمد إذ رزقني الصبر عليها، وأحمد إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب، وأحمد إذ لم يجعلها في ديني.

إنه ابنهما يرثهما ويرثانه:

وعن شريح: أن رجلين وقعاً على جارية في طهر واحد، فأتت بولد، فادعاه كلاهما، فكتب بذلك شريح على عُمَر فكتب: إنه ابنهما يرثهما ويرثانه، ولو بينا لبين لهما، وللباقي منهما ولكنهما لبسا فلبس عليهما فهو للباقي منهما (2).

أفي كتاب الله وجدت هذا أو في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم !:

عن حكم بن عقال، أن شريحاً أتى في امرأة تركت ابني عمها أحدهما زوجها والآخر أخوها، لأُمها، فقال شريح: للزوج النصف، وللأخ من الأم ما بقي، فارتفعوا إلى علي رضي الله عنه فقالوا: إن شريحاً قال: كذا وكذا، قال: ادعوا لي العبد! فأتاه، فقال: أفي كتاب الله وجدت هذا أو في سنة

(1) اسبطرت، أي امتدت للرضاع.

(2) أخبار القضاة، 2 / 191.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: في كتاب الله؛ قال: الله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] قال: أفهو هذا؟ قال: علي: للزوج النصف وللأخ السدس وما بقي بينهما (1).

قص فمثلك يقص:

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ معاوية بْنِ ميسرة بْنِ شريح، قال: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ميسرة، عَنْ شريح قال: مررت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في سوق الكوفة وفي يده لدرة وهو يقول: يا معشر التجار خذوا الحق وأعطوا الحق تسلموا لا تمنعوا قليل الربح فتحرموا كثيراً. حتى انتهى إلى قاص يقص ونحن حديثو عهد برسول الله صلى الله عليه وسلم أما أني أسألك عَنْ مسألتين إن خرجت منهما، وإلا أوجعتك ضرباً، قال: فاسأل يا أمير المؤمنين قال: ما ثبات الإيمان وزواله؟ قال: ثبات الإيمان الورع، وزواله الطمع، قال: قص فمثلك يقص.

هذا خبر ما عندنا:

عَنْ شريح قال: مررت مع علي بن أبي طالب على المقابر، فقال: يا أهل المقابر أما الديار فقد سكنت، وأما الأموال فقد اقتسمت، وأما الذراري فقد نكحت، هذا خبر ما عندنا، هاتوا خبر ما عندكم ثم التفت إلي فقال: لو أذن لهم في الجواب لقالوا: ﴿وَتَكَرَّوْا فَاِنَّ خَيْرَ لِّزَادٍ النَّفْوَ﴾ [البقرة: ١٩٧] (2).

عمن أخذت هذه القصة!:

عَنْ شريح: قال: تقدمت إلى شريح امرأة، فقالت: أيها القاضي أني جئتكَ مخاصمة، فَقَالَ لَهَا: وأين خصمك؟ قالت: أنت خصمي، فأخلى المجلس، قَالَ: لها تكلمي، قالت: إني امرأة لي إحليل، ولي فرج، قال: قد كان لأمر المؤمنين في هذا قضية، ورث من حيث يجيء البول، قالت: إنه

(1) أخبار القضاة، 2 / 193.

(2) أخبار القضاة، 2 / 196.

يجيء منهما جميعاً، قَالَ: فانظري من أين يسبق، قالت ليس شيء منهما يسبق صاحبه إنما يجيئان في وقت، وينقطعان في وقت، قال: إنك لتخبريني بعجيب، قالت: وأخبرك بأعجب من ذلك، تزوجني ابن عم لي، فأخذ مني خادماً فوطئتها فأولجتها، وإنما جئتكم لما ولد لي لتفرق بيني وبين زوجي، فقام من مجلس القضاء فدخل علي رضي الله عنه، فأخبره، فَقَالَ: علي: علي بالمرأة، فأدخلت، فقال: أحق ما يقول القاضي؟ قالت: هو كما قال: قَالَ: فدعا بزوجها، فقال: هذه امرأتك وابنة عمك؟ قال: نعم، قال: فعلمت ما كان؟ قال: نعم، قال: أخدمتها خادماً فوطئتها فأولدتها ثم وطئتها أنت بعد؟ قال: نعم، قال: لأنت أحسن من خاصي أسد، علي بدينار الخادم، وامرأتين فجىء بهن، فقال: خذوا هذه المرأة، إن كانت امرأة فادخلوها بيتاً وألبسوها ثياباً، وعدوا أضلاع جنبها، ففعلوا، فقال: عدد الجنب الأيمن أحد عشر، وعدد الأيسر اثنا عشر؛ فَقَالَ علي: الله أكبر فأمر لها برداء وحذاء وألحقها بالرجال. فَقَالَ زوجها: يا أمير المؤمنين زوجتي وابنة عمي، فرقت بيني وبينها، فألحقها بالرجال؛ عمن أخذت هذه القصة؟ قال: إني أخذتها عن أبي آدم صلى الله عليه وسلم. إن الله عز وجل خلق حواء، ضلع من أضلاع آدم فأضلاع الرجال، أقل من أضلاع النساء بضلع ثم أمر بهن فأخرجوا (1).

أما كان من رقعة تستر بها وجهك؟!

عن شريح، قال: كنت مع علي بن أبي طالب في المسجد جالساً، فجاء رجل فشكا إليه الحاجة، وكثرة العيال، فقال: يا عبد الله أما كان من رقعة تستر بها وجهك؟ (2).

أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة؟!

وروي أن علياً وجد درعاً له عند يهودي التقطها فعرفها فقال: درعي

(1) أخبار القضاة، 2 / 196.

(2) أخبار القضاة، 2 / 198.

سقطت عن جمل لي أورك. فقال اليهودي: درعي وفي يدي، ثم قال اليهودي: بيني وبينك قاضي المسلمين، فأتيا شريحاً، فلما رأى شريح علياً قد أقبل تحرف عن موضعه وجلس علي عليه السلام فيه، ثم قال: لو كان خصمي من المسلمين لساويته في المجلس، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **لا تساوهم في المجلس وأجئوهم إلى أضيق الطريق، فإن سبوكم فاضربوهم، وإن ضربوكم فاقتلوهم**— ثم قال شريح: ما تشاء يا أمير المؤمنين؟ قال: درعي سقطت مني وعرفتھا، قال شريح: يا يهودي ما تقول؟ قال اليهودي: درعي وفي يدي، فقال شريح: صدقت والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك ولكن لا بد من شاهدين، فدعا قنبراً مولاه والحسن ابنه فشهدا إنها لدرعه، فقال شريح: أما شهادة مولاك فقد أجزناها، وأما شهادة ابنك فلا نجيزها. فقال علي: تكلتك أمك، أما سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة؟**— قال: اللهم نعم، قال: أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة؟ والله لأوجهنك إلى بانقيا تقضي بين أهلها أربعين ليلة، ثم قال لليهودي: خذ الدرع. فقال اليهودي: أمير المؤمنين إنها لدرعك سقطت عن جمل أورك التقتطتها، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فوهبها له وأجازه بتسعمائة، وقتل معه يوم صفين (1).

لئن رأيت أني لا أخطيء لبئس ما رأيت:

كان شريح يطوف فجاء إليه رجل، فقال: كيف القضاء في كذا وكذا؟ قال: كذا وكذا فورب هذه البلية لقد قضيت علي بخلاف هذا! قال: فانتزع يده من يده، وقال: لئن رأيت أني لا أخطيء لبئس ما رأيت (2).

وما كان منذ أسكن أسكن منه الليلة:

قال الأصمعي: مات ابن شريح، فلم يشعر بموته، ولم تصرخ عليه

(1) أخبار القضاة، 2 / 200.

(2) أخبار القضاة، 2 / 209.

صارخة؛ فقبل له: يا أبا أمية، كيف ابنك؟ قال: قد سكن عزه، ورجاه أهله، وما كان منذ أسكن أسكن منه الليلة (1).

أنت رجل تعرف نعمة الله على غيرك وتنساها من نفسك:

عَنْ الشَّعْبِيِّ؛ قَالَ: جَاءَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ إِلَى شَرِيحٍ فِي مَجْلِسِ الْقَضَاءِ، فَقَالَ الْأَشْعَثُ: مَرْحَبًا بِشَيْخِنَا وَسَيِّدِنَا هَا هُنَا، هَا هُنَا، فَأَجْلَسَهُ مَعَهُ فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ بَيْنَ يَدَيْ شَرِيحٍ فَقَالَ: مَالِكُ يَا عَبْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: جِئْتُ أَخَاصِمَ الْأَشْعَثِ ابْنَ قَيْسٍ؛ قَالَ شَرِيحٌ لِلْأَشْعَثِ: قُمْ مَعَ خَصْمِكَ؛ قَالَ الْأَشْعَثُ: وَمَا عَلَيْكَ أَنْ تَقْضِيَ وَأَنَا هَا هُنَا؟ قَالَ شَرِيحٌ: قُمْ قَبْلَ أَنْ تَقَامَ، فَقَامَ الْأَشْعَثُ وَهُوَ مَغْضُوبٌ؛ ثُمَّ قَالَ: عَهْدِي بِكَ يَا ابْنَ أُمِّ شَرِيحٍ وَإِنْ بَثْيَابَكَ السُّوسُ؛ قَالَ شَرِيحٌ: أَنْتَ رَجُلٌ تَعْرِفُ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَى غَيْرِكَ وَتَنْسَاهَا مِنْ نَفْسِكَ (2).

لا نسب أموات قريش ولا نعصي أحياءها:

قَالَ الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ: شَهِدْتُ شَرِيحًا، وَدَخَلَ عَلَى الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسٍ الْفَهْرِيِّ، فَقَالَ الضَّحَّاكُ: يَا شَرِيحُ هَلْ رَأَيْتَ بِنَاءً قَطُّ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ قَدْ رَأَيْتُ مَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا؛ قَالَ: كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا شَرِيحُ؛ قَالَ: شَرِيحٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ! وَأَيْنَ السَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا؟ قَالَ الضَّحَّاكُ: أَقْسَمُ بِاللَّهِ لَتَسْبِيَنَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ؛ قَالَ شَرِيحٌ: أَقْسَمُ بِاللَّهِ لَا أَفْعَلُ؛ قَالَ: لَمْ؟ قَالَ: لِأَنَا لَا نَسَبَ أَمْوَاتٍ قَرِيْشٍ وَلَا نَعَصِي أَحْيَاءَهَا؛ قَالَ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا (3).

أما كنتم فاعلين!:

قَالَ: شَرِيحٌ: أُرِيتُمْ لَوْ جَاءَكُمْ مَلِكٌ بَوْحِي مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِحَيْثُ يَسْمَعُكُمْ الصَّوْتُ افْتَرَشَ أَجْنَحَتَهُ ثُمَّ قَالَ: {يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: ٢٩] أما كنتم فاعلين؟ قالوا:

(1) أخبار القضاة، 2 / 216.

(2) أخبار القضاة، 2 / 216.

(3) أخبار القضاة، 2 / 213.

كنا والله متناهين، فقال: فقد جاءكم بها الملك أكرم ملائكة الله عليكم إلى أكرم أهل الأرض عليه (1).

إياك والحنانة، إياك والمنانة، إياك والأنانة:

قال يزيد بن إبراهيم الحوري: كان شريح إذا جلس للقضاء يجلس وعلى رأسه سيامان فجاءته امرأة برجل تزوجها، لها ولد من غيره يطلب النفقة، وكان شريح سمح الوجه، فلما جلس الرجل بين يديه ضحك، فقال له شريح: أتضحك مني، لا أم لك؟ فقال: أصلحك الله ما مثلك يضحك منه ولكن أضحك من وصية أوصاني بها والدي، فخالفته إلى غيره؛ فقال: ما أوصاك به أبوك؟ قال: أوصاني ألا أتزوج بذات الجلاوزة؛ فقال: شريح: فإذا كان في العشى فأتى إلي حتى أوصيك بوصايا تصلها إلى وصية أبيك؛ قال: أوصني ها هنا؛ قال: إني لم أجلس ها هنا للحديث فلما كان العشى راح إليه، فقال له شريح: إياك والحنانة، إياك والمنانة، إياك والأنانة، إياك والنقارة، إياك والرقراقة، إياك والربور ربوق إياك وذات الجلاوزة، فقال له: أصلحك الله فسر له؛ قال: أما الحنانة، فالمرأة التي كان لها زوج، فهي تحن إليه، وأما المنانة فهي التي تمن على زوجها بمالها، وأما الأنانة فهي التي تنن عند الجماع، وأما النقارة فهي التي إذا رآها زوجها تكون فوق سطحها، وأما الرقراقة فهي الصغيرة التي تفشي سر زوجها، وأما الرنق ورنوق فهي الرسحاء، وأما ذات الجلاوزة. فهي التي لها أولاد من غيره، قال: فأشر على قال: عليك بالزرق فإن لهن يمنا (2).

ألا أعلمتها الرجعة كما أعلمتها الطلاق!:

عن عمير بن يزيد؛ قال: كنت عند شريح، فجاء رجل وامرأته يختصمان؛ فقالت المرأة: طلقني ولم يعلمني الرجعة حتى انقضت العدة، فتزوجت رجلاً ودخل عليها زوجها؛ فقال: ألا أعلمتها الرجعة كما أعلمتها

(1) أخبار القضاة، 2 / 216.

(2) أخبار القضاة، 2 / 222.

الطلاق؟ ولم يردّها عليه (1).

لم ترون ذلك!:

عَنْ الشعبي؛ قال: جاءت امرأة تخاصم زوجها إلى شريح في مهرها، وقد كانت قالت لزوجها: طلقني، ولك ما عليك، ففعل، فقالت: لا حتى تطلقني ثلاثاً، ففعل، فَقَالَ: جلساء شريح: أما امرأتك فقد حرمت عليك حتى تتكح زوجاً غيرك ولا نرى مالك إلا قد ذهب؛ فَقَالَ: شريح: لم ترون ذلك؟ والله إن الإسلام إذا أضيّق من حد السيف؛ أما امرأتك فقد حرمت عليك حتى تتكح زوجاً غيرك، وأما مالك فلك (2).

وأين ربح مثله!:

عَنْ شريح، قال: اختصم إليه رجلان في دار باعها أحدهما صاحبها فرد البيع فَقَالَ: الرجل: أين غلة داري؟ فَقَالَ: شريح: وأين ربح مثله؟

كيف رأيت!:

عَنْ الشعبي أن رجلاً شهد عند شريح فلما قام قَالَ: للمشهود عليه: كيف رأيت؟ قَالَ: فرد عليه شريح شهادته (3).

ذاك أحرى ألا تكون ظالماً:

عَنْ الشعبي، قال: قَالَ: رجل لشريح: ما خاصمت إليك قط إلا حكمت علي؛ قال: ذاك أحرى أن لا تكون ظالماً (4).

إنهما قد اجتمعا على ألف.:

شهد رجلان عند شريح على رجل، فشهد أحدهما بألف وخمسمائة دينار وشهد الآخر بألف، فقضى شريح بأقل المالين، فقال الرجل: أنقضني

(1) أخبار القضاة، 2 / 234.

(2) أخبار القضاة، 2 / 241.

(3) أخبار القضاة، 2 / 245.

(4) أخبار القضاة، 2 / 258.

علي وقد اختلفا؟ فقال شريح: إنهما قد اجتمعا على ألف.

أدخلوها داراً لها بابان:

قال ابن سيرين: اشترى رجل بغلة فوجدها حمارة، فخاصم فيها إلى شريح فقال: أدخلوها داراً لها بابان ثم أخرجوا البغال من باب والحمير من باب، فإن اتبعت الحمير فهي حمارة، وإن اتبعت البغال فليست بحمارة.

أذهبي فداعبيه:

قال هشام بن محمد: تزوج رجل ابنة عبد خياط، فولدت غلاماً فانتنى منه، فارتفعت إلى شريح فقال لها: اكشفي عن وجه الصبي فكشفت، فقال شريح: لو كنت حالفاً لحلفت أنه ابنك، ولكن الذي حملك على أن تتزوج ابنة عبد خياط، وأنت رجل من العرب في شرف من العطاء هو الذي حملك على أن تنتفي منه؛ اذهبي فداعبيه (1).

قول شريح في الجراد:

قال عامر: سئل شريح القاضي عن الجراد قال: قبح الله الجرادة فيها خلقة سبعة جبابرة: رأسها رأس فرس وعنقها عنق ثور وصدرها صدر أسد وجناحها جناح نسر ورجلاها رجلا جمل وذنبها ذنب حية وبطنها بطن عقوب (2).

لم تنيت عليه الضرب!:

قال: وكان لشريح القاضي ابن يكثر البطالة فنظر إليه شريح يوماً وهو يهارش بكلب له فكتب رقعة إلى معلمه وفيها هذه الأبيات:

ترك الصلاة لأكلب يسعى بها :: طلب الهراش مع الغواة الرُّجس
فإذا أتاك فغطَّه بملامة :: وعظته موعظة الرفيق الأكيس
فإذا هممت بضربه فبدرة :: وإذا ضربت بها ثلاثاً فاحبس

(1) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، ص 30، 202.

(2) الجليس الصالح والأنيس الناصح، 1/ 359.

وليحملن مني إليك صحيفةً :: نكراء مثل صحيفة المتلمس
اعلم بأنك ما أتيت نفسه :: مع ما يجرعني أعز الأنفس
فضربه المعلم عشراً عشراً. فقال له شريح: لم تثبت عليه الضرب؟
فقال: العشر الأولى للبطالة والثانية للبلادة حيث لا يدري ما يحمل (1).

تركته يأمر وينهي:

وخرج شريح من عند زياد وهو يجود بنفسه، ف قيل له: كيف تركت
الأمير؟ قال: تركته يأمر وينهي يوهمهم أنه لا بأس عليه فلم يلبثوا أن نعى
لهم، ف قيل له في ذلك فقال: نعم تركته يأمر بالوصية وينهى عن البكاء (2).

أحب الأشياء إليه الخبز واللحم:

شهد رجل عند شريح فقال المشهود عليه: أتقبل شهادته وأن أحب
الأشياء إليه الخبز واللحم؟ فتوقف في إمضاء شهادته ف قيل له: لم توقفت؟
فقال: إنه يعني أنه يشهد بأكلة (3).

لا خير فيها إذن:

عن محمد بن سيرين، قال: كان رجل عياب فأبصر بغلة تحت شريح،
فقال: أبا أمية، إن بغلتك لفارهة! قال: إنها إذا ربضت لم تقم حتى تبعث.
قال: لا خير فيها إذن! (4).

وعد خيراً:

قال الأعمش: اشتكى شريح رجله فطلاها بالعسل وجلس في الشمس
فدخل عليه عواده فقالوا: كيف تجدك؟ قال: صالحاً، فقالوا: ألا أريتها
الطبيب؟ فقال: قد فعلت فقالوا: فما قال لك؟ قال: وعد خيراً.

(1) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص 247.

(2) الميمني، سمط اللآلي، ص 68.

(3) محاضرات الأدياء، 1 / 7، 93، 252، 2 / 52.

(4) الجاحظ، البغال، ص 5.

هل رأيت البرق قط؟!

عرض شريح ناقة للبيع فقال له المشتري: كيف غزارتها؟ قال: احلب في أي إناء شئت، قال: فكيف وثاقها؟ قال: احمل على حائط ما شئت، قال: كيف وطاؤها؟ قال: افرش ونم، قال: كيف نجاؤها؟ قال: هل رأيت البرق قط؟

ما كنت أرى أن أحداً هكذا بقي:

عن الشعبي، قال: جاء رجلان إلى شريح، فقال أحدهما: اشتريتُ من هذا داراً فوجدتُ فيها عشرة آلاف درهم، فقال: خذها، فقال له: إنما اشتريتُ الدارَ.

فقال للبائع: فخذها أنت، فقال له: ولم وقد بعته الدار بما فيها فأدار الأمر بينهما.

فأتى الوالي زياد بن أبيه فأخبره، فقال: ما كنت أرى أن أحداً هكذا بقي، وقال لشريح: أدخل بيت المال فألق في كل جراب قبضة حتى تكون للمسلمين.

انج بنفسك:

تزوج بعض الخصيان في زمن شريح بامرأة، فأنت بولد، فتبرأ الخصي منه، فترافعا إلى شريح فألحق الولد به وألزمه أن يحمله على تلك الحال. فاستقبله خصي آخر، فقال: انج بنفسك فإن شريحاً يريد أن يفرق أولاد الزنا على الخصيان (1).

مَنْ هم يا أبا أمية؟!

ومرّ شريح بمجلس بهمدان فسلم فرتبوا عليه وقاموا ورحبوا به فقال: يا معشر همدان إني لأعرف أهل بيت منكم لا يحلّ لهم الكذب فقالوا: مَنْ هم يا أبا أمية؟ فقال: ما أنا بالذي يخبركم فجعلوا يسألونه وتبعوه ميلاً أو

(1) التذكرة الحمدونية، 1 / 110، 156، 3 / 39، 3 / 215.

قريباً منه ويقولون له: من هم؟ وهو يقول: لا أخبركم فانصرفوا عنه يتلهفون: ليته أخبرنا بهم (1).

فعلى من قضيت!:

قيل: أتى عدي بن أرطاة شريحاً القاضي ومعه امرأة له من أهل الكوفة يخاصمها إليه، فلما جلس عدي بين يدي شريح، قال عدي: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: إني امرؤ من أهل الشام، قال: بعيد الدار. قال: وإني قدمت العراق، قال: خير مقدم. قال: وتزوجت هذه المرأة، قال: بالرفاء والبنين. قال: وإنها ولدت غلاماً، قال: ليهنك الفارس. قال: وقد أردت أن أنقلها إلى داري، قال: المرء أحق بأهله. قال: كنت شرطت لها دارها، قال: الشرط أملك. قال: اقض بيننا، قال: قد فعلت. قال: فعلى من قضيت؟ قال: على ابن أمك (2).

من كلامه رحمه الله:

عن أبي حصين، قال: كان شريح إذا قيل له: ممن أنت؟ قال: ممن أنعم الله عليه بالإسلام عديد كندة.

عن شريح، عن عمر، قال: لا تغالوا بصدقات النساء، فإنها لو كانت مكرمة عند الله، أو تقوى، كان أحقكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله ما أصدق رسول الله أحداً من نسائه، ولا أصدق أحداً من بناته أكثر من اثني عشر أوقية.

- عن شريح قال: كتب إلى عمر: بخمس من صوافي الأمراء، إن الأسنان سواء والأصابع سواء، وفي عين الدابة ربع ثمنها، وإن الرجل يسأل عند موته عن ولده، فأصدق ما يكون عند موته، وجراحة الرجال والنساء سواء إلى ثلث دية الرجل.

(1) أبو البركات بدر الدين محمد بن محمد الغزي، المراح في المزاح، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم - بيروت - 1418 هـ 1977م، ص 90.

(2) نهاية الأرب في فنون الأدب، 150/3، 4 / 11.

- وعن الشعبي قال: كتب شريح إلى عُمَر في رجل أهدى إلى رجل هدية، فماتاً جميعاً، فكتب إليه عُمَر: إن كانت الهدية فضلت، والمهدى إليه حي، فهي لورثة المهدي له، وإن لم تفضل فهي لورثة المهدي (1).

عن شريح؛ قال: ما هاجت ريح قط إلا بسقم صحيح أو بشفاء سقيم (2). وكانت كلمة شريح: إنما نحن بالله وله.

مطل الغنى ظلم.

عن الشعبي، أن شريحاً قال: ما التقى رجلان قط إلا بدأ بالسلام أو لاهما بالله.

عن الشعبي؛ قال: كان شريح يقول: خصمك داؤك، وشهودك شفاؤك، ولا نعت الشهود، ولا نفهم الخصوم، ولم نسلط على إشعاركم ولا إنصاركم، إنما سلطان أن نقضي بينكم، فمن سلم لقضائنا فيها ونعمت، ومن لا أمرنا به إلى السجن حتى يسلم لقضائنا (3).

عن الشعبي، قال: كان شريح يورث الأسير، ويقول: إنه أحوج ما يكون إلى نصيبه في الميراث إذا كان أسيراً في يد العدو، فإما أن يفادوه، حتى يجيء ما جاء (4).

عن شريح؛ قال: البيعان بالخيار ما لم يفترقا.

عن شريح، أنه قال: لا شفعة لليهودي، ولا نصراني، ولا لمجوسي، على مسلم.

قال الشيباني: أخبرني صديق لي قال: سمعني شريح وأنا أشتكي بعض ما غمني إلى صديق لي، فأخذ بيدي وقال: يا ابن أخي إياك والشكوى إلى

(1) أخبار القضاة، 2 / 201.

(2) أخبار القضاة، 2 / 209.

(3) أخبار القضاة، 2 / 230.

(4) أخبار القضاة، 2 / 245.

غير الله! فإنه لا يخلو من تشكو إليه أن يكون صديقاً أو عدواً، فأما الصديق فتحزنه ولا ينفعك، وأما العدو فيشمت بك.

وعن شريح، قال: الشفعة للحيطان.

مرّ شريحُ بقومٍ وهم يلعبون فقال: ما لكم؟! قالوا: فرغنا يا أبا أمية! قال: ما بهذا أمر الفارغ (1).

عن الشعبي، قال: كان شريح يجيز شهادة، كل ملة على ملتها، ولا يجيز شهادة اليهودي، على النصراني، ولا النصراني على اليهودي، إلا المسلمين فإنه كان يجيز شهادتهم على الملل كلها.

عن شريح؛ قال: المسلمون عند شروطهم ما لم يعص الله (2).

كان شريح إذا جلس للقضاء يلهج بهولاء الكلمات: سيعلم الظالمون حظ من نقصوا، إن الظالم ينتظر العقاب، وإن المظلوم ينتظر النصر.

يقال: كان من دعاء شريح: اللهم إني أسألك الجنة بلا عمل عملته. وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته (3).

وكان شريح يقول إذا ما أتاه الشاهدان: ما دعوتكما ولا أنهاكما أن ترجعا إن شئتما، وما أنا أقضي على هذا المسلم، إن يقض عليه إلا خيركما، وإني متق بكما فاتقيا (4).

وقال شريح: الحلم كنز موقر، والحليم مطية الجهول (5).

قال شريح: لئن أزال الأحمق أحب إلي من أزال نصف الأحمق؛

(1) عن شعبة حدثنا سعيد الجريري قال غنيم بن قيس: كنا نتواظف في أول الإسلام: ابن آدم اعمل في فراغك لشغلك وفي شبابك لهرمك وفي صحتك لمرضك وفي دنياك لأخرتك وفي حياتك لموتك.

(2) أخبار القضاة، 2 / 275.

(3) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، ص 30، 202.

(4) البصائر والذخائر، 6 / 31.

(5) الجليس الصالح والأنيس الناصح، 1 / 134.

قيل: يا أبا أمية ومن نصف الأحق؟ قال: الأحق المتعاقل.

قال شريح لرجل: يا عبد الله دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فوالله لا تدع من ذلك شيئاً فتجد فقده.

عن محمد بن سيرين أن رجلاً شهد عند شريح فقال: (أشهد بشهادة الله)؛ فقال له شريح: لا تشهد بشهادة الله، ولكن اشهد بشهادتك، فإن الله لا يشهد إلا على حق.

كان شريح يقول: ما التقى رجلان قط إلا بدأ بالسلام أفضلهما، قال الشعبي: فكان قل ما سبق أحد شريحاً بالسلام.

قال شريح: من سأل حاجة فقد عرض نفسه على الرق، فإن قضاها المسؤول استعبده بها، وإن رده رجع حراً، وهما ذليلان، هذا بذل اللؤم وهذا بذل السؤال (1).

ومن شعره رحمه الله:
ومن قوله:

تصوبن واستصعدن حتى كأنما :: يطأن برضراض الحصى جاحم الجمر
ألا كل من يدعى حبيباً، لو بدت :: مروته يفدي حبيب بني فهر
همام يقود الخيل حتى زيرها :: حياض المنايا لا تبيت على وتر
قبطن واستبعدن حتى كأنما :: يطأن برضراض الحصى جاحم الجمر⁽²⁾
و من قول شريح:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم :: فشلت يميني يوم أضرب زينبا
وسبب قوله هذا البيت، ما حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ،
قال: حَدَّثَنَا صُلْتُ بْنُ مَسْعُودٍ، قال: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ مُوسَى الْحَرَمِي، وَعَنْ

(1) محاضرات الأدباء، 1 / 7، 93، 252، 2 / 52.

(2) زعم ابن الكلبي، عَنْ أَبِيهِ، أَنْ شَرِيحاً قَالَ: هَذِهِ الْأَبْيَاتُ؛ لَمَّا بَعَثَ مَعَاوِيَةَ حَبِيبُ بْنُ سُلَيْكَةَ الْفَهْرِي لِنَصْرَةِ عُثْمَانَ فَلَمْ يَدْرِكْهُ حَتَّى قَتَلَ.

شريح، قَالَ: تقدمت إلي امرأة معها ابن لها بعد موت الأب وتزويج الأم وقالت:

أبا مية أتيـناك :: وأنت المرء يأتيه
أتاك ابني وأماه :: وكلتانا تفديـه
غلام هالك الوال :: د أرجو أن أريـه
تزوجت فهاتيـه :: ولا يذهب بك التيه
فلو كنت تأيـمت :: له نازعتـها فيه
ألا أيها الحـاك :: هم هذي قصتي فيه
فقالت الأم:

ألا أيها الحـاكم :: قد قالت لك الجدة
مقالاً فاستمع مـني :: ولا تـرهقني رده
غلام هالك الوال :: د يتيم ضائع الوحده
تزوجت رجاء الخ :: ير من يحسن لي رفده
فكيف الصبر عـن ابني :: وكبدي حملت كبده
فَقَالَ: شريح:

قد سمع الحاكم ما قد قلتما :: ثم قضى بينكما ثم فصل
وبقضاء جائز بينكما :: إن على الحاكم جهداً إن عقل
أيتها الجدة بيـني بالصبي :: ثم خذي ابنك من ذات العلل
فإنها لو صبرت كان لها :: من بعد دعواها يمين البدل

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنْصُورِ الرَّمَادِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ أَشْعَثِ بْنِ سُلَيْمَانَ؛ أَنَّ جَدَّهُ وَأُمَّهُ اخْتَصَمَا إِلَى شَرِيحٍ فِي صَبِي فَقَالَتِ الْجَدَّةُ:

أبا مية أتيـناك :: وأنت المرء نأتيه
أتاك ابني وأماه :: وكلتانا تفديـه
فلو كنت تأيـمت :: لما نازعتـك فيه

تزوجت فهاتيه :: ولا يذهب به التيه
 ألا يأيها القاضي :: هذي قصتي فيه
 فقالت الأم:

ألا يأيها القاضي :: قد قالت لك الجدة
 مقالاً فاستمع مني :: ولا تنظرني رده
 أعزي النفس عن ابني :: وكبدي حملت كبده
 فلما كان في حجري :: يتيماً ضائعاً وحده
 تزوجت رجاء الخير :: من يكلف لي رفده
 ومن يظهر لي الود :: ومن يكفيني فقده
 فقالت: شريح:

قد سمع الحاكم ما قد قلتما :: ثم قضى بينكما ثم فصل
 هذا قضاء جائز بينكما :: إن على القاضي لجهد إن عقل
 فقال: للجدة بيبي بالصبي :: ثم خذي ابنك من ذات العلل
 فإنها لو صبرت كان لها :: من قبل دعواه يتبعها البدل
 وكان شريح ربما سئل عن الشعر، فقال: يوماً:

أبر على الدنيا الملامة إنه :: حريص على استخلاصها من يلومها⁽¹⁾

* * *

الخاتمة

الخاتمة

أعلام الفقهاء

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله، غير مكفٍّ ولا مكفور ولا مودَّع ولا مستغني عنه ربُّنا، ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يوفِّقنا لأداء حقه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله، وأن يجعل ما قصدنا له في هذا الكتاب وفي جميع أقوالنا وأفعالنا خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده. فيا أيها القارئ له، لك غنُّه وعلى مؤلفه غُرْمُه، لك ثمرُته وعليه تبعُته، فما وجدتَ فيه من صوابٍ وحقٍّ فاقبله ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال وقد ذمَّ الله تعالى من يردِّ الحقَّ إذا جاء به مَنْ يبغضه، ويقبله إذا قاله من يحبه فهذا خُلُقُ الأمة الغضبية أي: اليهود. فقد قال ابن القيم رحمه الله: “أقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً، وردَّ الباطل على من قاله وإن كان حبيباً.

وقرر أنه لا يردُّ كل قول من أخطأ جملة، بل لا بد من تمييز الحق من الباطل، فقال: “فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات.”

وقال أيضاً: “.. فإن كل طائفة معها حق وباطل، فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق، ورد ما قالوه من الباطل، ومن فتح الله له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب، ويسر عليه من الأسباب” (1).

وما وجد القارئ فيه من خطأ فإن قائله لم يألُ جهد الإصابة، ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال، كما قيل:

(1) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص378.

والتَّقْصُ في أصلِ الطبيعةِ كامنٌ :: فَبِنُو الطبيعةِ نَقْصُهم لا يُجْحَدُ
وكيف يُعْصَمُ من الخطأ من خُلِقَ ظلوماً جهولاً، ولكن من عُدَّتْ
غلطاته أقربُ إلى الصوابِ ممن عُدَّتْ إصاباته، وعلى المتكلم في هذا
الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق، وغايته النصيحة لله،
ولكتابه، ولرسوله، ولإخوانه المسلمين، وإن جعلَ الحقَ تبعاً للهوى: فَسَدَ
القلبُ والعملُ والحالُ والطريقُ.. والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم
وبارك على خاتم المرسلين محمدٍ وعلى آله أجمعين.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.
الفقير إلي عفو ربه ومغفرته ورضوانه،

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أعلام الفقهاء

المصادر والمراجع

محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، الطبقات الكبرى، المحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة: 1 - 1968 م.

عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج بن الجوزي: صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري - د. محمد رواس قلعجي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، 1399 - 1979.

أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت. أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الثالثة - 1424 هـ - 2003 م.

ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار.

الشعراني: الطبقات الكبرى.

خليفة بن خياط أبو عمر الليثي العصفري، الطبقات، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، الناشر: دار طيبة - الرياض، الطبعة الثانية، 1402 - 1982

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله البخاري الجعفي، التاريخ الكبير، تحقيق: السيد هاشم الندوي، دار الفكر، ابن قتيبة الدينوري: المعارف.

أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي [ت: 277هـ]، المعرفة والتاريخ، المحقق: د. أكرم العُمري، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة:

الأولى، 1981.

أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة، 1405.

أبو إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء، هذبة: محمد بن جلال الدين المكرم (ابن منظور)، المحقق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، 1970، بيروت - لبنان

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: 748هـ).

1 - تذكرة الحفاظ، الناشر: صحح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة الحرم المكي تحت إعانة وزارة معارف الحكومة العالية الهندية دار إحياء التراث العربي

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي. لبنان/ بيروت. الطبعة: الأولى. 1407هـ - 1987م.

3 - سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة التاسعة 1413 هـ - 1993 م

4 - العبر في خبر من غبر، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت

5 - ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان.

6 - العلو للعلي الغفار، تحقيق أبو محمد أشرف بن عبدالمقصود، الناشر: مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة الأولى.

أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي،

طبعة جديدة محققة الطبعة الاولى 1408 هـ - 1988 م.

أبو المحاسن بن تغربردي: النجوم الزاهرة.

السيوطي: طبقات الحفاظ.

الحنبلي: شذرات الذهب.

د/ عبد الرحمن رأفت الباشا: صور من حياة التابعيين.

محمد بدر الدين: سعيد بن المسيب.

تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح، طبقات
الفقهاء الشافعية، تحقيق محيي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية،
1992م، بيروت.

البلاذري: أنساب الأشراف.

الإمام أحمد بن حنبل: الزهد

أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب
العلمية - بيروت،

ابن عساكر: تاريخ ابن عساكر

اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان

أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية
الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت.

محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: 285هـ)، الكامل في اللغة
والأدب، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار الفكر العربي -
القاهرة، الطبعة الثالثة 1417 هـ - 1997 م،

ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم بشرح خمسين حديثاً من
جوامع الكلم، المحقق: ماهر ياسين فحل.

محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم، الفهرست، دار المعرفة - بيروت،

1398 - 1978.

ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، معجم البلدان، دار الفكر - بيروت.

محمد بن محمد أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، الطبعة الرابعة.
السلمي: طبقات الصوفية.

يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزي [654 - 742]، تهذيب الكمال مع حواشيه، المحقق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، 1400 - 1980

الحافظ الفقيه صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي الأنصاري اليمني، خلاصة تهذيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، الناشر مكتب المطبوعات الإسلامية/دار البشائر، مكان النشر حلب / بيروت، سنة النشر 1416 هـ.

اليافعي: روض الرياحين.

أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني ت: 852 هـ، تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، 1326 هـ.

ابن الشجري، الأمالي الشجرية.

ابن حمدون: التذكرة الحمدونية.

ابن عبد ربه، العقد الفريد.

أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، تحقيق: د. وداد القاضي، دار صادر - بيروت / لبنان - 1419 هـ - 999 م، الطبعة الرابعة.

محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: 285 هـ)، الكامل في اللغة

والأدب، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة: الطبعة الثالثة 1417 هـ - 1997م.

أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، الناشر دار الكتب العلمية، سنة النشر 1411 هـ - 1991م، بيروت.

أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1424 هـ - 2004 م الطبعة: الأولى.

كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة الثانية، - 1424 هـ - 2003 م.

أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق المحامي فوزي عطوي، دار صعب - بيروت، الطبعة الأولى، 1968.

هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، تحقيق د. أحمد سعد حمدان، الناشر: دار طيبة - الرياض، 1402.

أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى، نسب قريش، تحقيق ليفي بروفسال، دار المعارف - القاهرة.

أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، العلل ومعرفة الرجال، تحقيق وصي الله بن محمد عباس، المكتب الإسلامي، دار الخاني - بيروت، الرياض، الطبعة الأولى، 1408 - 1988.

ابن الكلبي: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الثالثة، - 1424 هـ - 2003 م.

محمد بن محمد العواجي، مرويات الإمام الزهري في المغازي،

الطبعة: الأولى 1425هـ/2004م.

الحسين بن مسعود البغوي، شرح السنة - للإمام البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - دمشق - بيروت، الطبعة: الثانية، - 1403هـ - 1983م،

الطرطوشي، سراج الملوك.

تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد (المتوفى: 702هـ)، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، المحقق: مصطفى شيخ مصطفى ومدرثر سندس، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الأولى 1426 هـ - 2005 م،

يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي [654 - 742]، تهذيب الكمال مع حواشيه، المحقق: د. بشار عواد معروف، نشر مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، 1400 - 1980، 392 / 5

العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي

أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، عقلاء المجانين.

- شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبهسي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، 1986.

الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة: الأولى، - 1418هـ - 1998م.

عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عثمان الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، تحقيق: عبد الرحيم مارديني، دار المحبة

دار آية - بيروت - دمشق - 2001 / 2002.

أبو بكر محمد بن الحسين بن عبدالله الاجري، أخلاق العلماء، تحقيق ومراجعة: إسماعيل بن محمد الأنصاري وعبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، الطبعة: 1398هـ - 1978م.

محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، 1397 - 1977.

أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي، الأمثال من الكتاب والسنة، تحقيق: د. السيد الجميلي، دار ابن زيدون - بيروت، الطبعة الأولى، 1985. محمد بن أحمد بن جميع الصيداوي أبو الحسين، معجم الشيوخ، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، مؤسسة الرسالة، دار الإيمان، مكان النشر بيروت، طرابلس، سنة النشر 1405.

محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، مشاهير علماء الأمصار، تحقيق: م. فلايشهر، دار الكتب العلمية - بيروت، - 1959. ابن أبي الدنيا، مجابو الدعوة.

محمد بن شاکر الکتبی، فوات الوفيات، المحقق: إحسان عباس، : دار صادر - بيروت.

ابن أبي الدنيا، الأولياء، المحقق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الأولى، 1413.

أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الخطيب، المنتخب من كتاب الزهد والرقائق، تحقيق د. عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، مكان النشر بيروت / لبنان، سنة النشر 1420هـ - 2000م.

عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، التوايين، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دار الكتب العلمية - بيروت، 1403 -

1983.

أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الظراف والمتماجنين، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجاني، دار ابن حزم - بيروت - 1997م.

ابن الملقن، طبقات الأولياء.

بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى 1418هـ - 1998م.

محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة: الثانية، - 1423 هـ - 2002 م.

أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1424 هـ - 2004 م.

بلوغ الأرب بتقريب كتاب الشعب، (تهذيب لكتاب شعب الإيمان للبيهقي)، هذبه: محمد خلف سلامة.

أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة الأولى - 1424 هـ 2003 م.

المشتولي، سلوة الأحزان للاجتنااب عن مجالسة الأحداث والنسوان.
أبو الحسين بن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، المحقق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة - بيروت.

أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد الأزدي، طبقات الصوفية، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب

العلمية، بيروت، 1419هـ - 1998م.

إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ.

ابن الكلبي، أنساب الخيل.

الثعالبي، اللطف واللطائف.

الصولي، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم.

أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق.

أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت.

كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الثانية 1424 هـ - 2003 م.

عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبو محمد الرازي التميمي، الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، 1271 - 1952.

أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: د. إحسان عباس ود. عبد المجيد عابدين، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثالثة، 1983.

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الأولى 1424 هـ - 2004 م.

محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، 1397 - 1977.

ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس.

- عائض القرني، سلسلة دروس القم لأهل الهمم الصوتية.
- الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي: أصول مذهب الإمام أحمد.
- عبد الحليم الجندي: أحمد بن حنبل إمام أهل السنة.
- أحمد عبد الجواد الدومي: أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا.
- ولتر م. باتون: أحمد بن حنبل والمحنة، ترجمة عبد العزيز عبد الحق.
- أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي: الفتح الرباني وشرحه بلوغ الأمان.
- ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد.
- عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، أحمد بن حنبل، مجلة البحوث الإسلامية.
- طه جابر فياض العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام.
- محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، 1397 - 1977.
- أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي، معجم السفر، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، المكتبة التجارية - مكة المكرمة.
- الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر.
- محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الثانية، 1423 هـ - 2002 م.
- إبراهيم بن إسحاق الحربي، رسالة في أن القرآن غير مخلوق، تحقيق: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل، دار العاصمة - الرياض، الطبعة الأولى، 1995.
- ابن كنان، يوميات شامية.
- الإمام النووي، تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق مكتب البحوث

والدراسات في دار الفكر، دار النشر دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى سنة النشر 1996.

سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1423هـ.

الوطواط، غرر الخصائص الواضحة.

عبد الله بن عبد المحسن التركي، مجمل اعتقاد أئمة السلف، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، 1417هـ.

اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم.

زَيْنُ الْعَابِدِينَ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ نُجَيْمٍ (926 - 970هـ)، الْأَشْبَاهُ وَالنَّظَائِرُ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1400هـ - 1980م.

القاضي أبي عبد الله حسين بن علي الصيمري، أخبار أبي حنيفة وأصحابه، عالم الكتب، سنة النشر 1405هـ - 1985م.

التقي الغزي، الطبقات السنية في تراجم الحنفية.

أبي الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية.

الصفدي، صرة الثائر على المثل السائر.

محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين دراسة وتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة، 1388هـ/1968م.

أبو البركات بدر الدين محمد بن محمد الغزي، المراح في المزاح،

تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم - بيروت - 1418 هـ - 1977م.

أبو الفواء الحلبي الطرابلسي، الكشف الحثيث، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 221/1.

أبو الحسن الماوردي:

1 - الأحكام السلطانية والولايات الدينية.

2 - أدب الدنيا والدين.

الوشاء: الموشى.

ابن الأبار، إعتاب الكتاب.

أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1418 هـ - 1998 م

أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي، تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة - بيروت / لبنان - 1403 هـ - 1983م.

المرزباني، نور القبس.

أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، الناشر: المكتب التجاري - بيروت.

أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين.

العبدلكاني الزوزني، حماسة الظرفاء.

أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري: لباب الآداب، دار الكتب العلمية - تحقيق أحمد حسن لبج الطبعة الأولى،

بيروت / لبنان - 1417 هـ - 1997 م.

* * *

الفهرس

الفهرس

أعلام الفقهاء

الفهرس

3	المقدمة
11	أهمية الفقه والفقهاء
19	الإمام الأوزاعي
22	مواقف من حياة الأوزاعي
22	فاطلب فضيلة الآخرة فقد فرغك لها
23	وأبيه لقد حدثكم فأحسن
23	دع لأهل البصرة خصلتين
23	كسالى ينامون تحت شجرة كمثرى
23	كيف رأيت صنع الله؟!
24	نعم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلحن
24	يا بن أخي لك ولأصحابك، لا للحمالين
24	اللحوق بمن يرجى خيره خير من البقاء مع من لا يؤمن شره
24	بطون علماء السوء أنتن مما أنتن فيه
24	فمع من تريد أن تكون؟
25	فكيف بمن يسفك دماء المسلمين؟
26	سيئة غطت على حسنتين!
27	فقطعه ومات
28	اسم امرأة إبليس
28	لأبشرنك يا علي، بها تبشر أمتي من بعدي
29	وبمثلته يعاقب المجرم
29	إن كانت لهم حلالاً فهي عليكم حرام
30	لا تقل ذلك
30	أنت مستقتل لا يحل لأحد أن يصحبك

- 30 إن شئت رددت الجرة وكتبت لك.
- 31 واحدة بأخرى والبادي أظلم.
- 31 من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض.
- 31 بين الأوزاعي والخليفة المنصور.
- 33 الطريق للشيخ.
- 33 مثل الشياطين في كثرتهم.
- 33 رأيت رب العزة في المنام.
- 34 فأني نعمة من نعم الله عليك تحمده عليها؟!.
- 36 كلنا قد هداه الله.
- 37 من كلام الأوزاعي.
- 39 من مواعظ الأوزاعي.
- 40 رسالته إلى المهدي في شفاعة لقوم.
- رسالة الأوزاعي إلى وزير الخليفة أبي عبيد الله في كتاب من الخليفة بتخليه
- 41 محبوس.
- رسالة الأوزاعي إلى المهدي بن أمير المؤمنين في شفاعة لأهل مكة في
- 42 تقويتهم.
- 44 رسالة الأوزاعي إلى أمير المؤمنين شفاعة في زيادة أرزاق أهل الساحل....
- 45 رسالة الأوزاعي إلى عبد الله بن محمد أمير المؤمنين يعظه.
- 47 رسالة الأوزاعي إلى سليمان بن مجالد.
- 48 رسالة الأوزاعي إلى عيسى بن علي.
- 49 رسالة الأوزاعي إلى أبي بلج.
- 50 رسالة الأوزاعي إلى أبي عبيد الله وزير الخليفة.
- 54 الإمام أحمد بن حنبل.
- 70 مواقف من حياة الإمام أحمد.
- 70 فانظر هل لهذين من خلف أو عوض؟.

- 71 إذا أردت أن تتفقه فتعال فخذ بركابه من الجانب الآخر.
- 71 ففيه يقول الشافعي.
- 71 إمام عالم من قریش.
- 71 رجلاً لم تر عيناك مثله.
- 71 إذا كان صحيحاً.
- 73 بين أحمد بن حنبل ومالك.
- 73 وما ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك.
- 74 كثر بكأوك الليلة فما السبب؟
- 74 رجل صالح ابتلي فينا فما نعمل؟!.
- 75 يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك.
- 76 ألزم التقوى قلبك.
- 77 يا أبت ما هذا الكتاب؟
- 77 علي قاسم الجنة والنار.
- 78 حتى أنتفع به كما انتفعت.
- 78 ولكن قل علي رقيب.
- 79 أنت وأبوك في طرفي نقيض.
- 79 ولم صاراً أحمقين؟.
- 79 الطعام كان من غيب الله.
- 80 أفتحله لنا أم تحرمة علينا؟.
- 81 يؤكل الطعام لثلاث.
- 81 هذا الحديث يكفيني.
- 81 من غير بيت بشر.
- 81 لا يزيد على قوله اللهم اغفر للمعتصم.
- 83 هذه مشية الخدام في دار السلام.
- 85 اللهم يا رب كل شيء بقدرتك على كل شيء.

- 85 إن كنت تعلم أني على صواب فلا تهتك ستري.
- 86 من أنت؟
- 86 رأيت النبي ﷺ في المنام.
- 86 فأفاضه على سائر جسده.
- 87 والله لرفسنته لي أحب إليّ من سفرتي.
- 87 فاتهمه على الإسلام.
- 88 لا حتى أموت.
- 88 متى يجد العبد طعم الراحة؟
- 88 إنما تحفة المؤمن حفرته.
- 88 العلم خزائن يقسم الله لمن أحب.
- 89 لو أن للذنوب ريحاً ما جلس إلي منكم أحد.
- 89 ولعنتي تبلغ السابع من الولد.
- 89 من كلام الإمام أحمد.
- 95 رسالة الإمام أحمد إلى الخليفة المتوكل في مسألة القرآن.
- 104 الإمام الشافعي.
- 108 شيوخ الشافعي.
- 109 تلاميذ الشافعي.
- 110 من أبرز تلاميذ الشيخ الشافعي.
- 113 مكانته العلمية.
- 113 أصول المذهب الشافعي.
- 114 أصول المذهب.
- 118 مواقف من حياة الشافعي.
- 118 الشافعي ومحمد بن الحسن.
- 118 مالك والشافعي.
- 119 هذا أفضل فتیان زمانه.

119	أدعو الله للشافعي حتى في صلاتي.....
119	كالشمس للدنيا.....
119	أما يستحيي أبوك مما يفعل؟.....
120	ففيه يقول الشافعي وحجته أثبت.....
120	ادفع إليه الدنانير التي معك.....
121	امعك من نفقتنا شيء؟.....
121	تشهوا ما أحببتم.....
121	فلا تطفئه بالمعصية.....
121	اتق الله واجتنب المعاصي.....
121	يجب أن تكون قاضياً.....
122	قلت من رهطك.....
122	يا رسول الله بقول من آخذ.....
122	فحمل كتبي فبثها في الهواء.....
122	ما فعل الله بك؟.....
123	ليس ثم أكبر منه.....
123	إن كان منكم فلم تغلبوا وإن كان عليكم فتأهبوه.....
123	رحلة الشافعي في طلب العلم.....
128	مناظرة إسحاق بن راهويه مع الشافعي رضي الله عنه.....
131	كيف أصبحت؟.....
131	رضا الناس غاية لا تدرك.....
131	ليس هذا من كيسكم.....
132	وكان في السفرة دجاجتان.....
132	على الرأس والعينين.....
132	فالقول ما قال رسول الله ﷺ.....
132	ورأيت الجسد الآخر بالسوق ذاهباً وراجعاً.....

- 133 ثلاثة تضني
- 133 الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها
- 134 رأيت بالمدينة أربع عجائب
- 134 أهون من اعتذار إلى صديق يشوبه الكذب
- 135 هذا جزاء من سب آل رسول الله ﷺ
- 136 هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة
- 136 إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء
- 137 شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات تدع علمه، وتتكلف علم الخالق؟
- 137 من كلام الشافعي
- 145 من شعر الحكمة للشافعي
- 145 هذه هي الدنيا
- 145 دعوة إلى التنقل والترحال
- 146 الضرب في الأرض
- 146 آداب التعلم
- 146 متى يكون السكوت من ذهب
- 146 عدو يتمنى الموت للشافعي
- 146 لا تيأسن من لطف ربك
- 147 فوائد الأسفار
- 147 الوحدة خير من جليس السوء
- 147 أدب المناظرة
- 147 العلم مغرس كل فخر
- 147 نور الله لا يهدى لعاص
- 147 لمن نعطي رأينا
- 148 الذل في الطمع
- 148 الحب الصادق

148	 فضل التغرب
148	 أيهما ألد؟
148	 مشاعر الغريب
148	 التوكل على الله
149	 العلم رفيق نافع
149	 تول أمورك بنفسك
149	 فتنة عظيمة
149	 دعوة إلى التعلم
149	 إدراك الحكمة ونيل العلم
149	 أبواب الملوك
150	 المهلكات الثلاث
150	 العلم بين المنح والمنع
150	 العيب فينا
150	 يا واعظ الناس عما أنت فاعله
150	 الصديق الصدوق
151	 ومن شعر الشافعي
151	 من شعر الشافعي، وهو
151	 من شعر الشافعي
151	 ومن شعر الشافعي
152	 وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه
152	 روي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه
152	 ومن شعره
152	 و قول الإمام الشافعي
152	 وقال الإمام الشافعي
153	 وقال الإمام الشافعي

153	وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى.....
153	وما أحسن قول الإمام الشافعي رضي الله عنه.....
154	وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه.....
154	ومن شعر الإمام الشافعي.....
154	ومن شعر الإمام الشافعي.....
158	الإمام أبو حنيفة.....
162	منزلته العلمية ومصادر علمه.....
171	المذهب الحنفي وانتشاره.....
172	مواقف من حياة الإمام أبو حنيفة.....
172	تزييت قبل أن تحصرم.....
173	من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه.....
173	خدعتني امرأة وفقهتني امرأة وزهدتني امرأة.....
173	لا أرجو الجنة ولا أخاف النار.....
174	لا أجيبكم بشيء.....
174	أول مسألة خالف فيها أستاذه.....
174	جارية لها غلام.....
174	حكاية النسوة يغنين.....
175	حكاية الأخنتين والأخوين وإفتاء الإمام.....
175	كلب الروم والمسائل الثلاث.....
176	وصية الإمام الأعظم لأبي يوسف رحمه الله.....
182	أبو حنيفة ومالك.....
184	عجزت النساء أن يلدن مثلك.....
185	فكيف أصنع إذا تبين الخطأ.....
185	ولو وزن عقله بعقل نصف أهل الأرض في الفقه لرجحهم إن شاء الله.....
186	تحسن كل شيء.....

- 186 إن السلطان الأعظم لا يأمر بقتل من لا يستحق القتل
- 186 الله الله لا يسمعون بهذا فلا آخذ منهم شيئاً
- 187 فأعطوني منها ديناراً واحداً
- 187 قال لا وانصرف من وقته
- 189 رجل فما فوقه يا أبا حنيفة
- 189 هذا حسن
- 190 كلنا عنه غافل
- 190 هذا رزين
- 191 هو والله من أولياء الله حقاً
- 191 اشكر الله الذي رده عليك
- 192 فهلاً أتممت ليلتك شكراً لله تعالى
- 192 حتى يحضر ما هو أجل من هذا
- 193 قال فأجمعوا كل داعر وكل متهم
- 193 ما تقول في عبد بين اثنين؟
- 193 ذكر ما روي من أخبار أبي حنيفة مع المنصور
- 194 والله لو ضرب عنقي عن أن أمس منها درهماً ما مسسته
- 195 انصرف إلى بلادك ولا تقتل الناس
- 195 أراد الرجل أن يرهقنا فأرهقناه
- 196 لم أدعكم إلا لخير
- 196 لقد شح على دينه إذ سخت به أنفس أقوام كثيرة
- 197 أخبار أبي حنيفة مع سفيان الثوري
- 197 إن رخصتنا بالكوفة لا تقبل بالمدينة
- 198 فلم يرجع سفيان بعد ذلك
- 198 وددت أنها كلها عندي مجتمعة أنظر فيها
- 198 حتى نسخه

199	أرجو أن يغفر الله تعالى لك ذلك.....
199	المسكين قد شيخ بعدي.....
200	يرحم الله أباك.....
200	هو حديث السن والأحداث لهم حدة.....
200	أخبار أبي حنيفة مع الشعبي ومحارب بن دثار والأعمش.....
200	نصراني تزوج نصرانية فأسلمت.....
200	أقياس أنت.....
201	من هول ما يرى.....
201	والله لا أفتيت بذلك أبدا.....
202	لا تعد إلى مثلها.....
202	فنور الله قلبك كما نورت قلبي.....
203	بعض المسائل التي أجاب أبو حنيفة عنها.....
203	أبو حنيفة وجار له كان يغني بشعر العرجي.....
204	لا تفعل!.....
204	حبب إلي من دنياكم ثلاث.....
205	مجنون أنت؟.....
206	أخطأت في خمسة.....
206	أمومن أنت؟.....
207	أترغب حتى أسميك؟.....
208	لو ناظر الشيطان قطعه.....
208	لأي شيء استحللت دخول هذه البلدة وترويع النساء والصبيان؟.....
209	فإن كنت كاذباً فإني لا أصلح.....
209	إن كان ذاك مما ينفعكم فافعلوا.....
209	يا هذا، ليس للقرآن عندك قدر؟.....
209	أمكنك الهرب فلم تهرب.....

210	قل لغريمك إن المال عندي.....
210	يا أبا يوسف من كان صاحب راية طالوت؟.....
211	متى ذهب بصرك يا أبا حنيفة؟.....
211	ما ينبغي لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا.....
211	قوموا فما لكم هنا من فرج.....
211	فتوى أبي حنيفة.....
212	لا تتعرض لأبي حنيفة.....
212	بخمسة دراهم.....
213	تلذذ العلماء بعلمهم.....
214	أفيسرك أن أمك مغنية؟.....
214	بتحليل أبي حنيفة؟.....
214	قص الشعرات البيض.....
214	ضلت مقاليدك يا أبا حنيفة.....
215	الآن يمد أبو حنيفة رجله!.....
215	من كلام الإمام أبو حنيفة.....
221	الإمام مالك.....
227	مواقف من حياة الإمام مالك.....
227	أحمد بن حنبل ومالك.....
227	وأظنك صاحب بدعة.....
228	وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر.....
228	ما تصنعون بربيعة وهو نائم؟.....
228	فتوى لم توافق غرض السلطان.....
229	وليتني لم أفت بالرأي.....
229	نسب المرء داره.....
229	فلا أؤثر الدنيا على مدينة الرسول ■.....

- 230 إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيه نبي الله ﷺ بحافر دابة.
- 231 والعلم يؤتى ولا يأتي.
- 231 عسى أن يعلموا أي عمل وقع لوجه الله تعالى.
- 231 ما أشكل عليك فاسأله عن مالك بن أنس.
- 231 ورأيت مالكا قائما بين يديه.
- 232 مالك وارث سريري.
- 232 اقتلوا هذا الزنديق.
- 232 فافهم.
- 233 أفلا ينبغي لي أن أعزه وأجله؟
- 234 ما ظننت أن أهل العلم يتكلمون بمثل هذا.
- 234 خذ بيد سيدك إليك.
- 238 أطع أباك ولا تعص أمك.
- 239 يا غلام من أين لك هذا؟
- 240 من كلام الإمام مالك.
- 243 رسالة الليث بن سعد إلى الإمام مالك.
- 250 الفقيه القاضي شريك بن عبد الله.
- 251 مواقف من حياته.
- 251 هكذا يطلب العلم.
- 251 اقض علي وعلى ولدي.
- 252 تشدد شريك بن عبد الله في إحقاق الحق.
- 254 لا بد للناس من قاضي.
- 254 إذا شئت فعد.
- 255 مثل هذا يطا بساط أمير المؤمنين؟
- 255 لا بأس به.
- 255 أهل الحديث أشد صيانة للحديث من أن يعرضوه للتكذيب.

256	 ما ظننت أنني أبقي حتى أرى في الدنيا مثلك
256	 يا غلام اضمن ثمن العود
256	 ولو أخذوا بالحزم ما سمنوا الكلبا
257	 اذهب فلا حاجة لنا في معونتك
257	 زعموا أنك فاطمي
258	 ليس لي بأخ
258	 صاحبك الهم
258	 هم الملوك يعزلون ويخلعون
258	 يا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا ميدان لا نجاريك فيه
259	 وما يضر عالماً إن جهل جاهل
259	 لقد صدقت ولكن بنسما ولدوا
259	 إني لأظنك زنديقاً!
259	 ارجع فلا شهادة لك عندي
259	 فقد خون أصحاب مُحَمَّد ﷺ
260	 ضع قلمنا والحق بأهلك
260	 إنما كان يغضب مما يرد عليه مما لا يعرف الجواب فيه
260	 فكلمه يحبسني
260	 أفت بهذا أهل دار بلال
261	 ما تقول في التعزية عند القبر
261	 بلغك أنني مأوى الضالة!
261	 بأي شيء تستحل رد شهادتنا؟
261	 أراد أن يخطئ فأصاب
261	 من أعز أمر الله أعزه
262	 وليس لنا أن نتقدمك
263	 تلقى من يحج من النساء؟

- 263 هكذا يطلب العلم.
- 264 ما ينبغي أن تقلد الحكم بين المسلمين.
- 265 شرب نبيذاً ثم لا يدري أطلق امرأته أم لا، وحكم ذلك.
- 265 قل إن شاء الله.
- 266 وانطرد معهم.
- 266 فعلم شريك أنه قد وجب عليه.
- 266 من كلامه رحمه الله.
- 271 القاضي أبو يوسف صاحب أبي حنيفة.
- 275 مواقف من حياته.
- 276 لو أن فيك موضع أدب لأوقعتك.
- 276 أبو يوسف القاضي يأكل اللوزينج بالفتق.
- 277 فاردد البستان عليه.
- 277 يا بني هذا الأعرور سيد.
- 277 والله لأملأن ظهره وبطنه بالسياط.
- 278 فكنا نأتيه وكان لنا مدرساً.
- 278 إن أفتيته بترك النافلة يفتي الناس بترك الفريضة.
- 278 وواحد فيه شك فيشاطرانه.
- 279 فاشتر سفينه فهي جارية.
- 279 فأجازه بجائزة عظيمة وكناه بأبي المفرج.
- 280 وأبو يوسف مركوب العرب.
- 280 كأنك لا تحسن شيئاً إلا هذا.
- 281 فإن لم تغرب الشمس إلى نصف الليل؟
- 281 لعمرى إن العلم لينفع دنيا وديناً.
- 282 أبو يوسف وهارون الرشيد.
- 283 من كان صاحب راية جالوت؟

- 283 هل وقفت على شيء من خطأ؟
- 283 لا تطمع في رئاسة ببلدة فيها أبو يوسف
- 284 لم لا تركبه
- 284 أظننا روعناك
- 286 ذاك حين كانت الهدايا اللبن والتمر
- 286 هذا لا يعزل أبداً
- 287 صح ستره وخلصت أمانته
- 287 تزبيت قبل أن تحصرم
- 288 من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه
- 288 ستصير قمرًا
- 289 يضرب بأصحابه الأمثال
- 290 يا قاتل المسلم بالكافر
- 290 ولم أسو بينه وبين الخصم في المجلس
- 291 فندم أبو يوسف على كلامه
- 293 تدري من خلف هذا الستر؟
- 294 هذا نذير الكلاب!
- 294 أبشر يا أمير المؤمنين بالثواب الجزيل
- 296 هذا لم يكن في الصلاة إنما كان في الصيد
- 297 أنا لا أحكم على غائب
- 297 وقد كنت في بيتي والدروب مغلقة، فحين دعاني فتحت
- 297 أنت طالق أن دخلت الدار؟
- 297 نعم القاضي قاضي جبل
- 298 لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكي
- 298 لو كنت فقيهاً لما تكلمت في الصلاة
- 299 لله دركم يا أصحاب أبي حنيفة، من ذا يقاومكم؟

299	 من كلامه.
308	 العلامة ابن حزم الأندلسي
315	 مؤلفاته في الطب
316	 مواقف من حياته
316	 منابر الذهب والفضة
316	 من كلامه
337	 شعر ابن حزم
339	 ومن روائع شعر الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى
344	 الفقيه المجاهد أسد بن الفرات
346	 مواقف من حياته
346	 فندخل عليه إخواناً ونخرج أعداء
346	 ما أعطاك الله من إنصافك الناس
347	 إنما أخذنا بعض حقوقنا
351	 الفقيه سحنون بن سعيد
356	 مواقف من حياته
356	 لا أدري فيما يدري
356	 حم الغلام البارحة
356	 مت إذا شئت
356	 كبرنا وساءت أخلاقنا
357	 كأن سحنوناً يبني الكعبة
357	 هل الفتيا إلا القضاء؟
357	 جئت اليوم ولم أسمع منك شيئاً
357	 بجرّاً لا تكدره الدلاء
357	 الحمد لله، الذي لم يجمع حبي وبغض أبي بكر وعمر في قلب واحد
358	 ليس هم سكانها

358	فرايت أن أصبر
358	من جراك على
359	هيهات يا بن أخي
359	من كلامه رحمه الله
366	أقضى القضاة الماوردي
370	الموردي والجواري يلبسن الشعر
372	مكتوبًا على النعال والخفاف
372	كتاب المنصور
372	خطوط العلماء في الأغلب رديئة
373	لا يسأل عنهما إلا علماء الدين
373	من كلامه رحمه الله
379	رجاء بن حيوة
381	مواقف من حياته
381	هذا زمانك
385	إنك قد ابتليت بهذا وابتلي بك
385	فإننا نكره أن نسمع الخير إلا من أهله
385	احذروا صاحب الكساء
386	إن أولئك الذين تريد قد ذهبوا
386	لأنني نظرت للعامة ولم أنظر له
386	استخلاف عمر بن عبد العزيز
388	لأطلبن بها شرف الآخرة
390	وجوهًا كرامًا ليست بوجوه إنس ولا جان
390	ما أحب الله من عفوك عنه
391	مري السبع فليواسين الثامنة
391	الخير سريع الذهاب

- 392 أفضها يا أمير المؤمنين
- 392 السخي لا تؤدبه التجارب
- 392 من كلامه رحمه الله
- 396 الفقيه مكحول الشامي
- 397 مواقف من حياته رحمه الله
- 397 خير من البقاء مع من لا يؤمن شره
- 397 ومن لا يحب الجنة!
- 397 فاطلب بما بطن من علم الإسلام محبة وزلفى
- 397 أتراك مرابطا العام؟
- 397 الوضوء بركة
- 397 عن أخذت هذا؟
- 398 الآن نعظ ويسمع منا
- 398 هذا إبليس يرجو رحمة الله
- 398 فحرمت البكاء سنة
- 398 يتعلم التواضع
- 399 انصحننا رحمك الله
- 399 لو أن سليمان بن داود عندي
- 400 من كلامه رحمه الله
- 408 محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله عليه
- 410 مواقف من حياته رحمه الله
- 411 فلا تباع السنة
- 411 والله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع الموت علي
- 412 لا تسألوني حاجة من حوائج الدنيا
- 412 وإنما كان أبوه طبالا بالمدينة
- 414 بيني وبين النور ستر فارتفع عني

- 414 قال ذاك في أعلى عليين.
- 419 داود الطائي.
- 421 مواقف من حياته رحمه الله.
- 421 لا ذاق داود تمرًا ما دام في الدنيا.
- 421 فكان في اعتزالي أكثر العافية.
- 421 لقد هان الخلق على داود.
- 422 وهي تريد الجنة غدًا.
- 422 كان لنا عند الله مذخورًا.
- 422 أقل من إتياني.
- 423 ولما شبت صرت مرائبًا.
- 423 وأنا أستحي من الله.
- 423 ادعه حتى أشتهيه.
- 423 تلك ضالة لا توجد.
- 423 كنت أخاصم نفسي.
- 424 إن في قبولهما عتق رقبان من الرق.
- 424 فما أبقيت لآخرتي.
- 424 فإني أحب أن أرزق وقتًا من الليل.
- 425 إنما يفعل هذا بالصبيان.
- 425 رأيت خيرها كثيرًا.
- 425 هذا إن قبلك.
- 425 ولكن أحب أن أعيش في عز القناعة.
- 426 ثم صاروا يراؤن بما لا يقولون ولا يفعلون.
- 426 أردت أن تخدعني؟
- 426 إنما طلقت نفسي من هذه الشهوات.
- 427 اغتبت رجلا في هذا الموضع.

- 427 ما شعرت بذلك!!
- 428 لعل تركه أن يكون أنجى.
- 428 ما يوقفك هنا؟
- 428 من كلامه رحمه الله.
- 436 سيد الفقهاء البويطي.
- 439 مواقف من حياته رحمه الله.
- 439 ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف.
- 440 أنت تموت في الحديد.
- 440 هذا لساني.
- 441 لعل الله يخلصني بدعائهم.
- 441 اللهم إنك تعلم أنني قد أحببت داعيك فمنعوني.
- 441 من كلامه رحمه الله.
- 444 الإمام المفسر الفقيه مجاهد بن جبر.
- 447 مواقف من حياته رحمه الله.
- 447 إنك ضيق الخلق.
- 447 أهلك نفسك وأهلكتني.
- 447 يؤتى بثلاثة نفر يوم القيامة.
- 448 ذهبوا وبقيت أعمالهم.
- 448 إني لا أحب الظلم.
- 448 وقد أتاك رسول يقطع أثرك من الدنيا.
- 448 خلوا سبيله.
- 449 الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها.
- 449 أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة.
- 450 من كلامه رحمه الله.
- 465 الإمام الحافظ الليث بن سعد.

465	 طلبه للعلم
466	 مكانته العلمية
467	 مناقبه وفضائله
469	 ثناء العلماء عليه
470	 مواقف من حياته
471	 وفاته
475	 الإمام الفقيه الطبري
476	 مؤلفات الطبري
478	 أسلوبه في التأليف
478	 ثناء العلماء عليه
479	 مواقف من حياته
481	 وفاته
482	 حقيقة تشيع الطبري!!
494	 الفقيه القاضي شريح الكندي
496	 مواقف من حياته رحمه الله
496	 اذهب فأنت من أفضل الناس
496	 رأيت رجالاً يضربون نساءهم
497	 ولولا الأمانة في المشورة لوددت أنه قطع يده
497	 وأنت وإياهم لعل بساط واحد
497	 جاءوا أباهم عشاء يبكون
498	 أكان مؤمناً!
498	 فإنهن النساء
500	 أحسنت
500	 ما الذي أحدثت في القضاء؟
500	 قد علمت من أين أتيت

- 500 بل سنتكم بينكم.
- 500 لا حبس عن فرائض الله.
- 500 بل هو ولد هرتي.
- 501 هو الذي أخرجها.
- 501 فأحمد الله عليها أربع مرات.
- 501 إنه ابنهما يرثهما ويرثانه.
- 501 أفي كتاب الله وجدت هذا أو في سنة رسول الله ﷺ؟
- 502 قص فمثلك يقص.
- 502 هذا خبر ما عندنا.
- 502 عمن أخذت هذه القصة؟
- 503 أما كان من رقعة تستر بها وجهك؟
- 503 أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة؟
- 504 لئن رأيت أنني لا أخطيء لبئس ما رأيت.
- 504 وما كان منذ أسكن أسكن منه الليلة.
- 505 أنت رجل تعرف نعمة الله على غيرك وتنساها من نفسك.
- 505 لا نسب أموات قريش ولا نعصي أحيائها.
- 505 أما كنتم فاعلين؟
- 506 إياك والحنانة، إياك والمنانة، إياك والأنانة.
- 506 ألا أعلمتها الرجعة كما أعلمتها الطلاق؟
- 507 لم ترون ذلك؟
- 507 وأين ربح مثله؟
- 507 كيف رأيت؟
- 507 ذاك أحرى ألا تكون ظالمًا.
- 507 إنهما قد اجتمعا على ألف.
- 508 أدخلوها دارًا لها بابان.

508	 اذهبي فدا عبيه
508	 قول شريح في الجراد
508	 لم تثبت عليه الضرب؟
509	 تركته يأمر وينهي
509	 أحب الأشياء إليه الخبز واللحم؟
509	 لا خير فيها إذن!
509	 وعد خيرًا
510	 هل رأيت البرق قط؟
510	 ما كنت أرى أن أحدًا هكذا بقي
510	 انج بنفسك
510	 من هم يا أبا أمية؟
511	 فعلى من قضيت؟
511	 من كلامه رحمه الله
514	 ومن شعره رحمه الله
520	 الخاتمة
524	 المصادر والمراجع
539	 الفهرس

* * *

المؤلف في سطور

الدكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت

ولد في محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية عام (1393هـ / 1973م).

حصل على ليسانس الآداب من جامعة طنطا (تخصص تاريخ) في عام 1996 م.

حصل على دبلوم الدراسات العليا (تخصص تاريخ وحضارة إسلامية) عام 1997م.

نال درجة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية (تخصص آسيا الوسطى والقوقاز) من جامعة طنطا - كلية الآداب - عام 2001 م.

نال درجة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية (تخصص آسيا الوسطى والقوقاز) من جامعة عين شمس - كلية الآداب - عام 2006 م.

* * *

أهم أعمال المؤلف

م	عنوان الكتاب	دار النشر
1	تاريخ دولة المماليك	دار الإيمان بالمنصورة
2	تاريخ الدولة الأيوبية	دار الإيمان بالمنصورة
3	الشيعه... التاريخ الكامل	دار الإيمان بالمنصورة
4	تاريخ المغول	دار الإيمان بالمنصورة
5	تاريخ الإسلام في الأندلس	دار الإيمان بالمنصورة
6	الفتح الإسلامي لبلاد القوقاز	دار العلم والإيمان
7	الفتح الإسلامي لأذربيجان	دار العلم والإيمان
8	معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي	دار الإيمان بالمنصورة
9	سلاح المؤمن (الذكر والدعاء)	دار الإيمان بالمنصورة
10	شهداء العلماء	دار الإيمان بالمنصورة
11	فاعتبروا يا أولي الأبصار	دار الإيمان بالمنصورة
12	الظالمون في الدنيا وكيف كان نهايتهم	دار الإيمان بالمنصورة
13	ماذا يعني حب النبي صلى الله عليه وسلم؟	دار العلم والإيمان
14	مطالب الظالمين في الآخرة	دار الإيمان بالإسكندرية
15	مختصر سير أعلام النبلاء	دار الإيمان بالمنصورة
16	مختصر تاريخ الإسلام للذهبي	دار الإيمان بالمنصورة
17	مختصر المنتظم لابن الجوزي	دار الإيمان بالمنصورة
18	مختصر الطبقات الكبرى لابن سعد	دار الإيمان بالمنصورة
19	مختصر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة	دار الإيمان بالمنصورة
20	مختصر السلوك في معرفة دول الملوك	دار الإيمان بالمنصورة

21	مختصر نفح الطيب للمقري	دار الإيمان بالمنصورة
22	ألف حكمة وحكمة من حكم الحكماء ومواعظ الصالحين	دار الإيمان بالمنصورة
23	1000 قصة من حياة الأئمة الأربعة	دار الإيمان بالإسكندرية
24	قصص ونوادر الأنام في الرؤى والأحلام	دار الإيمان بالمنصورة
25	قصص ونوادر من حياة الطفيليين والبلاغيين والنحاة	دار الإيمان بالمنصورة
26	قصص ونوادر من حياة البخلاء	دار الإيمان بالإسكندرية (تحت الطبع)
27	مختصر تاريخ الطبري	دار الإيمان بالمنصورة
28	مختصر وفيات الأعيان لابن خلكان	دار الإيمان بالمنصورة
29	من مشاهير أعلام المسلمين	دار الإيمان بالمنصورة
30	أعلام التابعين	دار الإيمان بالمنصورة
31	أعلام الفقهاء	دار الإيمان بالمنصورة

* * *

